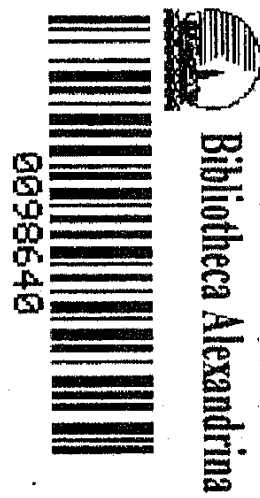


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

تكملة



دار
الكتاب
والثقافة



الأعمال الأدبية الكاملة
الطبعة الأولى ١٩٤٢ م

دوستوييفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

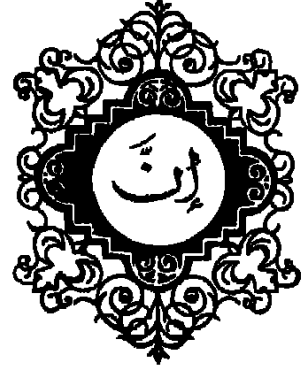
الشياطين
٢

جميع الحقوق محفوظة

« الشياطين » (Biessy) ! نشرت هذه الرواية أول مرة في
مجلة «الرسول الروسي» فاجزاء الأول والثاني نشرنا سنة ١٨٧١ ، والجزء
الثالث نشر سنة ١٨٧٢ ،

الفصل السابع

عن جماعتنا



الدار التي يسكنها فرجنسكى في شارع النملة تملكها زوجته • هي مبنى من خشب لا يشتمل الا على طابق واحد • فليس هناك مستأجرون • وقد دعا فرجنسكى نحو خمسة عشر شخصاً بحجة الحفلة • ولكن هذا الاجتماع لا يشبه في شيء السهرات التي تقام في هذه المناسبات بالأقاليم • لقد انفق الزوجان مرة واحدة الى الأبد ، منذ بداية حياتهما الزوجية ، على أن الاحتفال بأعياد الميلاد أمر سخيف ، « اذ لا شيء يبعث على البهجة » • وقد استطاعا في بضع سنين أن ينعزلا انعزالا تاما عن كل مجتمع • وأصبح الناس يعدونه ، رغم أنه رجل موهوب ورغم أنه ينعم ببعض الثراء ، أصبحوا يعدونه امرءاً شاذاً يحب العزلة ، وقالوا عنه ، عدا ذلك ، انه « يعبر عن نفسه بتكبر » • أما السيدة فرجنسكى التي كانت تمارس مهنة التوليد ، فانها بسبب هذه المهنة كانت توضع في أدنى درجات السلم الاجتماعي ، رغم المنصب الذي يشغله زوجها في الادارة • غير أنها كانت لا تتصف بالمذلة التي تناسب وضعها ؛ وقد أصبحت سيداتنا جميعهن منذ أن انعقدت تلك العلاقة الحمقاء النكراء بين السيدة فرجنسكى والكابتن لبيادكين ، وهي علاقة حرصت السيدة فرجنسكى على أن تعلنها في كل مكان تقيداً بالمبدأ ، أقول أصبحت سيداتنا

جميعهن ، حتى أكثرهن تسامحاً ، يشحن عنها وجوههن ويدرن لها ظهورهن باحتقار واضح . غير أن السيدة فرجنسكى رضيت هذا كأنه هو بعينه ما كانت تنشده وتسعى إليه . ومع ذلك كانت هذه السيدات القاسيات تستنجد ، في اللحظات الهامة ، بآرينا بروخورفنا (أى السيدة فرجنسكى) ، ماوسعهن أن يفعلن هذا ، ويؤثرن على المولدات الثلاث الأخريات بالمدينة . وكانت نساء مالكي الأراضى فى المنطقة تعتمد على خدمات السيدة فرجنسكى فى كثير من الأحيان أيضا . فالى هذا الحد كانت الثقة كبيرة بعلمها وحظها ومهارتها فى الحالات الصعبة . وقد أصبحت فى النهاية لا تمارس المهنة الا من أجل الأثرياء ، لأنها كانت تحب الربح حباً شديداً . وكانت تشعر شعوراً كاملاً بما لها من سلطان ، فهى لا تتحرج أى تحرج ، وهى ترخى العنان لطبيعتها حراً طليقاً . فاذا كانت تقوم بواجبات مهنتها فى أحسن البيوت ، روتت النساء التى تولدهن ، وربما روتت عن عمد ، مظاهرة أشد الاحتقار للمواضع الاجتماعية ، أو مستهزئة « بأقدس » الأمور ، وذلك حتى فى اللحظة التى يمكن أن تكون فيها هذه « الأمور المقدسة » أنفع ما تكون . لقد روى أحد أطبائنا ، وهو نفسه مولد ، أن امرأة من النساء اللواتى تولدهن ، جاءها المخاض يوماً ، فكانت تعاني آلاماً شديدة ، فذكرت اسم الله العلى القدير ، فما كان من آرينا بروخوروفنا الا أن أطلقت مزحة متحللة على حين فجأة فنزلت المزحة على المرأة المسكينة نزول الصاعقة ، وأحدثت فيها من الروع والهول ما عجل خلاصها تعجيلاً كبيراً . على أن السيدة فرجنسكى ، رغم أنها عديمة المذهب ، تنقيد بأكثر العادات الاجتماعية بلى حين يكون فى ذلك نفع لها . من ذلك أنها لا تعفى نفسها أبداً من حضور حفلة تعميد الطفل الذى وُلد على يديها . وهى ترتدى لهذه المناسبات ثوباً من حرير أخضر طويل الذيل ، وتعقد شعرها فى مؤخرة الرأس كعكة معقدة ذات ضفائر وجدائل ، بينما هى فى العادة

تستطيب افعال هنادامها • ومع أنها طوال مدة الاحتفال الدينى تصطنع
وضعاً وقحاً يستثير رجال الدين ، فانها متى انتهى الاحتفال الدينى تحرص
على أن تقدم الشمبانيا للمدعوين بنفسها (وهى لهذا الغرض انما جاءت
وازيّنت) ، وويل لمن ينسى ، حين يقبل الكأس ، أن ينفخ المولدة
« بالهدية الصغيرة » •••

ان المدعوين الذين كانوا فى ذلك المساء عند فرجنسكى (وأكثرهم
رجال) يتظاهرون بأنهم اجتمعوا عرضاً ومصادفة • لم يكن ثمة عشاء ولا
موائد للعب • غير أن مائتين مغطاتين بغطاء غير نظيف جداً كاتتا قد ضُمتا
احدهما الى الأخرى فى وسط الصالون المفروشة جدرانها بورق أزرق
قديم ، وعليهما سماوران يعلو ماؤهما الى جانب صينية كبيرة محمّلة
خمسة وعشرين كأساً وسلّةً مملأى بقطع من خبز أبيض كالذى يُقدّم
فى المدارس الداخلية للبنات أو البنين • وكانت أخت ربة الدار هى التى
تصب الشاي ، وهى عانس فى نحو الثلاثين من العمر ليس لها حاجبان ،
وشعرها مصفرّ اللون ؟: انसानه صموت لا تتكلم ، ولا تضمر لأحد حياً ،
تعتنق الأفكار الجديدة ، ويخشها فرجنسكى نفسه فى سره • لم يكن
فى الصالون من النساء الا ثلاث : السيدة فرجنسكى ، وأختها ، وأخت
السيد فرجنسكى التى وصلت من بطرسبرج منذ هنيهة ولم يتسع وقتها بعد
حتى لتغير ملابسها •

ان آرينا بروخوروفنا ، المشعّثة الشعر ، التى ترتدى ثوباً من
صوف ضارب اللون الى خضرة ، سيدة مهية المظهر ، غير ديمة ، عمرها
سبعة وعشرون عاماً • انها تتأمل المدعوين بعينها الجريئتين وكأن نظرتها
تقول : « أترون ؟ لست أخشى أحداً » • أما الأنسة فرجنسكى ، أخت
السيد فرجنسكى ، وهى طالبة تؤمن بالمذهب العدمى ، فانها فتاة قصيرة
سمينة حمراء الخدين ليست بالديمة أيضاً • ولقد جلست الى جانب آرينا

بروخوروفنا ، وجعلت تُجيب على الحضور نظرة فلقة نافذة الصبر ، وفي يدها لفافة ورق . وكان فرجنسكى نفسه يهانى من ألم فى ذلك المساء . ومع ذلك جلس على مقعد أمام المائدة . وكان جميع الحضور جالسين . فاذا نظر الناظر الى الطريقة التى صُنِّت بها المقاعد أدرك أن الأمر أمر اجتماع (جلسة) . ولكن كان واضحاً مع ذلك أن المجتمعين ينتظرون شيئاً ما ، فهم من أجل مخادعة الانتظار انما يسترسلون فى محادثات صاخبة وان تكن تافهة . حتى اذا دخل ستافورجين وفرخوفسكى صمتوا جميعاً على حين فجأة .

ولكن يجب على أن أتوقف هنا لأقدم بعض الايضاحات .

أظن أن هؤلاء الناس ، وقد أُبلغوا من قبل ، انما اجتمعوا على أملٍ ممتع هو أن يعلموا ببعض الامور الهامة . انهم يمثلون زهرة الراديكالية الحمراء فى مدينتنا القديمة ، وقد كانت عناية فرجنسكى باختيارهم لهذه « الجلسة » عناية كبيرة . يجب أن أقول أيضاً أن عدداً منهم (هو قلة على كل حال) لم يكونوا قد جاءوا قبل ذلك اليوم الى عند فرجنسكى . وكان واضحاً أن أكثرهم لا يدرك هدف الاجتماع ادراكاً واضحاً . غير أنهم جميعاً ينتظرون الى بطرس ستيفانوفتش على أنه رسولٌ وقد من الخارج مزوداً بسلطات كاملة . ان هذه الفكرة التى ترضى غرورهم طبعاً كانت قد رسخت فى نفوسهم منذ البداية . ومع ذلك كان بعضهم قد تلقى تعليمات محدّدة من قبل . فان بطرس ستيفانوفتش قد استطاع فى الواقع أن يشكّل عندنا خلية من « خمسة » ، على غرار ما فعل فى موسكو ، وعلى غرار ما فعل أيضاً فى جيش اقليمنا كما عُلّم فيما بعد . ويظهر أنه أنشأ خلية رابعة فى ولاية س فهؤلاء الخمسة « المختارون » كانوا يجلسون فى ذلك الاجتماع الى المائدة المشتركة ، ويجيدون اصطناع هيئة أناس عاديين فلا يحزر المرء دورهم . لقد عُرِفَت الآن أسماؤهم فليست سرّاً : انهم ليوتين ،

وفرجنسكى ، وشيجالوف (ذو الأذنين الطويلتين ، وهو أخو السيدة فرجنسكى) وليامشين ، ورجل يقال له تولكاشنكو ، وهو انسان عجيب فى نحو الأربعين من العمر يقال انه يعرف الشعب معرفة رائمة ، ولاسيما قطاع الطريق والمصوص ، ويواظب على التردد الى الحانات (لا بهدف دراسة الشعب فقط) ويفتخر بملابسه الغليظة ، وحناءيه المطين بالقطران ، وهيته الماكرة ، وكلامه الشعبى العامى . لقد سبق أن اصطحبه ليامشين فى الماضى الى سهرات ستيفان تروفيموفتش مرة أو مرتين ، فلم يحدث فى الحضور كبير أثر . ولقد كان يعمل فى السكك الحديدية ، ويظهر فى مدينتنا من حين الى حين ، حين يصبح بغير عمل فى العادة . ان هؤلاء الأشخاص الخمسة قد شكلوا أول خلية ، مقتنعين بأنهم ليسوا الا خلية واحدة بين مئات الخلايا وألوف الخلايا المنتشرة فى روسيا كلها والمرتبطة جميعها بلجنة مركزية ، قوية سرية ، مرتبطة أوثق الارتباط ، أيضا ، بسائر الحركة الثورية فى أوروبا . يجب على أن أعترف مع ذلك أسفاً بأن هناك خلافاً قد بدأ يظهر بينهم . لقد كانوا منذ الربيع يعولون على وصول بطرس ستيفانوفتش الذى أبلغهم عن وصوله تولكاشنكو أولاً وشيجالوف بعد ذلك ؛ ورغم أنهم قد توقعوا منه أشياء خارقة وانتظموا تلبيةً لأول نداء صدر عنه دون أن يبدوا أى اعتراض ، فانهم ما ان تشكلت حلقتهم حتى شعروا جميعاً بأنهم قد أهينوا وأسىء اليهم ، وأغلب ظنى أن مرد ذلك الى شعورهم بأنهم تعجلوا فى الموافقة . ولا شك أنهم انما لبوا نداء فرخوفنسكى خشية أن لا يتهموا بعد ذلك بأنهم جنوا . ولكن كان فى وسع بطرس ستيفانوفتش، فيما يبدو لهم، أن يعترف لهم ببطولتهم، فيفضى اليهم بسرٍ خطير ما . وذلك مالم يفعله فرخوفنسكى . فانه لم يخطر بباله أن يرضى رغبتهم المشروعة هذه فى الاطلاع ، فلم يفض اليهم بأى سر . وكان على وجه العموم يعاملهم بصرامة قصوى ، بل يعاملهم

معاملة لا تخلو من الاحتقار • فكان ذلك يتسبب حنقهم ، حتى لقد كان شيخالوف يحض الآخرين على «المطالبة بايضاحات» • ولكن لا الآن طبعاً ، لا عند فرجنسكى حيث يضم الحفل كثيراً من الغرباء •

وعلى ذكر « الغرباء » يجب أن أشير الى فكرة تراودنى ، هى أن أعضاء الحلقة كانوا ميالين فى ذلك المساء الى الاعتقاد بأن مدعوى فرجنسكى لا بد أن يكون بينهم أفراد منضمون الى حلقات أخرى مجهولة عندهم لكنها تنتمى الى نفس التنظيم وقد شكلها فرجوفنسكى أيضاً ، بحيث أن جميع الحضور كان يشبه بعضهم فى بعض ويمثّل بعضهم على بعض ، وذلك أمر يفضى على الاجتماع طابعا عجيبا ، روائيا ان صح التعبير • على أن هناك أيضا أشخاصا لا يمكن الاشتباه فيهم • من ذلك أن ضابطا برتبة ميجر ، وهو قريب فرجنسكى ، ولا شأن له بهذه الأمور البتة ، ولا دُعى الى الحفلة ، كان قد جاء من تلقاء نفسه ليعبّر للسيد فرجنسكى عن تمنياته بمناسبة عيد ميلاده • وكان يستحيل طبعاً أن يُرفض استقباله • ثم ان فرجنسكى لم يكن قلقاً من هذه الناحية ، لأن الميجر « عاجز عن الوشاية» ، ذلك أنه ، رغم غيابه ، كان طوال حياته يحب أن يتردد على أشد البيئات الراديكالية تطرفاً ، لا لأنه كان يشاركها آراءها ، بل لأنه كان يستمتع بالاصغاء الى أحاديثها • ثم انه هو نفسه قد تعرض للخطر • فحين كان شاباً ، وقعت فى يده حزمٌ من منشورات تحريضية ، وأعدادٌ من جريدة « الناقوس » ، فرأى أن من الجبن أن يرفض توزيعها ، رغم أنه لم يجرؤ أن يفضها • اتنا ما نزال نلقى فى روسيا أناساً كثيرين من هذا النوع • وكان باقى المدعويين يمثلون اما نموذج الشخص الجسريح الكرامة ، الحائق الحاقد ، واما نموذج الشاب الذى تشتعل نفسه حماسة وسماحة • وكان هناك اثنان أو ثلاثة من أساتذة المدارس الثانوية ، أحدهم أعرج فى الخامسة والأربعين من العمر ، وهو رجل شرّير شديد الغرور ؛ وكان

هناك بضعة ضباط منهم واحد من سلاح المدفعية متخرج من المدرسة الحربية حديثاً ، وهو فتى صموت كان لا يعرف بعدُ أحداً ، وكان يمسك بيده قلماً ، وما ينفك يدوّن في دفتره دون أن يشترك في الحديث . ولقد لاحظته الجميع ، ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً . وكان بين الحضور أيضاً ذلك الطالب المتشرد الذي ساعد ليامشين على دسّ صورٍ خليعة في حملٍ بائعة الأناجيل المتجولة ، وهو شابٌ مديد القامة ضخّم الجسم تتصف حركاته بقلّة الاكترات وشدة الحذر في آن واحد ، وتتميز ابتسامته بالسخر دائماً ، ويبدو عليه أنه واثق بنفسه كل الثقة ، راضٍ عنها كل الرضى . وكان ابن عمّدتنا حاضراً كذلك (وهو ذلك الفتى الفاسق الذي أُتيح لي أن أتكلّم عنه بمناسبة المغامرة التي وقعت لامرأة الليوّتان الشابة) ، ولا أدري لمَ كان حاضراً . انه لم يقترح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة . يجب أن أذكر أيضاً أن الحفل قد ضمّ كذلك تلميذاً من تلاميذ المدارس الثانوية عمره ثمانية عشر عاماً ، وهو ولد مشعث الهيئة شديد الحماسة مظلم الوجه كان يبدو عليه أنه يضيق ذرعاً بصغر سنه ويشعر من ذلك بجرح في كرامته . ان هذا الصبي هو منذ الآن زعيم جماعة من المتأمّرين جنّدهم من بين تلاميذ الصف الأعلى ، كما علّم ذلك فيما بعد على دهشة من الناس جميعاً . لم أقل حتى الآن شيئاً عن شاتوف : لقد كان جالساً الى أحد أطراف المائدة ، متفهقراً قليلاً عن الآخرين ، مطرقاً الى الأرض ، صامتاً ، مكفهر الوجه . وقد رفض الشاي والخبز ، ولم يترك قبعته لحظةً كأنما هو يريد أن يُظهر أنه انما جاء لعمل ، ولم يجيء مدعوّاً ، وأنه سينصرف متى شاء . وغير بعيد عنه كان يجلس كيريلوف . وكان صامتاً هو الآخر ، لكنه لم يكن خافض العينين . بالعكس : كان يجيل نظراته الثابتة الكابية بانتباه على كل من يأخذ زمام الكلام ، ويصغى الى جميع الناس بدون أية دهشة . وكان الذين لم يسبق لهم أن رأوه ينظرون اليه خلسةً شاردى اللب .

هل كانت السيدة فرجنسكى على علم بوجود « الخمسة » ؟ لا أدري على وجه اليقين • ولكن من حق المرء أن يخمن أن زوجها قد أطلعها على كل شيء • أما الطالبة فكان واضحاً أنها لا تعرف السر • ثم ان لها مشاغلها الخاصة على كل حال : كانت لا تنوى أن تمكث عندنا الا يوماً أو يومين ، لتطوف بعد ذلك على جميع المدن الجامعية « بغية أن تعرف عن كنب آلام الطلاب الأشقياء وأن تحضهم على الاحتجاج » • وهى تحمل عدة مئات من نسخ منشور مطبوع على الحجر كانت قد كتبه هى نفسها فيما يخيل الى • شيء غريب : ان التلميذ والطالبة ، رغم أنهما يلتقيان هنا أول مرة ، قد شعر كل منهما نحو الآخر بكرة فطيع • يحسن أن نشير الى أن الميجر هو عمُ الفتاة ، وأنه يراها الآن عند آل فرجنسكى بعد فراق دام عشر سنين • وحين دخل ستافروجين وفرخوفنسكى الى الصالون كان خذاها حمراوين كالجمر : ذلك أنها كانت قد تشاجرت منذ هنيهة مع عمها حول « قضية المرأة » •

٢

تهالك فرخوفنسكى على كرسى من الكراسى باهمال ملحوظ ، تقريباً دون أن يحيى أحداً • كانت هيئته تعبر عن الاشمئزاز ، وتكاد تعبر عن الاستعلاء • أما ستافروجين فقد سلم على الحفل بأدب • ولم يكن أحد غيرهما ينتظر ، ومع ذلك اصطنع الجميع ، بما يشبه التواطؤ والاتفاق ، هيئة من لا يلاحظهما • وما ان جلس ستافروجين حتى سأله السيدة فرجنسكى بلهجة قاسية :

– ستافروجين ، هل تريد شايًا ؟

فأجاب ستافروجين قائلاً :

– أتمنى •

فأمرت السيدة فرجنسكى أختها بقولها :

– صبي شايًا لستافروجين •

ثم اتجهت الى فرخوفنسكى فسألته :

– وأنت هل تريد شايًا ؟

فأجابها فرخوفنسكى :

– طبعاً • من يلقي على ضيوفه مثل هذه الأسئلة ؟ واعطينى حليباً

أيضاً : فان مذاق الشاي عندك كمذاق دواء ، وأتم تحفلون اليوم بعيد ميلاد •

– ما هذا الكلام ؟ أترك من أنصار الاحتفال بالأعياد • لقد تناقشنا

في هذا الأمر منذ برهة •

كذلك قالت الطالبة ضاحكة •

فدمدم التلميذ يقول في الطرف الآخر من المائدة :

– كلام قديم !

فانبرت الطالبة تردُّ عليه قائلةً وهي تضطرب على كرسيها :

– كلام قديم ؟ ان محاربة الأوهام الاجتماعية ، حتى البريئة منها ،

لا يمكن أن تكون كلاماً قديماً بحال من الأحوال • بالعكس : هي جديدة دائماً بكل أسف •

ثم أضافت تقول مستدركة :

– هذا عدا أنه ليس هناك أوهام اجتماعية بريئة غير ضارة •

فصاح التلميذ يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

– كل ما أردت أن أقوله هو أن الأوهام الاجتماعية أمور بالية
محاربتها طبعاً ، ولكن فيما يتعلق بالأدعياء فإن جميع الناس يعرفون
سخافات تافهة ، وانه ليس يجدينا أن نضيع في الكلام عليها و
ما أكثر ما يبدهه الناس كافة ! فالأفضل أن ينفق المرء وقته في
نافعة ...

هفت الطالبة تقول :

– انك تسهب في الكلام وتطنب ، ولا يفهم المرء عنك شيئاً
قال التلميذ :

– يخيل الى أن من حق كل انسان أن يتكلم ، واننى اذا
أن أعبر عن رأيي كما يعبر عن رأيه أى انسان آخر ...
فقاطعته ربة البيت نفسها قائلة على حين فجأة بشراسة :
– لا أحد يحرمك من حق الكلام • كل ما هنالك أنه بَطْ
أن توجز ، لأن أحداً لا يفهم عنك •

قال التلميذ مدمماً وقد أوشك أن يهوى الى فاع الكمد و
– اسمحى لى أن ألفت نظرك مع ذلك الى أنك لا تعاملينى
كاف • واذا لم أكمل عرض رأيي ، فليس يرجع ذلك الى اننى
الأفكار ، وانما يرجع الى أنني أملك أفكاراً كثيرة مسرفة فى الكثر
ثم أمسك عن الكلام وقد أرتج عليه وارتبك أشد الارتباك •
قالت الطالبة :

– اذا كنت لا تحسن التعبير عما بنفسك فخير لك أن تصمت

فوثب التلميذ عن كرسيه ، وصاح يقول وقد احمر خجلاً
أن ينظر فيما حوله :

– أردت أن أقول انك انما حاولت أن تلمعى لأن السيد ستافروجين دخل • هذا ما أردت أن أقوله !

فهمت طالبة تقول :

– أفكارك وسخة ، لا أخلاقية ، تدل على ضحالة فكرك ! أرجوك أن لا توجهه الى الكلام بعد الآن •

قالت ربة الدار :

– حين دخلت يا ستافروجين كان أحدهم ينادى بحقوق الأسرة : هو هذا الضابط الذى ترى (قالت ذلك وأشارت الى قريبها الميجر) • طبعاً ، لست أنا من سأصدع رءوسكم وأضجركم بهذه الترهات السخيفة التى سوّى أمرها منذ مدة طويلة • ولكن من أين نشأت هذه الحقوق العائلية وهذه الواجبات العائلية التى اتخذت صورة أوهام اجتماعية راهنة • هذا هو السؤال • ما رأيك ؟

سألها ستافروجين :

– ماذ تعنين بقولك « من أين نشأت ؟ »

فتدخلت طالبة تقول وهى تلتهم ستافروجين بعينها التهاماً ان صح

التعبير :

– نحن نعلم مثلاً أن وهم وجود الله انما نشأ عن الرعد والبرق • فمن المعروف أن الانسان البدائى قد ارتاع من الرعد والبرق فعبد العدو الذى لا يرى ، شاعراً أمامه بضعفه • ولكن من أين نشأ وهم الأسرة ؟ من أين نشأت الأسرة ذاتها ؟

قالت السيدة فرجنسكى محاولةً وقف طالبة عن الكلام :

– ليس هذا هو الأمر تماماً •

قال ستافروجين :

- - أخشى أن يجيء الجواب على هذا السؤال خالياً من الحشمة
- فصاحت الطالبة متعجبةً وهي تنب عن كرسيها من جديد :
- - كيف هذا ؟

ولكن ضحكات مخنوقة سُمعت آتيةً من جهة فئة الأساتذة ، فسرعان ما استجاب لها بالضحك ، على الطرف الآخر من المائدة ، ليامشين والتلميذ والميجر ذو الصوت الجهير •

فقالت السيدة فرجنسكى لستافروجين معقبةً :

- - عليك أن تؤلف تمثيلات هزلية
- وأعلنت الفتاة رأيها مستاءةً تقول :
- - هذا لا يشرفك يا سيد ••• لا أدري ما اسمك •••

فجمجم الميجر قائلاً :

- - وأنت كفتى عن التحرك والتلملم • لكأنك قاعدة على ابرة •••
- - أرجوك أن تسكت وأن تعفينى من أمازيحك وتشيهائك الكريهة •
- اننى أراك أول مره ، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن قرابتنا •
- - أنا عمك مع ذلك • حملتك على ذراعى حين لم تكونى الا طفلة صغيرة •

- لا يهمنى أن تكون قد حملتنى على ذراعىك • لم أطلب منك أن تحملنى ، واذا كنت قد حملتنى ، أيها الضابط القليل الأدب ، فلأنك كنت تجد فى ذلك لذة لك • واسمح لى أن أنبّهك الى أنك لا يجوز لك أن تخاطبنى بصيغة المفرد ، اللهم الا من حيث اننى مواطنة ؟ اننى أمنعك من ذلك مرةً واحدة الى الأبد •

قال الضابط لستافروجين وهو يضرب بقبضته المائدة :

- هن جميعا كذلك ! اسمح لى : اننى أحب اللبرالية وأحب جميع الأفكار الحديثة ، وأصغى مثلنذاً الى الأفكار الذكية ، ولكننى لا أستطيع هذا كله الا من الرجال • اعلم ذلك • أما من النساء ، من هذه هاته الشباب الثرثرات ، فلا ثم لا ••• ان ذلك فوق طاقتى •

ثم قال للفتاة صارخا وقد أصبحت لا تطيق الاستقرار فى مكانها :

- لا تتحركى هذا التحرك كله ! أنا أيضا أطلب الكلام • لقد

أهنت !

دمدمت ربة الدار تقول مستاءة :

- انك تمنع الآخرين من الكلام ، وأنت نفسك لا تعرف أن تقول

شيئا •

فقال الميجر غاضباً حائقاً وهو يلتفت نحو ستافروجين :

- لا ، سأقول كل ما فى قلبى • اننى لم أشرف بمعرفتك يا سيد ستافروجين ، ولكننى أتوجه بالكلام اليك لأننى آخر من دخل • لولا الرجال لهلكت هذه النسوة كالذباب • ذلك هو رأىى • وقضية المرأة كلها ما هى الا دليل جديد على نقص أصالتهن • أوكد لك أن هذه القضية انما اخترعها الرجال ، حماقة منهم ، فجلبوا لأنفسهم الشقاء • الحمد لله على اننى لست متزوجا ! انهن جميعا متشابهات متماثلات ، ولا يستطعن حتى أن يتكروا أعمال سيدات • فالرجال هم الذين يتكرون لهن هذه الأعمال أيضا • أنظر الى هذه ! لقد حملتها على ذراعى • وحين كانت فى العاشرة من العمر كنت أرقص معها المازوركا • وها هى ذى اليوم تصل ، فأهرع طبعاً الى تقيلها ، فاذا هى تعلن لى فوراً أن الله غير موجود • كان

فى وسعها أن تدع لى فسحةً من الوقت لأقبلها • ولكنها لم تفعل • كانت مستعجلة ! صحيح أن الناس الأذكاء أصبحوا لا يؤمنون بوجود الله ، وذلك لأنهم أذكاء • أما أنت ، أيتها الحمقاء الصغيرة ، (كذلك قلت لها) ، فماذا تعرفين عن الله ؟ ان طالبا من الطلاب هو الذى بث فىك هذه العقيدة • فلو علمت أن تشعلى مصابيح أمام الأيقونات ، لأشعلت مصابيح أمام الأيقونات !

أجابت الطالبة باحتقار ، كأنها تتواضع فترضى أن تتناقش شخصاً كهذا الشخص مدةً طويلة :

– أنت تكذب لا أكثر ! وأنت رجل شرير ! لقد عرفت كيف أبرهن لك منذ قليل على صحة أدلتى • قلت لك انهم كانوا يعلموننا فى دروس الدين ما يلى : « اذا كرمت أباك وأقربائك ، فسيوهب لك العمر المديد والنراء الطائل • » • هذا موجود فى الوصايا العشر • فاذا كان الله قد رأى أن من الضرورى أن يكافىء على الحب ، فمعنى ذلك أن الهك هذا غير أخلاقى • تلك هى التعابير التى صغت بها برهانى • وأنا لم أسق لك هذا البرهان منذ أول كلمة ، وانما سقته بعد أن زعمت أنك تؤكّد حقوقك على • فهل الذنب ذنبى اذا كنت أنت بليد العقل فلم تفهم شيئاً حتى الآن ؟ انك غاضب حانق ، وهذه هى الحالة النفسية لجيلكم كله •

قال الميجر :

– حمقاء !

فقال الفتاة :

– غبى !

قال الميجر :

– هكذا ••••• اشتمينى الآن !

قال لبيوتين بصوته الحاد الضئيل :

- اسمح لي يا كابيتون مكسيموفتش : ألم تعلن لي أنت نفسك أنك لا تؤمن بالله ؟

- وماذا يعنى هذا ؟ أنا ، شىء آخر ! ... ربما كنت أوّمن ، ولكننى لا أوّمن ايماناً كاملاً • ورغم اننى لا أوّمن ايماناً كاملاً فأننى لا أقول بأن علينا أن نطلق على الله رصاص البندقية ! حين كنت ما أزال أخدم فى سلاح الفرسان ، كان يتفق لى كيرا أن أفكّر فى الله • الشعراء يستلمون بأن الفرسان لا يزدون على أن يشربوا ويلهوا • ولقد كنت أشرب فعلاً • ولكن هل تصدق ؟ لقد كان يتفق لى أن أثب عن سريرى كما أنا ، فأخذ أرسم إشارة الصليب أمام الأيقونة ، وأدعو الله أن يهب لى الايمان • ذلك اننى حتى فى ذلك الحين كان الهدوء لا يجد الى نفسى سيلاً ، فأنا لا أنفك أتساءل : هل الله موجود أم هو غير موجود ؟ انظر الى أى حد كان الأمر يعذبنى • وكنت فى الصباح أعود الى اللهو والقصف طبعاً ، وكان ايمانى يزول فيما يبدو • وقد لاحظت على كل حال أن الايمان يضعف فى النهار بوجه عام •

سأل فرخوفنسكى ربة الدار هو يتشاب :

- ألبس عندكم ورق للعب ؟

فهتفت الطالبة تقول وقد احمر وجهها استياء من أقوال الميجر :

- اننى أوّبد سؤالك كل التأييد •

وقالت السيدة فرجنسكى بخشونه وهى تلفى على زوجها نظرة عتب:

- انا نضيع وقتاً ثميناً فى الاستماع الى أحاديث سخيفة •

فقالت الطالبة وقد نفذ صبرها :

٥٥

– كنت أريد أن أشارك في الجمعية التي تبحث آلام الطلبة واحتجاجهم • أما وأنا نضيع الوقت في أقوال لا أخلاقية •••

فأسرع التلميذ يقول :

– لا شيء يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي •

فقالَت الطالبة :

– أعرف هذا كل المعرفة يا حضرة التلميذ ، أعرفه قبل أن يعلموك

اياه بزمان طويل •

فأجاب الآخر غاضباً :

– وأنا أؤكد أنك لست أكثر من طفلة وصلت من بطرسبرج لتلقى علينا دروساً ، مع أننا نعرف هذه الأمور أحسن مما تعرفونها كثيراً • ان جميع الناس في روسيا يعلمون منذ بيلنسكى أن الوصية القائلة « كرم أباك وأمك » هي وصية لا أخلاقية • ولكنك لم تعرفي حتى كيف ترددينها بنصّها الصحيح •

سألت السيدة فرجنسكى زوجها حازمةً :

– أسوف ينتهى هذا ؟

انها بصفتها ربة الدار كانت تحمر خجلاً من تفاهة هذا الشجار ، ولاسيما أنها كانت تلاحظ ابتسامات ودهشة بعض الأشخاص الذين يجيئون اليوم أول مرة •

قال فرجنسكى رافعاً صوته :

– يا سادة ، اذا كان أحد منكم يريد أن يتكلم في موضوع أهم ، أو كان لديه ما يقرؤه لنا ، فائنى أدعوه الى البدء بدون اضاعة للوقت •

فتدخل الأستاذ الأعرج الذي ظل الى ذلك الحين صامتاً ملتزماً وضع التحفظ ، تدخل فقال بصوت مترفق •

– اسمحوا لي أن ألقى سؤالاً : أنحن هنا في جلسة ، أم في اجتماع زيارة يضم عدداً من الناس لا أكثر ؟ اننى ألقى هذا السؤال من باب المحافظة على الشكل ، وحتى لا أظل في شك وحيرة من أمرى •

فأحدث هذا السؤال « الماكر » أثره : فنظر كل واحد الى جيرانه كأنه ينتظر منهم جواباً ، ثم اذا بجميع الأعين تتجه نحو فرخوفنسكى وستافروجين كأنما ذُكرت كلمة السر •

قالت السيدة فرجنسكى :

– اقترح اجراء تصويت لنعرف أنحن في جلسة أم لا ؟

فتدخل ليوتين فقال :

– أضم صوتى الى هذا الاقتراح ، رغم أنه غامض قليلا •

فانطلقت أصوات من جميع الجهات تقول :

– وأنا أيضا ! وأنا أيضا !

قال فرجنسكى مؤيداً :

– أعتقد فعلاً أن هذا سيدخل على حديثنا شيئاً من النظام •

قالت ربة الدار :

– فلنقرع • يا ليامشين اجلس الى البيانو ، أرجوك • فى وسعك أن

تقرع من هناك حين يجيء الأوان •

هتف ليامشين محتجاً :

– كيف ؟ أيضاً ؟ لقد اصطنعت دور العارف بما فيه الكفاية •

- أرجو وألح في الرجاء • اجلس واعزف ! أم تراك لا تريد
تخدم « القضية » ؟

- أوكد لك أن أحداً لا يتجسس علينا يا آرينا بروخوروفنا • ذل
منك خيال محض • ثم ان النوافذ عالية جداً • وحتى لو سمعنا الناس
فانهم لن يفهموا شيئاً •

جمعهم أحدهم يقول :

- نحن أنفسنا لا نفهم ، فكيف يفهم الآخرون ؟

قالت آرينا بروخوروفنا تشرح لفرخوفنسكى :

- أقول لك ان الحذر لا يكون مفرطاً مهما يكن شديداً • ان
أخذ هذا الاحتياط على أساس أن من الممكن أن يكون نمة تجسس علينا
فاذا سمع الناس الموسيقى قالوا لأنفسهم ان عندنا حفلة •
قال ليامشين متبرما :

- ليكن ما تريدون •

وجلس الى البيانو وأخذ يعزف لحن فالس ، ضاربا على أصابع الييا
ضربات قوية كأنه أصم ، حارياً في العزف على ما تشاء المصادفة تقريبا
قالت السيدة فرجنسكى :

- الذين من رأيهم أن يكون الاجتماع « جلسة » ، عليهم أن يرفع
أيديهم •

فرفع بعضهم أيديهم ، ولم يحرك بعضهم الآخر ساكناً ، ورفع بعض
ثالث أيديه ثم خفضها ثم رفعها من جديد •

هتف أحد الضباط يقول :

- ما هذا ؟ لم أفهم شيئاً !

وقال آخر :

- أنا أيضا لم أفهم شيئا !

وصرخ ثالث قائلاً :

- أما أنا فقد فهمت • إذا كان الجواب « نعم » ، تُرفع اليد •

- ولكن ما معنى « نعم » ؟

- معناها أن رأيك أن يكون الاجتماع « جلسة » •

- لا ، أبدأ ، بالعكس !

قال التلميذ مخاطباً السيدة فرجنسكى :

- أنا اقترعت مؤيداً فكرة « الجلسة » •

- فلماذا لم ترفع يدك اذن ؟

- لقد نظرت اليك ، فرأيت أنك لم ترفع يدك ، فلم أرفع يدي أنا

أيضاً •

- هذا غباء ! أنا لم أرفع يدي لأننى كنت أتولى اجراء الاقتراع •

أيها السادة ، سنجرى الآن اقتراعاً على العكس : من كان رأيه أن يكون

الاجتماع جلسة فليبق ساكناً ولا يرفعه يده • ومن كان رأيه أن لا يكون

الاجتماع جلسة فليرفع يده اليمنى •

سأل التلميذ :

- من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة ؟

صرخت السيدة فرجنسكى تقول حاتقة :

- أترك تفعل هذا متعمداً ؟

- لا ، من فضلك ! من الذى يجب أن يرفع يده ؟ أهو الذى يريد

أن يكون الاجتماع جلسة أم هو الذى لا يريد ذلك ؟ يجب توضيح هذا •

- كذلك هتفت بضعة أصوات •
- من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة •
- صرخ ضابط يسأل :
- طيب • فماذا يجب عليه أن يفعل ؟ أيرفع يده أم لا يرفعها ؟
- قال الميجر :
- هيء هيء ! اننا لمتنا نتعود على البرلمان بعد !
- قال الأستاذ الأعرج :
- يا سيد ليامشين ، معذرة ••• انك تحدث من الصخب ما يجعلنا عاجزين عن أن نسمع بعضنا بعضاً ويفهم بعضنا عن بعض •
- هتف ليامشين يقول للسيدة فرجنسكى :
- أوكد لك أنه مامن أحد يتنصت على النوافذ يا آرينا بروخوروفنا •
- لا أريد أن أعزف • لقد جئت اليك زائراً لا ضارباً على البيانو !
- قال فرجنسكى يسأل الحضور :
- أيها السادة ، أجيونى ببساطة : أنحن فى جلسة أم لا ؟
- فقالت الأصوات تجيبه من كل جانب :
- بلى ! بلى !
- فاذا كان الأمر كذلك فلا داعى الى الاقتراع • أأنتم موافقون أيها السادة ؟ هل يجب الاقتراع ؟
- لا ، لا داعى الى الاقتراع ، فهمنا !•••
- هل لأحد رأى مخالف ؟
- لا ، الجميع متفقون !

هنا نادى صوت يقول :

- ولكن ما معنى أننا فى جلسة ؟

لم يجب أحد •

- يجب انتخاب رئيس •

- هو صاحب الدار طبعاً • هو مضيفنا !

فبدأ فرجنسكى يتكلم فقال :

- اذا كان الأمر كذلك أيها السادة فاننى أعود الى اقتراحى الذى عرضته منذ قليل : من كان عنده ما يقرؤه لنا فليتكلم بدون اضاءة للوقت •

خيم صمت شامل • والتفتت جميع الأنظار مرةً أخرى نحو ستافروجين وفرخوفنسكى •

قالت السيدة فرجنسكى تسأل فرخوفنسكى :

- فرخوفنسكى ، هل لديك ما تعلقه لنا ؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى قائلاً وهو يتمطى ويتأهب

تثاؤباً ذا صوت :

- لا شيء البتة • ولكننى أريد كأساً من الكونياك •

- وأنت يا ستافروجين ؟

- لا ، شكراً ، لا أشرب !

- أنا سألتك هل تريد أن تتكلم ، ولم أسألك عن الكونياك !

- أتتكلم ؟ عم ؟ لا •

قالت مخاطب فرخوفنسكى :

- ستوتى بالكونياك •

نهضت الطالبة لتشرع فى الكلام ، ولم تكن قد انقطعت عن التحرك
والاضطراب على كرسيها :

- لقد جئت لأتكلم عن آلام الطلاب التساء وعن الوسائل التى يجب
استعمالها لحملهم على القيام باحتجاج جماعى . . .

ولكنها لم تلبث أن توقفت عن الكلام فجأة : فعلى الطرف الآخر من
المائدة كان قد وقف منافسٌ سرعان ما جذب اليه جميع الأنظار . انه
شيخالوف المتجهم المظلم الوجه ، وقف ببطء ، ووضع على المائدة ، بحزن
وأسى ، دفترأ سميكاً مغطى بكتابة دقيقة . وظل واقفاً لا يتكلم . أخذ
بعض الحضور يتأملون الدفتر متعجبين . ولكن ليوتين وفرجنسكى والأستاذ
الأعرج بدا عليهم الرضى الشديد .

قال شيخالوف بلهجة حزينة اكنها جازمة :

- أطلب الكلام .

فقال فرجنسكى :

- الكلام لك .

فعاد الخطيب يجلس ، وانتظر لحظة ، ثم شرع يتكلم بفخامة فقال :

- أيها السادة !

ولكن أخت السيدة فرجنسكى قاطعته بخشونة اذ قالت تخاطب
فرخوفنسكى :

- اليك الكونياك !

ووضعت أمام فرخوفنسكى ، وهى تقلب شفها احتقارا ، زجاجة
وقدحاً جاءت بهما دون صينية ودون صحن .

فتوقف الخطيب عن الكلام بوقار • وصرخ فرخوفنسكى يقول له وهو يصب لنفسه الكونياك :

- لا عليك ! أكمل ! •••

- أيها السادة ، اننى اذ أسألكم الانتباه ، واذ أسألكم أيضاً ، كما سترون فيما بعد ، أن تساهموا معى وأن تساعدونى فى هذا العمل الذى له شأن كبير وله خطورة أساسية ، يجب على أن أقدم لكم بعض الايضاحات التمهيديّة •

قال بطرس ستيفانوفتش فجأة يسأل السيدة فرجنسكى :

- هل عندك مقص يا آرينا بروخوروفنا ؟

فسألته هذه محمقة :

- مقص ؟ ماذا تريد أن تعمل بالمقص ؟

فقال وهو يتفرس بهدوء فى أظافره الطويلة السوداء :

- نسيت أن أقصّ أظافرى • كان على أن أقصّها منذ ثلاثة أيام •••

فاحمرت آرينا بروخوروفنا ، ولكن الطالبة أعجبتها عدم التخرج هذا الذى أظهره فرخوفنسكى ، فقالت :

- أظن أنتى رأيت المقص منذ لحظة على النافذة •

وقامت فجاءت بالمقص ومدته الى فرخوفنسكى ، فتناوله منها حتى

دون أن ينظر اليها ، وأخذ يرقب بطرس ستيفانوفتش حاسداً كارهاً •

تابع شيجالوف كلامه فقال :

- اننى وقد عكفت عكوفاً تاماً على دراسة تنظيم مجتمع المستقبل

الذى يجب أن يحل محل مجتمعنا الحالى ، وصلت الى الاقتناع بأن جميع

منشئ المذاهب الاجتماعية منذ أقدم العصور الى أيامنا هذه ، انما كانوا أناساً حالمين ورواة حكايات خرافية ، وحمقى ، يناقضون أنفسهم ولا يفهمون شيئاً فى مجال العلوم الطبيعية ، ولا يعرفون شيئاً عن هذا الحيوان الذى يسمى بالانسان . ان أفلاطون وروسو وفورييه ليسوا الا أعمدة من ألومنيوم . انهم ، فى أكثر تقدير ، يصلحون للمصافير لا للبشر ، فلما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديداً دقيقاً بعد أن قررنا جميعاً أن علينا أن ننتقل الى الفعل بغير تردد ، فانى أعرض مذهبي فى تنظيم العالم .

ثم نقر شيجالوف على دفتره وقال :

– ها هو ذا . لقد كنت أريد أن أعرض عليكم كتابي بأكبر ايجاز ممكن . لكننى أرى أن علىّ أن أضيف اليه كثيراً من الايضاحات الشفهية . لذلك سيحتاج عرضي الى عشر سهرات على الأقل ، تبعاً لعدد فصول الكتاب .

هنا سُمعت بضع ضحكات . وتابع شيجالوف كلامه يقول :

– يجب علىّ ، عدا ذلك ، أن أنبهكم الى أن مذهبي لم يكتمل اكتمالاً تاماً (وهنا انطلقت ضحكات أخرى) فلقد تهت فى شعاب مقدماتي نفسها ، وجاءت نتيجتي متناقضة تناقضا مباشراً مع الفكرة الأساسية التى يقوم عليها المذهب . اننى وقد انطلقت من فكرة الحرية التى ليس لها حدود قد انتهت الى فكرة الاستبداد الذى ليس له حدود . ولكننى أضيف الى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حل آخر للمشكلة الاجتماعية غير الحل الذى خلصت اليه .

ازدادت الضحكات . ولكن الشبان فقط هم الذين كانوا يضحكون ، أعنى الأغرار الذى ليس لهم سابق دراية ان صح التعبير . أما السيدة

فرجنسكى وليوتين والأستاذ الأعرج ، فقد كانت وجوههم تعبّر عن شيء من الأسف والغضب .

قال أحد الضباط يسأله محاذراً :

– اذا لم تستطع أنت نفسك أن تكمل مذهبك ، واذا كنت قد هويت من ذلك الى اليأس ، فماذا نستطيع أن نفعل نحن ؟

فأجابه شيجالوف يقول بلهجة قاطعة :

– انك على حق أيها الضابط ، ولا سيما باستعمالك كلمة اليأس هذه . نعم ، لقد حوصرت باليأس . ومع ذلك يستحيل على المرء أن يقول شيئاً آخر غير الذى قلته فى كتابى . ليس هناك أى مخرج غير هذا المخرج . لن يعثر أحد على غير هذا أبداً . لذلك أسارع فأدعو الحضور ، دون اضاءة للوقت ، الى سماع قراءة كتابى خلال عشر سهرات ، والى أن يقولوا لى بعد ذلك رأيهم . فاذا رفضتم أن تصفوا الى ، فلا يبقى علينا بعد ذلك الا أن نفترق ، فيعود الرجال الى مكاتبهم ، وتعود النساء الى مطابخها . لأنكم اذا نبذتم مذهبى فلن تجدوا حلاً آخر ، لن تجدوا أى حل آخر . ستضيعون وقتكم ، ثم تجدون أنفسكم مضطرين حتماً أن تعودوا الى مذهبى .

أخذ الحضور يتحركون . وسألت بعض الأصوات : « أهو مجنون ؟ » .

قال ليامشين ملخصاً :

– الموضوع اذن هو على وجه الاجمال موضوع يأس شيجالوف :
أيجب عليه أن ييأس أم لا ؟

فقال التلميذ :

- ان باس شيجالوف مسألة شخصية •

فانطلق ضابط يقول مرحباً :

- اقترح أن نجرى اقتراحاً لنعرف هل ليأس شيجالوف قيمة عامة ،
وهل يستحق كتابه عناء الاستماع اليه !

فتدخل الأستاذ الأعرج فقال :

- ليس هذا هو الأمر ••••

ان للأستاذ الأعرج في العادة ابتسامة خفيفة ساخرة ، فلا يعرف المرء
أهو مازح في كلامه أم هو جاد •

وتابع الأستاذ الأعرج يقول :

- لا يا سادة ، ليس هذا هو الأمر • ان السيد شيجالوف قد أسرف
في التفرغ لأداء مهمته ، ثم هو عدا ذلك مسرف في التواضع • اننى أعرف
كتابه • انه من أجل أن يحل المسألة الاجتماعية حلاً نهائياً ، يقترح تقسيم
الانسانية قسمين غير متساويين • فعُشُرُ ينال الحرية المطلقة وينال سلطة
بغير حدود على تسعة الأعشار الأخرى ، وتسعة أعشار يجب عليهم أن
يفقدوا شخصيتهم وأن يصبحوا أشبه بقطيع ، فاذا ظلوا خاضعين خضوعاً
تاماً بغير حدود أمكنهم أن يصلوا شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من التحولات الى
حالة البراءة البدائية ، الى شيء يشبه جنة عدن الأولى ، مع بقائهم مضطربين
الى العمل • والاجراءات التي ينادى بها المؤلف ليجرد تسعة أعشار
الانسانية من ارادتهم وليحوّلهم الى قطيع بواسطة التربية ، انسا هي
اجراءات ممتازة الى أبعد الحدود • انها قائمة على حقائق العلوم الطبيعية ،
وانها لمنطقية تماماً • قد لا يسلم المرء ببعض النتائج التي ينتهى اليها ،
ولكن من المستحيل على المرء أن ينكر ذكاء المؤلف وأن يجحد معارفه •

وانه لمن المؤسف حقاً أن لا نستطيع ، بسبب الظروف ، أن نوافق له على السهرات العشر التي يطلبها ، والا لكننا سمعنا كثيراً من الأمور الشائقة الهامة حتماً •

قالت السيدة فرجنسكى تسأل الأستاذ الأعرج بشيء من القلق :

- هل يمكن أن تنظر نظرة جدٍ الى هذا الرجل الذى لم يعرف ماذا يصنع بالانسانية فرداً تسعة أعشارها الى العبودية ؟ اننى قد اشتبهت فى الأمر منذ مدة طويلة •

فسألها الأعرج :

- أخاك تعنين ؟

- مرةً أخرى ، روابط الدم ! أأنت تسخر منى ؟

قالت الطالبة مستاءةً :

- انه لجبن أن نعمل فى سبيل الارستقراطيين وأن نخضع لهم خضوعنا لآلهة !

قال شيجالوف يختم الكلام بلهجة السلطة :

- ان ما اقترحه ليس جبناً ، وانما هو الجنة ، الجنة الأرضية ، ولا جنة سواها •

هتف ليامشين يقول :

- أما أنا فاننى اذا لم أعرف ماذا أصنع بتسعة أعشار الانسانية ، عمدت الى نسفهم بدلاً من أن أنظم الجنة الأرضية ، ولم أبق على قيد الحياة الا عدداً من الناس المتعلمين الذين سوف يعيشون فى دعة وسلام وفقاً لمبادئ العلم •

قالت الفتاة محتجة :

- يجب أن يكون المرء مهرّجاً حتى يقول مثل هذا الكلام !

فهمست السيدة فرجنسكى تقول لها :

- هو مهرّج فعلاً ، ولكنه نافع •

وتدخل شيجالوف يقول ملتفتاً نحو ليامشين بقوة :

- قد يكون هذا هو الحل الأمل للمشكلة • انك تجهل حتماً ،

يا سيدى المازح ، أنك قد قلت الآن شيئاً عميقاً كل العمق • ولكن لما

كانت فكرتك • مستحيلة التحقيق تقريباً ، فلا بد من الاكتفاء بالجنة الأرضية

مادام يجب أن نسميها بهذا الاسم •

فأقلت من لسان فرخوفنسكى قوله :

- ما هذه السخافات !

لقد قال فرخوفنسكى هذا الكلام بما يشبه الغفلة ، دون أن يرفع

رأسه ، وكان ما يزال يقلّم أظافره بكثير من عدم الاكتراث •

فسرعان ما تدخل الأعرج ، وكأنه كان لا ينتظر الا اللحظة المواتية

ليهاجم بطرس ستيفانوفتش ، تدخل فقال :

- لماذا سخافات ؟ صحيح أن حب شيجالوف للانسانية فيه شيء من

التعصب • ولكن تذكر أن فورييه ، ولا سيما كاييه ، وحتى برودون ، كانوا

أنصاراً لبعض الحلول الاستبدادية الشديدة ، وكانوا يبدون من النظرة

الأولى خياليين • بل لعل السيد شيجالوف أقرب منهم الى التعقل والنروى •

أؤكد لكم أنه يكاد يستحيل على المرء بعد قراءة كتابه أن لا يسلم ببعض

أفكاره • انه ربما كان أقل ابتعاداً عن الواقعية من الآخرين ؟ وتكاد جنته

الأرضية أن تكون هي الجنة الحقيقية ، الجنة التي يتوق اليها البشر بعد

أن فقدوها ، اذا صدق أن تلك اللجنة قد وُجدت حقاً فى يوم من الأيام •

جمع فرخوفنسكى يقول مرةً أخرى :

– كنت أثنياً فعلاً بأن أسمع كلاماً من هذا النوع •

قال الأعرج وقد ازداد غضبه استعاراً :

– اسمح لى ! ان الكلام على تنظيم المجتمع المقبل والنقاش حوله يكادان أن يكونا الآن ضرورةً لجميع الناس الذين يفكرون • ان هرتسن لم يهتم طوال حياته الا بهذا • وأنا أعلم من مصدر ثقة أن بيلنسكى كان يقضى سهرات كاملة فى المناقشة مع أصدقائه حول المسألة الاجتماعية محدداً أدق التفاصيل من نظام المجتمع المقبل •

قال الميجر :

– بل هناك أشخاص أصبحوا من ذلك مجانيين !

وتشجع ليوتين فتجراً أن ينتقل الى الهجوم فقال :

– حين يناقش المرء فانه قد يصل الى نتيجة ما ، وهذا خير دائماً من

أن يلتزم الصمت مصطنعاً وضع دكتاتور •

فقال فرخوفنسكى بدون اكتراث :

– أنا حين قلت : « هذه سخافات » ، لم أقصد شيجالوف البتة •

ثم أضاف يقول وهو يرفع عينيه قليلاً :

– اسمعوا أيها السادة ؛ فى رأى أنا أن جميع هذه الكتب ، وفورييه،

وكايبه ، و «حق العمل» ، وأفكار شيجالوف ، فى رأى أن هذا كله يشبه

ألوف الروايات التى تصدر كل يوم : تسلية فنية ! وأنا أفهم أن تضجروا

فى هذه المدينة ، فتأخذون بتسويد ورق •

استأنف الأعرج كلامه فقال وهو يتحرك مضطرباً على كرسيه :

- من فضلك ! ما نحن الا ريفيون فعلاً ، ونحن اذن نستحق الشفقة • ولكننا نعرف أنه لم يحدث بعد في هذا العالم شيء خطير كل الخطورة ، فلا داعي اذن لأن نشكو الجهل وأن نرثي لحال أنفسنا • ان هناك منشورات من أصل أجنبي تدعوننا أن نضم جهودنا لتحطيم كل شيء ، اذ مهما نفعل في سبيل شفاء المجتمع ، فلن نصل الى شفائه يوماً ، على حين أننا بقطع رقاب مائة مليون نبسط الموقف ونجعل اجتياز الهوة أضمن • هذه فكرة ممتازة حقاً ، ولكنها لا تقل استحالةً على التحقيق عن فكرة شيجالوف التي تعاملها بهذا الاحتقار كله •

أقلت اسان بطرس ستيفانوفتش فقال وهو يقرّب الشمعة كأنه لا يشعر بالغلطة التي يرتكبها :

- هذا كله حسن جداً ، ولكنني لم أجيء الى هنا من أجل أن أناقش •••

- انه لما يدعو الى الأسف ، الى الأسف الشديد ، أنك لم تجيء الى هنا من أجل أن تناقش • وانها لخسارة حقاً أن تكون الآن مستغرقاً هذا الاستغراق كله في العناية بزيتك !
- ما شأنك وزيتي ؟

قال ليوتين مجازفاً من جديد :

- ان تغيير العالم بقطع مائة مليون رقبة لا يقل صعوبة عن تغيير العالم بالدعاية • وقد تكون الطريقة الأولى أصعب ، ولا سيما في روسيا •
وقال ضابط :

- ان جميع الآمال معقودة الآن على روسيا •

فأجاب الأعرج :

- نعم ، يظهر أنهم يعتقدون على روسيا آمالاً كبيراً • نحن نعلم أن اصعباً سرية قد أشارت الى وطننا الحبيب وعدته أقدر جميع بلدان العالم على تحقيق هذا العمل العظيم • ولكن اليكم ما أريد أن ألفت اليه الانتباه : اذا حُلَّت المشكلة الاجتماعية تدريجياً بالدعاية ، فأنى أظن أربح شيئاً ما : أربح أولاً امكان التمتع بالثروة ، وأربح ثانياً المكافأة التي تعطيني اياها الحكومة المقبلة اعترافاً بالخدمات التي أكون قد قدمتها للقضية الاجتماعية • أما اذا حُلَّت المشكلة حلاً فورياً ، أى اذا قطعت مائة مليون رقبة ، فما الذى يمكن أن أربحه أنا ؟ ان المرء حين يدعو الى مثل هذه العقائد يعرّض لسانه لخطر القطع •

قال فرخوفنسكى :

- سيقطع لسانك أنت حتماً •

- رأيت اذن ؟ ولما كنت لا تستطيع ، فى أحسن الظروف ، أن تفرغ من هذه المذبحة فى أقل من خمسين سنة ، أو فى أقل من ثلاثين سنة ، لأنك لن تذيب خرافاً ، ولأن من الممكن أن لا تمكّنك الضحايا من ذبحها ، أفليس الأفضل اذن أن يطوى المرء أمتعته وأن يهاجر الى مكان بعيد فى جزيرة هادئة فيقضى هنالك بقية أيامه هادئاً ؟ صدقنى اذا قلت لك ان دعايتك هذه لن تزيد على أن تشجع الناس على المهاجرة •

قال الأعرج هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الطاولة باصبعه •

لقد انتصر • انه أحد الرموس القوية فى الاقليم • وكان ليوتين يتسم وقد بانت فى وجهه معان مفهومة • وكان فرجنسكى يبدو مصعوقاً • وكان الآخرون يتابعون المناقشة باهتمام شديد ، ولا سيما السيدات

والضباط • أدرك الجميع أن صاحب فكرة المائة مليون من الروس قد أخرج وغلب ، فهم ينتظرون النهاية •

قال فرخوفنسكى مدمماً بلهجة فيها مزيد من عدم الاكتراث ، بل فيها كذلك شيء من الضجر :

- يجب أن أعترف بأنك قد قلت الآن فكرةً صحيحة • ان فكرة الهجرة فكرة ممتازة • ومع ذلك ، رغم المحاذير الواضحة التي ذكرتها ، فان الجنود الذين يعتقدون عقيدتنا وينضمون الى قضيتنا يزداد عددهم يوماً بعد يوم • وسوف نستعنى عنك • ان الأمر أمر دين جديد يجب أن يحل محل الدين القديم • ان الأمر أمر قضية خطيرة ، لذلك يزداد عدد جنودنا • أما أنت فما عليك الا أن تهاجر • وأنا أنصحك بأن لا تهاجر الى جزيرة هادئة من الجزر ، بل الى مدينة درسدن • أولاً لأن هذه المدينة لم تعرف الأوبئة يوماً ، فأنت لا بد أن تتخاف الموت حتماً من حيث أنك رجل مثقف • وثانياً لأن مدينة درسدن ليست بعيدة عن الحدود الروسية ، فيسهل ارسال ايراداتك اليها من وطنك الحبيب • وثالثاً لأن هذه المدينة ملاءى بما يسمى كنوز الفن ، وأنت رجل فنان ، لأنك كنت أستاذاً للأدب فيما أظن • ورابعاً وأخيراً لأن هذه المدينة صورة مصغرة عن سويسرا : فهذا يفيدك في استئزال الوحي الشعري ، لأنك تنظم شعراً ولا شك • الخلاصة : كنز كبير فى علبة صغيرة •

قامت حركات شتى • الضباط يضطربون على كراسيهم • لو انقضت دقيقة واحدة أخرى لأخذ الجميع يتكلمون فى آن واحد معاً • ولكن الأعرج انقضَّ على الطعم • قال :

- لا ، قد لا تترك « القضية » المشتركة ! ... سوف نرى ...

فما ان سمع فرخوفنسكى منه هذا الكلام حتى قال يسأله فجأة :

– ماذا ؟ أتقبل أن تدخل في جماعتنا اذا عرضت عليك ذلك ؟

• ووضع المقص على المائدة •

ارتعش الجميع • ان الشخص اللغز قد حسر القناع عن وجهه فجأة •
حتى لقد جرؤ أن يذكر كلمة « جماعة » •

أجاب الأعرج بشيء من الارتباك :

– ان كل من يعد نفسه رجلاً شريفاً لا يمكنه أن يتقاعس عن القيام

بمهمته ، ولكن ...

قاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً له بلهجة صارمة :

– اسمح لي • دعنا الآن من « لكن » • اننى أعلن لكم أيها السادة
اننى أطلب بجواب واضح بيّن • أنا أفهم تماما اننى اذ جئت الى هنا واذ
جمعتكم ، قد أصبح لكم على حق تقديم ايضاحات (وهذا كشف آخر
لم يكن متوقعا) ، ولكن يستحيل على أن أمدكم بايضاحات وشروح
ما جهلت حالتكم النفسية • اننى أترك جانبا الكلمات التى لا فائدة منها ولا
طائل تحتها – ذلك أننا لا يمكن أن نتكلم ثلاثين سنة أخرى كما تم حتى
الآن طوال ثلاثين سنة – وأسألکم ماذا تفضّلون : أنفضّلون الطريقة
البطيئة ، أى الروايات الاجتماعية وتنظيم مصائر الانسانية على الورق لألف
سنة قادمة ، بينما الحكم الاستبدادى يتلع اللقم السائغة التى تسقط فى
أفواهكم وتدعونها تفلت منكم ، أم تفضّلون حلاً سريعاً أياً كان هذا
الحل ، حلاً يفك أيديكم من وثاقها ويتيح للانسانية أن تنظم نفسها بحرية
كاملة ، لا على الورق بل فى الواقع ؟ يصيح بعضهم قائلاً : « بل نريد
قطع مائة مليون رقبة » • ان هذا الكلام قد لا يكون الا مجازاً • ولكن
هبوا أنه ليس مجازاً بل حقيقة • لماذا تخافون منه اذا كان الحكم الاستبدادى
سيقضى ، أثناء استغرافنا فى الأحلام البطيئة التى ندونها على الورق ،

سيقتضى لا على مائة مليون فحسب ، بل على خمسمائة مليون ؟ لاحظوا أيضا أن المريض الذى ليس الى شفائه من سبيل ، لا يمكنكم أن تشفوه مهما تصفوا له من وصفات طيبة • ثم انكم اذا تأخرتم تنيحون له أن تسرى عدواه الينا جميعا ، وأن يجهز على القوى القوية التى ما يزال فى وسعنا أن نتمتع عليها ، فيكون فى هذا هلاكنا جميعا • اننى أسلّم معكم بأن الاسترسال فى أقوال لبرالية بليغة أمر ممتع جدا ، على حين أن العمل فيه بعض المخاطر ••• ثم اننى لست خطيا • فأنا انما جئت الى هنا لأنقل اليكم بلاغاً ؟ لذلك اطلب الى حفلكم الكريم أن يقول بكل بساطة دون تصويت ما الذى يسهلته أكثر من سواه : أن يتخبط فى المستنقع بسرعة السلحفاة ، أم أن تطوى الطريق طياً بسرعة السهم ؟

هتف التلميذ يقول متحمساً :

– زأبى أن تطوى الطريق طياً بسرعة السهم •

وقال ليامشين :

– وأنا أيضا •

وجمجم أحد الضباط :

– الاختيار واضح لا لبس فيه •

وكذلك قال ثانٍ فثالث •

والشئ الذى فجأ الحضور خاصة هو أن لدى فرخوفنسكى بلاغاً يجب أن ينقله ، وأنه وعد بالكلام •

قال فرخوفنسكى وهو يجيل على الحفل بصره :

– أيها السادة ، أرى أنكم جميعكم تقريبا من أنصار الحل الذى

تنادى به المشورات وتدعو اليه •

فصاحت أغلبية الأصوات تقول :

– نعم ، جميعنا ، جميعنا •

وتدخل الميجر فقال :

– أعتزف لكم بأننى أهيل الى حلٍ أكثر انسانية ، ولكننى أحتاج الى

رأى المجموع •

وقال فرخوفنسكى يسأل الأعرج :

– يبدو أنك لا تعارض أنت أيضا ، هه ؟

فأجاب الأعرج وقد احمر وجهه :

– ليس معنى هذا أننى ••• ولكن اذا انضممت الى رأى المجموع

فما ذلك الا لأننى لا أريد أن أحدث اضطرابا •••

– هكذا أتم جميعا ! انكم مستعدون لأن تناقشوا وتجادلوا مدة ستة

أشهر ، ولكنكم تصوتون فى النهاية كسائر الناس • أيها السادة ، أأتم

جميعا مستعدون حقا ؟ فكروا فى الأمر !

(مستعدون لأى شىء ؟ – سؤال غامض ولكنه جذاب الى أقصى

الحدود) •

تعالت أصوات كثيرة تقول :

– طبعا ، جميعا !

• وكان الحضور من جهة أخرى ينظر بعضهم الى بعض •

قال فرخوفنسكى :

– قد تستاءون فى المستقبل من أنكم تعجلتم فى الموافقة ؟ هذا يحدث

لكم فى جميع الأحيان تقريبا •

اضطرب الحفل ، بل اضطرب اضطراباً شديداً •
صاح الأعرج يقول بلهجة غاضبة :

- اسمح لى مع ذلك أن ألفت انتباهك الى أن الأجوبة على أسئلة من هذا النوع لا يمكن أن تكون الا شرطية • لقد سمعت جوابنا ، ولكنك قد ألقيت سؤالك بطريقة تبلغ من الغرابة •••

- ما غرابتها ؟

- ما هكذا تلقى أسئلة كهذه الأسئلة •

- علمنى اذن كيف يجب القاؤها • على كل حال ، كنت واثقاً أنك ستكون أول نادم •••

- لقد انتزعت منا موافقتنا على عمل فورى ، ولكن ما هى الحقوق التى لك علينا ؟ أين سلطاتك الكاملة ؟

- كان ينبغى أن تفكر فى هذا قبل الآن ! لماذا أسرعت تجيب ؟ أتوافق من أجل أن تراجع على الفور !

- فى رأى أن الصراحة الطائشة فى سؤالك تدل دلالة واضحة على أنك لا تملك لا سلطات كاملة ولا حقوقاً ، وتدل على أنك لم تشأ بطرح سؤالك الا ارضاء حب الاطلاع عندك •

هتف فرخوفنسكى يقول وكأنه قد تنبه الى الخطر :

- ولكن ما هى المسألة ؟ ما هى المسألة ؟

قال الأعرج :

- أقول ان المرء حين يريد أن يضم أعضاء ، انما يفعل ذلك سرآ ، ولا يفعله بحضور عشرين شخصاً لا يعرفهم •

كان الأعرج قد بلغ من الحنق حداً لا يستطيع معه أن يسيطر على نفسه ، وأن يكتفم ما يدور في خاطره . فالتفت فرخوفنسكى نحو الحفل وهو يتظاهر بقلق شديد :

– أيها السادة ، أرى من واجبي أن أعلن لكم ان هذا كله ليس الا سخافات ، وأن حديثنا قد مضى بنا الى أبعد مما نريد . أنا لم أضمّ بعد أعضاء ، وليس لأحد حق في أن يقول اننى أهتم بهذا . نحن لا نزيد على أن نعلن آراءنا . أليس كذلك ؟

ثم أضاف يقول وهو يلتفت نحو الأعرج :

– لقد نبهتني الى الخطر على كل حال . أنا لم أكن أتخيل أن الكلام هنا في أمور بريئة كل البراءة محظور الا على انفراد . أترك تخشى وشاية ؟ هل يمكن أن يكون بيننا جاسوس ؟

هاج الحضور . وطفق الجميع يتكلمون في آن واحد .

تابع فرخوفنسكى كلامه فقال :

– اذا كان الأمر كذلك أيها السادة ، فالشخص الوحيد المعروض للخطر بينكم هو أنا . لذلك أطلبكم بأن تجيبوا عن سؤال سألقه عليكم ، ان كان ذلك يناسبكم طبعاً ، فانكم أحرار على كل حال :

– ما هو السؤال ؟ ما هو السؤال ؟

– هو سؤال سيبيّن بوضوح هل علينا أن نكمل حديثنا . أم أن على كل واحد منا أن يتناول قبعته صامتاً ثم يمضى لشأنه .

– السؤال ! السؤال !

– اذا علم أحدنا أن اغتيالاً سياسياً يُهيأ ، فهل هو يشى بالمؤامرة متسبباً بجميع النتائج ، أم هو يبقى في بيته منتظراً الأحداث ؟ ان الآراء قد

تختلف • فالاجابة عن هذا السؤال ستبين لنا بوضوح هل يجب علينا أن نفرق أم يجب علينا أن نبقي معاً ، لا فى هذه السهرة وحدها بل بعدها أيضاً •

ثم قال فرخوفنسكى للأعرج :

– اسمح لى أن أخطبك أنت أول من أخطب •

– لماذا أنا بالذات ؟

– لأنك أنت الذى بدأت • أرجوك ، لا تتملص • لن يفيد المكر

فى شيء • على كل حال ، افعل ما تشاء ، فأنت حر •

– معذرة ، ان سؤالاً كهذا السؤال اهانة •

– أوضح مزيداً من الايضاح ، أرجوك •

قال الأعرج :

– أنا لم أكن شرطياً سرياً فى يوم من الأيام •

– أوضح مزيداً من الايضاح ، من فضلك • لا نضيّع وقتنا •

انشل الأعرج من فرط الغضب فلبث صامتاً ، واكتفى بأن أخذ

يرشق عدوه من تحت نظارتيه بنظرات مثقلة كرهاً وبغضاً •

– أنعم أم لا ؟ أتشى أم لا تشى ؟

كذلك صرخ فرخوفنسكى يسأله •

فصرخ الأعرج يقول بصوت أعلى أيضاً :

– لا أتشى طبعاً •

وتعالت أصوات عدة تقول :

- ولا أحد يشي طبعاً •

وتابع فرخوفنسكى استجوابه ، فقال يسأل الميجر :

- اسمع لى أن أسألك أنت يا حضرة الميجر : أتشى أم لا تشى ؟
لاحظ أننى أتجه بالسؤال اليك بالذات •

- لا ، لا أشى •

- واذا علمت أن رجلاً يستعد لأن يقتل أو يسرق رجلاً آخر ،
رجلاً عادياً ، فأنت تنبّه الى الجريمة ، أليس كذلك ؟

- طبعاً ، لأن الأمر هنا أمر شخصى وليس وشاية سياسية • أنا لم
أكن من الشرطة السرية فى يوم من الأيام •

وتعالت أصوات من جميع الجهات تهتف :

- ولا أحد كان من الشرطة السرية فى يوم من الأيام • لا داعى
الى القاء مثل هذه الأسئلة • سيكون جواب الجميع واحدا • ليس ههنا
جواسيس •

صاح الطالب يسأل :

- ولكن لماذا ينهض ذلك السيد ؟

- هذا شاتوف • لماذا تنهض يا شاتوف ؟

كذلك سألت السيدة فرجنسكى •

كان شاتوف قد نهض فعلاً على حين فجأة • انه يحمل فبغنه بيده ،
ويحدّق الى فرجوفنسكى • كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول له شيئاً ما ،
ولكنه يتردد وقد اصفرّ لونه من شدة الغضب • ومع ذلك سيطر على
نفسه وكظم غيظه واتجه نحو الباب صامتاً •

صرخ فرخوفنسكى يقول له بلهجة ملغزة :

– ما تفعله يلحق بك ضرراً يا شاتوف •

فأجابه شاتوف قائلاً :

– كما يلحق نفعاً بالجالسوس الوغد الذى هو أنت •

• وخرج

فتمالت الصرخات وصيحات التعجب فى كل جهة :

– تمت التجربة •

– وكانت نافعة •

– بعد فوات الأوان !

– من دعاه ؟ كيف دخل الى هنا ؟ من هو ؟ من شاتوف ؟ أتراه يشى

أم لا ؟

فأل أحدهم :

– لو كان خائناً لأظهر غير ما يبطن ، ولكنه لم يعبأ بنا وخرج •

صاحت الطالبة :

– وهذا ستافروجين ينهض • انه هو أيضا لم يجب عن السؤال !

كان ستافروجين قد نهض فعلاً ، وكان كيريلوف قد اقتدى به على

الطرف الآخر من المائدة •

قالت ربة الدار تخاطب ستافروجين بجفوة :

– اسمح لى يا سيد ستافروجين ! نحن جميعا قد أجبنا عن السؤال ،

وأنت ننصرف دون أن تقول كلمة !

جمجم ستافروجين يقول :

- لا أرى ضرورة للإجابة عن السؤال الذى يهمكم •
- ولكننا عرضنا أنفسنا للخطر ، وأنت لم تعرض نفسك لشيء •
- بهذا صاحت عدة أصوات •

أجاب ستافروجين ضاحكا ، ولكن عينيه كانتا تسطعان :

- فإني أعني أن تعرضوا أنفسكم للخطر ؟

فهتفت أصوات كهيئة تقول متعجبة :

- كيف هذا ؟

• ونهض عدد من الحضور فجأة •

صرخ الأعرج يقول :

- اسمحوا لى أيها السادة ، اسمحوا لى • ان فرخوفنسكى أيضا لم
يجب عن السؤال ، وانما اكتفى بالقائه •

- فأحدثت هذه الملاحظة أثرا خارقا • نظر الجميع بعضهم الى بعض •
- وانفجر ستافروجين ضاحكا عند أنف الأعرج وخرج يتبعه كيريلوف •
- وهرع فرخوفنسكى وراءهما الى حجرة المدخل •

- ماذا تفعل ؟

كذلك تتمم يقول وهو يمسك يد ستافروجين ويشد عليها بكل
ما أوتى من قوة • وتابع كلامه :

- اذهب الى عند كيريلوف • وسألحق بكما • يجب أن أكلمك •
- لا بد أن أكلمك • لا غنى عن هذا •

أجابه ستافروجين بخشونة :

- لالى أنا •

- بل لا غنى عنه لك أنت يا ستافروجين • سأشرح لك هذا فى البيت

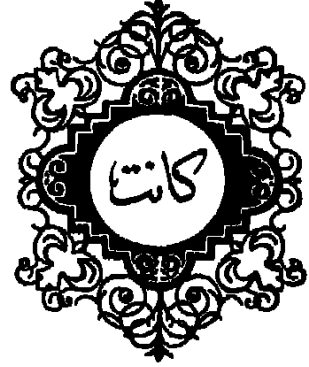
كذلك قال كيريلوف متدخلًا فى الأمر • وقال يطمئن فرخوفنسكى:

- سيصحبني الى بيتي •

• وخرجا •

الفصل الثامن

ابن القيس درايقات



أول حركة قام بها بطرس ستيفانوفتش هي أنه عاد بأقصى سرعة الى المدعوين ليهدىء النفوس ، ولكن أغلب الظن أنه رأى أن ذلك لا يستحق العناء ، لأنه ترك « الجلسة » بعد دقيقتين ، وطار يلحق بستافروجين وكيريلوف • وفيما كان يركض تذكر شارعاً صغيراً يمكن أن يوصله الى عمارة فيلييوف بسرعة أكبر • فسلك ذلك الشارع غاطساً في الوحل حتى الركبتين ، فاذا هو يصل الى المنزل فعلاً في اللحظة التي كان فيها صاحباها يجتازان البوابة •

قال كيريلوف :

– كيف ؟ أوصلت ؟ حسن جداً • ادخل •

وقال ستافروجين سائلاً كيريلوف حين لمح في حجرة المدخل سماوراً

يغلي فيه الماء :

– ألم تقل لنا انك تعيش وحيداً ؟

فأجاب كيريلوف بقول مدمماً :

– سترى مع من أعيش •

وما ان دخلوا حتى أخرج فرخوفنسكى من جيبه الرسالة الغفل التي

عهد بها اليه فون لمبكه ، ووضعها على المائدة أمام ستافروجين • وجلس
الثلاثة • فقرأ ستافروجين الرسالة صامتاً • ثم سأله :

- هيه ، وبعد ؟

فقال فرخوفنسكى :

- ان هذا الشقى سيفعل ما يكتبه • وما دام مرتبطاً بك فقل ما الذى
يجب على أن أفعله • أوكد لك أنه قد يذهب منذ الغد الى فون لمبكه •

- فليذهب !

- كيف هذا ؟ يمكننا أن نمنعه •

- أنت مخطيء : انه ليس مرتبطاً بى • على كل حال ، لا يهمنى
الأمر • انه لا يستطيع شيئاً ضدى • وانما هو يهددك أنت •

- وأنت أيضاً •

- لا أظن ذلك •

- ولكن الآخرين قد لا يوفرورك • كيف لا تفهم هذا ؟ اسمع
يا ستافروجين • انك تتلاعب بالألفاظ • أياكون هذا من حرصك على المال ؟

- هل الأمر أمر مال ؟

- طبعاً • يجب دفع ألفين ، أو ألف وخمسمائة على الأقل • أعطني
هذا المبلغ غداً أو حتى اليوم ، فأرحلّه فى مساء غدٍ الى بطرسبرج •
ذلك ما يريده فى حقيقة الأمر • لاحظ أن من الممكن حتى ترحيل ماريا
تيموفتينا معه اذا شئت •

لكأنه كان طائش اللب ، فهو يتكلم مضطرباً دون تفكير ، وهو يرسل

أقوالاً خطيرة دون أن يتبصر بالعواقب • وكان ستافروجين يلاحظه
مدهوشاً •

قال ستافروجين :

- ليس هناك أى سبب يدعونى الى ترحيل ماريا تيموفنا •

- وربما كنت لا تريد لها أن ترحل •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ضحكة ساخرة •

- ربما •

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول وقد نفذ صبره واستعر حنقه :

- الخلاصة : أعطى المال أم لا ؟

فأجابه ستافروجين وهو يتأمله مظلم الوجه :

- لا ، لن أعطيه !

- ايه يا ستافروجين ! اما أنك تعلم شيئاً ما ، واما أنك فعلت شيئاً ما !

انك ••• تمزح !

قال فرخوفسكى ذلك وتقبض وجهه ، وارتعش طرفاً شمته ، ثم

إذا هو ينفجر ضاحكاً ضحكة غريبة على حين فجأة •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بهدوء :

- لقد قبضت من أهلك المال المتأتى عن بيع أرضك • دفعت لك أمى

عن ستيفان تروفيموفتش مبلغ ستة آلاف أو ثمانية آلاف روبل • ففى

وسمعت اذن أن تدفع ألفاً وخمسمائة روبل من هذا المبلغ • كفانى مادفعته

حتى الآن من مال فى سبيل الآخرين • ما أكثر ما أعطيت ذات اليمين

وذات الشمال ! هذا مزعج أخيراً •••

قال ستافروجين ذلك ثم ابتسم من أقواله نفسها •

- ! ... انك تمزح الآن ! ...

نهض ستافروجين • فسرعان ما وثب فرخوفنسكى عن كرسيه ،
وأسند ظهره الى الباب بحركة آلية كأنه يريد أن يمنع ستافروجين من
الخروج • وفيما كان نيقولاى فيسيفولودوفتش يرفع ذراعه لينجيه ويخرج ،
اذا هو يعدل على حين فجأة ، ويقول :

- لن أدع لك شاتوف •

فارتعش بطرس ستيفانوفتش • وحدّق كل من الرجلين الى عيني
صاحبه •

وعاد ستافروجين يتكلم فقال :

- ذكرتُ لك منذ قليل لماذا أنت فى حاجة الى دم شاتوف • انك
تريد أن تستخدم دم شاتوف فى ترسيخ الرابطة التى تشد جماعتك بعضها
الى بعض • لقد حملته على الانصراف ، بحذق وبراعة • كنت تعلم أنه
سوف يرفض أن يقول : « لن أشئ » ، وأنه يجد أن الكذب عليك جبن
منه وعار • ولكن أنا ، ما حاجتك الىّ أنا الآن ؟ انك تلاحقنى منذ لقائنا
فى الخارج • والشروح التى قدمتها لى فى هذا الشأن حتى الآن ليست
الا هذيان محموم • ومع ذلك تحضنى على أن أعطى لبيادكين ألفاً وخمسمائة
روبل من أجل أن يدفع فدكا الى قتله • اننى أعرف : أنت تظن أننى
أريد أن أدفع الى قتل زوجتى فى هذه المناسبة نفسها • وتخيّل أنك بهذه
الجريمة تمسك بى وتسيطر على ، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن فيم تفيدك
هذه السلطة ؟ فيم يمكننى أن أنفعل ؟ أعود فأقول لك مرة أخرى : أنعم
النظر الىّ ، واعرف أننى است الرجل الذى تشده ، ودعنى وشأنى !

سأله فرخوفنسكى لاهياً :

- هل جاء اليك فدكا ؟

– نعم ، جاء • والسعر الذى يطلبه هو أيضا ألف وخمسمائة روبل •
على كل حال ، سوف يؤكد لك هذا بنفسه • ها هو ذا !

قال ستافروجين ماداً ذراعه •

فالتفت بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى فجأة : ان شخصا جديدا
يخرج من الظل ويقف على العتبة : انه فدكا وقد ارتدى معطفاً قصيراً ،
لكنه حاسر الرأس كأنه فى بيته • كان يتسهم ، كاشفاً عن أسنانه البيضاء
المنضودة • ان عينيه السوداوين اللتين تلتمعان التماعاً ضارباً الى صفرة
تفحصان وجوه الشبان الثلاثة بحذر • لم يكن يدرك ما يجرى ، ولم يعزم
أمره على الدخول • واضح أن كيريلوف هو الذى جاء به • وعلى كيريلوف
انما تلبثت نظرتة السائلة أخيراً •

قال ستافروجين :

– لا شك أن استقدمته الى هنا ليشهد الصفقة ، وربما ليرى أن المال
قد أصبح بين يديك منذ الآن ، أليس كذلك ؟

ودون أن ينتظر جواباً ، أسرع ستافروجين يخرج متعجلاً • فخرج
فرخوفنسكى عن طوره ، وهرع يدركه تحت البوابة •

صاح فرخوفنسكى يقول وهو يمسك ستافروجين من كوعه :

– قف ! لا تخط خطوة واحدة أخرى •

حاول ستافروجين أن يتخلص بحركة مفاجئة ، ولكنه لم يستطع
ذلك • فتار غضبه فأمسك بيده اليسرى شعر فرخوفنسكى ، وقلبه
على الأرض بكل ما أوتى من قوة ، واجتاز الباب • ولكنه ما ان قطع ثلاثين
خطوة حتى كان فرخوفنسكى قد أدركه مرة أخرى •

ودمدم فرخوفنسكى يقول بصوت متقطع :

- لتتصلح ! لتتصلح !

فرجع نيقولاى فسيفولودوفتشس منكبيه ، وظل سائراً فى طريقه دون أن يلتفت .

- اسمع ، سأجيبك بليزافتا نيقولايفنا منذ الغد ، هل تريد ؟ لا ؟ لماذا لا تجيب ؟ قل ما تشاء فأنفذ . اسمع ، سأترك لك شاتوف ، هل تريد ؟

- هو اذن صحيح أنك كنت قد قررت قتله ؟

كذلك صرخ ستافروجين .

فعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال متعجلاً :

- ولكن ما حاجتك الى شاتوف ؟

كان صوته يخفق فى حلقه . وكان فى جريه الى جانب ستافروجين لا ينفك يشده فى كل لحظة من كفه ، ربما دون أن يشعر بذلك .

- اسمع ، سأتركه لك ، فلنتصلح . حسابك مئقل . . . ولكن فلنتصلح !

وأخيراً نظر اليه ستافروجين فدُهِش : ليس هذا الصوت صوتَه نفسه ، وليست هذه النظرة نظرتَه نفسها التى كانت له منذ قليل عند كيريلوف . ان أمام نيقولاى فسيفولودوفتشس ستافروجين الآن شخصاً آخر . اللهجة مختلفة : ان فرخوفنسكى يتوسل الآن ويضرع ويبتهل ، زائغ الهيئة تماماً ، كرجل يُسلب أعزّ ما يملك أو سلب أعزّ ما يملك .

هتف ستافروجين يسأله :

- ما بك ؟

ولكن فرخوفنسكى لم يجب ، فهو ما يزال يركض بقربه ويحدّق
اليه بنظرة ضارعة متوسلة لا تنشى •

دمدم يقول مرة أخرى :

– فلنتصافح • اسمع ! أنا أيضاً عندي تحت الجزمة سكين ، مثل
فدكا تماماً • ولكننى أريد أن تتصالح •

فصاح ستافروجين يقول غاضباً ، ولكن على دهشة :

– ماذا تريد منى أخيراً ؟ اذهب الى الشيطان ! ما هذا السر ؟ أنا لك
تميمة ؟

همس فرخوفنسكى يقول :

– اسمع ! سوف تثير روسيا ، سوف نحدث ثورة فى روسيا ••••
كان كمن يهذى • وتابع كلامه :

– ألا تعتقد أننا نستطيع أن نفعل هذا ؟ سوف نحدث من الاضطرابات
والزلازل ما يجعل كل شيء ينهار • ان كارمازينوف على حق : أصبح المرء
لا يستطيع أن يتشبث بأى شيء • كارمازينوف ذكى جداً • عشر حلقات
أخرى كهذه الحلقة فى روسيا ، ثم يصبح القبض على مستحيلاً •

فقال ستافروجين رغم ارادته :

– حلقات مؤلفة من أغبياء كهؤلاء ؟

– أوه ! كن أكثر غباءً يا ستافروجين ! كن أنت نفسك أكثر غباءً !
على كل حال ، لا داعى لأن يتمنى لك المرء ذلك : فما أنت بالذكى جداً •
ولكنك خائف ، لا تملك الايمان • أبعاد الأمر ترعبك • ضخامة المهمة
تبت فى نفسك الهلع • ولماذا تعدهم أغبياء ؟ ليسوا بالأغبياء الى هذا الحد :
ما من أحد يملك اليوم تفكيراً خاصاً به • العقول الأصيلة المستقلة تادرة

جداً في هذا الزمان • فرجنسكى انسان نقى جداً ، أنقى عشر مرات من أناس منلك ومنلى • ما قيمة هذا على كل حال ؟ أما لبيوتين فهو وغد • لكننى أعرف نقطة الضعف فيه • ما من وغد الا فيه نقطة ضعف • صحيح أن ليامشين ليس له نقطة ضعف • ولكننى ممسك به • بضع حلقات أخرى كهذه الحلقة ، ثم يصبح تحت تصرفى فى كل مكان جوازات سفر ، ومال • هذا وحده شئ كثير • ايس هذا بالقليل • ويصبح لى مخابىء مضمونة آوى اليها • فاذا وضعوا أيديهم على احدى الحلقات ، فانتهم الحلقات الأخرى • ستحدث اضطرابات ، وثورات ••• هل يمكن أن لا تصدق أننا نستطيع نحن الاثنين كل شئ ؟

– خذ شيجالوف ، ودعنى وشأنى ! •••

– شيجالوف رجل عبقرى • هل تعرف أنه عبقرى من مستوى فورييه ، ولكنه أجراً من فورييه ، وأقوى من فورييه ؟ سوف أنهم به • لقد اخترع « المساواة » •

قال ستافروجين لنفسه وهو يتفرس فى فرخوفنسكى من جديد :
« انه محموم • انه يهدى » • واستمرا يسيران جنباً الى جنب •

وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال :

– مشروعه عظيم • انه يخلق التجسس • جميع أعضاء المجتمع فى مشروعه يتجسس بعضهم على بعض ، وعليهم أن ينقلوا كل ما يصل الى علمهم • كل واحد ينتمى الى الجميع ، والجميع ينتمون الى كل واحد • كل البشر عبيد ومتساوون فى العبودية • وفى الحالات القصوى يُلجأ الى الاقتراء والى القتل • ولبس الشئ الرئيسى هو أنهم جميعا متساوون • قبل كل شئ ، بجب خفض مستوى التعليم والعلوم المواهب • ان المستوى العالى لا يصل اليه الا أصحاب المواهب • اذن فلا مواهب • ان أصحاب

المواهب يستولون دائماً على السلطة ويصبحون طغاةً مستبدين • ليس
 فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك • ولقد أساءوا دائماً أكثر مما أحسنوا •
 فيجب الغاؤهم أو انزال عقوبة الموت فيهم • شيشرون سيُقطع لسانه •
 كوبرنيك ستُفقأ عيناه • شكسبير سيرُجم بالحجارة • هذا هو مذهب
 شيجالوف • هذه هى الشيغالوفية ! يجب على العيد أن يكونوا متساوين •
 بدون استبداد لم توجد فى يوم من الأيام لا حرية ولا مساواة • ويجب
 أن تعم المساواة القطيع • هذه هى الشيغالوفية • هاهاها ! ••• أيدهشك
 هذا ؟ أنا من أنصار شيجالوف •

كان ستافروجين يُغذئ الخطى ليصل الى بيته بأقصى سرعة • قال
 يحدث نفسه : « اذا كان هذا الرجل سكران ، فأين أمكنه أن يسكر ؟
 أبكون الكونياك الذى شربه منذ قليل هو الذى أسكره ؟ » •

- اسمع يا ستافروجين ! ان توطئة الجبال فكرة ممتازة • ليست
 هذه الفكرة سخيفة مضحكة • أنا من رأى شيجالوف • لا حاجة الى
 التعليم • كفى علماً ! حتى بدون العلم تكفينا الموارد التى نملكها الآن ألف
 سنة أخرى • ولكن علينا أن نقيم الطاعة • الشيء الوحيد الذى يفتقر اليه
 العالم انما هو الطاعة • ان الظلم الى التعليم قد أصبح منذ الآن ظماً
 ارستقراطياً • وما ان تُمكن الأسرة أو الحب من القيام حتى تنشأ الرغبة
 فى النملك على الفور • سوف نقتل هذه الرغبة : سوف نتمى الادمان على
 السكر ، سوف نغذى الافتراء والتخرص ، والسعاية والنميمة • سوف
 نغرق البشر فى فجور لا عهد بمله من قبل ، سوف نقتل كل عبقرية قبل
 أن تولد • سوف يكون جميع الناس متساوين : مساواة مطلقة • « نحن
 نعرف مهنتنا ونحن أناس شرفاء ، ذلك كل ما نحتاج اليه » • هذه هى
 الاجابة التى أجاب بها العمال الانجليز فى الآونة الأخيرة • الضرورى
 وحده ضرورى • ذلك هو الشعار الذى يجب أن ترفعه الانسانية بعد

الآن • ولكن سوف يجب علينا أن نمنحها من حين الى حين بعض الانتفاضات نوقرها لهم نحن القادة • ان العيد يجب أن يكون لهم سادة • طاعة كاملة ، امحاء للشخصية مطلق • ولكن شيجالوف يسمح بالانتفاضات ، مرة كل ثلاثين سنة • وعندئذ يهجم الجميع على الجميع ويلتهم بعضهم بعضاً ، ولكن الى حد ، للتغلب على الضجر فحسب • الضجر شعور أرسقراطي • ان مجتمع شيجالوف لن يعرف الرغبات • لنا نحن الرغبة والألم • أما العيد فلهم الشيجالوفية •

– أتستنى نفسك ؟

– وأستتيك أيضا • هل تعلم أنني فكرت في أن أترك العالم للبابا • فليخرج حافى القدمين ، وليظهر للشعب قائلاً : « انظروا كيف صيروني » ، فاذا الجميع يتبعونه ، حتى الجيش • البابا في القمة ، ونحن حوله ، وتحتمنا الجماهير الخاضعة لنظام شيجالوف • وانما ينبغي فقط أن يقوم اتفاق بين الأمية والبابا • وسيحدث هذا • سيوافق العجوز فوراً • ماذا بقي له أن يفعل غير هذا ؟ تذكر كلماتي • هاهاها ! ... أهذا غباء شديد ؟ ... قل لي أهذا غباء ؟ أهو غباء أم لا ؟ ...

دمدم ستافروجين يقول غاضباً :

– كفى !

– كفى ! اسمع • لقد عدلت عن البابا • ليذهب شيجالوف الى الشيطان ! وليذهب البابا الى الشيطان ! نحن في حاجة الى شيء راهن ، شيء يمكن أن يلهب النفوس • أما أفكار شيجالوف فهي مسرفة في الرهافة والتعقيد • هي مثل أعلى ينتمى الى المستقبل • ان شيجالوف صانع مجوهرات • وهو غبي ككل محب للبشر • لا بد لنا من الاندفاع في أعمال

ضحمة ، وشيجالوف يحتقر هذا النوع من الأعمال • اسمع : فى الغرب
سيكون البابا ، وعندنا ••• ستكون أنت !

غمغم ستافروجين يقول وهو يسرع فى خطاه مزيداً من الاسراع :
- دعنى وشأنى • أنت سكران !

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول كأنه فى نشوة :

- ستافروجين • انك جميل ! وأثمن ما فىك هو أنك يذمق لك
أحياناً أن تجهل ذلك • آه ••• لقد درستك دراسة عميقة ! اننى كثيراً
ما أنظر اليك خلصة • بل ان فىك شيئاً من البراءة أيضاً ، شيئاً من
السذاجة ، هل تعرف هذا ؟ نعم ، ان فىك هذا • لا بد انك تتألم من هذه
السذاجة ، لا بد أنك تتألم منها صادقاً • اننى أحب الجمال • صحيح أننى
عدمى ، ولكننى أحب الجمال • هل العدميون لا يحبون الجمال ؟ ان
العدميين لا يحبون الأصنام المعبودة • أما أنا فأحب الأصنام المعبودة • أنت
معبودى ! انك لا تسيء الى أحد ، ومع ذلك يكرهك جميع الناس • أنت
تعامل الناس معاملة أندادٍ مساوين لك ، ومع ذلك فانهم يخافون منك •
هذا حسن جداً • لا أحد سيجىء يربت على كتفك • انك ارستقراطى ؟
والارستقراطى الذى يجىء الى الديموقراطية يسحر العقول ويأسر النفوس
الى أقصى حد • ليس يكلفك شيئاً أن تضحى حياتك أو حياة انسان آخر •
أنت من نحن فى حاجة اليه • أنت من أنا فى حاجة اليه • ولا أعرف
شخصاً آخر مثلك • أنت الزعيم ، أنت الشمس ، أما أنا فلست الا دودة
من دود الأرض •••

قال فرخوفنسكى ذلك ثم تناول يد ستافروجين فجأة وقبلها •
ارتعش نيقولاى فسيفولودوفتش • وبحركة عنيفة سحب يده • ووقف
الائنان كلاهما •

دمدم ستافروجين يقول لصاحبه :

- أنت مجنون •

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يستأنف كلامه فقال :

- ربما كنت أهذى • نعم ، ربما ،••• لكننى أنا الذى اكتشفت بأى شيء يجب البدء • هذه فكرة ما كانت لتخطر ببال شيجالوف فى يوم من الأيام • أمثال شيجالوف كثيرون جداً ! لكن رجلاً واحداً فى روسيا عرف ما هى الخطوة الأولى التى يجب القيام بها ، وعرف كيف يجب القيام بها • هذا الرجل هو أنا • ما بالك تنظر الى هكذا ؟ أنا فى حاجة اليك • أنا لا غنى لى عنك • أنا بدونك صفر • لست بدونك الا ذبابة ، الا فكرة فى قمقم ، الا كولومب بغير أمريكا ! •••

كان ستافروجين ما يزال ساكناً جامداً يتأمله بانتباه محاولاً أن يقرأ فى عينيه المجنوتين •

وتابع فرخوفنسكى كلامه فقال بصوت لاهت منزعج ، وهو يشد ستافروجين من كمّ معطفه فى كل لحظة :

- اسمع ، سنبدأ بأن نثير اضطرابات • سبق أن قلت لك ذلك • سوف تتسلل الى أعماق أعماق الشعب • هل تعرف أننا أقوياء قوة رهيبه منذ الآن ؟ ان الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويسنعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون • حتى ان هؤلاء قد يكونون أميل الى الاعاقة والعرقلة • اننى لا أقبل شيئاً بدون انضباط • أنا وغد ، ولست اشتراكياً • هاها ! اسمع ، اننى أضع الجميع فى الحساب : ان معلم المدرسة الذى يستهزى مع تلاميذه بالههم ومهادهم واحد منا ؟ والمحامى الذى يدافع عن موكله المثقف مشيراً الى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم ، والى

أنه اضطر أن يقتل للحصول على المال ، هو واحد منا ؟ وتلامذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشدائاً لاحساسات خارقة هم منا ؟ والمحلفون الذين برئتون جميع المجرمين بغير استثناء هم منا ؟ ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفاً متى خطر بباله أنه لم يظهر قدراً كافياً من اللبرالية هو منا . ثم أضف الى هؤلاء ، الموظفين والكتاب . ان كثيرين منهم يتمون الينا دون أن يخطر ذلك ببالهم ! ثم ان طوعية التلاميذ والحمقى طوعية مطلقة . أما المعلمون فانهم ممثلون غيظاً . كل شيء في كل مكان ليس الا غروراً وشهوة حيوانية لا عهد بمثلها من قبل . . هل تتصور مدى المساعدة التي يمكن أن تقدمها لنا الأفكار الجاهزة الرائجة ؟ حين سافرت أنا ، كانت فكرة لثريه هي الشائعة في الناس ، فكانوا يزعمون أيامذاك أن الجريمة أصبحت لا تعدُّ اختلالاً بل دليلاً على سلامة الحس ، بل واجباً أخلاقياً ، أو احتجاجاً كريماً في أقل تقدير . « كيف يمكن لانسانٍ مثقف أن لا يقتل اذا هو احتاج الى مال ؟ » . ولكن هذا ليس الا بداية . انا منذ الآن نرى الاله الروسي قد أذعن للخمسة الرخيصة الثمن . فالشعب يشرب ، والأمهات تشرب ، والأولاد يشربون ، والكنائس خالية مقفرة . وماذا نسمع في محاكم القرويين ؟ « سطل خمرة ، والا فماتنا جلدة ! » . دع لهذا الجيل أن يكبر فقط ! خسارة ! أننا مستعجلون ، فلو كان في وسعنا أن ننتظر ، لما أصبحوا جميعهم الا أشد سكرأ . خسارة ! أيضاً أنه لا توجد بروليتاريا . ولكنها ستوجد . . . ستوجد ! . . . نحن سائرون الى هذا .

جمجم ستافروجين يقول مستأنفا السير :

- خسارة ! أيضاً أننا غدونا أغبياء حقاً .

- اسمع ! لقد رأيت طفلاً في السادسة من عمره يقود الى البيت

امه التي كانت سكرى تماما وكانت تمطره بوابل من أقذع الشتائم . . .

هل تصدق أن هذا قد سرّني ؟ حين سنستولى على السلطة ، فقد نراهم يشفون من دائهم ... وسوف نطردهم الى الصحراء أربعين عاما اذا وجب الأمر . أما الآن فنحن في حاجة الى جيل أو جيلين اثنين من الفاسقين الداعرين . نحن في حاجة الى فساد لا نظير له ، الى تحلل دنيء ، يحيل الانسان حشرةً قادرة حقيرة قاسية أنانية . ذلك ما نحن في حاجة اليه . وعدا هذا سنعطيهم قليلاً من « الدم الجديد » حتى يألفوا ويتعودوا . ما بالك تضحك ؟ اننى لا أناقض نفسي . اننى لا أناقض الا محبى البشر وشيخالوف . أنا وغد ولست اشتراكيا . هاهاها ! ... خسارة فقط أننا لا نملك الوقت الكافى . لقد وعدت كارمازينوف بأن نبدأ فى شهر أيار (مايو) ، وبأن يكون كل شىء قد تمّ فى أول أكتوبر (تشرين الأول) . لن يطول الأمر ، كما ترى . هاهاها ! ... هل تعرف ما سأقوله لك يا ستافروجين ؟ ان الشعب الروسى ، رغم شتائه البذيئة وتجديفاته ، كانت روح الاستهتار غريبةً دائماً عنه . هل تعلم أن الأفنان كان يحترم بعضهم بعضاً أكثر مما يحترم رجل مثل كارمازينوف نفسه : كانوا يتلقون جلدات السياط ، ولكنهم استطاعوا أن يدافعوا عن آلهتهم ، أما كارمازينوف فقد ترك الهه .

قال ستافروجين :

– هذه أول مرة أصغى فيها الى كلامك يا فرخوفنسكى ، ويجب أن أقول لك اننى مذهول مشدوه . ما أنت بالاشتراكى حتماً ، وانما أنت رجل ... طامع ، رجل سياسى .

– بل أنا وغد ، وغد ، كما قلت لك . هل تحب أن تعرف من أنا ؟ سأقول لك : الى هذا انما أريد أن أصل . اننى لم أقبل يدك عبثاً بغير هدف . ولكن يجب أن يؤمن الشعب بأننا نعرف ماذا نريد ، على حين أن الآخرين « يشهرون الهراوة ويضربون ذويهم » . آه ... ليتنا نملك

وقتاً ! ان بلاءنا الوحيد هو افتقادنا الوقت الكافي • سوف تنادى بالتدمير...
 فلماذا... لماذا كانت هذه الفكرة فاتنة آسرة الى هذا الحد؟ نعم ، يجب
 على المرء أن يرخى أعضائه أحياناً !... سوف تشعل حرائق !...
 سوف ننشر أساطير • ومن أجل تحقيق هذا ستفيدنا أسير حلقة صغيرة •
 سأجد لك بين هذه الحلقات هواة يطلقون النار فرحين ، بل يرون أنهم
 نالوا شرفاً عظيماً لأنهم كانوا الأوائل • وعندئذ انما تبدأ البلبلة والثورة •
 وسنشهد انقلاباً لا عهد للعالم بمثله من قبل ••• سيهبط على روسيا ضباب
 كثيف ••• وستبكي الأرض آلهتها القديمة ••• ويومئذ نخرجه •••
 نخرج من ؟

- من ؟

- ابن القيصر ، ايفان •

- كيف ؟

- ابن القيصر ، ايفان ! أنت ، أنت !

فكّر ستافروجين لحظة •

ثم سال المجنون وهو ينظر اليه بدهشة عميقة :

- محتمل ! هذه اذن خطتك ؟

وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال بصوت عذب ، بصوت يشبه أن يكون

صوت عاشق ولهان (وكان فى الواقع يبدو سكران) :

- سوف نقول انه « مختبىء » • هل تعلم ماذا تعنى هذه الكلمة

« مختبىء » ؟ ولكنه سيظهر ، سيظهر • سوف نخلق أسطورة أجمل من

أسطورة سوبتزي • « انه موجود ، ولكن أحداً لم يره بعد » • ما أروع

الأسطورة التى يمكن خلقها فى هذا الشأن ! ولكن الشيء الرئيسى هو أن

ذلك سيكون قوةً جديدةً • وحاجتنا انما هي الى قوة جديدة • الى قوة جديدة انما نحن نتوق • ما الذي تجيء به الاشتراكية ؟ لقد حطمت القوى القديمة ، ولكنها لم تخلق قوى جديدة • أما نحن فسنملك قوة ، وبإلها من قوة ! على شرط أن نملك رافعة ، ولو لحظةً قصيرة ، رافعةً تتيح لنا أن نرفع الأرض • وسيتور الجميع حينذاك •

قال ستافروجين وهو يتسهم ابتسامة سخرية :

– هل يمكن أنك تعتمد على جاداً ؟

فقال فرخوفنسكى :

– لماذا تبسّم ، ولماذا تبسّم ابتسامة فيها هذه السخرية كلها ؟ لا تروّعنى ! أنا الآن أشبه بطفل • تكفى ابتسامة كابتسامتك لقتلى خوفاً . اسمع ! لن أظهرك لأحد ، لن أظهرك لأحد البتة • انه موجود ، ولكن أحداً لم يره • انه مخبئ • مع ذلك ربما كان من الممكن اظهارك ، لواحد من مائة ألف مثلاً • وستضج الأرض كلها حينذاك : « لقد رثى ، لقد رثى ! » • ألم يروا ايفان فيليوفتشس ، ألم يروا الاله يهوه مختطفاً من السماء فى عربة من نار • ألم يروا «بأعينهم» ؟ وأنت لست ايفان فيليوفتشس • أنت جميل ، وأنت ذو كبرياء كاله ، ولست تسعى الى شئ لنفسك ؟ سوف تحيط به هالة التضحية : « المخبئ » ! أسطورة • ذلك هو الشئ الرئيسى ! سوف تنتصر ، تكفيك نظرة لتنتصر • انه يجيء بحقيقة جديدة و « يخبئ » • وسنطلق ، الى هذا ، بحكمين أو ثلاثة من أحكام سليمان • لا حاجة الى الجرائد • حلقاتنا ستولى نشر الشائعة • ويكفى أن نلبى طلباً من عشرة آلاف طلب حتى يتجه الجميع الينا • فى كل قرية سيعرف كل فلاح أن فى مكان ما جذعاً يجب عليه أن يودعه التماسه • وستنتشر فى الأرض كلها شائعة تقول : « لقد صدر قانون

جديد ، قانون عادل ! » • البحار ستهتاج ، والمنزل الحشبي القديم
سبتهوى • وعندئذ نفكر فى شيد بناء من حجر ، لأول مرة • و « نحن »
الذين سنشيدده ، نحن وحدنا •

قال ستافروجين مدمماً :

– جنونٌ هذا كله •

– لماذا ؟ لماذا لا تريد ؟ أتخاف ؟ ولكن لئن كنت أتشبت بك ، فما
ذلك الا لأنك لا تخاف من شيء • أياكون هذا ابتعادا عن العقل • ما أنا
الآن الا كولومب بدون أمريكا • هل يمكن أن يكون كولومب بدون
أمريكا عاقلاً ؟

لزم ستافروجين الصمت • وفى أثناء ذلك وصلاً ، ووفقاً أمام درجات
الباب •

همس فرخوفنسكى يقول فى أذن نيقولاى فسيفولودوفتش :

– اسمع • سأدبر كل شيء بغير مال • سأفرغ منذ الغد من ماريا
تيموفتفنا ••••• ولن يكلفك هذا شيئاً • وفى غدٍ سأجيئك بليزا • هل
تريد ليذا غدا ؟

حدث ستافروجين نفسه فتساءل مبتسماً : « أتراه فقد عقله حقا ؟ » •
وفتح الباب •

سأله فرخوفنسكى وهو يمسك ذراعه :

– ستافروجين ، هل أمريكا لنا ؟

فأجابه ستافروجين بجفاء :

– فيم يفيدنا هذا ؟

– لا تريد ؟ كنت أتوقع هذا ! •••

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش وقد ثارت تائثرته على حين فجأة •
وتابع كلامه فقال :

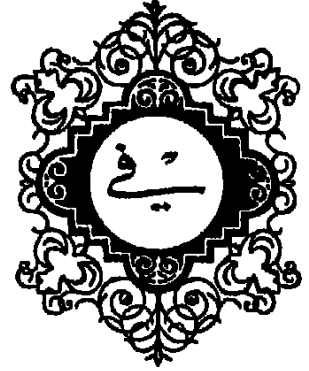
- أنت تكذب ، أيها السيد الشرير الفاجر الداعر • لست أصدقك •
ان لك شهوة ذئب ! ••• افهم أخيراً أن حسابك أشد ثقلاً من أن أتنازل
عك • أنت فريد في العالم • لقد اخترعتك منذ لقائنا في الخارج •
اخترعتك وأنا ألاحظك • لولا أنني لاحظتك خلسةً لما خطر ببالى شيء •
صعد ستافروجين السلم دون أن يجيب •

وصرخ فرخوفنسكى :

- ستافروجين ! اننى أمهلك يومين ••• بل أمهلك ثلاثة أيام •
لكننى لا أستطيع أن أمهلك أكثر من ذلك • لا بد لى من جواب •

الفصل التاسع

«مصار» في بيت ستيفان تروفيموفتش



تلك الأثناء حدث أمر أدهشني كثيراً وأدخل في نفس ستيفان تروفيموفتش أشد الاضطراب • ففي الساعة الثامنة من الصباح هرعت الى ناستاسيا من عنده لتبلغني أن مولاها قد « صودر » • فلم أفهم في البداية شيئاً • فقالت ان موظفين قد جاءوا وقاموا « بمصادرة » ، فأخذوا أوراقاً لفتها جندي بخيط و « حملها على نقالة » • بدت لي هذه القصة عجيبة كل العجب • فأسرعت الى بيت ستيفان تروفيموفتش • وجدته في حالة غريبة جداً : كان منفعلاً ، مضطرباً ، وكان وجهه في الوقت نفسه يعبر عن معنى الانتصار • وعلى مائدة ، الى جانب كأس من الشاي لم يشرب منها شيء ، كان هناك سماور يغلي ماؤه • ان ستيفان تروفيموفتش يدور حول المائدة ، أو يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً ، دون أن يدرك ماذا يفعل • وهو يلبس ، على عادته ، ثوب التريكو الأحمر ، ولكنه ما ان رأيته حتى أسرع برتدي صديرته وردنجوته ، وذلك أمر ما كان يفعله أبداً في الماضي حين يفاجئه صديق وهو بثوب التريكو •

– « أخيراً يصل صديق » ! (بالفرنسية) •

قال ذلك وتنفس من أعماق صدره • ثم تابع كلامه :

– « عزيزي » (بالفرنسية) ، أنت الشخص الوحيد الذي بعثت

أنبئه بما حدث ، ولا أحد يعرف شيئاً البتة • يجب أن نقول لناستاسيا أن تغلق الباب ، ولا تدع لأحد أن يدخل ، الا «هم» طبعاً ••• «هل فهمت؟»
(بالفرنسية) •

كان ينظر الى قلقاً كأنه ينتظر جواباً • وأسرعت أسأله طبعاً عما حدث ، فاستطعت كيفما اتفق أن أستخرج من أقواله المفككة التي تقطعها وقفات واستطرادات لا داعي لها أن موظفاً من موظفي الاقليم قد جاءه «فجأة» في الساعة السابعة من الصباح •

– « معذرة ، لقد نسيت اسمه • ما هو من أبناء هذه البلاد »
(بالفرنسية) ولكنني أعتقد أن لمبكه هو الذي جاء به • « شخص غبي ألماني
الهيئة اسمه روزتال » •

– أترأه هو بلومر ؟

– بلومر • نعم ، هذا هو الاسم الذي ذكره • « هل تعرفه ؟ شخص
أهبل يدل وجهه على رضاه عن نفسه ، وهو مع ذلك فاس صلب جاد »
(بالفرنسية) • هيئته هيئة رجل من رجال البوليس ، من رجال البوليس
السرى • « انني أعرفهم » (بالفرنسية) • كنت ما أزال نائماً • وطلب
مني أن يلقي نظرة على كتيبي ومخطوطاتي ، هل تتخيل هذا ؟ « نعم ،
أتذكر ، لقد اسعمل هذه الكلمة » (بالفرنسية) • لم يعتقلني ، ولكنه
أخذ الكنب ••• « كان يقف بعيداً » (بالفرنسية) ، ولما بدأ يشرح لي
الغرض من زيارته ، كان وجهه يدل على أنه يتصور أنني ••• « الخلاصة
كان وجهه وجه من يظن أنني سأهوى عليه فوراً وأخذ أضربه ضرباً
عنيفاً • جميع أمثاله من أبناء الطبقة الدنيا هم كذلك » (بالفرنسية) حين
يجدون أنفسهم أمام رجل محترم • طبعي أنني فهمت كل شيء على الفور •
« انني أتهماً لهذا منذ عشرين سنة » (بالفرنسية) • فتحت له جميع

الأدرج وأعطيته المفاتيح : أعطيته المفاتيح بنفسى ، سلّمته كل شيء .
 « كنت رصيناً وهادئاً » (بالفرنسية) • أخذ من الكتب طبعات هرتسن
 الأجنبية ، والنسخة المجلدة من « الناقوس » ، وأربع نسخ من قصيدة ،
 « الخلاصة » ، أخذ كل ذلك » (بالفرنسية) • وأخذ أوراقاً ورسائل
 وأخذ « بعض مسوداتى التاريخية والنقدية والسياسية » (بالفرنسية) •
 ذلك كله حملوه • لقد قالت ناستاسيا ان جندياً حمل هذه الأشياء كلها على
 نقالة مغطاة بغطاء ، نعم ، « هكذا » (بالفرنسية) ، بغطاء •

كان يهذى • من ذا يستطيع أن يفهم من كلامه شيئاً ؟ وطفقت ألقى
 عليه الأسئلة من جديد : هل جاء بلومر وحيداً ، أم كان معه أحد ؟ من
 أمره بالمجيء ؟ بأى حق ؟ كيف جرؤ ؟ ما هو التفسير الذى ذكره ؟

— « كان وحيداً ، وحيداً ، نعم » (بالفرنسية) ••• على كل حال
 كان هناك شخص آخر « فى حجرة المدخل ، أتذكر ذلك ، ثم ••• »
 (بالفرنسية) • نعم كان هناك شخص آخر على كل حال ، فيما أظن •
 وفى المدخل كان يربط حارس • يجب أن نسأل ناستاسيا • هى تعرف
 ذلك كله خيراً مما أعرفه أنا • « كنت أنا مهتاجاً مهتاجاً شديداً ، كما
 تعلم » (بالفرنسية) • « وكان يتكلم ، ويتكلم ••• قال أشياء كثيرة
 جداً ••• » (بالفرنسية) • ولكنه لم يتكلم الا قليلاً ، وانما كنت أنا
 الذى أتكلم • رويت قصة حياتى كلها ، من هذه الناحية طبعاً • « صحيح
 أننى كنت مهتاجاً مهتاجاً شديداً ، ولكننى كنت رصيناً ، أوكد لك »
 (بالفرنسية) • على اننى أخشى أن أكون قد بكيت • أما النقالة فقد
 أخذوها من عند صاحب الدكان التى تقع بجانبنا •

— رباہ ! كيف أمكن أن يقع هذا كله ! ولكن ناشدتك الله ياستيفان
 تروفيموفتش ، تكلم بشيء من الدقة والوضوح ! ان ما تقصه على حلم •

– « عزيزى » (بالفرنسية) ••• أنا نفسى أعتقد بأننى أحلم •••
« هل تعلم ؟ » (بالفرنسية) • « لقد نطق باسم تلياتيكوف » (بالفرنسية)
وأظن أن تلياتيكوف هذا هو الذى كان مختبئاً عند المدخل • نعم ، أتذكر
الآن : لقد اقترح علىّ أن استدعى وكيل النيابة ودمترى متريتش فيما
أظن ••• « دمترى متريتش الذى ما يزال مدينياً لى بخمسة عشر روبلاً
ربحتها منه فى اللعب بالورق ••• أقول هذا بالمناسبة عابراً ••• الخلاصة :
اننى لم أفهم كثيراً • « (بالفرنسية) • ولكننى كنت أمكرّ منهم • ماشأنى
ودمترى متريتش ! أظن اننى رجوته أن يُبقى الأمر سراً ، نعم توسلت
إليه ، ضرعت إليه ••• أخشى أن أكون قد أسرفت فى التذلل له •
« ما رأيك ؟ » ••• الخلاصة أنه قبل ••• بل لا ••• اننى أتذكر أنه هو
الذى قال ان الأفضل أن يبقى الأمر سراً مكتوماً ، لأنه لم يجيء الا لالقاء
نظرة عابرة ، على حد تعبيره ••• ولا شىء غير ذلك ، نعم ، لا شىء غير
ذلك ، فاذا لم يفتر على شىء بقى الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه • لذلك
افترقنا « صديقين » • « اننى راض كل الرضى » •

هتفت أقول له مستاءً استياء الصديق من صديقه :

– ما هذا الذى تقوله ؟ أيعرض عليك ضمانات هى من حقت فى مثل
هذه الحالة ثم ترفضها بنفسك ؟

– كان الأحسن أن أتنازل عن الضمانات • علام أحدث فضيحة ؟
لقد كان من الأفضل أن نفرق صديقين مؤقتاً ••• ذلك أن الأمر اذا شاع
فى المدينة ، « فان أعدائى ••• ثم علام وكيل النيابة ، علام هذا التخزير
وكيل النيابة الذى أساء الأدب معى مرتين ، والذى ضُرب ضرباً مبرحاً
فى احدى السنين عند تلك الفاتنة الجميلة ناتاليا بافلوفنا ، حين اختبأ فى
مخدعها • ثم ••• يا صديقى » ، لا تواجهنى باعترافات تلو اعتراضات،

ولا تؤسنى وتبسط عزيمتى ، أرجوك ، فحين يكون المرء تعيساً فلا شيء أبغض إليه وأبعد عن قدرته على الاحتمال من أن يسمع أصدقاءه يقولون له انه ارتكب غلطة • ولكن هلاًّ جلست وشربت كأساً من الشاي ! أما أنا فأعترف بأننى متعب كثيراً ••• يخيل الىّ أنّى أحسن صنعا إذا أنا اضطجعت ووضعت كمادة خلٍ على رأسى • ما رأيك ؟

صحت أقول له :

- حتماً • بل أنت فى حاجة أيضاً الى جليد • انك مضطرب اضطراباً شديداً • وجهك شاحب ويداك ترتعشان • اضطجع ، ارتج قليلاً ، ولا تقل شيئاً • سابقى جالساً الى جانبك انتظر أن تتحسن حالك •

لم يشأ أن يضطجع • ولكننى ألححت • وجاءتنا ناستاسيا بخلٍ فى طاسة • فبلت بالخل منشفة ووضعت المنشفة على رأسه • ثم صعدت ناستاسيا على كرسى وأخذت تشعل قنديلاً أمام الأيقونة • لاحظت ذلك مدهوناً • فأننى لم أرَ عند صاحبى قبل ذلك قنديلاً قط •

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لى وهو يرمقنى بنظرة ماكرة :

- أنا الذى أمرت ناستاسيا بذلك بعد انصرافهم رأساً • « اذا كان لدى المرء أشياء من هذا النوع ، وجاءوا يعتقدونه » فان هذا يكون له أثره ، لأنهم لا بد أن ينقلوا ما رأوا •••

أشعلت ناستاسيا القنديل ، وظلت واقفةً فى العتبة ، مسندة خدها الى راحة يدها اليمنى ، وأخذت تتأمل مولاها وقد ظهر على وجهها حزن شديد •

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لى :

- « أبعدها » بأية حجة من الحجج • اننى أكره هذه الشفقة الروسية • ثم ان هذا يضايقنى ويزعجنى •

ولكن ناستاسيا خرجت بعد لحظة من تلقاء نفسها • ولاحظت أنه لا ينقطع عن النظر الى الباب والاصغاء الى أيسر ضجة صادرة عن حجرة المدخل •

قال وهو يلقي على نظرة ذات دلالة :

- « يجب على المرء أن يكون مستعداً ، كما تعلم » • فى أية لحظة قد يأتون ، فيقتادوننى ، فاذا أنا أختفى فى مثل لمح البصر •

- عجيب ! ما هذا الذى تقول ؟ من ذا يختفى ؟ من الذى يقتادك ؟

- « يا عزيزى » لقد سألته ملحاً حين انتهى عما سيفعلونه بى •
صحت أقول مستاءً :

- ليتك سألته أيضا الى أين سيفونك !

- ذلك بعينه ما عينته بسؤالى • ولكنه انصرف دون أن يجيبنى •
فيما يتعلق بالملابس والثياب ، ولا سيما الثياب الدافئة ، سوف يكون الأمر على ما يحبون • فاذا أذنوا لى بحملها كان هذا من حسن حظى ، ولكنهم يستطيعون أيضا أن ينفونى مرتدياً معطف جندى • غير أننى (هنا خفض صوته وهو ينظر الى الباب الذى خرجت منه ناستاسيا منذ هنيهة) قد دستت خمسة وثلاثين روبلاً فى بطانة جيب صديرتى التى كانت مفتوحة • أنظر ، هى هنا ، جُسَّها بيدك • أظن أنهم لن يتزعوا منى صديرتى • ومن أجل التمويه ، تركت سبعة روبلات فى محفظة نقودى ، فكأننى أقول لهم : « هذا كل ما أملك » ، ثم انى تركت قليلاً من النقود على المائدة ، بحيث لا يحزرون أننى خبأت المال ، بل يعتقدون أن هذا كل شيء فعلاً • الله يعلم أين سأقضى الليلة !

خفضت رأسى أمام هذا الجنون • واضح أن اعتقال الناس وتفشيهم لا يكون بهذه الطريقة التى يصفها • لقد خلط كل شيء ما فى ذلك شك •

صحيح أن هذه القصة كان يجرى مثلها قبل تطبيق القوانين الجديدة •
 وصحيح أيضا أنه قد اقترح عليه إجراءً أقرب الى الأصول المتبعة ، ولكنه
 « كان أمكرّ منهم » فرفض ••• ولا شك أن الحاكم فى الماضى ، منذ زمن
 غير بعيد ، يستطيع فى بعض الحالات القصوى ••• ولكن أين « الحالة
 القصوى » هنا ؟ ذلك ما كان يدهشنى •

قال ستيفان تروفيموفتش فجأة :

– لا شك أنهم تلقوا برقية من بطرسبرج •

– برقية ؟ بشأنك ؟ عن مؤلفات هرتسن وقصيدتك ؟ انك فقدت
 عقلك • لا يُعتقل الناس لأسباب كهذه •

لقد غضبتُ فعلاً • فصعّر وجهه ، وظهر عليه التأذى ، لا من
 لهجتى بل من قولى انه ليس ثمة ما يدعو الى اعتقاله •

دمدم يقول بهيئة ملغزة :

– هل يعرف المرء فى هذا الزمان لماذا يمكن أن يُعتقل ؟

فاذا بفكرة مجنونة تلمع فى ذهنى على حين فجأة ، فأقول له :

– ستيفان تروفيموفتش ، قل لى وأنا صديقك الذى لن يخونك :
 أنت تنتمى الى جمعية سرية ما ؟

فما كان أشد دهشتى حين لاحظت أنه هو نفسه لا يعرف • ذلك أنه
 أجابنى بقوله :

– هذا يتوقف على الجهة التى ننظر منها الى الأمور •••

– كيف ؟

– حين ينذر المرء نفسه لفكرة التقدم من أعماق قلبه ، وحين •••

مَنْ ذَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْزِمَ؟ رَبُّ شَخْصٍ يَتَخِيلُ أَنَّهُ لَا يَنْتَمِي إِلَى آيَةٍ جَمِيعَةٍ،
حَتَّى إِذَا نَظَرَ إِلَى الْأَمْرِ مِنْ كِتَابٍ اكْتَشَفَ نَقِيضَ هَذَا تَمَامًا •

- مستحيل • أما أنه ينتمي وأما أنه لا ينتمي !

- يرجع عهد هذا الأمر إلى أيام بطرسبرج ، إلى الوقت الذي أردنا
فيه إنشاء مجلة • ذلك مصدر كل شيء • لقد انصرفنا حينذاك فنسونا ، ثم
تذكرونا الآن • عزيزي ، ألا تعرف كيف تجري الأمور ؟

كذلك هتف متوجهاً ، وتابع كلامه يقول :

- يعتقلونك ويُرْكَبونك زحافة ويمضون بك إلى سيريا إلى الأبد أو
بنسونك في معقل من المعازل •

قال ذلك وانفجر يبكي منتحياً • كانت دموعه تسيل غزيرةً على
خديه ، وظل ينشج هذا الشيخ المشنح خلال خمس دقائق ، ضاغطاً
بمنديله الأحمر على عينيه •

اضطربتُ من ذلك اضطراباً شديداً • إن هذا الرجل الذي كان لنا
بمثابة نبي منذ عشرين سنة إلى الآن ، وكان معلمنا ، وكان أماننا ، وكان
يعاملنا بتلك الأبوة وتلك الفخامة كلها ، وكان يتسلط علينا من علٍ ، وكنا
نقدسه تقديساً من أعماق قلوبنا ، ونعدُّ وجوده بيننا شرفاً لنا ، إن هذا
الرجل ينتحب الآن انتحاب صبي مذنب ينتظر أن يُجسّد بالسوط •
شعرت نحو بشفقة عميقة • إنه يؤمن بأن الزحافة آتية لنقله كإيمانه
بوجودي قربه ، بل إنه ينتظر وصولها في هذا الصباح نفسه • إنه يؤمن
بأنهم سيحيون لاعتقاله في هذه اللحظة ذاتها • وذلك كله بسبب مؤلفات
هرتسن ، وبسبب قصيدة لا أدري ما هي ! ألا إن هذا الجهل بالواقع
وانفصال عنه يبلغان من التمام والقوة ما يجعل حالة الرجل مؤثرة ومغيظةً
في آن واحد •

وأخيراً كَفَّ عن البكاء ، وقام عن ديوانه ، وعاد يمشى فى الغرفة طويلاً وعرضاً ، مع استمراره فى التحدث الى . ولكنه كان ينظر من النافذة من حين الى حين ، ويصيح بسمعه الى أيسر ضجة . وكان حديثنا متقطعاً لا تسلسل فيه ، وكانت جميع الأقوال التى يمكن أن أسوقها له لأطمئنه لا تحدث فيه أى تأثير . كان لا يصغى الا قليلاً ، ولكنه كان فى حاجة كبيرة الى أن أهدىء روعه وأطمئن نفسه ، والى أن يسمعنى أتكلم فى هذا المعنى بغير توقف . ورأيت أنه أصبح لا يستطيع الاستغناء عنى ، وأنه لن يدع لى أن أنصرف بحال من الأحوال ، فبقيت وقضينا معاً أكثر من ساعتين . وتذكر أثناء الحديث أن بلومر أخذ منشورين وجدهما بين أوراقه .

هتفت أقول بغير روية ولا حذر :

– منشورات تحريضية ؟ هل يُعقل أن تكون . . .

فأجاب بلهجة مغتظة :

– دسوا لى منها نحو عشرة . . . فتخلصت من ثمانية ولم يعثر بلومر

الا على اثنين . . .

كان يتكلم تارة بتعالٍ وسخط ، وتارة بشكوى ومذلة .

واحمر وجهه استياءً على حين فجأة ، وقال :

– « أتضعنى مع أولئك الناس ! » هل تستطيع أن تفترض أن من

الممكن أن أشارك مع هؤلاء الأوغاد الأندال ، مع هؤلاء الجواسيس ، مع

ابنى بطرس ستيفانوفتش ، مع هذه « النفوس الزاخرة جنباً وحقارة ! »

آه ! . . . ربه ! . . .

– ذلك ما أتساءل عنه وأشك فيه ! أتراهم خاطوا بينك وبين شخص

آخر . . . ولكن لا . . . هذا سخف ! . . . مستحيل !

- « اسمع » ... انى أشعر أحيانا بأنى « سأحدث هنالك فضيحة ما » • آه ... لا تخرج • لا تدعنى وحيداً ؛ « لقد انتهت حياتى الفكرية والثقافة الآن • أشعر بهذا • » هل تعلم أن من الممكن أن أهاجم على أحد الناس وأن أعضه ، كما فعل الملازم الثانى ...

قال ذلك ورشقتنى بنظرة غريبة وجلة ، ولكنها فى الوقت نفسه نظرة يقرأ فيها المرء معنى الرغبة فى التخويف • كان الحق يستولى عليه • وكان يبدو غاضباً مزيداً من الغضب على شخص ما وعلى شىء ما ، كلما انقضى الوقت ولم تصل « الزحاقة » • كان مسعوراً من شدة السخط فعلاً • وفجأة اصطدم ناستاسيا ، التى كانت فى حجرة المدخل ، اصطدمت بحمالة المعاطف فأسقطها على الأرض • فتجمد ستيفان تروفيموفتش فى مكانه من شدة الهلع • ولكن حين اتضح له الأمر ، أخذ يصرخ فى وجه ناستاسيا ، وقرع الأرض بقدمه ، وطرده ناستاسيا الى المطبخ • وبعد دقيقة ، قال لى بهيئة يائسة :

- لقد هلكت يا عزيزى !

وجلس بقربى ، وحدق الى عيني بنظرة تثير الشفقة • وأردف يقول :

- « يا عزيزى » ، أنا لست خائفاً من سيريا ، أحلف لك ...

حتى لقد تفرق الدمع فى عينيه • وأضاف قائلاً :

- وانما أنا خائف من شىء آخر ...

فأدركت من النظر فى وجهه أن هناك أمراً خطيراً خطورة خاصة يريد أن يقوله لى ، ولكنه يتردد منذ برهة فى الإفصاح عنه • وهمس يقول أخيراً بلهجة تحمل معنى السر :

- أنا انما أخاف العار •

– أى عار؟ صدّقنى يا ستيفان تروفيموفتش : ان كل شىء سيتضح
فى هذا اليوم نفسه لمصلحتك •

– أنت واثق بأنهم سيفغرون لى ؟

– يغفرون لك ماذا؟ ما معنى هذا التعبير؟ أى جريمة ارتكبت؟
أؤكد لك أنك لم تجن أى ذنب •

– « ما يدريك يا عزيزى؟ » • لقد كانت حياتى كلها •••
« يا عزيزى » ••• لسوف ينبشون ماضىّ كله ••• فاذا لم يعثروا على
شىء ، كان ذلك « أسوأ وأنكى » عندى •

ما كان أسد دهشنى حين سمعت منه هذه الحملة الأخيرة ! •••

– أسوأ وأنكى عندك؟

– نعم •

– لا أفهم !

– صديقى ، صديقى ، لا تهمنى سيرباً ، لا تهمنى آرخانجلسك ،
لا يهمنى فقدان جميع حقوقى • ان المرء لا يموت الا مرةً واحدة ••••
أما ما أخشاه فهو شىء آخر •••

• هنا عاد الى الهمس ، والهيئة المروّعة ، ولهجة السر •

– فما الذى يخيفك؟ ما الذى يخيفك؟

فقال أخيراً زائغ العينين :

– السوط •

فعدت أهتف خائفاً على عقله :

– من ذا الذى يمكن أن يجلدك بالسوط؟ وأبن؟ ولماذا؟

- ابن ؟ هناك ، حيث يتم الجلد بالسياط •

- ولكن أين ؟

- آه ••• عزيزى •••

كذلك دمدم يقول لى بما يشبه الهمس فى الأذن :

- آه ••• عزيزى ••• تخسف الأرض فجأة تحت قدميك ، فتفور

الى منتصف جسمك ••• جميع الناس يعرفون هذا •

صحت أقول وقد فهمت أخيراً ماذا يريد أن يقول :

- حكايات خرافية • هل يُعقل أنك ما تزال تصدق هذه الحكايات

الخرافية القديمة ؟

وانفجرت ضاحكاً •

- حكايات خرافية ؟ لا دخان بلا نار • الذين ذاقوا هذا لا يفتخرون

به طبعاً • لقد تصورت بالخيال ألف مرة كيف تجرى الأمور •

- ولكن أنت ، علام يجلدونك ؟ انك لم تفعل شيئاً •

- تماماً ، سوف يرون أننى لم أفعل شيئاً فيجلدوننى •

- وهل أنت مقتنع بأنهم لهذا الغرض انما سيقتادونك الى بطرسبرج ؟

- يا صديقى ، قلت لك اننى غير آسف على شيء • « لقد انتهت

حياتى الفكرية والثقافية » • منذ أن ودعتنى فى سفورشيكي لم يبق

للحياة من قيمة عندى • ولكنه العار ! العار ! « ما عساها تقول حين تعلم ؟ » •

قال ذلك واحمر احمرارا شديدا ، ونظر الى يائساً • فخفضت

عينى • ثم قلت له :

– لن تعلم شيئاً لأن شيئاً لن يحدث • انك تدهشني كثيراً في هذا الصباح ، حتى ليدو لي أنتى أكلمك لأول مرة في حياتى يا ستيفان تروفيموفتش •

– يا صديقى ، ليس هو الخوف • هبهم غفروا لي ، وأعادونى الى هنا دون أن يصنعوا بى شيئاً • لقد هلكت مع ذلك • « ستظل تشبهه فى طوال حياتى » ••• أنا الشاعر ، أنا المفكر ، أنا الرجل الذى قدستى على مدى عشرين عاماً •••

– لن تخطر لها هذه الفكرة على بال •

دمدم يقول باقتناع عميق :

– بلى • لطالما تكلمنا معا فى بطرسبرج أيام الصوم الكبير قبل رحيلنا ، حين كنا كلانا خائفين ••• « سوف تشبهه فى طوال حياتها » • من ذا الذى يستطيع أن يحولها عن هذا الخطأ ؟ مستحيل ! ومن ذا الذى سيصدقنى أنا فى هذه المدينة الصغيرة الحقيرة ؟ ••• « ثم النساء ! » ••• سوف تكون هى سعيدة • صحيح أنها ستألم ، ستألم كثيراً ، ستألم المأ صادقاً ، لأنها صديقة حقا ، ولكنها فى قرارة نفسها ، فى سرها ، ستسر سروراً عظيماً ••• سأكون قد زودتها بسلاح ضدى مدى الحياة ••• آه ••• لقد تحطمت حياتى • عشرون عاماً انقضت فى سعادة كاملة ••• والآن ! •••

قال ذلك ودفن وجهه فى يديه •

فقلت مقترحاً :

– ستيفان تروفيموفتش ، ألا يحسن أن تنبىء فرفاراً بشروفا فوراً بما حدث ؟

فما سسع هذا الاقتراح حتى وثب عن دبوانه وقال :

– معاذ الله ! مستحيل ! أبداً ! يستحيل أن أفعل هذا بعد الذي جرى
 فى سفور شنيكى ! أبداً !
 • وسطعت عيناه •

أحسب أننا لبثنا على هذه الحال ساعةً بل أكثر ، ننتظر حادثاً يجب
 أن يقع فيما تصور • وتمدد من جديد ، وأغمض عينيه ، وظل مستلقياً
 قرابة عشرين دقيقة دون أن ينطق بكلمة ، حتى ظننت أنه قد نام ، أو أنه
 غفا فى أقل تقدير • وها هو ذا ينتصب فجأة ، فينزع عن رأسه المنشفة
 المبللة ، وبثب عن الديوان ، ويهرع الى المرأة ، فيعقد رباط عنقه مرتعش
 اليدين ، وينادى ناستاسيا بصوت مرعد ، ويأمرها بأن تهيب • له معطفه
 الجديد ، وقبعته ، وعصاه •

قال بصوت لاهث :

– نفذ صبرى • هذا فوق ما أطيق • اننى ذاهب الى هناك بنفسى •
 سألته وأنا أنهض أيضا :

– الى أين ؟

– الى لمبكه • يا عزيزى ، لا بد لى أن أذهب اليه • هذا واجبى •
 اننى رجل ، اننى مواطن ، ولست قشة حقيرة • ان لى حقوقا • واننى
 لأطالب بأن تحترم حقوقى ••• لقد أهملت حقوقى هذه مدة عشرين
 عاما ، أهملت طول حياتى اهمالاً اجرامياً ••• أما اليوم فاننى أطلب بها •
 يجب عليه أن يقول لى كل شىء • نعم ، كل شىء • لقد تلقى برقية ،
 ولكننى لا أسمح له بأن يعذبنى • ليقتلنى ، ليقتلنى ، ليقتلنى !

• كان يصرخ بصوت حاد وهو يقرع بقدمه الأرض •

قلت له بأكبر هدوء ممكن رغم ما تثيره حالته فى نفسى من قلق

شديد عليه :

- اننى أؤيدك • هذا أفضل حتما من أن تبقى هنا نهياً للعذاب •
ولكننى لا أؤيد فرط احتياجك • انظر الى وجهك فى المرأة • ما هذه
الهيئة ؟ كيف يمكنك أن تمثل هناك على هذه الحال • « يجب أن تكون
رصيناً هادئاً مع لمبكه » • انك لا تتورع الآن عن الهجوم على الناس
وعضتهم •

- اننى أسلمهم نفسى • اننى أرمى نفسى فى فم الأسد •

- سأرافقتك •

- لم أكن أتوقع غير هذا من صداقتك • اننى أقبل تضحيتك هذه
التي هى تضحية صديق حق • ولكنك لن تصحبني الى منزل لمبكه •
لا يجب عليك ، وليس من حقتك أن تعرض نفسك للخطر بصحبتى مدةً
أطول • أوه ! « صدقتى : سأكون هادئاً » • اننى أشعر فى هذه اللحظة
بأننى سأكون « فى مستوى أقدس ما أقدمس » •

قلت أقاطعه :

- ربما دخلت معك • ان لجتهم السخيفة قد أبلغتني أمس بواسطة
فيسوتزكى أنه يعتمد علىّ ، ودعنى الى الاشتراك فى حفلة القد مفوضاً
(هذه هى التسمية فيما أظن) ••• فساكون اذن فى عداد الشبان الستة
المكلفين بمراقبة الخدمة ، وملاطفة السيدات ، واصطحاب المدعوين الى
أماكنهم • وسنضع على أكتافنا اليسرى عقدة من شرائط بيض وحمرة •
لقد أردت أن أرفض ، ولكننى أستطيع أن أدخل الآن الى المنزل بحجة
أننى أريد التحدث الى جوليا ميخائيلوفنا • سنذهب اذن معاً •

كان يصفى ويهز رأسه ، ولكن كان يبدو عليه أنه لا يفهم شيئاً •
ووصلنا الى العتبة • فاذا هو يقول لى ماداً ذراعه نحو الايقونة :

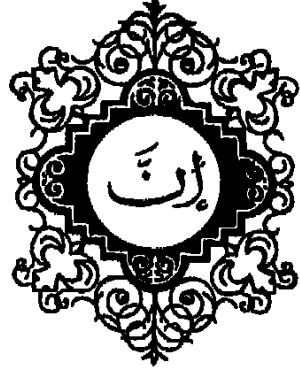
- عزيزى ، عزيزى ، اننى لم أؤمن بهذا... ولكن... فليكن ،
فليكن... هيّا بنا •

قال ذلك ورسم اشارة الصليب على نفسه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أهبط درجات المدخل : « هذا أفضل •
سوف يحسن اليه الهواء الطرى • سوف يهدأ ، فاذا عاد الى البيت نام » •
ولكننى لم أحسن الحساب • فى الطريق ، وقع لستيفان تروفيموفتش
حادث زاده اضطرابا ، ودفعه دفعاً نهائياً فى طريق... اننى أعترف بأننى
ما كنت لأتوقع فى يوم من الأيام مثل تلك الحرارة وتلك الهمة اللتين
أظهرهما صاحبنا فى ذلك الصباح • مسكين صديقى الطيب •

الفصل العاشر

النصابون - صبيحة مشؤومة



الحادث الذي وقع لنا في الطريق حادث خارق تماماً • ولكن فلنذكر الأمور مرتبةً متسلسلة • قبل خروجنا أنا وستيفان تروفيموفتش بساعة ، تظاهرت في الشوارع جمهرةٌ من عمال مصنع شيجولين يُقدَّر عددها بسبعين تقريباً ، وربما أكثر من ذلك ، فأثار تظاهرها اهتمامَ الناس وفضولهم • كان العمال يسرون صفاً مرتباً ، ملتزمين الصمت • وقد رُوي فيما بعد أنهم انما نديهم عمال مصنع شيجولين البالغ عددهم تسعمائة عامل لطلبوا من الحاكم ، أثناء غياب أصحاب المصنع ، أن يتوسط لهم لدى مدير المصنع ؛ ذلك أن هذا المدير قد غشَّ عمال المصنع بعد اغلاقه ، وخذعهم في حساب حقوقهم ، وهذا أمر أصبح لا ينكره اليومَ أحد • حتى أن بعض الناس يؤكدون أن هؤلاء السبعين لم يكونوا منتدبين من رفاقهم لينطقوا باسمهم (والحق أن عددهم أكبر من أن يكونوا وفداً منتدباً) ، وانما كانوا هم العمال الذين أصابهم ضرر أكبر فجاءوا يطالبون بحقوقهم باسم أنفسهم لا باسم جميع العمال ؛ فلا يمكن إذن أن يكون الأمر أمر «ثورة» كما أُشيع فيما بعد • غير أن هناك أناساً آخرين يؤكدون أن المتظاهرين كانوا «نواراً» حقيقيين ، وعصاةٌ عنيدين تأثروا بالمنشورات التحريضية التي وُزعت في المصنع • الخلاصة

أنا لا نعرف حتى الآن ، على وجه اليقين ، هل كان العمال في تظاهرهم ينفذون أوامر صدرت إليهم ، أم هم خرجوا من تلقاء أنفسهم . أما أنا فأعتقد أنهم لم يقرأوا منشورات . وهبهم قرأوها فما كان لهم حتماً أن يفهموا منها شيئاً ، لأن الذين يحررون هذه الأوراق يكتبون كتابة غامضة ، وان تكن قاسية عنيفة . ولكن لما كان العمال يمرون بظرف صعب فعلاً ، ولما كانت الشرطة التي لجأوا إليها قد رفضت التدخل والتوسط ، فقد كان طبعياً أن يخطر ببالهم أن يذهبوا الى « الجنرال نفسه » مجتمعين ، حاملين مطلبهم بارزاً للعيان ، وأن يصطفوا حول بابه ، وأن يركعوا أمامه متى ظهر لهم ، مبتهلين اليه بأصوات عالية . هذه طريقة تقليدية تاريخية ، فلا حاجة بنا ، في رأيي ، لأن نلجأ الى أى تعليل آخر . فالشعب الروسى ، منذ قديم الزمان ، يحب أن يتجه الى « الجنرال نفسه » ، الى الشخص القادر على كل سىء فى نظره ، لا لغرض الا لذة التحدث اليه والشكوى له ، أية كانت نتيجة هذا الحديث وهذه الشكوى .

وهنا سلمنا بأن بطرس ستيفانوفتش ولييوتين وغيرهما - ربما فدكا - قد استطاعوا أن يتصلوا بالعمال (كما تبين بعض الدلائل افتراض ذلك) ، وبأنهم تحدثوا الى اثنين أو ثلاثة منهم أو حتى خمسة ، لا لشيء الا لجسّ نبضهم ومعرفة مدى استعدادهم ، فإنى مقتنع بأن الأحاديث التي أجروها معهم لم تؤد الى أى شيء ، لأن العمال اذا فهموا شيئاً من هذه الدعاية فانهم قد أشاحوا عنها على الفور حتماً ، اذ لا بد أن تكون قد بدت لهم غيبة ليس لها أية فائدة عملية . أما فدكا فلعله قد أصاب عندهم حظاً أكبر من حظ بطرس ستيفانوفتش . فمما لا شك فيه اليوم أن الحريق الذي شب فى المدينة بعد ثلاثة أيام انما أشعله فدكا وعاملان من مصنع شيبجولين . كما أن ثلاثة من عمال هذا المصنع قد اعتقلوا بعد ذلك بشهر بسبب ارتكابهم جريمة سرقة وجريمة اشعال حريق . ومهما يكن دور فدكا ، فيجب أن

نعتقد أنه لم يستطع أن يجتذب الا أولئك الخمسة ، اذ لم يُسمع عن الآخرين شيء من هذا القبيل •

حين وصل العمال الى منزل الحاكم وهم ما يزالون صامتين ملتزمين نظاما تاما ، اصطفوا حول درجات الباب ، ورفعوا قبعاتهم ، وأخذوا ينتظرون فاغرى الأفواه • انتظروا نصف ساعة ، لأن المصادفة شاءت أن يكون الحاكم غائبا عن منزله في ذلك الوقت • فلم تلبث الشرطة أن ظهرت ، أفراداً قلائل في أول الأمر ، وعدداً كبيراً بعد ذلك • وطبيعي أن الشرطة طفقت تتعجرف ، وأنذرت المتظاهرين بأن يتفرقوا • ولكن المتظاهرين عندوا فلم يتحركوا ، كقطع من الخراف أمام حاجز ، وأجابوا موجزين مقتضيين بأنهم انما جاءوا ليكلموا « الجنرال نفسه » ، وكان واضحاً أنهم مصرون على موقفهم لا يريدون أن يتزحزحوا عنه • عندئذ حلت التهديدات والصرخات محل التفكير • وتشاور ممثلو السلطة مهمومين حائرين ، تشاوروا بصوت خافت ، فاستقر رأيهم على الاجراءات التي يجب اتخاذها • وآثر رئيس الشرطة انتظار فون لمبكه • ليس صحيحاً أن ايليا ايلتس (رئيس شرطتنا) قد وصل على عربة تجرى بسرعة كبيرة فما ان نزل من العربة حتى أسرع يشهر قبضتيه على المتظاهرين • فلاشك أن ايليا ايلتس كان يحب في الأحوال العادية أن يعدو بمركبته الصفراء سريعاً ، وأنه بينما كانت تشتد حماسة أفراسه فتثير حمياً جميع تجار السوفى ، كان هو يقف في المركبة منتصب القامة ، متمسكاً بزناد وضع لهذا الغرض • ماداً ذراعه اليمنى كتمثال ، فيجتاز المدينة كلها بأقصى سرعة • ولكنه لم يستعمل اليوم قبضتيه والحق يقال • صحيح أنه لم يستطع عند نزوله من العربة أن يمتنع عن قذف بضعة شتائم مندوية ، ولكنه لم يفعل ذلك في الواقع الا من باب المحافظة على سمعته • وليس صحيحاً كذلك أن جنوداً قد استقدموا حاملين بنادق عليها حراب ، وأن

فصيلاً من القوزاق قد استدعى مع بطارية من المدفعية ، ببرقية • فما هذا كله الا أقويل لم يصدقها حتى أولئك الذين أشاعوها • وغير صحيح أيضاً أن رجال المطافىء قد استدعوا لرش الجمهور بالماء • كل ما هنالك أن ايليا ايلتش قد غضب غضباً شديداً فصرخ يقول للعمال انه سيلقيهم فى الماء ، ولعل هذا الكلام هو الذى ولد أسطورة الرش تلك التى استولت عليها صحف موسكو وبطرسبرج • والرواية الأصدق فى رأى هى أن جميع قوات الشرطة الموجودة قد طوّقت الجمهور فى البداية ، ثم أسرعوا يوفدون الى فون لمبكه رسولاً وثب الى عربة رئيس الشرطة ومضى نحو سكفورسنيكى التى كان فون لمبكه قد ذهب اليها على مركبته منذ نصف ساعة •••

اننى لأعترف مع ذلك بأنى ما زلت أتساءل كيف أمكنهم أن يقبلوا هذا المسعى الذى قامت به جماعة بسيطه من أجل أن تقدم عريضة للحاكم ، أقول كيف أمكنهم أن يقبلوا هذا المسعى على الفور - وان يكن عدد الجماعة سبعين شخصاً - الى ثورة زعموا أنها تهدد أسس الدولة نفسها ؟ ولماذا أسرع فون لمبكه نفسه الى قبول هذه الفكرة والتسليم بها حين وصل بعد عشرين دقيقة ؟ اننى أميل الى الاعتقاد (وليس ذلك الا رأياً شخصياً أيضاً) بأن ايليا ايلتش ، وهو صديق حميم لمدير المنصنع ، قد رأى أن من المفيد ابراز المظاهرة لفون لمبكه فى هذه الصورة ، حتى لا يخطر ببال فون لمبكه أن ينظر فى مطالب العمال وأن يدرسها • ولكن يجب أن نذكر أن فون لمبكه نفسه هو الذى كان قد أيقظ هذه الحطة فى ذهن رئيس الشرطة • ان الحاكم ورئيس الشرطة كانا فى تلك الأيام الأخيرة قد عقدا عدة اجتماعات سرية مشبوهة وان تكن غامضة مبهمه ، استتج منها رئيس الشرطة أن الحاكم يأخذ مسألة المنشورات التحريضية مأخذ الجد كثيراً ، ويقلق لها أشد القلق ، وأنه مقتنع بأن العمال ينتظرون صدور الأمر اليهم

ليقوموا بثورة شاملة • كان الحاكم يبدو متشبهاً بهذه الفكرة تشبهاً يبلغ من القوة أنه لو كذبت بها الوقائع لشعر بأسف • ولقد حدثت صاحبنا الحيث ايليا ايلتش نفسه فقال : « وان الحاكم يريد أن تعترف بطرسبرج بهمته ونشاطه • لم لا ؟ ان هذا يناسبنا كثيراً ! » •

أما أنا فأعتقد بأن المسكين آندره أنطونوفتش كان عاجزاً عن أن يتمنى قيام ثورة ليتاح له أن يبرز ويتميز • انه موظف سليم الخلق حتى الضمير ، ظل محتفظاً ببراءته الى أن تزوج • وهل يكون الذنب ذنبه اذا شاءت الأقدار أن لا تكتفى له بالوظيفة البسيطة المفيدة التي كان يطمح اليها ، وبامرأة صغيرة كان يتوق الى زواجها ، بل وضعت في طريقه أميرةً عمرها أربعون عاماً أرادت أن ترفعه الى مستواها ؟ انى لأعرف معرفة تكاد تكون مؤكدة أنه منذ ذلك الصباح المشؤم انما ظهرت أولى الأعراض القاطعة لذلك المرض الذي قاد آندره أنطونوفتش الى سويسرا فيما يقال ، وأودعه في تلك المؤسسة الخاصة المعروفة التي أخذ يسترد فيها عافيته وقواه • ولكن مع تسليمنا بأن تلك العلامات الواضحة انما ظهرت في ذلك الصباح ، فمن الممكن أن نسلّم ، في رأيي ، بأن وقائع مماثلة وان تكن غير فاطمة الى هذا الحد ، يمكن أن تكون قد حدثت منذ الليلة البارحة • اننى أعرف من مصدر موثوق به (افرضوا أن جوليا ميخائيلوفنا قد أفضت الى بأسرارها ، لا في عهد انتصارانها ، بل بعد ذلك ، حين أصبحت نهياً لما يمكن أن يوصف بأنه نصف ندم ، لأن النساء لا يندمن ندماً كاملاً في يوم من الأيام) ، اننى أعرف اذن من مصدر موثوق به أن آندره أنطونوفتش قد ذهب الى امرأته في الليلة السابقة ، في نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، فأيقظها من نومها لتسمع « انذاره » • لقد طلب منها ذلك بلهجة تبلغ من الصرامة أنها اضطرت أن تنهض عن السرير مستاءة ، مغطاة الرأس بالورق الذي يُلَفُّ به الشعر لتجعيده ، فجلست على

مضجع ، وأخذت تصغى الى كلام زوجها رغم ما ينم عنه وجهها من احتقار ساخر . وعندئذ انما أدركت لأول مرة ما آلت اليه حال زوجها . فشعرت بجزع . ولكنها بدلاً من أن تعترف بأخطائها وتلطف سلوكها ، أخفت جزعها وعدت مزيداً من العناد . افترض أنها ، كسائر الزوجات ، كانت تلتزم ازاء زوجها موقفاً جُرب كثيراً . وهذا الموقف الذى سبق أن أحقق آندره أنطونوفتش فى كثير من الأحيان انما هو الصمت المزدرى يدوم ساعةً أو ساعتين أو أربعاً وعشرين ساعة وربما دام ثلاثة أيام . انه صمت عنيد لا يمكن أن يقطعه شيء مما قد يقوله أو يفعله فون لمبكه . والحق أن هذه الطريقة هى فوق ما يطيقه انسان حسّاس . هل أرادت جوليا ميخائيلوفنا أن تعاقب زوجها على الأخطاء التى ارتكبها فى الآونة الأخيرة وعلى الحسد الذى أثارته فى نفسه المواهب الادارية لدى زوجته ؟ أكانت مستاءةً من الملاحظات التى أبدتها لها بشأن سلوكها مع شباننا ومع مجتمعنا كله ، دالةً على أنه لا يفهم شيئاً من أهدافها السياسية الناعمة العميقة ؟ أكانت غاضبةً من أنه يغار عليها من بطرس ستيفانوفتش هذه الغيرة الغيبة التى لا سبب لها ولا داعى اليها ؟ المهم على كل حال أنها قررت أن لا تدعن ولا تخضع رغم أن الوقت هو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ورغم أن آندره أنطونوفتش كان يبدو مضطرباً اضطراباً غريباً . كان خارجاً عن طوره ، يذرع أرض الغرفة فى جميع الاتجاهات ، فقال لها ، ولو بطريقة مشوشة فى الواقع ، كل ما كان يعتمل فى قلبه ، لأنه « أصبح لا يطيق صبراً » . أعلن لها أولاً أن جميع الناس يسخرون منه ، ويجرونه « من طرف الأنف » . « لا يهمنى التعبير » ، كذلك صرخ يقول بصوت حادٍ رداً على ابتسامتها الساخرة . « نعم ، من طرف الأنف ! ... هذه هى الحقيقة ... فاعلمى يا سيدتى أنني أرفض هذا ... لقد آن الأوان يا سيدتى ! اعلمى أن ليس هذا وقت الضحك والغندرة ! ... لسنا الآن

فى مخدع امراة من نساء المجتمع • وانما نحن نمثل انسانين مجردين
ان صح التعبير ، التقيا فى بالون ليتكاشفا ويقولوا الحقيقة • (واضح انه كان
مرتبكاً مشوشاً فلا يحسن التعبير عن أفكاره ، الصائبة على كل حال) •
انك أنت يا سيدتى ، أنت التى أخرجتني من ظرفي القديم • وأنا لم أقبل
هذا المنصب الا من أجلك ، فى سبيل ارضاء مطامحك ••• أتبتسمين
ساخرة؟ لا تشعرى بالانتصار ••• انتظري قليلا ! ••• اعلمى ياسيدتى ،
اننى كان فى وسعى أن أنهض بأعباء هذا المنصب على خير وجه ، لا بأعباء
هذا المنصب وحده ، بل بأعباء مناصب أخرى أخطر منه شأنًا عشر مرات ،
لأننى أملك الكفاءات اللازمة • ولكننى لا أستطيع ذلك معك أنت ياسيدتى •
فوجودك أنت تنعدم كفاءاتى • ذلك أن من المستحيل أن يستقيم العمل مع
وجود مركزين • وأنت قد خلقت مركزين : واحداً عندي ، وواحداً
عندك ، فى مخدعك • مركزان للسلطة يا سيدتى • ولكننى لن أحتمل
هذا • لا • لن أحتمله • ففى الادارة ، كما فى البيت ، لا يمكن أن يكون
الا مركز واحد • يستحيل أن يكون هناك مركزان ••• ما هو موقفك ؟
ان علاقتنا تتحل الى ما يلى : تبرهنين لى فى كل ساعة على أننى تافه ، وعلى
أننى غبى ، بل على أننى جبان • وأنا ، فى كل ساعة أيضاً ، أجدنى
مضطراً اضطراراً ذليلاً الى أن أبرهن لك على أننى لست تافهاً ولا غيباً ،
وعلى أننى بنبلى أذهل جميع الناس • أليس هذا مذلاً لنا كلياً ؟ •

هنا أخذ الزوج يضرب الأرض بقدميه ضرباً شديداً ، حتى رأت
جوليا ميخائيلوفنا أنها مضطرة أن تنهض مهية الهيئة صارمة الملامح •
فسرعان ما هبط غضب الزوج • ولكنه سقط عندئذ فى فرط الحساسية
وأخذ يبكى منتحياً (نعم ، منتحياً) ، لاطماً صدره ، فاقداً صوابه فقداً
تاماً بتأثير الصمت العنيد الذى تصر عليه جوليا ميخائيلوفنا • دام ذلك خمس
دقائق • ثم اذا به يزل لسانه زللاً ما بعده زلل ، فيقول انه يغار على امرأته

من بطرس ستيفانوفتش • واذ أدرك على الفور أنه ارتكب حماقة ضخمة، فانه لم يلبث أن غضب غضبا مسعورا ، وأخذ يصرخ قائلاً انه لن « يسمح بانكار وجود الله » ، وان « صالونها هذا بؤرة كفر وجحود » ، وان على الحاكم أن يكون مؤمنا بالخالق ، وكذلك يجب أن تكون زوجة الحاكم أيضا ، وانه قد ضجر واشمأز من جميع هؤلاء الشبان • وأضاف يقول : « ان من واجبك أنت يا سيدتى ، نعم من واجبك أنت ، حرصا على كرامتك نفسها ، أن تدعنى زوجك وأن تعلى للملأ جهاراً أنه ذكى ، حتى ولو كان عاجزاً (فكيف ولست بعاجز !) ولكن الواقع هو أنك أنت السبب فى أن الناس يحتقرونى هنا ، فأنت التى تحرضينهم على ! • • • » • ثم صرخ قائلاً : انه سيعدم قضية المرأة اعداما ، وانه سيمنع من القد تلك الحفلة السخيفة التى تزمع اقامتها لمعونة المربيات (شيطان يأخذهن !) ، وانه سيطرد من الاقليم ، بواسطة قوزاقى ، أول مربية يلقاها • « سأفعل هذا عمداً ، عمداً » • كذلك كان يصيح • « هل تعلمين أن التافهين الذين يحيطون بك يحاولون اثاره العمال ، وائتى على علم بأفعالهم هذه ؟ هل تعلمين أنهم يوزعون فى المدينة منشورات تحريضية ، عن عمد ، عن عمد ؟ هل تعلمين أننى أعرف أسماء أربعة من هؤلاء الأشقياء ، وأننى أفقد عقلى وأصير مجنوناً ، مجنوناً ، مجنوناً !! » • ولكن جوليا ميخائيلوفنا قطعت الصمت حينذاك ، وأعلنت بلهجة قاسية أنها هى نفسها مطلعة منذ زمن طويل على هذه النيات الاجرامية ، ولكن هذا كله لا قيمة له ، وأن زوجها يسرف فى أخذ الأمر مأخذ الجد ، وأنها تعرف لا الأندال الأربعة الذين يعرفهم فحسب ، بل تعرف كذلك جميع الآخرين (هنا كانت تكذب) ، لكنها لا يخطر ببالها أن تصبح مجنونة ، حتى انها تثق بعقلها وذكاؤها أكثر من أى وقت مضى ، وتأمل أن تتم مهمتها على أحسن وجه : تشجع الشبان، وتسمعهم صوت العقل ، وتبرز لهم فجأة أن أغراضهم مكشوفة ، ثم

تقترح على نشاطهم أهدافاً أقرب إلى الرشاد وأسمى
أنطون أنطونوفتش هذا الكلام حتى جنّ جنونه ! إذا
وعبث به بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى بطريقة تبلغ
السوء ، فهو قبل أن يجيء إليه كان قد كشف لجوليا
شيء ، وهو قد يكون المحرّض الأساسي على المؤامرة .
أنطونوفتش يصيح متفجر الغضب : « اعلمي أيتها المراهقة
انني سأعتقل على الفور عشيقك الحقير ، وأنتى سأرميها
بالأغلال ، أو أنتى . . . أو أنتى سوف ألقى بنفسى من
منك ! » . فكان جواب جوليا ميخائيلوفنا على هذا الكلام
طويلة منهمرة ، وقد اخضرت لونها من شدة الغضب
بالضحكة التى يسمعا المرء فى المسرح الفرنسى حين تأخذ
التى تتقاضى مائة ألف روبل وتمثل أدوار الغانيات ، .
عند أنف زوجها الذى يبيع لنفسه أن يغار . فركة
النافذة ، ولكنه توقف فجأة ، وعقد ذراعيه على صدره ،
بنظرة مروّعة وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموتى
متقطع متوسل : « هل تعلمين ، هل تعلمين يا جوليا أن
أرتكب عملاً رهيباً ؟ » . ولكن كلماته استقبلت بمنزلة
نصائح لا تهم .

وتستيقظ في نفسه ذكريات ليس لها أية علاقة بوضعه الراهن : فهو تارة يتذكر ساعة حائط قديمة رآها ببطرسبرج منذ خمسة عشر عاماً ، وتنقصها ابرتها التي تشير الى الدقائق ؛ وتارة يتذكر الموظف المرح ميليوا ، أحد أصدقائه ، ويتذكر العصفور الذي طارده ذات يوم في حديقة ألكسندروفسكى حتى اصطاده ، فلما اصطاده فطنا فجأة الى أن أحدهما كان قد أصبح معاون قاض ، فضحكا ضحكاً شديداً . ونام أخيراً في نحو الساعة السابعة من الصباح . نام نوماً لذيذاً ، ورأى أحلاماً ممتعة . حتى اذا استيقظ في نحو الساعة العاشرة وثب عن سريره ، وتذكر فجأة ما قد جرى بالأمس ، فلطم جبينه براحة يده . ولم يتناول فطوره ، ولم يشأ أن يرى أحداً : لا بلومر ، ولا رئيس الشرطة ، ولا الموظف الذي جاء ليذكره بأن عليه في هذا الصباح أن يرأس اجتماعاً يعقده مجلس الاقليم . لم يصغ الى شيء ، ولم يرد أن يعرف شيئاً ، وأخذ يركض كالمجنون في جميع الغرف التي كانت تشغلها جوليا ميخائيلوفنا ، فأعلمته صوفيا أنتروبوفنا ، وهي سيدة نبيلة عجوز تقيم عند زوجة الحاكم منذ مدة طويلة ، أن جوليا ميخائيلوفنا ذهبت الى عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنسكى منذ الساعة العاشرة ، بصحبة عدد كبير من الأشخاص ، بغية أن ترى المكان الذي انعقدت النية على اقامة حفلة ثانية فيه بعد خمسة عشر يوماً ، كما تم الاتفاق على ذلك مع فرفارا بتروفنا أمس الأول . فاضطرب آندره انطونوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً ، فعاد الى حجرته ، وسرعان ما أمر بكدن الخيل . لقد أصبح لا يستطيع الاستقرار في مكان . ان نفسه ظامئة الى جوليا ميخائيلوفنا : يريد أن يتأملها مرة أخيرة على الأقل ، وأن يبقى بقربها ولو خمس دقائق ! فلعلها تجود عليه بنظرة ، لعلها تلتفت اليه ، لعلها تبسم له كما كانت تفعل في الماضي ، لعلها تصفح عنه ! آه . . . آه . . . « ماذا فعلتم بالخيل ؟ » . وبحركة غير ارادية فتح كتاباً ضخماً

موضوعاً على المائدة ، فاذا هو يقرأ هذه الجملة التي يقولها فولتير في كتابه «كانديد» : « كل شيء هو أحسن ما يكون في هذا العالم الذي هو أحسن العوالم الممكنة » . فأجرى يده بحركة تدل على الحسرة ، وخرج راکضاً . وصاح يأمر الحوذى بقوله : « الى سكفورشنيكى ! » . وقد روى الحوذى فيما بعد أن مولاه لم ينقطع طوال الطريق عن حثه على الاسراع ، ولكن ما ان شارفا على سكفورشنيكى حتى أمره فجأة بأن يرجع أدراجه وأن يعود الى المدينة قائلاً له : « بأقصى سرعة ، أرجوك ! » . فلما صارا على مقربة من الأسوار «استوقفه من جديد، ونزل من العربة ، وعبر الطريق، ودخل في حقل . ولكنه توقف ، وأخذ يتأمل الأزهار . ولبت على تلك الحال زمناً . حتى لقد بدا لى ذلك غريباً جداً ، بل اننى اضطربت منه اضطراباً شديداً . » . هذا ما شهد به الحوذى فيما بعد . اننى أتذكر كيف كان الجو في ذلك الصباح : كان يوماً من أيام شهر ايلول (سبتمبر) بارداً صاحياً لكن رياحه شديدة . وأمام آندره أنطونوفتش كان يمتد منظر حزين كئيب ، هو منظر الحقول التي حُصد زرعها منذ مدة طويلة ، فليس فيها الا بضع زهيرات صفراء شبه يابسة تُرعشها الريح . هل خطر بباله أن يشبّه مصيره بمصير هذه الأزهار التي أذبلتها أولى موجات البرد؟ لا أظن ذلك . بل اننى لعلى يقين من أن خواطره كانت تطوف في بعيد ، ولا تلتفت الى الأزهار ، رغم ما قاله الحوذى ، ورغم ما رواه مـصـوِّض الشرطة التي وصل في أثناء ذلك وحكى فيما بعد أنه رأى في يد الحاكم باقةً من زهيرات صفراء . ان مـصـوِّض الشرطة هذا ، فاسيلي ايفانوفتش فليوستيوف ، الذي وصل الى مدينتنا منذ مدة قصيرة ، كان قد لفت الى نفسه الأنظار بهمته ونشاطه وحرارته وطاقته الجبارة وقوته الطافحة التي كان يبذلها في تنفيذ أوامر رؤسائه ، وكذلك بما يلتزمه من اعتدال في الطعام والشراب ، وهو اعتدال كأنه «وهب له فطرة» . لقد وثب

مفوض الشرطة من العربية ، ودون أن تُربكه المشاغل الغريبة التي كان صاحب السعادة غارقاً فيها ، أسرع يقول له بلهجة زائفة ان « المدينة في حالة غليان » .

قال آندره أنطونوفتش وهو يلفت اليه وجهاً قاسياً ، ولا يبدو عليه أنه 'دهش بتاتاً ، ولا يلوح أنه يتذكر الحوذى والعربة اللذين قاداه الى هذا المكان ، حتى لكأنه في بيته ، في حجرته :

– هيه ؟ كيف ؟

– أنا مفوض شرطة الحى الأول ، فليوستريوف . لقد قامت ثورة يا صاحب السعادة !

قال آندره أنطونوفتش يسأله :

– أهم النصابون ؟

– نعم يا صاحب السعادة . ان عمال مصنع شيجولين يتحدثون فوضى .

– عمال مصنع شيجولين . . .

لا بد أن هذا الاسم قد ذكره بشيء ما ، حتى لقد ارتعش ، ووضع اصبعه على جيبه . وها هو ذا يتجه نحو عربته بخطى بطيئة وهو ما يزال صامتاً حالماً ، ثم يصعد الى العربة ويأمر الحوذى بأن يرجعه الى المدينة . وتبعه فليوستريوف راكباً عربته .

اننى أتخيل أن آندره أنطونوفتش قد فكّر أثناء رحلة العودة هذه تفكيراً غامضاً مبهماً فى أمور كثيرة هامة ومع ذلك أستبعد أن يكون عند وصوله الى المكان قد اتخذ قراراً ما . لكنه ما ان أبصر جمهور « اللاترين » محتشداً حول درجات المدخل ، وما ان رأى حبل رجال الشرطة محيطاً بهم ، وما ان لمح رئيس الشرطة وألفاه عاجزاً عن القيام بأى عمل (ربما

عن قصد) ، وما ان وجد نفسه محط أنظار جميع تلك العيون القلقة حتى ازدحم الدم فى قلبه ، فنزل من العربة أصفر الوجه ، وقال بصوت مخنوق لاهت :

- أنزلوا قبعاتكم ، احسروا رؤوسكم !

ثم صرخ يقول على غير توقع من أحد ، بل على غير توقع منه هو نفسه :

- اركعوا على ركبتكم !

ولعل كل ما حدث بعد ذلك انما مردئه الى أن الأمر قد صدر عنه فجأة دون توقع • هذا ما يحدث على الجبال الروسية : هل تستطيع الزلاجة التى تنزلق على منحدر من جليد أن تتوقف فى منتصف الطريق ؟ ان من سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه قد ظل الى ذلك الحين. يظهر متساوى المزاج • فهو لم يصرخ فى حياته يوما ، ولا ضرب الأرض بقدمه • وأمثال هذا الرجل يصبحون خطرين جدا اذا اتفق لهم يوما ، لسبب من الأسباب ، أن أخذت زلاجتهم تنزلق على المنحدر •

أخذ كل شىء من حوله يدور •

وقال بصوت فيه مزيد من الصراخ والحدة والسخف المضحك •

- نصابون !

وتقبض حلقه • أصبح لا يعرف ماذا عساه يفعل • ولكنه كان يعلم ويحس بكل كيانه أنه سيفعل شيئاً ما •

صاحت أصوات فى الجمهور تقول : « رباه ! » • ورسم عامل شاب اشارة الصليب • وأخذ ثلاثة رجال أو أربعة يركعون • ولكن الآخرين تقدموا كتلة واحدة وأخذوا يصرخون جميعا فى آن واحد قائلين : « يا صاحب السعادة ••• لقد اتفقوا معنا على أن يكون أجرنا أربعين

كوبكاً ••• ولكن المدير ••• انه لا يجوز له أن ••• الخ ، الخ ، الخ •••
لقد كان يستحيل على المرء أن يفهم شيئاً •

وكان آندره أنطونوفتش لا يستطيع أن يدرك ما يحدث ، وأأسفاه !
كان ما يزال ممسكا الأزهار بيده • وكان مؤمنا بأن الثورة قامت كإيمان
ستيفان تروفيموفتش بأن زلاجة ستقوده الى سيريا حتماً • وكان آندره
أنطونوفتش يرى بين جمهور « الثائرين » الذين كانوا يحدثون اليه بأعين
محملة ، يرى كالحالم فى منامه أنه يبصر « محرّضهم » بطرس
ستيفانوفتش ، بطرس ستيفانوفتش الذى لم تنقطع صورته عن ملاحظته
صاحبنا منذ أمس ، بطرس ستيفانوفتش الذى يكرهه صاحبنا أشد الكره
ويمقته أكبر المقت •

وزأر آندره أنطونوفتش منادياً :

– هاتوا السياط !

فهبط على الجمهور صمت كأنه صمت الموت •

تلكم هى الوقائع التى جرت فى أول الأمر ، فيما ترويه الأخبار
وتقدره تخميناتى • أما ما حدث فالأخبار والتخمينات بشأنه أقل دقة
ووضوحاً • ومع ذلك نملك بعض المعلومات •

ظهرت السياط بسرعة غريبة ، وهذا يحمل المرء على أن يفترض أن
رئيس الشرطة كان قد تنبأ بما سيحدث فأعدّ السياط احتياطاً لكل طارىء •
ولكن لم يُجلد الا عاملان اثنان ، أو ثلاثة عمال فى أكثر تقدير • واننى
ألح على تقرير هذه الحقيقة ، لأنه زُعم زوراً وبهتاناً فيما بعد أن نصف
المتظاهرين على الأقل قد نالتهم عقوبة الجلد ، ان لم تكن قد نالتهم جميعاً •
وقد اختلقت أمور أخرى أيضا ، منها أن سيدة فقيرة لكنها نبيلة المحتد قد
مرّت بالمكان عرضاً فى ذلك الحين ، فاعتُقلت وجلدت بدون أى ذنب ؛

ومع ذلك قرأت بنفسى قصة هذا الجلد الملققة ، فى احدى جرائد
بترسبرج • ومن ذلك أيضا أن فتاة اسمها آفدوتيا بتروفنا تاراييجين قد
مرت بالمكان فى طريقها الى الملجأ الذى تعيش فيه ، فاختلطت بالمشاهدين
مدفوعةً الى ذلك بحب الاطلاع طبعا ، ولكنها حين رأت ما يحدث لم
تملك الا أن تهتف قائلة « هذا عار » ، وأن تبصق اشمثرازا • فما كان
من الشرطة ، فيما قيل ، الا أن قبضت عليها وجلدتها • وقد استولت
الجرائد على هذه القصة حتى لقد نُظِّمت فى المدينة حملة تبرع للمرأة
المسكينة ، ساهمت أنا فيها بعشرين كوبكاً • الا أنه قد ثبت اليوم أن
تاراييجين هذه لم تكن الا أسطورة • حتى لقد ذهبت الى الملجأ بنفسى
سائلاً فعلمت أن هذا الاسم مجهول هناك ، وقد استاء موظفو الملجأ أكبر
الاستياء حين نقلت اليهم الشائعات التى كانت تجرى فى المدينة • ولئن
ذكرت آفدوتيا بتروفنا المزعومة فلأن ما وقع لها (اذا صح أنه وقع) كاد
يقع لستيفان تروفيموفتش بل لعل ذلك الحادث الذى وقع لصاحبى هو
الذى ولدت تلك القصة ، مع ابدال اسمه باسم تاراييجين تلك التى لم يعرف
أحد من هى •

لقد أفلت منى ستيفان تروفيموفتش ، لا أدرى كيف ، منذ أن
وصلنا الى المكان • اننى وقد أوجست شراً ، أردت أن أدور به دورةً
لأوصله الى منزل الحاكم ، ولكن حب الاستطلاع استولى على نفسى فوقفت
أسأل أحد المارة • فلما التفت بعد ذلك كان ستيفان تروفيموفتش قد اختفى •
فأسرعت أركض بغريزتى الى أخطر مكان فورا ، اذ أحسست أن زلاجةته
هى أيضاً قد أخذت تنزلق على المنحدر • فوجدته شارعاً فى العمل فعلاً ،
فأمسكته من ذراعه فيما أذكر ، لكنه ألقى على نظرة هادئة متكبرة ، وكان
وجهه ينم عن فخامة لا حدود لها ، وقال لى بصوت فيه شيء من تكسر :
- « يا عزيزى » ، اذا كانوا هنا ، فى هذا المكان ، على مرأى ومسمع

من جميع الناس ، يتصرفون هذا التصرف بغير أى تحرج ، فما عسى
يُنتظر من « ذاك » مثلاً اذا أُتيح له أن يفعل مايشاء له هواه ؟ . . .
قال ذلك وهو يرتعش استياء ، ومدَّ ابهامه بحركة تحدٍ وتهديد
نحو فليوستريوف الذى كان على بعد خطوتين منا ، وكان ينظر إلينا بعينين
محملتين •

فجُنَّ جنون رجل الشرطة غضباً ، وصرخ يقول :

- « ذاك » ؟ من ذا تعنى ؟ وأنت ، من أنت ؟

وجاء نحونا قابضاً يديه • وردد يلقى سؤاله بغضب يدل على شيء
من الحيرة والارتباك (يجب أن أذكر أنه يعرف سستيفان تروفيموفتش
أحسن معرفة) :

- من أنت ؟ من أنت ؟

فلو انقضت لحظة أخرى لأمسك بتلابيب صاحبي • ولكن شاء حسن
الخط أن يلتفت فون لمبكه عند سماع هذه الصرخات ، فتأمل سستيفان
تروفيموفتش بانتباه ، وبدا عليه التردد كأنه يحاول أن يستجمع أفكاره ،
ثم حرك يده بإشارة تملل ، فتوقف فليوستريوف ، فجرت سستيفان
تروفيموفتش ، وأخرجته من الجمهور • ولا شك أنه كان يتمنى هو
نفسه أن ينسحب •

قلت ملحاً :

- بسرعة ، بسرعة ، الى البيت ؟ لقد نجونا ، ولم يكن ذلك الا
بفضل لمبكه •

- ارجع الى بيتك يا صاحبي • ليس من حقى أن أعرضك لمثل هذه

المخاطر • ان المستقبل • مفتوح أمامك • أنت في مستهل حياتك ، أما أنا فقد
« دقت ساعتى » •••

وصعد درجات باب منزل الحساكم بخطى ثابتة • وكان البواب
السويسرى يعرفنى ، فقلت له اننا ذاهبان الى جوليا ميخائيلوفنا • وأدخلنا
الى صالون الاستقبال •

لم أشأ أن أترك صديقى • ولكننى قدّرت أن المزيد من الكلام
لا طائل تحته ولا فائدة منه • كان وضعه وضع رجل ضحى بحياته فى
سبيل سلامة وطنه •

جلسنا متقابلين • فكنت أنا أقرب الى باب الدخول ، وكان هو فى
الطرف الآخر من الصالون ؟ وقد جلس خافض الرأس مفكراً ، واضعاً
يديه على عصاه ، ممسكاً باليسرى قبعتة ذات الحافة العريضة • ولبنا على
هذه الحال زهاء عشر دقائق •

٢

دخل لمبكه فجأة بخطى سريعة ، يتبعه رئيس الشرطة • فألقى علينا
نظرة ذاهلة ثم اتجه نحو حجيرة عمله دون أن يلقي الينا بالآ • ولكن
ستيفان تروفيموفتش نهض وسدّ عليه طريقه ، وكان لقامته المديدة وهيئته
الخاصة أثرهما فتوقف لمبكه •

دمدم لمبكه يقول مدهوشاً ، وكأنه يسأل رئيس الشرطة ، ولكن دون
أن يكف عن تأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه :

— من هذا ؟

فأجاب ستيفان تروفيموفتش وهو ينحنى بوقار كبير :

– أنا ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى ، الموظف المحال على التقاعد •

وظل صاحب السعادة يحدق اليه ، ولكن بنظرة كابية •
سأله الحاكم بتلك اللهجة التى تدل على نفاذ الصبر وعلى الاحتقار ،
تلك اللهجة التى يستعملها كبار الموظفين فى العادة ، ومدّ أذنه نحو ستيفان
تروفيموفتش الذى لا شك أنه واحد يطلب التماساً أو يرجو شفاعاة •
قال ستيفان تروفيموفتش :

– لقد فتّش منزلى فى هذا اليوم موظفٌ قال انه يفعل ما يفعل بأمرٍ
من صاحب السعادة • فأنا أريد أن •••

– ما اسمك ؟ ما اسمك ؟

كذلك سأله فون لمبكه نافذ الصبر وكأنه بدأ يفهم ، فكرر صاحبي
اسمه بوقار أعظم أيضا •

– آ ••• آ ••• هو اذن أمر تلك الدعاية التى تقوم بها ••• أيها
السيد ، لقد ظهرت بمظهر يدل على أنك ••• هل أنت أستاذ جامعة ؟
هل أنت أستاذ جامعة ؟

– فى الماضى تشرفت بالقاء بضع محاضرات على الشباب فى الجامعة ،
و •••

– على الشباب ؟ على الشباب ؟

بدا على لمبكه الارتجاف والارتعاش ، مع أننى أراهن على أنه لما
يدرك الأمر بعد ، ولا كان يعرف من ذا يكلم •
وصاح يقول وقد استبد به غضب مفاجئ :
و •••

٥٥

– لن أقبل هذا ! لن أسمع بهذا ! أنا لا أقبل الشباب • انهم يوزعون منشورات تحريضية في كل مكان ! هذا هجوم على المجتمع • هذه قرصنة • أنتم جميعاً نصّابون ! ••• ماذا تطلب مني ؟

– ان زوجتك هي التي طلبت مني أن أقرأ بضع صفحات في الحفلة التي تقيمها غداً • أنا لا أطلب شيئاً • أنا أدافع عن حقوقي •••

– في الحفلة ؟ الحفلة لن تكون أيها السيد ! لن أسمع باقامة حفلتكم هذه ؟ محاضرات ؟ محاضرات ؟

كذلك زأر غاضباً •

فقال ستيفان تروفيموفتش :

– أود يا صاحب السعادة أن تعاملني بمزيد من الكياسة ، دون أن تضرب الأرض بقدمك ، ودون أن تصرخ في وجهي كما يصرخ المرء في وجه صبي •

– هل تعرف من ذا تكلم ؟

ألقى عليه فون لمبكه هذا السؤال واحمر احمرارا شديدا • فأجاب ستيفان تروفيموفتش :

– أعرف من ذا أكلم يا صاحب السعادة •

– أنا أحمى المجتمع ، وأنت تريد تهديمه • نعم ، أنت تهدي ••• هدى •••م المجتمع ! ثم انك ••• تذكرتُ الآن ••• ألم تكن معلماً عند الجنراله ستافروجين ؟

– نعم ••• كنت ••• معلماً ••• عند الجنراله ستافروجين •

– وخلال عشرين عاما ما برحت تنشر من حولك الأفكار التي •••

أَنظُرْ الى ثمارها ! ... أطن أننى لمحتك منذ قليل فى الساحة • حذار
مع ذلك أيها السيد ! ان ميولك معروفة • ثق أننى أراقبك • لا يمكن
أن أسمع بمحاضرات ، لا ، مستحيل • لا تطلب منى أنا مثل هذا
الطلب •

وهم أن يتابع طريقه • فقال ستيفان تروفيموفتش :

- أكرر أنك مخطيء يا صاحب السعادة • ان زوجتك هى التى
طلبت منى لا أن ألقى محاضرة بل أن أقرأ شيئاً فى حفلة الغد • ولكننى
الآن أرفض هذا الطلب • وانما أنا جئت لأرجوك أن تتفضل فتشرح لى
سبب تفتيش بيتى اليوم اذا كان ثمة سبب • لقد أخذت منى كتب وأوراق
شتى ورسائل أحرص عليها ، وحُمل ذلك كله على نقالة ...

هنا انفض لمبكه واحمر احمرارا شديدا وسأله :

- من الذى فتش بيتك ؟

لقد أدرك أخيرا ما يجرى • واستدار بحركة مفاجئة نحو رئيس
الشرطة • وفى تلك اللحظة نفسها ظهرت عند عتبة الباب قامة بلومر
الطويلة المحدودة الخرقاء •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يومئء الى بلومر :

- هذا هو الذى فتش بيتى •

فتقدم بلومر معترفا بفعلته ولكنه غير نادم عليها • فقال له فون لمبكه
غاضباً حانقاً :

- « انك لا تفعل الا حماقات » (بالفرنسية) •

ثم لم يلبث أن عاد الى صوابه وتغير وضعه • فقال متمتماً محمر
الوجه متحير الهيئة :

- معذرة... ربما كان ذلك كله خراقة لا أكثر... ربما كان غلطة... نعم ، غلطة...

قال ستيفان تروفيوفتش :

- يا صاحب السعادة لقد أتيح لي في عهد شبابي أن أشهد واقعة ذات دلالة خاصة . في ذات مساء ، في دهليز مسرح من المسارح ، اقترب سيدٌ من أحد المشاهدين بغتةً ، فصفعه على وجهه صفقة مدوية على مرأى من جميع الناس . ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل الذي ناله بهذا الأذى ليس هو من كان يريد أن يصفعه وإنما هو رجل يشبهه بعض الشبه ، فما كان منه الا أن نطق بهذه الكلمات نفسها التي تقولها أنت يا صاحب السعادة ، ولكنه قالها بلهجة غاضبة مستعجلة كرجل لا يريد أن يضيع وقته بغير طائل : « لقد أخطأت... معذرة... هذه غلطة... غلطة لا أكثر... » . فلما أخذ الرجل المظلوم يحتاج ، لأنه ظل مستاءً رغم كل شيء ، ألحَّ الظالم قائلاً بانزعاج : « ألا يكفي أنني اعترفت بأنها غلطة . فما بالك تصيح هذا الصياح ! » .

قال فون لمبكه وهو يتسم ابتسامة بغير معنى :

- هذا... مضحك جدا... مضحك حتما... ونحن ألا ترى مدى ما أنا فيه من شقاء؟

لقد رفع صوته حتى كاد يكون صراخاً أثناء النطق بهذه الكلمات ، ويخيّل اليّ أنه همّ أن يخفى وجهه بيديه .

فهذه الصيحة الأليمة ، بل أكاد أقول هذه الانتحابة المفاجئة ، كانت فوق ما يحتمل قلب الانسان . لعل آندره أنطونوفتش لم يدرك ادراكا واضحا ما جرى منذ الأمس ، الا في هذه اللحظة . وسرعان ما أعقبت هذا الاشراق المبالغت نوبة يأس ذليل لا حدود له . من يدري ؟ لعله

كان سينفجر باكيا ناشجا بعد لحظة أخرى • تأمله ستيفان تروفيموفتش مبهوثاً مصعوقاً ، ثم حنى رأسه وقال بصوت مؤثر :

- يا صاحب السعادة ، لا تلق بالآء الى شكوى رجل عجزوز نفاق •
ولكن قل لهم أن يردوا الى كتيبى وأوراقى •••

واضطر ستيفان تروفيموفتش أن يقطع كلامه لأن جوليا ميخائيلوفنا داهمت الغرفة مع حاشيتها صاحبة لاغطة • ولكن يجب على أن أصف المشهد الذى أعقب هذا ، أن أصفه بجميع تفاصيله ما وسعنى ذلك •

٣

أقول أول ما أقول ان الحاشية كلها ، وقد وصلت على ثلاث عربات ، قد ظهرت فى الصالة الواسعة دفعة واحدة • ان ليخائيلوفنا مدخلاً خاصا يقع على يسار الباب ويؤدى الى حجراتها رأساً ، ولكن الجميع قد مروا بالصالة ، ربما لمعرفتهم بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون فيها ، لأنهم قد أطلعهم ليامشين على ما وقع له ، كما أطلعهم على قضية عمال مصنع شيبجولين • كانت جوليا ميخائيلوفنا غاضبة من ليامشين لأسباب لا أعرفها ، فلم تدعه الى مشاركتهم فى رحلتهم الى سكفورشنيكى • لذلك عرف قبل غيره ما حدث بالمدينة • وقد سره كثيراً أن ينقل أبناء سيئة كهذه الأبناء ، فاستأجر حصانا عجوزا وأسرع يجرى فى طريق سكفورشنيكى للقاء جوليا ميخائيلوفنا • وأغلب ظنى أن جوليا ميخائيلوفنا رغم ثقها قد شعرت ببعض الاضطراب والقلق ، ولو الى حين ، حين علمت بهذه الأحداث الخارقة • ليس الجانب السياسى من هذه الأحداث هو الذى يقلقها على كل حال : فقد سبق أن أوحى اليها بطرس ستيفانوفتش مرارا أن المشاعين من عمال مصنع شيبجولين لا بد أن يُجلدوا ، وكان بطرس ستيفانوفتش يتمتع لديها

بنقة مطلقة منذ بعض الوقت • ولا شك أنها قالت تحدث نفسها : « لكنه... »
 سيدفع لى ثمن هذا غالياً على كل حال » وكانت تعنى زوجها طبعاً •
 يجب أن أذكر عابراً أن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن لا يشارك
 بطرس ستيفانوفتش هذه المرة فى الرحلة الى سكفورشنيكى ، وأنه ام
 يُر طوال ذلك الصباح • ويجب أن أذكر أيضاً فى هذه المناسبة أن فرفاراً
 بتروفنا قد رجعت الى المدينة مع ضيوفها (فى مركبة جوليا ميخائيلوفنا) ،
 مصرّةً اصراراً مطلقاً على المشاركة فى آخر اجتماع للجنة تنظيم الحفلة ،
 وهو الاجتماع الذى يجب أن يُعقد فى الغد • فلا بد اذن أن تكون الأبناء
 التى نقلها ليامشين عن ستيفان تروفيموفتش قد همتهما كثيراً ، بل لعلها
 أقلقتها أيضاً •

وقد صُفّى الحساب مع آندره أنطونوفتش بغير ابطاء • ان الحاكم
 قد حزر ما ينتظره منذ رأى زوجته الفاتنة • كانت مشرقة الوجه أخاذة
 المحيا ، ترسم على شفيتها ابتسامة لذيذة ، وها هى ذى تقرب من ستيفان
 تروفيموفتش بحركة رشيقة ، فتمدُّ اليه يدها الصغيرة المنمّدة فى قفاز ،
 وتخطبه بأرق عبارات المديح : لكأنها لم تفكر طوال هذا الصباح الا فى
 الطريقة التى ستستقبل بها ستيفان تروفيموفتش معبّرة له عن فرحها
 برؤيته عندها أخيراً • لم تشر أى اشارة الى تفتيش منزله فى هذا الصباح ،
 كأنها تجهل كل شيء • ولم تقل لزوجها كلمة واحدة ، ولا أَلقت عليه
 نظرة ، فكأنه غير موجود • وفى مقابل ذلك أسرع تصادر ستيفان
 تروفيموفتش وتقتاده الى الصالون ، متظاهراً بأنها تجهل أنه كان بسبيل
 مكاشفة مع آندره أنطونوفتش ، لتدل بذلك على أن هذه المكاشفة لا قيمة
 لها البتة • يخيل الى أن جوليا ميخائيلوفنا ، رغم ما أظهرته من أبهة
 وعظمة ، قد ارتكبت فى هذه المرة غلطة ضخمة • ولا شك أن كارمازينوف
 قد شارك فى ذلك مشاركة خاصة على كل حال • انه تلبيةً لالحاح جوليا

ميخائيلوفنا كان قد اشترك في رحلة ذلك الصباح ، فبذلك زار فرفاراً بتروفنا ولو زيارة غير مباشرة ، فافتتحت فرفاراً بتروفنا بزيارته • وحين دخل الآن آخر الداخلين فرأى ستيفان تروفيموفتش منذ صار في شتبة الباب ، أطلق صيحة تعبر عن الجور ، وركض اليه يعانقه ، فبذلك قطع الكلام على جوليا ميخائيلوفنا •

- ما أكثرها من سنين !... أخيراً... • • • «أيها الصديق الممتاز»... • • •

وبلّه ماداً اليه خدّه ، فرأى ستيفان تروفيموفتش نفسه مضطراً الى تقبيل الخد الممدودة اليه ، فاقداً صوابه بعض الشيء •

وقد قال لى ستيفان تروفيموفتش في ذلك المساء ، حين تذكر أحداث النهار : « يا عزيزى ، لقد تساءلت في تلك اللحظة من منّا نحن الاثنين أشد جبناً وحقارة من الآخر : أهو ، الذى قبلنى ليدلنى بعد هنيهة ، أم أنا ، الذى أحقره وأحقر خدّه ، ومع ذلك قبّلت تلك الخد في حين كان يمكننى أن أشيح عنها... آه !... » •

قال له كارمازينوف :

- هيه ! تكلم ! تكلم ! قصّ علىّ كل شيء •

كأن المرء يستطيع أن يروى ببضعة كلمات قصة حياة خمسة وعشرين عاماً • ولكن هذا الطيش كان في نظره علامة لهجة تظهر « التفوق » •

قال ستيفان تروفيموفتش بتعقل كبير ، وبلهجة ليس فيها اذن أى اظهار للتفوق :

- لاحظ أننا التقينا آخر مرة بموسكو ، في الولاية التي أقيمت تكريماً لجرانوفسكى منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً... • • •

فقاطعه كارمازينوف يقول بلهجة الألفة وبصوت حاد ، وهو يشد على كفه متحمساً تحمساً فيه شيء من الافراط :

– « ذلك الانسان العزيز ! » ••••• انقلينا الى مسكنك بأقصى سرعة يا جوليا ميخائيلوفنا ، فسنمكث هناك ، فيروى لنا كل شيء •

وفد قال لى ستيفان تروفيموفتشس فى مساء ذلك النهار وهو يرتجف اشمئزازا وتقززا : « مع ذلك لم يكن بينى وبين هذا النمام العجوز أية صداقه حميمة فى يوم من الأيام • وكنت فى شبابه أكرهه وكان يبادلنى كرهاً بكره طبعاً ! » •••••

سرعان ما امتلأ صالون جوليا ميخائيلوفنا • وكانت فرفارا بتروفنا مهتاجة احتياجا شديدا ، رغم أنها كانت تحاول أن تظهر بمظهر من لايبالى • لكننى رأيت نظراتها عدة مرات منقسلةً بكره وبغض تلقيهما على كارمازينوف ، ورأيت هذه النظرات مثقلةً بغضب تصبه على ستيفان تروفيموفتشس ، غضب مستبق ، غضب تغذيه غيرة ويغذيه حب : فلو أن ستيفان تروفيموفتشس غلط هذه المرة فرضى أن يغلبه كارمازينوف على مرأى من الجميع ، اذن لكان يمكن فيما أعتقد أن تهجم عليه فتخنقه • نست أن أقول ان ليزا كانت هناك أيضاً • ما رأيتها فى حياتى أشد مرحاً مما كانت حينذاك ، ولا أقل اكترائاً ، ولا أزر فرحاً • وكان مافريكى يقول لايفتشس الى جانبها طبعاً • وبين جمهرة السيدات الشاببات ، والشبان الأوغاد الذين كان المجون يُعدُّ فى نظرهم مرحاً وكان الاستهتار البشع يُعد فى نظرهم ذكاءً ، رأيت وجوهاً أخرى أيضاً : رأيت بولنديا ماراً بالمدينة كان يتحرك ويسعى حول الجميع ، ورأيت طبيبا ألمانيا هو عجوز قوى البنية كان يضحك ضحكا مجلجلا لكل كلمة من الكلمات الظريفة التى يطلقها هو ، ورأيت أميراً شابا واصلاً من بطرسبرج هو نوع من

آلة متحركة ، بارد الهيئة مرسوم القسمات ، تحيط بعنقه يافة عاليه علواً
خارقاً . ولكن كان واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا فخورة جداً بوجود هذا
الضيف ، وأنها شديدة الاهتمام بما قد نراه من رأى فى صالونها .

بدأ ستيفان تروفيموفتش يتكلم فقال وهو يجلس على الديوان جلسه
رشيقة ، وينطق بالكلمات نطقاً شبيهاً بنطق الكاتب الكبير :

– يا سيد كارمازينوف ، ان حياة انسان ينتسب الى عصرنا ويملك
اعتقادات معينة ، لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة ، ولو امتدت على فترة
خمس وعشرين سنة ***

تخيل الطبيب أن ستيفان تروفيموفتش قد قال شيئاً مضحكاً جداً ،
فانفجر يقهقه قهقهة متقطعة تشبه أن تكون سهيل خيل . فرشقه ستيفان
تروفيموفتش بنظرة تصطنع معنى الدهشة . ولكن ذلك لم يحدث فى
الشيخ أى أثر . والتفت الأمير نحوه كتلة واحدة أيضاً ، وتفرد فيه
يفحصه بنظراتى أنفه ، ولكن دون أى تعبير عن حب الاطلاع .

تابع ستيفان تروفيموفتش كلامه فقال مكرراً عن عمد ، منفاخراً
دون تخرج من اختيار الألفاظ :

– *** لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة . تلك كانت حياتى خلال
ربع القرن هذا ، و « لما كان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول »
(بالفرنسية) ، ولما كنت ممن يشاركون فى هذا الرأى كل المشاركة ،
فقد ترتب على ذلك أنه فى خلال ربع القرن هذا من الزمان ***

دمدمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وهى تلتفت نحو فرقارا بتروفنا التى
كانت جالسة الى جانبها :

– رائع *** الرهبان ***

فأجابت فرارا بتروفنا على ذلك بنظرة تفيض زهواً وفخراً • ولكن كارمازينوف لم يستطع أن يحتمل هذا النجاح الذى ظفرت به الجملة الفرنسية ، فأسرع يقاطع ستيفان تروفيموفتش قائلاً بصوته الحاد الصارخ:

— أما أنا فهادىء من هذه الناحية • اننى أقيم فى كارلسروهه منذ سبعة أعوام ، وحين قرر المجلس البلدى فى العام الماضى انشاء قنّاة جديدة للماء شعرت فى أعماق نفسى أن انشاء القنّوات فى كارلسروهه أعزُّ فى نفسى وأحب الى قلبى وأهم فى نظرى من جميع أحداث وطنى الجميل الغالى ••• ومن جميع ما يسمى هنا بالاصلاحات وما شاكل ذلك •••

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزفر زفرة ذات دلالة ، ويخنى رأسه :

— اننى أفهمك ، وان كان قلبى يحتاج •

تهللت جوليا ميخائيلوفنا جذلاً : ان الحديث يجرى الآن مجرى جدياً لبرالياً •

وسأل الطيب العجوز مستفهماً :

— أهى أقنية مجارى ؟

— بل أقنية لمياه الشرب يا دكتور ، أقنية لمياه الشرب ، حتى لقد ساعدتهم فى كتابة المشروع •

فانطلق الطيب يضحك ضحكاً قوياً ، وقلّده آخرون ، مستهزئين به • ولكنه لم يفطن الى ذلك ، حتى لقد بدا عليه الجهور من اشاعته هذا الجور من المرح •

قالت جوليا ميخائيلوفنا مستعجلةً التدخل فى الحديث :

— معذرة يا كارمازينوف ، اننى لا أستطيع أن أوافق على رأيك •

ولست أستغرب أن تشعر براحة في مدينة كارلسروهه ، ولكنك تحب أن
تموّه على الآخرين ، ونحن في هذه المرة لا نصدّقك . من ذا بين جميع
الكتاب الروس ، الكاتب الذي أبدع نماذج تمثل الفكر الحديث أصدق
تمثيل ، وتنبأ بمشكلات عصرنا أكثر من سائر الكتاب ، ودلّ على الملامح
المميّزة لرجل العمل المعاصر أوضح دلالة ؟ هو أنت ، أنت وحدك ، ولا
أحد سواك . فكيف تريد أن تقنعنا الآن بأنك لا تكثرت بروسيا ، وبأن
اهتمامك الأكبر إنما ينصب على انشاء أفنية مياه الشرب بمدينة كارلسروهه؟
ها ها ها !

قال كارمازينوف بصوته المألوف :

- نعم ، هذا حق . لقد صورت في شخصيته بوجوديين جميع عيوب
أنصار السلافية ، وصورت في شخصية نيكوديموف جميع عيوب أنصار
الغرب

دمدم ليامشين . يقول :

- « جميعهم » ! قالها بنفسه !

- ولكنني لا أفعل هذا الا عابراً ، تزجيةً للوقت فحسب ، وارضاءً
للمطالب المستمرة لدى أهل وطني

عادت جوليا ميخائيلوفنا الى الكلام فقالت متحمسة :

- لعلك تعلم يا ستيفان تروفيموفتش أننا سيفرحنا غداً أن نسمع
صفحات جميلة ممتعة . . . هي أثر من أحدث وأروع الآثار التي كتبها
سيميون ايجوروفتش . العنوان : « شكرا » . انه يعلن لنا في هذا العمل
الذي ألفه أنه لن يكتب بعد اليوم أبداً ، بأية حال من الأحوال ، ولو جاءت
جميع لائكة السماء أو جميع شخصيات المجتمع العالي تضرع اليه أن يثنى

عن عزمه وأن يتراجع عن قراره • الخلاصة أنه يدع القلم الى الأبد •
وهذا الأثر الرشيق الجميل الذي جعل عنوانه « شكرا » ، انما يتجه به
الى الجمهور شاكرًا له ما أبدى من حماسة دائمة متصلة لأعماله طوال مدة
حياته الأدبية التي نذرنا لخدمة الفكر اللبرالى الروسى •

كانت جوليا ميخائيلوفنا فى ذروة الاقتتان والحبور •

فقال كارمازينوف وقد استسلم لحنان القلب ورقة العاطفة :

– نعم ، سأودع الجمهور • سأقرأ « شكرا » ، ثم أرحل... وهناك ،
فى كارلسروهه ... سأغمض العينين ...

انه ، كعدد كبير من كبار كتابنا (وما أكثرهم ، كبار كتابنا) لم
يستطع أن يصمد للمديح وأن يقاوم تأثيره ، بل ضعف له بسرعة ، رغم
ذكائه ، وذلك أمر يُغفر له على كل حال فيما أعتقد • يقال ان واحدا من
أدبائنا الذين يقارنون بشكسبير قد أعلن يقول ذات يوم على حين فجأة :
«هكذا نحن معشر الرجال العظام ، لا نملك أن نتصرف غير هذا التصرف» ،
النخ • قال ذلك حتى دون أن يحس به •

تابع كارمازينوف كلامه يقول :

– هناك ، فى كارلسروهه ، سوف أغمض عينيّ • اننا معشر الرجال
العظام لا نملك متى أنهنا رسالتنا الا أن نغمض أعيننا بأقصى سرعة ، دون
أن ننتظر مكافأة • ذلك ما سأفعله •

قال الألماني وقد انطلق يضحك ضحكاً شديداً :

– قل لى عنوانك ، وسأجىء أزور قبرك فى كارلسروهه •

وقال أحد الشبان الصغار الذين كانوا موجودين :

– فى هذا الزمان ، يُشحن الموتى فى القطار •

فانفجر ليامشين يضحك مفتوناً • وقطبت جوليا ميخائيلوفنا حاجيها •
وانهم كذلك اذا بستافروجين يدخل فيصرفهم عما هم فيه •
قال ستافروجين متجهاً في أول الأمر الى ستيفان تروفيموفتش :
- هه ! لقد رُوى لي أنهم اقتادوك الى قسم الشرطة •
فقال ستيفان تروفيموفتش مازحاً :
- لا بل هي قضية « خصوصية » •
فقالت جوليا ميخائيلوفنا :

- ولكنني أرجو أن لا يكون لها أى أثر على ما طلبته منك • اننى
أمل رغم الانزعاج المؤسف الذى تعرضت له وأشرت اليه ، والذى
لا أعرف عنه شيئاً البتة حتى الآن ، أن لا تخبّب ظننا وأن لا تحرمانا من
متعة الاستماع اليك فى الصبيحة الأدبية •
- لا أدرى ••• أنا ••• الآن •••

- حقا اننى تعيسة جدا يا فرفارا بتروفنا ••• ففى اللحظة التى أتوق
فيها الى أن أعرف معرفة شخصية واحدا من ألمع المفكرين الروس ومن
أكثرهم استقلالاً فى الرأى ، أرى ستيفان تروفيموفتش يريد الابتعاد
عنا ! •••

قال ستيفان تروفيموفتش :

- كان علىّ حتماً أن أتظاهر بأننى لم أسمع هذا المديح الذى يُقال
بصوت عالٍ ، ولكننى لا أستطيع أن أصدق أن شخصى الضعيف يمكن
أن يكون ضرورة لا غنى عنها للحفلة التى تزمعين اقامتها • اننى على كل
حال •••

هنا دخل بطرس ستيفانوفتش بخطاه السريعة وصاح يقول :

– ولكنكم ستفسدونه بالدلال • فما كدت أفلح في تعليمه أن يسير مستقيماً حتى تدفقت عليه في صباح يوم واحد ضربةٌ تلو ضربةٍ : فمن تفتيش الى اعتقال الى شرطى يمسك بتلابيه ، ثم ماذا أرى الآن ؟ أرى السيدات ينشرن حوله البخور في صالون الحاكم ! انه الآن مفتون بنفسه • أنا من ذلك على يقين • انه لم يحلم بمثل هذا الانتصار في يوم من الأيام • اننى أتخيل ما سيقوله الآن عن الاشتراكيين من سوء !

قالت جوليا ميخائيلوفنا بقوة وعزم :

– مستحيل يا بطرس ستيفانوفتش ! ان الاشتراكية فكرة أعظم من أن ينكرها ستيفان تروفيموفتش •

فقال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض بأبهة نبيلة :

– الفكرة عظيمة ، ولكن الذين يعتقونها ليسوا بالعمالقة دائماً « وحسبنا هذا يا عزيزى ! » (بالفرنسية) •

ولكن وقع في تلك اللحظة حادث لا يمكن أن يكون في حساب أحد أن يقع • ان فون لمبكه موجود في الصالون منذ بعض الوقت ، ولكن الحضور تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده رغم أنهم رأوا دخوله جميعاً ؛ كما أن جوليا ميخائيلوفنا ظلت وفيّة لأسلوبها فاستمرت تتجاهل زوجها • كان فون لمبكه جالسا قرب الباب ، قاسى الهيئة مكفهر الوجه ، يصغى الى ما يدور من أحاديث • فلما أُشير الى الأحداث التى وقعت في الصباح اضطرب على كرسيه قلقاً ، ثم أدار نظرتة نحو الأمير • كان واضحاً أن الياقة الضخمة الطويلة التى تلف عنق الأمير قد أثرت فيه تأثيراً شديداً • وان دخول بطرس ستيفانوفتش المسداهم ، ودوى صوتة ، قد جعلاه يرتعش • فما ان أنهى ستيفان تروفيموفتش جملته عن الاشتراكيين حتى اقترب منه آندره أنطونوفتش فون لمبكه ، دافعا ليامشين الذى كان في

طريقه والذي تقهقر على حين فجأة مصطنعاً الدهشة ماسحاً كتفه كأن فون لمبكه قد صدمها صدماً عنيماً • قال فون لمبكه :

- كفى !

وأمسك يد ستيفان تروفيموفتش بحركة قوية روّعته ، وضغطها ضغطاً شديداً • وتابع كلامه يقول :

- لقد انحسر القناع عن وجوه النصابين في هذا الزمان • لا تقل كلمة واحدة أخرى • لقد اتخذت الاجراءات •••

هذه الكلمات التي قيلت بصوت عالٍ ولهجة قاطعة ، قد دوّت في الصالون كله وأحدثت شعوراً شاقاً أليماً • أحس الجميع أن شيئاً مزعجاً سيحدث • ورأيت جوليا ميخائيلوفنا يمتقع وجهها ويصفر لونها • غير أن هذا المشهد قد انتهى بحادث مضحك • فان لمبكه ، بعد أن أعلن أن الاجراءات قد اتخذت ، استدار على حين فجأة ، واتجه بسرعة نحو الباب ، لكنه ترنح عند الخطوة الثانية ؛ اذ تعثرت قدمه بالسجادة ، فكاد يسقط على الأرض طريحاً •

توقف فون لمبكه لحظة ، وتأمل السجادة ، وقال بصوت عالٍ : « يجب تبديل هذا » ، وخرج • فركضت جوليا ميخائيلوفنا وراءه • وسرعان ما أخذ الجميع يتكلمون في آن واحد • وسمعت بين لفظهم هذه الكلمات « مجنون » ، « مختل » ، « نوبة » ••• وكان بعضهم يلطم جبينه بالاصبع • وفي ركن من الأركان رفع ليامشين اصبعين الى رأسه • وخفض بعضهم أصواتهم فأشاروا الى نزاعات عائلية • ومع ذلك لم ينصرف أحد ، بل لبثوا ينتظرون • اننى أجهل الاجراءات التي اتخذتها جوليا ميخائيلوفنا ، ولكنها رجعت بعد خمس دقائق باذلةً جميع جهودها من أجل أن تبدو هادئة • وجواباً عن الأسئلة التي ألقىت عليها ، قالت ان آندره أنطونوفتش نائر

الاعصاب قليلاً ، وان الأمر هين يسير ، وانه يعانى من أمثال هذه النوبات الصغيرة منذ طفولته ، وان حفلة الغد ستسرى عنه كثيراً . واتخاذاً للمظاهر لا أكثر ، وجهت الى ستيفان تروفيموفتش بضع كلمات من مديح أيضا ، ودعت أعضاء اللجنة الى اتخاذ أماكنهم لعقد الاجتماع . وعندئذ فقط انما قام أولئك الذين ليسوا أعضاء فى اللجنة ، من أجل ان ينصرفوا . غير أن الأحداث الأليمة التى وقعت فى ذلك النهار المشؤم لم تكن قد انتهت بعده .

حين دخل نيقولاى فسيفولودوفتش ، لاحظتُ النظرة العاحصة التى حدثت بها اليه ليزا . حتى لقد بلغت من طول النظر اليه والتأمل فيه أن ذلك لفت الانتباه أخيرا . ورأيتُ ما فريكى نيقولاىقتش يميل عليها ليكلهما بصوت خافت فى أغلب الظن . ولكنه عدل عن رأيه ، وعاد ينتصب فجأة ، وشمل الجمع بنظرة كأنه يريد أن يعتذر عما بدر منه . وقد أثار نيقولاى فسيفولودوفتش شيئا من حب الاطلاع هو أيضا . كان وجهه أشد شحوباً من عهدنا به ، وكانت نظرتة تبدو ذاهلة ذهولاً خاصاً . ولاح عليه أنه لم يسمع جواب ستيفان تروفيموفتش عن السؤال الذى وجهه اليه حين دخل ، بل أنى لأظن أنه نسي أن يحيى ربة الدار . أما ليزا فقد أغفل حتى النظر اليها . وانى لوائق على كل حال بانه لم يقصد ذلك ولم يتعمده : كل ما هنالك أنه لم يلاحظها . وفجأة ، بعد صمت قصير أعقب اقتراح جوليا ميخائيلوفنا بافتتاح اجتماع اللجنة فوراً ، دوتى صوت ليزا الرنان مناديا ستافروجين ، متعمداً أن يسمعه الجميع طبعاً .

– نيقولاى فسيفولودوفتش ، ان رجلاً يسمى الكابتن لبيادكين ، ويدعى أنه قريبك ، أنه أخو زوجتك ، يبعث الى رسائل غير لائقة يتسكى فيها منك ويعرض على أن يفضى الى بأسرار تخصك . فاذا صح أن هذا الرجل قريبك ، فاحظر عليه أن يهيننى وضع حداً لأفعاله .

كانت هذه الكلمات تشتمل على تحدٍ رهيب . وقد أدرك ذلك جميع

الحضور • ان التهمة واضحة • ولكن من الجائز أن تكون ليزا قد قذفتها دون أن تدرك ما تفعل ، كإنسان يلقي بنفسه من أعلى سطح مغمضاً عينيه ولكن جواب نيقولاى فسيفولودوفتشس كان أدعى الى الدهشة وأبعث على الذهول أيضاً •

لم يبدُ عليه شيء من الاستغراب بتاتا ، وأصغى الى كلام ليزا باتباه شديد وهدوء كامل • ولم يعبر وجهه عن اضطراب ولا عن غضب • وببساطة هائلة ولهجة ثابتة بل متعجلة انما أجاب عن السؤال المحتوم قائلاً :

– نعم ، من سوء حظى أن بينى وبين هذا الرجل قرابة • اقد تزوجت أخته منذ زهاء خمس سنين • وثقى أنتى سأبلغه مطالبك فى أقرب فرصة ، وانى لأضمن لك أن يكف عن ازعاجك بعد اليوم •

لن أنسى ، ماحييت ، الهول الذى ارتسم على وجه فر فارا بتروفنا • لقد انتصبت زائفة الهيئة ، رافعة ذراعها اليسرى فوق رأسها كأنما لتحميه • ونظر اليها نيقولاى فسيفولودوفتشس ، ثم تأمل ليزا ، ثم طأف ببصره على سائر المشاهدين • وألمت بشفتيه ابتسامه ، وغادر الصالون بغير تعجل • وفى اللحظة التى اتجه فيها نحو الباب نهضت ليزا عن ديوانها فجأة بحركة قوية ، وهمت أن تركض وراءه • ولكنها سيطرت على نفسها فأمسكت عن الجرى ، وخرجت بهدوء ، دون نظرة تلقيها على أحد ، ودون كلمة تقولها لأحد ، يتبعها مافريكى نيقولاىقتشس طبعاً •••

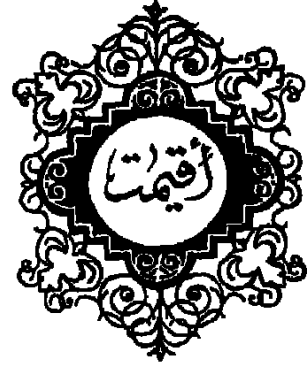
لن أقول شيئاً عن الشائعات التى جرت فى المدينة فى ذلك المساء نفسه • ولقد سحنت فر فارا بتروفنا نفسها فى منزلها لا تبرحه • أما نيقولاى فسيفولودوفتشس فيقال انه ذهب رأساً الى سكفورشنيكى ، حتى دون أن يرى أمه • وفى المساء أرسلنى ستيفان تروفيموفتشس الى عند « تلك الصديقة الغالبة » (بالفرنسية) راجئاً أن تأذن له بأن يجيئها زائراً • ولكننى لم

أستقبل في منزلها • كان ستيفان تروفيموفتش متأثراً متأثراً رهيباً ، حتى
لقد كانت الدموع تترقرق في عينيه • كان يكرر على مسمعى بغير انقطاع :
« زواج كهذا الزواج ! يا لها من كارثة للأسرة ! » • ولكن ذلك كان
لا يمنعه من التفكير في كارمازينوف ، وشتمه شتماً عنيفاً ، وأن يجد في
اعداد قراءة الغد ، مكرراً حر كاته أمام مرآة (هذه طبيعة فنية) ، مستحضراً
في ذاكرته على سبيل تمليح كلامه جميع الكلمات الظريفة وجميع النكات
القائمة على الجنس اللفظى التى سبق له أن هياها ودونها في دفتر خاص •
— يا صديقى ، أنا أفعل ذلك كله فى سبيل فكرتنا العظيمة • «ياصديقى
العزيز » ، اننى أدع الانزواء الذى ألزمت به نفسى مدة خمسة وعشرين
عاماً ، وأرحل ••• الى أين ؟ لا أدري بعد ••• لكننى أرحل ! •••

الجزء الثالث

الفصل الأول

الحفلة



الحفلة رغم جميع الأحداث التي جرت أمس • وفي اعتقادي أنها كانت ستقام حتى ولو كان لمبكه قد قضى نحبه البارحة • فإلى هذا الحد كانت إقامة الحفلة هامةً في نظر جوليا ميخائيلوفنا • لقد ظلت إلى آخر لحظة - وا أسفاه! - مصرةً على عماوتها، لا تدرك الحالة النفسية التي كان عليها الناس • ومع ذلك ما من أحد كان يتصور أن ذلك النهار الفخيم يمكن أن ينتهي بغير فضيحة خطيرة ما، أو بدون «خاتمة» على حد تعبير أولئك الذين كانوا يفركون أيديهم من الجدل سلفاً • صحيح أن كثيراً من الناس كانوا يحاولون أن يصطنعوا هيئة مكفهرة متشائمة، لكننا نستطيع أن نقول بوجه عام أن الروس يجدون في الفضائح والمشاكل لذةً قصوى • على أن الواقع هو أن هناك شيئاً آخر أخطر شأنًا من هذا الظمًا إلى الفضائح: إنه حنق عام، أنه نوع من كره وحنق كاسر • يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاظين، وكانوا يتوقون إلى تغيير ما، أيًا كان هذا التغيير • كان يرين علينا استخفاف غريب، واستهتار مقصود • السيدات وحدهن كنَّ ثابتات الرأي، ولكن في أمر واحد: هو هذا الكره الساحق المالح الذي يحملنه لجوليا ميخائيلوفنا، والذي كانت المسكينة لا يخطر لها على بال • لقد ظلت

الى آخر لحظة مقتنه بأنها محاطة بمحبة الناس جميعا ، وأن الناس مخلصون لها « اخلاصاً متعصباً » •

سبق أن ذكرت أن أنواعا شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا • ان أمثال هؤلاء ينبجسون في عهود الاضطراب ، في عهود الانتقال ، في كل زمان ومكان • لست أعنى الأشخاص الذين يسمون « متقدمين » ، والذين ليس لهم من هم إلا أن لا يكونوا متأخرين متخلفين ، والذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محددة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية سخيفة • لا ، فانما أنا أعنى الأوغاد • ان الوعد موجود في كل مجتمع ، ولكنه لا يظهر على السطح الا في فترات الانتقال • وهو لا يرمى الى أية غاية ، ولا يسمى الى أى هدف ، ولا يملك أية فكرة • كل ما هنالك أنه يعبر عن نفاذ الصبر ، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع • ومع ذلك نرى الوعد ، دون أن يدرك هو ذلك ، يخضع في جميع الأحيان تقريباً لجماعة صغيرة من « المتقدمين » الذين لهم هدف محدد ، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذي يناسبهم ، على شرط أن لا يكونوا الا بلهاء تماماً وذلك ما يحدث في بعض الأحيان على كل حال •

الآن وقد انقضى كل شيء ، يؤكد الناس لدينا أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتمر بأوامر « الأممية » ، ويوجه جوليا ميخائيلوفنا التي كانت تستخدم الأوغاد تنفيذاً لتعليماته • ويتساءل العقلاء منا مذهولين كيف أمكن تضليلهم هذا التضليل •

لا أحد يعرف (ربما باستثناء بعض الأجانب) ، ولا أنا أعلم ماذا كان ذلك التملل العام والانزعاج الشامل ولا ما هو « الانتقال » المقصود : انتقال الى أى حال ؟ ومع ذلك وقمنا جميعاً تحت سيطرة أولئك الأشقياء من الأشخاص الصغار الذين طفقوا ينتقدون بصراحة كل ما هنالك من أمور

هي أقدس الأمور ، هم الذين كانوا قبل ذلك لا يجسرون حتى أن يفتحوا أفواههم ، وراح الآخرون الذين كانوا الى ذلك الحين يحتلون أرفع مقام بصغون اليهم صامتين ، حتى ليشجعونهم بضحكاتهم في بعض الأحيان . ان أناساً مثل ليامشين ، وتلياتيكوف ، وتنتيكوف ، وان أغراراً مدعين مثل رادشتشيف . ، وان يهوداً صغاراً من أصحاب الابتسامة الأليمة المتغطسة في آن واحد ، وان ضاحكين ومسافرين عابرين ، وشعراء لبرالين وافدين من العاصمة ، شعراء يقوم عندهم قميصٌ من قمصان الفلاحين وخذاءان مدهونان بالقطران مقام اللبرالية والموهبة، وان ضباطاً برتبة ميجر وكولونيل ممن لا يشعرون نحو رتبهم العسكرية الا بالاحتقار والازدراء ، والذين لا مانع لديهم في سبيل زيادة قدرها روبل واحد أن يرموا سيوفهم ليلتمسوا وظيفة في مصلحة السكك الحديدية ، وان جنرالات ممن أصبحوا محامين أو موظفين بلا عمل ولكنهم يحسنون تدبير أمورهم وتصريف شئونهم ويعرفون من أين تؤكل الكتف ، وان شباباً من أبناء التجار اعتنقوا الأفكار الجديدة ، وطلاباً لا نهاية لعدددهم ، ونساء يعدون أنفسهن بطلات مكافحات في سبيل قضية المرأة ، هؤلاء جميعاً هم الذين أصبحت لهم الغلبة والسيطرة . وعلى من ؟ على أعضاء نادينا ، على موظفين محترمين ، على جنرالات فقدوا في الحرب بعض أعضاء أجسامهم ، على سيداتنا المتعاليات المتكبرات . ومهما يكن من أمر فانا لا نملك الا أن نعذر سيداتنا على أنهن فقدن صوابهن حين نرى أن فرفاراً بتروفنا نفسها قد خضعت لسطوة هؤلاء الأشرار ، الى أن حلت الكارثة التي أصابت ابنها .

سبق أن قلت ان الناس الآن يحمّلون « الأممية » تبعة كل ما وقع . وقد بلغت هذه الفكرة من قوة الرسوخ في الأذهان أنهم يعللون بها الأمور حتى للوافدين الينا من الخارج (وما أكثرهم !) حتى ان المستشار كوبريكوف الذي يبلغ الثانية والستين من عمره ، ويحمل وسام سان

ستانسلاس ، قد جاء في الآونة الأخيرة من تلقاء نفسه يصرِّح للسلطات بلهجة نافذة جازمة أنه ظل مدة ثلاثة أشهر خاضعاً لتأثير « الأمية » ، فلما سُئِلَ بما ينبغي لسنه ورتبته من مداراة ومراعاة أن يذكر بعض الايضاحات الدقيقة ، اكتفى بأن قال انه « شعر بذلك شعوراً داخلياً » ، ولكن هذا لم يمنعه من الاصرار على تصريحه . لذلك تُرك له أن ينصرف دون أن يلقي عليه مزيد من الأسئلة .

أكرر مرة أخرى : لقد وجدت فئة صغيرة من العقلاء تنحّت جانباً منذ البداية ، حتى لقد سجنت نفسها في بيوتها وأغلقت عليها الأبواب بالأقفال . ولكن ما من قفل يقاوم قوانين الطبيعة . ففي الأسر العاقلة المحاذرة توجد دائماً فتيات لا يستطعن الاستغناء عن الرقص ، فهو لهن ضرورة . لذلك رأينا أكثر الأشخاص تحفظاً يشتركون في النهاية بطاقات لحضور حفلة الرقص التي نُظِّمت لمساعدة المعلمات ، لا سيما وأن الحفلة ستكون باهرة الى أقصى حد . كان يُقال انها ستكون معجزة من المعجزات: تحدث الناس عن أمراء سيحضرونها ، وعن عشراتٍ من خيرة أبناء الأسر سيتولون الاشراف على تنظيمها عاقدين على أكادهم اليسرى شريطاً يميزهم عن غيرهم ؟ وتحدثوا عن شخصية سياسية من بطرسبرج لا أدري من هي ، وعن كارمازينوف الذي ارتضى في سبيل تضخيم البرنامج أن يقرأ قصيدته «شكرآ» وهو في لباس معلمة ، وتحدثوا عن « رباعي أدبي » سيرندى راقصوه أبهى الأزياء ، فكل زى من هذه الأزياء يرمز الى اتجاه أدبي ، وتحدثوا عن سيد سيلبس رداء خاصاً ويمثل « الفكر الروسي الصادق الأصيل » ، وسيرقص هو أيضاً ، وذلك كله نبيء جديد لا عهد بمثله من قبل . فكيف يمكن أن يتمتع المرء عن الاشتراك في حفلة رقص كهذه الحفلة ؟ هكذا انقاد الجميع للاغراء .

٢

تتضمن الحفلة ، وفقاً للبرنامج ، جزأين : صبيحةً أدبية من الظهر حتى الساعة الرابعة ، وحفلة رقص تبدأ في الساعة التاسعة وتمتد على طول الليل . ولكن هذا البرنامج يشتمل بذاته على عناصر فوضى . من ذلك أولاً أن الجمهور تخيّل أن سيكون ثمة غداءً بعد الصبيحة الأدبية فوراً أو أثناءها ، خلال فترة استراحة تُخصّص لهذا الغرض ، غداءً مع شمبانيا ، بالمجان طبعاً ، لأنه جزء من البرنامج . ان المبلغ الباهظ الذي يدفعه المشترك ثمناً للبطاقة (وهو ثلاثة روبلات) قد ساهم في ترويح هذه الشائعة وتعزيزها : « هل كان يمكن أن أشارك لولا هذا ؟ ان الحفلة تدوم أربعاً وعشرين ساعة ، فلا بد من اطعام الحضور الذين سيأخذ منهم الجوع كل مأخذ » . كذلك كان يفكر الناس في الأمر . يجب أن أقول ان جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي خلقت بطيشها وتسرعها هذه الأوهام المشؤومة . انها قبل موعد الحفلة بشهر ، كانت وقد هزتها الحماسة الشديدة لمشروعها ، تزعم لكل قادم أنها ستقيم حفلةً ستُشرب فيها الأنخاب . حتى لقد أعلنت عن هذه الأنخاب التي كانت تحرص عليها حرصاً خاصاً ، في جريدة من جرائد العاصمة . كانت تريد أن ترفع الأنخاب بنفسها ، وكانت تهيئها منذ ذلك الحين . كان ينبغي لهذه الأنخاب في نظرها أن تجمع العقول حول « رايثنا الجديدة » (ما هي تلك الراية الجديدة ؟ أراهن أن المسكينة كانت هي نفسها لا تعرفها !) . فاذا نُشرت في جرائد العاصمة في صورة أنباء بعث بها المراسلون الصحفيون ، فلسوف تثير عاطفة السلطات العليا ولسوف تفتن أبواب هذه السلطات حتماً ، ثم اذا هي تنتشر بعد ذلك في البلاد باعثةً على الدهشة والتنافس في كل مكان . ولكن رفع الأنخاب يقتضي شمبانيا . والشمبانيا لا تُشرب على جوعٍ طبعاً ، فلا بد اذن من وجبة غداء . ولكن حين تشكلت بعد ذلك لجنة لدراسة المشروع من جميع

جوانبه ، فان أعضاء اللجنة لم يلبسوا أن برهنوا لجوليا ميخائيلوفنا أن اقامة مأدبة ستكلف نفقات طائلة فلا يبقى للمعلمات شيء ذو بال مهما يكن ايراد الحفلة . وهكذا أصبح الوضع كما يلي : فاما مأدبة فاخرة وأنخاب ثم لا يبقى للمعلمات الا زهاء تسعين روبلاً ، واما ايراد كبير اذا اقتضت الحفلة على ما هو ضرورى ولم تكن الا ذريعة لمساعدة المعلمات . وكانت اللجنة من جهة أخرى تنصح بالتعقل والحكمة ، وتقرح حلاً ثالثاً يصلح بين الأمرين ويتصف بالاعتدال والتبصر : اقترحت اللجنة أن تكون الحفلة لائقة من جميع النواحي ، ولكن بغير شمبانيا ، فاذا تم ذلك كان فى الامكان أن تنال المعلمات مبلغاً كبيراً ، مبلغاً يزيد كثيراً على تسعين روبلاً . ولكن جوليا ميخائيلوفنا لم تشأ أن تسمع شيئاً عن هذا الحل الوسط . انها تحتقر التسويات البورجوازية . وما دامت فكرتها الأولى مستحيلة التحقيق ، فها هى ذى تعدل عنها لتندفع الى الطرف الأقصى الآخر : سنحاول أن نظفر بأكبر ريع ، فنستثير غيرة سائر الأقاليم . قالت فى خطاب ملتهب ألقته على أعضاء اللجنة ان الأهداف الانسانية الكبرى التى نرمى اليها أهم كثيراً من ملذات الجسم العابرة ، وان حفلتنا انما هى فى الواقع تعبير عن فكرة عظيمة ، فيجب أن نكتفى اذن بحفلة رقص صغيرة على الطريقة الألمانية ، لا تكلف نفقات كبيرة ، حفلة رقص رمزية ان صح التعبير مادام يستحيل الاستغناء عن حفلة الرقص هذه الكريهة التى لا تطاق ! » . والحق أنها كانت قد كرهت هذه الحفلة . ولكنهم استطاعوا أن يهدثوا روعها . وعندئذ انما تخيلوا « الرباعى الأدبى » ، كما تخيلوا تسليات فنية أخرى من شأنها أن تحل محل مباحج الجسم وملذات الطعام والشراب . وعندئذ أيضاً انما رضى كارمازينوف الذى لم ينقطع عن التصنع والتدلل ، ولم يكف عن استدرار الرجاء والضراعة ، أقول عندئذ انما رضى كارمازينوف أن يقرأ قصيدته «شكرآ» ، وأن يستأصل بذلك حتى فكرة الطعام من نفس الجمهور الشره

المسرف في الشراهة • هكذا تسترد الحفلة بهاءها ، ولكنه بهاء من نوع خاص • ومن أجل أن لا يفرق القائمون عليها غرقاً كاملاً في السحاب ، قرروا أن يقدموا في بداية حفلة الرقص شيئاً مع الليمون وحلويات جافة، ثم أن يطوفوا بعصير البرتقال والليمون بعد ذلك ، بل وأن يقدموا في النهاية مثلجات ، ولكن لا شيء غير ذلك • أما الذين هم جائعون وظامئون في كل وقت وفي جميع الظروف ، فسيهياً لهم «بوفيه» خاص يتهمه بروخورتش (رئيس طهاة النادي) ، ويمكن أن يُقدم فيه تحت رقابة قاسية تمارسها اللجنة كل ما يشتهي المشتهون ، ولكن أثمان الطعام والشراب لن تكون من أصل ثمن البطاقة ، وإنما يدفعها المستهلكون على حدة ، إذ يعلن لهم ذلك باعلان خاص يوضع على الباب • وحمايةً للقراءة من التشويش أثناء الصبيحة الأدبية ، يظل « البوفيه » مغلقاً ، رغم أن خمس غرف تفصله عن الصالة البيضاء التي سينشئ فيها كارمازينوف قصيدته « شكراً » • والأمر الغريب هو أن اللجنة ، ومن بين أعضائها أناس عمليون جداً ، كانت تضيف على هذا الحادث ، أعنى قراءة القصيدة ، قيمة كبيرة وشأناً عظيماً • أما النفوس الشعرية فكانت حماستها أشد • حسبى أن استشهد على ذلك بمثال زوجة مارشال النبالة التي قالت لكارمازينوف انها بعد انشاده القصيدة فوراً ستأمر بأن برصع جدار صالتها بلوحة من مرمر يكتب عليها بأحرف من ذهب أن الكاتب الروسي والأوروبي الكبير قد أنشد قصيدته «شكراً» للجمهور المتمثل في شخصيات مدينتنا ، وذلك في يوم كذا ، وهو اليوم الذي ترك فيه قلمه وودّع الكتابة • وستكون هذه اللوحة بما عليها من كتابة ، مهياً عند افتتاح حفلة الرقص ، أي بعد الحادث التاريخي بخمس ساعات • واني لأعلم من مصدر موثوق به أن كارمازينوف خاصة هو الذي طالب مصرأ بأن يظل «البوفيه» مغلقاً أثناء الصبيحة الأدبية ، رغم ما ارتآه بعض أعضاء اللجنة من أن هذا ليس من مألوف عاداتنا •

هذا ما كان قد تقرر بينما كان الناس فى المدينة يأملون أن يحضروا مأدبة ، أى أن يأكلوا ويشربوا بالمجان • لقد ظلوا يعوّلون على هذا الى آخر لحظة • وكانت الآنسات تحلم بسكاكر وحلويات توزّع وافرة بغير عد ، وتحلم كذلك بأمر خارقة لا أدرى ما هى ! كان معلوماً أن الربيع ضخم ، وأن المدينة كلها ستتهافت على حفلة الرقص ، وأن كثيرا من الناس يفدون من المقاطعات المجاورة خصيصا لشهود الحفلة ، وأن الجمهور يتخاطف التذاكر تخاطفًا • وكان معلوماً كذلك أن عطايا ضخمة قد قدّمت : فالسيدة فرارا بتروفنا منلاً قد اشترت تذكرتها بثلاثمائة روبل ووهبت من مزارعها جميع الأزهار التى ستزين الصالة • وزوجة مارتال النبالة (وهى عضوة فى اللجنة) قد قدّمت منزلها والاضاعة • كما أن النادى تبرع بالموسيقى والخدم ، وتنازل عدا ذلك عن طباخه طوال النهار • اننى أصرف النظر عن عطايا أخرى أقل ضخامة • وقد خطر بالبال تخفيض ثمن التذكرة وجعله روبلين لا ثلاثة • ذلك أن اللجنة قد خشيت فى أول الأمر أن يكون من شأن الثمن الباهظ ، وهو ثلاثة روبلات ، أن يحول دون مجيء الآنسات ، حتى لقد قام فى الأذهان بيع بطاقات عائلية • فالآباء قد لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول الا لواحدة من بناتهم ، فلا مانع أن تدخل الأخريات بالمجان ولو كان عددهن عشراً • غير أن هذه المخاوف لم تلبث أن تبددت : فالآنسات جئن زرافات ووحداناً ، وأصغر الموظفين اصطحبوا بناتهم جميعاً • طبعى أنهم ما كانوا ليفكروا فى المجيء لولا أن لهم بنات • ان سكرتيراً صغيراً فقيراً قد جاء ببناته السبع ، مع امرأته طبعاً ، ومع ابنة أخته كذلك • فكانت كل واحدة منهن تحمل بيدها عند الدخول بطاقتها التى ثمنها ثلاثة روبلات • تستطيعون أن تتصوروا بسهولة ان المدينة كلها كانت فى ثورة • واذ كانت الحفلة تشتمل على صبيحة أدبية وحفلة رقص ، فقد كان على السيدات أن يكون لكل منهن ثوبان : واحد للاجتماع

الأدبي والناني للرقص • لذلك فإن عدداً من رجال الطبقة المتوسطة ، كما علم ذلك فيما بعد ، قد رهنوا لهذه المناسبة كل ما يملكون من بياض ، حتى لقد رهنوا أغطية الأسرة ، ان لم يكونوا قد رهنوا الفرش نفسها ، لدى يهود كانوا منذ سنتين قد أخذوا يتوافدون الى مدينتنا ويستقرون فيها ويزداد عددهم شيئاً بعد شيء • وجميع الموظفين تقريباً قد اقترضوا سلفاً على مرتباتهم • حتى أن بعض الملاكين قد باعوا بعض مواشيهم • كل ذلك من أجل أن تلبس بناتهم لباساً حسناً ، وأن يظهرن دون غيرهن • أما التزين فلم يُرَ له مثل قبل ذلك في مدينتنا • غير أن نوادر كثيرة عن الحياة الخاصة التي يعيشها عدد من أسر المدينة قد تناقلها الناس في كل مكان قبل الحفلة بخمسة عشر يوماً ، وتطوع بعض المازحين فأسرعوا ينقلونها الى جوليا ميخائيلوفنا • وقد تناقل الناس كذلك صوراً كاريكاتورية رأيت بعضها في ألبوم جوليا ميخائيلوفنا • وذلك كله قد وصل الى مسامع أولئك الذين كانوا موضوع هذه النوادر وتلك الرسوم • وأغلب ظني أن ذلك هو مصدر الكره الذي حمله كثير من الناس لامرأة الحاكم في الأيام الأخيرة • ان جميع الناس لا يتذكرون الآن تلك الذكريات حتى يشور غضبهم • ولكن كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أيسر هفوة تقع فيها اللجنة وأن أيسر خلل يحدث يمكن أن يفجّر غضب الجمهور قوباً عنيفاً • لذلك كان كل واحد يتوقع بينه وبين نفسه حدوث فضيحة ما • واذا كان الجميع يتوقعون الفضيحة فلا بد أن تقع الفضيحة حتماً •

في الظهر تماماً بدأت الأركسترا تعزف • ولما كنتُ واحداً من الشبان المشرفين الذين يبلغ عددهم اثني عشر شخصاً ويزدان كتفهم بعقدة من شريط ، فقد رأيت بنفسى كيف بدأ ذلك النهار المخزية ذكراه • لقد بدأ الأمر بتزاحم وتدافع عند المدخل • لماذا جرى كل شيء مجرى سيئاً منذ اللحظة الأولى ، ولماذا لم تكن الشرطة نفسها في مستوى الظروف ؟

اننى لا أتهم الجمهور الحقيقى • ان آباء الأسر ، مهما تكن رتبهم عالية ، لم يستعملوا أكواعهم ولم يحاولوا أن يدخلوا قبل غيرهم • بل انه ليقال ، خلافاً لذلك ، أنهم تنحوا جانباً ، وضاقوا صدرأ بهذا المشهد الذى لا عهد لنا بمنله ، مشهد الحشد محاصراً درجات المدخل متزاحماً على الباب • وكانت العربات تصل أثناء ذلك الى أن سدّت الطريق آخر الأمر •

فى الساعة التى أكتب فيها هذه السطور ، أستطيع أن أؤكد ، بالاستناد الى وقائع ثابتة ، أن ليامشين وليبوتين وربما غيرهم أيضاً ، وهم جميعاً مشرفون مثلى ، قد سمحوا بالدخول من غير بطاقة لأفراد من أوباش الناس • لقد رثى انبجاس أشخاص مجهولين تماماً ، جاءوا من الريف أو وفدوا لا أدري من أين ! فما ان دخل هؤلاء الجفأة المتوحشون الى الصالة (وكانهم ينفذون كلمة سر) حتى أخذوا يسألون عن «البوفيه» • فلما علموا أن ليس ثمة «بوفيه» أخذوا يطلقون شتمائم فظة ، بوقاحة لا مثيل لها ، وبذاعة غير معروفة عندنا حتى ذلك الحين • كان عدد منهم سكارى قد أخذ منهم الثمل كل مأخذ • وكان بعضهم يبدو مشدوهاً مبهوتاً من عظمة الصالة لأنه لم ير قبل اليوم شيئاً يبلغ هذا المبلغ من البهاء والأبهة ، فهؤلاء جمدوا فى مكانهم لحظةً ، وجعلوا ينظرون من حولهم فانغرين أفواعهم • ان هذه الصالة البيضاء الواسعة ، رغم أنها قديمة جداً منذ الآن ، لها فى الواقع مظهر رائع باهر : صفآن من النوافذ المنضودة ، بعضها فوق بعض ، سقف مغطى بنقش وحفر وتذهيب ، وشرفات ، وجدان تزينها مرايا ، ومفارش حمراء ، وتمائيل من مرمر (انها تمائيل مهما تكن) ، أثاث مهيب (يرجع عهده الى عصر نابوليون) مدهون ببياض وذهب ومكسو بمخمل قرمزي اللون • وفى آخر القاعة نُصب منبر للذين سيشاركون فى الصبيحة الأدبية • وفى سائر القاعة صُفّت كراسى كما تُصَفُّ فى مسرح ، وجُعِلت بين صفوفها مسافات عريضة تسمح بمرور الجمهور •

ولكن ما ان انقضت دقائق الدهشة الأولى حتى أخذ الناس يتبادلون ملاحظات من أغرب ما تكون الملاحظات ، ومن أغبى ما تكون الملاحظات • « ربما كنا لا نريد انشاد الشعر ••• لقد دفعنا ثمن تذاكر الدخول مبلغاً طائلاً ••• خدعوا الجمهور ••• نحن هنا السادة لا آل لمبكه ! ••• » • الخلاصة : لكأنهم ما أُدخلوا الا ليحدثوا لغطاً وفوضى • أتذكر على وجه الخصوص حادثاً كان بطله ذلك الأمير الذى يلتف عنقه بياقة عالية مسرفة فى العلو ، والذى يشبه أن يكون وجهه آلة متحركة من تلقاء ذاتها ؛ انه ذلك الأمير الذى لقيته أمس عند جوليا ميخائيلوفنا • لقد قبل بعد الحاح من جوليا ميخائيلوفنا أن يعلّق على كفه الأيسر عقدة شريط ، وأن يكون بذلك أحد المشرفين • فهذا الشخص الأبكم الذى تكاد حركاته أن تكون حركات آلة اتضح أنه يستطيع أن يفعل اذا كان لا يستطيع أن يتكلم • لقد ناداه كاتبن محال على التقاعد ، ناداه بفضافة وغلظة ، وهو رجل عملاق فى وجهه بقايا من ثور الجدرى ، شجته عصبة من الأوغاد فطالب بأن يُقاد الى «البوفيه» • فما كان من الأمير الا أن أوماً لرجل من رجال الشرطة ، فأسرع الشرطى يتدخل فوراً فيخرج الكاتبن من القاعة رغم احتجاجاته الصارخة وزعيقه المتصل • وفى أثناء ذلك أخذ الجمهور « الحقيقى » يصل ويجلس متسللاً بين المرات الثلاث التى جعلت بين صفوف الكراسى • وصمت الصياحسون شيئاً فشيئاً • ولكن الجمهور « الرفيع المقام » كان يبدو عليه عدم الرضى وكانت تبدو عليه الدهشة • وكان عدد من السيدات يبدو مرتاعاً لا أكثر ولا أقل •

واستقر كل فرد فى مكانه أخيراً • وصمت الموسيقى • كان الناس يتمخطون وينظرون من حولهم • وكان للانتظار أبهة وفخامة • وهذا فى العادة نذير سوء • لم يصل لمبكه وزوجته حتى الآن • لا ترى الأعين فيما حولها الا حريراً ومخملاً وماساً • العطور تملأ الجو • السادة

يحملون جميع أوسمتهم ، حتى ان المتقدمين فى السن وأصحاب الرتب العالية يرتدون بزائهم الرسمية • وأخيراً دخلت زوجة مارشال النبالة تصحبها ليزا • لم تكن ليزا فى يوم من الأيام باهرة الجمال ولا رائحة الزينة كما كانت فى ذلك اليوم • ان شعرها يتهدل على كتفيها صفائر ، وان عينيها تسطعان سطوعاً براقاً ، وان بسمة مشرقة تشع فى وجهها • أحدث دخولها أثراً عظيماً • التفتت نحوها جميع الأبصار وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات والآراء عنها بصوت خافت • وأكد بعضهم أنها كانت

تبحث بنظراتها عن ستافروجين • ولكن لا ستافروجين ولا فرفاراً بتروفا كانا فى الصلاة • لم أدرك عندئذ المعنى الذى عبّر عنه وجه ليزا ، ولا فهمت لماذا كان محياها يفيض سعادة وفرحاً وقوة • وخطر ببالى ما حدث بالأمس ، فطفقت أحس وأفترض وأخمن • ما يزال آل لمبكه غائبين لم يصلوا بعد • تلك خطيئة • علمت فيما بعد أن جوليا ميخائيلوفنا قد انتظرت بطرس ستيفانوفتش الى آخر لحظة • لقد أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه ، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك فى قرارة نفسها • بالأمس ، فى آخر اجتماع عقده اللجنة ، كان بطرس ستيفانوفتش قد ردّ عقدة الشريط التى توضع على كتف المشرف ، فاستاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً وخاب أملها حتى أوشكت الدموع أن تترقرق فى عينيها حزناً ولوعة • فلما لم تره فى الغد ، أدهشها ذلك كبيراً ثم أدخل الاضطراب والبلبله الى نفسها (اننى استبق الأحداث) : انه لم يجىء لشهود الصيحة الأدبية • وجاء المساء دون أن يسمع أحد عنه شيئاً •

أخذ الجمهور يُظهر بعض التملل • ماتزال المنصة خالية • ودوى تصفيق فى الصفوف الأخيرة ، كما يحدث فى المسرح • السيدات والرجال المسنون يبدو عليهم الامتعاض : « ان آل لمبكه لا يزعمون أنفسهم ! » • ووصلت شائعات سخيفة حتى الى الصفوف الأولى : لن تُقام الحفلة :

فالحاكم قد بلغ به المرض أنه لن ... الخ الخ ! ولكن وصلت أسرة لمبكه أخيراً والله الحمد . كانت الزوجة متأبطة ذراع زوجها . أعترف اننى كنت قد فقدت الأمل فى وصولها . ان الحقيقة تنتصر على الشائعات الكاذبة . بدا الهدوء وظهرت الطمأنينة على الجمهور . كانت هيئة آندره أنطونوفتش تدل على أن صحته جيدة . ذلك كان شعور الجميع : فى وسعكم أن تتصوروا كيف كان الناس ينظرون اليه باتتباه شديد . يجب أن أقول من جهة أخرى - وذلك يميّز الحالة النفسية التى كان عليها الجمهور - ان قلّة من الأفراد فى المجتمع الراقى كانت تصدّق أن لمبكه مريض : ففى تلك البيئة كان لمبكه يتصرف تصرفاً سليماً جداً ، حتى لقد أيدوا الموقف الذى وقفه بالأمس فى الميدان . كانت الشخصيات الرفيعة المقام تقول : « بهذا انما كان ينبغى له أن يبدأ . ان هؤلاء الموظفين البطرسبرجين الذين يصطنعون فى البداية دور محبى البشر ينتهون الى الاعتقاد ، كسائر الناس ، دون أن يشعروا بذلك ، أن هذه الطريقة هى أحسن الطرق التى يجب أن يستعملها محبو البشر . » هكذا كانوا يفكرون فى نادينا . وكانوا يلومونه على أنه انتقاد للنضب : « كان ينبغى له أن يحافظ على هدوئه . ولكن سبب اندفاعه الغضب واضح : انه تعوزه الخبرة والتجربة » . كذلك كان يقول الاخصائيون فى الموضوع . وقد رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها محط جميع الأنظار أيضاً . لا يمكنكم أن تطالبونى طبعاً بتفاصيل دقيقة جداً عن بعض الوقائع : نحن بصدد امرأة ، وبصدد سر من أسرار حياتها الصميمة . اننى لا أعرف الا شيئاً واحداً : هو أن جوليا ميخائيلوفنا قد لحقت بآندره أنطونوفتش مساء أمس الى حجرة عمله ، وليت معه هنالك الى ما بعد منتصف الليل . فما زالت به حتى غفرت له وعفت عنه ، وواسته وعزته . واتفق الزوجان على جميع النقاط ، ونسى كل شيء . وحين تذكر فون لمبكه ، فى نهاية المصارحة ، حين تذكر مذعوراً انفجار غضبه

فى الليلة السابقة ، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فجنأ راکعاً على ركبتيه • فما كان من جوليا ميخائيلوفنا الا أن مدت يدها الفاتنة ترفه عنه وأخذت تلنمه بشفتيها مخففةً اندفاعات الندامة لدى هذا الرجل الفارس المرهف الشعور المسرف فى الانقياد لعواطف الرقة والحنان ، أعنى آنديه أنطونوفتش •

لاحظ جميع من فى الصالة ما يشع فى وجه جوليا ميخائيلوفتش من معانى السعادة • كانت تتقدم فى زهو وخيلاء ، وهى ترتدى ثوباً رائعاً • لكن أقصى أمانيتها قد تحققت : ان هذه الحفلة التى كانت هدفاً وتويجاً لسياستها قد أصبحت واقعاً فى آخر الأمر • اتجه لمبكه وزوجته الى مكانيهما فى الصف الأول ، مرسلين تحيات كثيرة عن يمين وشمال • ولم يلبنا أن أحاطت بهما جمهرة كبيرة • ومضت نحوهما زوجة مارشال النبالة ••• فاذا بغلطة مؤسفة تقع فى تلك اللحظة : لقد أخذت الأركسترا ، على حين فجأة ، بدون أى سبب ، تنفخ فى البوق لحناً من تلك الألحان المألوفة فى المآدب الرسمية حين يشرب الناس نخب شخص من الأشخاص • اننى أعلم الآن أن ليامشين ، بصفته مرشداً من مرشدى الحفلة ، قد أراد أن يستقبل أسرة لمبكه هذا الاستقبال • ولقد كان فى وسعه عند اللزوم أن ينتحل لهذه الفعلة أى عذر من الأعذار ، فيقول انه تصرف هذا التصرف عن حماقة ، أو انه قد دفعته اليه الحماسة • وا أسفاه ! لقد كنت أجهل حينذاك أن ليامشين والآخرين أصبحوا لا يفكرون فى الاعتذار ولا يريدون انتحال الحجج والتعلات ، وانهم سيزيحون النقاب عن وجوههم فى ذلك المساء تماماً • ولكن المظاهرة لم تقتصر على لحن عزف بأبواق : فينما كان الناس يتبادلون نظرات مدهوشة وابتسامات ، نرجعت فى آخر الصالة وعلى المنصات صيحات استحسان موجهة الى لمبكه وزوجته • ان الصيحات ضعيفة ، لكنها استمرت زمناً ! ••• احمرت جوليا ميخائيلوفنا

احمرارا شديدا ، والتمعت عيناها • ووقف فون لمبكه الى جانب كرسيه ، والتفت الى الجهة التي كانت تصدر عنها الأصوات ، وأجال على الحضور نظرة فيها فخامة وقسوة ••• فسرعان ما أجلسوه • ولاحظتُ على وجهه ، من جديد ، تلك الابتسامة المقلقة نفسها التي ظهرت على شفقيه بالأمس ، فى صالون زوجته ، حين همَّ أن يتقدم من ستيفان تروفيموفتش • لقد بدا لى أن هيئته لا تبشر بخير ؛ بل أسوأ من ذلك أنها مضحكة قليلاً ، فهي تعبّر عن عزيمة رجل قرر أن يضحى بنفسه ارضاءً للأهداف العليا التي ترمى اليها زوجته ! ••• أسرعت جوايا ميخائيلوفنا تستدعيني بإشارة من رأسها ، وقالت لى بدمدمة خافتة أن أجرى الى كارمازينوف فأضرع اليه أن يبدأ • ولكن ما ان أوليتها ظهري حتى حدثت دناءة جديدة أشبع من الأولى أيضا • فعلى المنبر ، على المنبر الخالى الذى اتجهت اليه حتى الآن جميع الأبصار وانصب عليه كل الانتظار ، والذى كان لا يرى فيه المرء الا مائدة صغيرة أمامها كرسي وفوقها كأس ماء على صينية من فضة - أقول : على هذا المنبر الخالى ظهرت على حين فجأة قامة مديدة ضخمة هي قامة الكابتن ليادكين مرتدياً رداء فراك مع ربطة عنق بيضاء • بلغتُ من شدة الدهول أننى لم أصدق عينيَّ فى اللحظة الأولى • وكان الكابتن يبدو خجلاً وجلاً وقد وقف فى آخر المنبر • غير أن أحداً صرخ يقول فى الجمهور : « كيف ؟ أهذا أنت يا ليادكين ؟ » • فاذا بوجه ليادكين ، اذا بوجهه الغبى المحققن المحمر من فرط الطعام والشراب (ولقد كان سكران تاماً) ، اذا به يتألق لدى سماع هذه الكلمات فتتشر فيه ابتسامة بلهاء ، واذا هو يرفع يده ، ويحك جبينه ، ويهز رأسه الكث الأشعث ، ثم يجمع قواه ويعزم أمره فيتقدم خطوتين الى أمام ، ويطلقها ضحكةً مقهقهة طويلة سعيدة هزّت جسمه الضخم كله ، وغضنت عينيه • فأخذ عدد كبير من الجمهور يضحك لهذا المشهد ، بينما راح الجسادون من

المشاهدين يتبادلون نظرات حائقة • وذلك كله لم يدم الا زهاء ثلاثين ثانية على كل حال ، هرع بعدها ليوتين الى المنصة يتبعه خادمان أمسكا الكابتن بلطفٍ من ابطيه ، بينما همس ليوتين في أذنيه ببضع كلمات • فقطب الكابتن حاجبيه ، ودمدم يقول وهو يحرك يده : « اذا كان الأمر كذلك ••• » ، ثم أدار للجمهور ظهره الضخم وانقاد للممسكين به • ولكن ما هي الا لحظة حتى عاد ليوتين الى المنصة وفي يده ورقة من الورقات التي تكتب عليها الرسائل ، فاصطنع ابتسامة عذبة من ابتساماته تلك التي يختلط فيها السكر بالخل ، وتقدم بخطى قصيرة الى حافة المنبر ، وقال :

- أيها السادة ، لقد أوقعنا السهو والاهمال في غلظة مضحكة سرعان ما وضعنا لها حداً من حسن الحظ على كل حال • لكنني أخذت على عاتقي أن أنقل اليكم - آملاً أن تقبلوا ذلك - رجاءً زاخراً بالاحترام بوجهه اليكم أحد شعراء مدينتنا • ان هذا الشاعر الذي هزته وحركت أوتار قلبه فكرةً إنسانية رفيعة (رغم مظهره الخارجى) هي تلك الفكرة نفسها التي جمعنا في هذا المكان ••• ان هذا السيد ••• أريد أن أقول ان هذا الشاعر ••• على رغبته فى كتمان اسمه يود كثيراً لو تُتلى قصيدته قبل حفلة الرقص ، أقصد قبل الجلسة الأدبية • وهذه الأبيات الشعرية ، رغم أن برنامج الحفلة لا يتضمن القاءها ، قد بدت لنا نحن (من «نحن» ؟ اننى أنقل هنا نص خطابه المضطرب المفكك كلمة كلمة بل حرفاً حرفاً) أنها بما تتميز به من براءة العاطفة ، بالإضافة الى ما تنصف به كذلك من الظرف وروح المرح ، تستحق أن تُقرأ ، لا من حيث أنها قصيدة جادة طبعاً ، ولكن لأنها تتعلق نوعاً من التعلق بالفكرة ••• أو قولوا بالغاية التي ترمى إليها حفلتنا هذه ••• لا سيما وأنها لا تعدو أن تكون أبياتاً قليلة • خلاصة الأمر أننى أستأذن الحضور الكرام فى أن •••

أعول صوت من آخر الصالة يقول :

– اقرأ •

– أقرأ؟

فصرخ عدة أشخاص يقولون :

– اقرأ ! اقرأ !

قال ليوتين وهو ما يزال يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المتعذبة :

– سوف أقرأ اذن •

ومع ذلك كان يبدو عليه التردد • حتى لقد قدّرت أنه منفعل بعض الانفعال • ان أمثال هذا الانسان ، مهما يكونوا وقحين ، يتفق لهم أحيانا أن يتخاذلوا • لو كان طالبا لما تردد حتما ، ولكن ليونين ينتمى رغم كل شيء الى الجيل القديم •

– أنبئكم سلفاً ، أقصد يشرفني أن أنبئكم سلفاً أن القصيدة ليست من تلك القصائد التي كان ينظمها الشعراء في الماضي لمناسبات ذات أبهة وجلال • فما هي في حقيقة الأمر الا مزاححة ، ولكنها زاخرة بعاطفة خالصة ، بالاضافة الى ظرف لاذع وواقعية صادقة ان صح التعبير •

– اقرأ ! هلا قرأت !

فضّ ليوتين الورقة • لم يتسع وقت أحد للتدخل طبعاً • ثم ان ليوتين كان يحمل شارة مشرف من المشرفين على الحفلة • وها هو ذا ينشد بصوت رنان :

**فصيدة مهداة من النساعر الى معلمتنا الوطنية في هذه المناطق
بمناسبة هذا الاحتفال :**

**تحية تحية ايبتها المعلمة
انتصرى وانتهجي**

رجعية كنت أم كنت مثل جورج صاند
ابتهجى كائنة ما كنت !

صاحت بعض الأصوات تقول :

- ولكن هذا شعر ليادكين • نعم ، هذا شعر ليادكين •
- وانطلقت ضحكات ، بل سمعت أيضا تصفيقات ، وان تكن قليلة •

تعلمين اللغة الفرنسية
لأطفال صغار بلداً
وتصطنعين السرور
لكل من يرغب في ان يدفع الأجور

- صحيح ، صحيح • هذا من الواقعية • لا حيلة للمرء بغير مال •

لكننا بفضل هذا الاحتفال
أصبحنا نملك رأس مال
هذا مهرك نهديه اليك
وهذه هدية من أصدقاء
رجعية كنت أم كنت جورج صاند
تستطيعين أن تختاري زوجك
وان تبصقي ، أيتها المعلمة
بعد أن تملكي المهر
على كل شيء !

لم أصدّق أذنيّ • ان في هذا من الوقاحة ما لا يمكن معه أن يُعذر ليوطين ولو تعلق بالحماقة والغباء • لا سيما وأن ليوطين لم يكن غيباً البتة • لقد كانت النية واضحة ، في نظري على الأقل : انهم يتعجلون احداث فوضى وبلبلة وفضيحة • ان بعض أبيات هذه القصيدة الغبية ، ولا سيما الأخير منها ، شيء لا يمكن قبوله ، مهما يكن قائله أبله • وأظن أن ليوطين قد أحس بأنه أسرف : فبعد أن فعل فعلته جمّده هذه الجرأة نفسها في مكانه ، فلبث على المنصة كأنما هو يريد أن يضيف شيئاً آخر • لعله كان يتوقع أن يُستقبل غير هذا الاستقبال ، وأن يحدث غير هذا الأثر • ولكن الذي حدث هو أن فئة الأوباش الصغيرة نفسها التي قاطعته بالتصفيق قد صمتت مذعورة على حين فجأة • وكان عدد كبير منهم قد أخذوا القصيدة مأخذ الجد ، وعدوها شعراً واقعياً لبراليّ الاتجاه • غير أن ما اشتملت عليه الأبيات من عامية منيرة مزعجة قد ضايقتهم هم أيضاً آخر الأمر • أما السواد الأعظم من الجمهور فقد شعر بفضيحة كبيرة ، لا بل أحس أنه أهين • لا أخشى أن أكون مخطئاً حين أزعّم هذا • لقد اعترفت جوليا ميخائيلوفنا فيما بعد أنها أوشكت أن يُغشى عليها • وهناك سيد عجوز محترم وامرأته قد نهضا وغادرا الصلاة على مرأى من الناس الذين كانت نظراتهم تعبر عن القلق • ومن يدري ؟ لعل أشخاصاً آخرين كانوا سيقندون بهم ويفعلون مثلهم لولا أن كارمازينوف الذي يرتدى رداء فراك ويضع ربطة عنق بيضاء ويمسك بيده دفترأ قد ظهر على المنصة في تلك اللحظة نفسها • لقد استقبلته جوليا ميخائيلوفنا بنظرة مفتونة مسحورة كما يُستقبل منقذ • • • لكنني أسرعّت أمضى الى ما وراء الكواليس • كنت أريد أن ألقى ليوطين •

قلت له مستاءً وأنا أمسك ذراعه :

— أنت فعلت هذا عامداً •

فأجابني وهو ينكمش على نفسه ويصغّر جسمه ويتظاهر بأنه آسف
لما وقع أشد الأسف :

- لم يخطر ببالي هذا ... حقاً لم يخطر ببالي هذا ... أحلف لك •
لقد جاءوني بهذه الأشعار ، فظننتها تبعت على التسلية والضحك •
- لا ، لم تظن ذلك • يستحيل عليك أن تعد مثل هذه القذارة مزاحه
جميلة !

- بل هكذا تصورتها !

- أنت تكذب • وليس صحيحاً كذلك أنهم جاءوك بهذه الأشعار منذ
هينة قصيرة • لقد كتبها مع ليادكين ، ربما في مساء أمس ، لا لشيء الا
اثارة فضيحة • لا شك أنك أنت قاتل البيت الأخير منها • لماذا كان
ليادكين يرتدى رداء رسمياً ؟ أكان هو الذي سيقراً القصيدة لولا أنه
كان سكران ؟

اصطنع ليوتين هيئة باردة شريرة • وسألني بهدوء غريب :

- فيم عينك هذا ؟

- فيم يعني ؟ ما هذا السؤال ؟ أنت أيضاً تحمل على كتفك سارة
مشرف من المشرفين على الحفلة ... أين بطرس ستيفانوفتش ؟

- لا أعلم • في مكان ما هنا • لماذا تسأل عنه ؟

- لأنني أفهمكم الآن • هذه مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا لافساد
الحفلة •

رشقني ليوتين بنظرة ماكرة :

- ولكن ما شأنك أنت ؟

وابتسم ، ورفع كفيه ، وتركني •

صُغت • تأكدت شبهاتي وشكوكي كلها • ما كان أغباني حين كنت
 آمل أن أكون مخطئاً في ظنوني ! ماذا يجب أن أفعل ؟ بدا لي في اللحظة
 الأولى أن أستشير ستيفان تروفيموفتش • ولكن ستيفان تروفيموفتش الذى
 كان متسماً أمام مرآة ، كان يجرب ابتسامات ويراجع في كل لحظة من
 اللحظات ورفه كان قد دوّن عليها بعض الملاحظات • لقد كان عليه أن
 يتكلم بعد كارمازينوف رأساً ، ولم يكن في وسعه حتماً أن يسدى الى
 أية نصيحة • هل يجب أن أسعى الى جوليا ميخائيلوفنا ؟ ولكن الأوان لم
 يحن بعد : انها ما تزال في حاجة الى درس أقسى من هذا الدرس لتشفى
 من أوهامها ولتبرأ من اعتقادها بأن الذين يحيطون بها متعصبون في
 اخلاصهم لها متفانون في سبيل خدمتها • ما كان لها أن تصدقنى ، وما كان
 لها الا أن تعذنى انساناً تراوده الهواجس وتستبد به الوسوس • ثم ماذا
 فى وسعها أن تفعل ؟ ثم قلت لنفسي : « وفيم يهمنى هذا فعلاً ؟ سوف
 أنزع الشارة عن كفتى ، وأمضى الى بيتى « حين سيبدأ الأمر » • لقد
 نطقت فعلاً بهذه الكلمات : « حين سيبدأ الأمر » • اننى أتذكر هذا
 جيداً •

ولكن يجب أن أمضى أستمع الى كارمازينوف • فلما طفت بصرى
 على الكواليس مرةً أخيرة رأيت ناساً مجهولين يتجولون فيها ، حتى ان
 بينهم نساء • فبعضهم يدخل ، وبعضهم يخرج • ان هذه الكواليس مساحه
 ضيقة تفصلها عن الصالة ستارة ، ويصلها بالحجرات الأخرى دهليز •
 فهناك انما كان الذين سيظهرون على المسرح ينتظرون أن يجيء دورهم •
 فلما هممت أن أخرج خطف بصرى على حين فجأة منظر الشخص الذى
 سيعقب ستيفان تروفيموفتش • انه استاذ فيما أظن (حتى اليوم لا أعرف
 ماذا كان على وجه الدقة) : يقال انه ترك بمحض ارادته المؤسسة التى
 كان يعلم فيها ، وذلك فى أعقاب اضطرابات حدثت بين الطلاب ؛ وهو

اليوم في مدينتنا لا أدري لأية أسباب • هو أيضا قد زكّى جوليا ميخائيلوفنا فاستقبلته باحترام • اننى أعرف الآن أنه لم يجىء اليها الا مرة واحدة ، وأنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة ، مكتفيا بأن يتسم ابتسامة ساخرة من الأمازيح التى كان يتبادلها الحاضرون عند جوليا ميخائيلوفنا ومن اللهجة التى كانوا يتكلمون بها • ولقد أحدثت هيئته المتقطرسة وحساسيته المتأذية أثراً مزعجاً جداً • يجب أن أذكر أن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هى التى طلبت منه أن يشترك فى الصيحة الأدبية • كان حين رأيتة يمشى طولاً وعرضاً ، ويكلم نفسه ، مثل ستيفان تروفيموفتش ، ولكنه كان خافض العينين • لم يكن يدرس ابتساماته أمام المرأة ، رغم انه كان يتسم كثيراً فتعبر ابتساماته عن خبث وشر وقسوة • هو أيضا كان لا يمكن أن يخاطب طبعاً • انه قصير القامة ، أصلع الرأس ، شائب اللحية ، محتشم الملبس ، يبدو فى نحو الأربعين من عمره • لكن أغرب ما فى الأمر هو أنه كان كلما استدار يرفع قبضة يده اليمنى ويلوِّح بها فوق رأسه ثم يسقطها فجأة كأنه يسحق خصماً من الخصوم • كانت هذه الحركة تتكرر بانتظام • شعرت بضيق وغم وأسرعت أمضى الى سماع كارمازينوف •

٣

مرة أخرى كان الجو فى الصلاة مشحوناً بالكهرباء • اننى أعلن لكم سلفاً أننى أجلُّ عظمة العبقريّة ، ولكننى أتساءل لماذا نرى هؤلاء السادة ، رجالنا العباقر ، يتصرفون تصرف صبية صغار حين يصلون الى نهاية سنهم المجيدة ؟ مهما يكن كارمازينوف عظيماً مشهوراً ، ومهما يكن دخوله الى القاعة محفوفاً بهالة من الفخامة والأبهة كأنه ياوران ملك من الملوك ، فهل كان فى وسعه أن يحمل على الصبر جمهوراً كجمهورنا مدة ساعة كاملة ؟ لقد لاحظت على وجه العموم أن الخطيب لا يمكنه فى

اجتماعات أدبية من هذا النوع أن يحتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة دون أن يعاقبه الجمهور ، مهما يكن عبقرياً . يجب أن أذكر على كل حال أن هذا الرجل العظيم قد استقبل استقبالاً فيه أقصى الاحترام ؛ وأن الشيوخ الوقورين قد أظهروا ترحيبهم وتأييدهم ولاح عليهم كثير من حب الاطلاع . أما السيدات فقد بانت عليهن الحماسة . ولقد كان التصفيق قصيراً مع ذلك ، ولم يكن شاملاً . غير أن الصفوف الأخيرة ظلت هادئة ساكنة الى اللحظة التي بدأ فيها السيد كارمازينوف بالكلام . وحتى في تلك اللحظة لم يحدث شيء ذو بال . فكل ما حدث عندئذ لا يعدو أن يكون سوء تفاهم . لقد سبق أن قلت ان صوت السيد كارمازينوف صارخ قليلاً ، نسوى بعض الشيء ، وأنه عدا ذلك متعاذب تعاذباً ارستقراطياً . لذلك فما كاد يتكلم حتى رأينا أحدهم يبيح لنفسه أن يضحك : ربما كان الضاحك رجلاً أحمق لا أكثر ، رجلاً لم ير في حياته شيئاً ، فكل شيء يُفرحه ويضحكه . ولا شك في أنه لم يخطر بباله احداث فضيحة . وسرعان ما قامت في الصالة أصوات قوية تأمره بأن يخرس ، فسكت وجمد في مكانه . ولكن ها هو ذا السيد كارمازينوف يصرخ متصنّعاً بأنه « كان في أول الأمر لا يريد أن يقرأ شيئاً أمام جمهور ، مهما تكن الأسباب . » (لقد كان في حاجة الى أن يقول هذا ، حقاً :) . « ان هناك أسطراً تتبع من القلب رأساً كأنها غناء . فاذا قرأتها على جمهور كنت تسيء اليها وتحط من قدرها وتجربدها من قدسيتها . » (لماذا يقرأها والحالة هذه ؟) « ولكنهم بلغوا من الالحاح على انى وافقت أخيراً . ولما كنت من جهة أخرى أهجر القلم الى الأبد ، ولما كنت قد آليت على نفسي أن لا أكتب بعد اليوم شيئاً ، فقد كتبت هذه المقالة الأخيرة ؛ ولما كنت قد حلفت أن لا أقرأ على الجمهور بعد اليوم شيئاً ، فقد قررت أن أقرأ الآن ما كتبت توديعاً للجمهور ، الى آخر ما هنالك من كلام مشابه .

ولكن ذلك كله ما كان ليعدَّ شيئاً • من ذا الذى يجهل مقدمات الكتاب ؟ يجب أن أذكر مع هذا أن أمثال هذا الكلام يمكن أن تحدث آثاراً سيئة كل سوء في مثل هذا الجمهور الذى تعوزه الثقافة ، ولا سيما اذا كانت الحالة النفسية لدى المستمعين فى آخر القاعة هى ما كانت عليه فعلاً • لقد كان من الأفضل للسيد كارمازينوف أن يقرأ قصة قصيرة ، أو أن يقرأ حكاية صغيرة من نوع الحكايات التى كان يكتب مثلها فى الماضى ، وهى حكايات ان كان فيها تصنع واقعال ، فان فيها فكاهة فى بعض الأحيان على كل حال • فلو فعل ذلك لانتقد كل شىء • ولكن لا • لقد كان يريد شيئاً آخر • لقد ألقى خطاباً لا نهاية له • رباه ! ما أكثر ما احتوى مقاله من كلام ! اننى لعلى يقين بأن جمهور العاصمة نفسه ما كان يمكن أن يتحمل هذا الخطاب كله ، فما بالك بجمهور مدينتنا ! تصوروا ملزمتين من ملازم المطبعة مملوءتين ثرثرة متأنقة فارغة ! زد على ذلك أن كارمازينوف كان يقرأ بلهجة المتفضل المتواضع ، فكأنه يُنعم علينا وينمّرنا باحسانه • فمن شأن هذا أن يسىء الى كبرياء الناس طبعاً • أما الموضوع فمن ذا الذى كان يمكنه أن يفهمه ؟ لقد كان مدار المقال على بعض الانطباعات وبعض الذكريات • ولكن بأية مناسبة ؟ ما أكثر ما قطب المستمعون حواجبهم وحكوا جباههم أثناء سماع الجزء الأول من القصة عسى أن يفهموا شيئاً ولكنهم لم يظفروا بطائل • لذلك لم يصغوا الى الجزء الثانى الا من قبيل الكياسة والتهذيب • لقد كان فى المقال كلام كثير عن الحب ، عن الحب الذى ملأ قلب الكاتب العبقري يوم توله بغرام فتاة شابة • اعترف لكم أن هذا قد بدا محرّجاً بعض الاحراج ، بل مزعجاً بعض الازعاج • فما أكبر التعارض فى رأى بين وجهه المتكشر المترهل وبين القصة التى يرويها لنا عن قبلته الأولى ! ••• والشىء الذى كان مثيراً أكثر من كل ما عداه هو أن قصة القبلة هذه لم تحدث كما تحدث لجميع

الناس • كان لا بد أن تحيط بها أزهار الوزّال (أزهار الوزّال أو أية نباتات مزهرة أخرى لا تستطيع أن تعرفها الا اذا رجعت الى كتب النبات)، وكان لا بد أن يكون لون السماء فوقها ضارباً الى لون البنفسج، وهو لون لم يستطع أن يميّزه في السماء أحدٌ من البشر يوماً ، بل قل ان البشر رأوه ولكنهم لم ينتبهوا اليه ولم يحفلوا به « أما أنا فقد ميّزته ، ميّزت هذا اللون ، واني لأصفه لكم أيها الأغبياء ، كما يوصف شيء بسيط كل البساطة » • وان الشجرة التي كان الكاتب العبقرى وحييته جالسين تحتها لا بد أن تكون بلون البرتقال • والحبيبان موجودان في مكانٍ ما بألمانيا • وهما يبصران بومبثوس أو كاسيوس على حين فجأة ، عشية معركة خاضها ، فاذا بالحبيبين يتجمدان افتتاناً • وهذه حورية من حوريات البحر تطلق صرخة وراء أحد الأدغال • وهذا جلوك يأخذ يعزف على الكمان ، بين شجيرات القصب ، لحناً عنوانه : « في جميع الآداب » ، ولكن لما لم يكن أحد قد سمع عن هذا اللحن فلا بد من مراجعة معجم موسيقى لمعرفة • وفي أثناء ذلك ينتشر ضباب ، ثم يتكاثف الضباب ••• بل يبلغ من التكاثف أنه يصبح أقرب الى زغب منفوش منه الى ضباب مألوف • وفجأة يغيب كل شيء ، ويأخذ الرجل العظيم باجتياز نهر الفولجا أثناء تكسر الجليد • انه يصف لنا عبور النهر في صفحتين ونصف صفحة • لقد سقط في الماء • انه يغرق • هل يهلك ؟ لا ، لا ، لن يهلك أبداً • لقد حكى لنا العبقرى ذلك كله من أجل أن يقول انه حين أوشك أن يغور في قاع المياه ، لمح قطعة من الجليد فجأة ، قطعة صغيرة جدا ، لكنها صافية شفافة « كدمعة متجلدة » ، وعليها كانت تتألق ألمانيا أو قل تتألق سماء ألمانيا • وهذا التألق المتلون بألوان قوس قزح يذكر الرجل العظيم بتلك الدمعة نفسها التي « كما تتذكرين ، انحدرت من عينيك ، حين كنا جالسين تحت شجرة الزمرد ، فصرخت تقولين وقد زخرت نفسك فرحاً :

« لا وجود للجريمة ! » فأجبتك من خلال عبراتي قائلاً : « نعم ، ولكن لا وجود للصالحين العاديين أيضا ! » ثم أجهشنا باكيين مننحين ، وافترقنا الى الأبد . . . وذهبت الفتاة لا أدري الى أى شاطئ من شواطئ البحر ، وذهب هو يعتصم بمغارة في موسكو تحت برج سوخاريف . وما يزال يهبط من مغارات الى مغارات أعمق خلال ثلاث سنين حتى رأى في باطن الأرض مصباحا قد وقف أمامه ناسك يصلّى . ويقترب الكاتب من كوة ذات قضبان حديدية ، فاذا هو يسمع زفرة . هل تظنون أن الناسك هو الذى تنهد ؟ نعم انه الناسك . ولكن الزفرة لا تزيد على أن تذكر الكاتب بالتهيدة الأولى التى خرجت من صدر حبيته قبل سبعة وثلاثين عاما ، متى ؟ هل تتذكرين ؟ فى ألمانيا ، حين كنا جالسين تحت شجرة عقيق ، فقلت لى : علام الحب ؟ انظر الى نباتات زهر الوزال هذه التى تحيط بنا . لسوف أكف عن الحب متى صوّحت ! » . وهنا يتكاثف الضباب من جديد ، واذا هوفمان يظهر ، واذا حورية البحر تصفر لحناً من ألحان شوبان . وفجأة ، فوق سطوح المنازل بروما ، ينبجس من الضباب آنكوس ماركوس متزئراً بأغصان أشجار الغار . فاذا رعدة نشوة تهزنا ، ثم افترقنا الى الأبد « الخ الخ » . لعلى لم أنقل ثرثرة صاحبنا نقلاً دقيقاً كل الدقة ، ولكننى نقلت معنى الكلام وطابعه العام . ترى ما مصدر هذا الشغف الشديد المخجل ، لدى عظماء رجالنا ، بأمثال هذه الشعوذات الدعية ؟ ان الفلاسفة الأوربيين ، والعلماء ، والمخترعين ، والعاملين ، والأبطال ، ان جميع أولئك الذين يجهدون ويتألمون هم فى نظر العبرى الروسى أشبه بخدم . انه هو السيد ؟ أما هم فلا يمثلون أمامه الا رافعين قبعاتهم بأيديهم ينتظرون أوامره . صحيح أنه ينظر الى روسيا من على أيضا ، وأنه لا شيء أحب الى نفسه من أن يعلن أن روسيا قد أفلست افلاساً تاماً ازاء العقول الأوروبية العظيمة . ولكن هذا لا يصدق عليه هو ،

لا يصدق على شخصه : فهو من جهته يخلق عالياً فوق جميع العقول الأوروبية العظيمة التي لا تزيد على أن تمدّه بمادة عبث • انه يستولى على فكرة غيره ، فيضم إليها النقيض الذي يتصوره ، فيتم العبث ، وتنتهي اللعبة • الجريمة موجودة ، الجريمة غير موجودة • الحقيقة لا وجود لها • ليس هناك صالحون عادلون • الالحاد • الدارونية • أجراس موسكو ••• لكنه لا يؤمن بأجراس موسكو مع الأسف ! روما ، أكاليل الغار ! ولكنه أصبح لا يؤمن حتى بأكاليل الغار ! ••• أضف الى ذلك وصولاً اضطرارياً الى سأم على طريقة بايرون ، وتصعيرة وجه على طريقة هايني ، وجملته من كلام بتشورين ! وتسير الآلة ••• وتسير ! ••• « ولكن عليكم خاصة أن تمدحوني ! امدحوني ! ذلك ما أريده ! وحين أعلن أنني أهجر القلم ، فما ذلك منى الا تظاهرا ! انتظروا قليلا ! لسوف أضجركم ثلاثمائة مرة أخرى ••• حتى تضيقوا ذرعاً بقراءة ما أكتب ! » •

كان طبيعياً أن لا تكون خاتمة ذلك حسنة • ومع ذلك فاذا كانت الأمور قد جرت مجرى سيئاً ، فانما الذنب في هذا ذنب كارمازينوف • لقد أخذ الناس منذ مدة يتمخطون ويسعلون ويتحركون متململين ، كما يحدث دائماً حين يحتل الخطيب المنصة أكثر من عشرين دقيقة ، كأننا من كان الخطيب • ولكن الكاتب العبقري لم يلاحظ شيئاً • لقد ظل يتكلم بصوته المتعذب المترقق وظل يتظارف ويتغنج دون أن يتبته الى الجمهور الذي أخذ يدهش من هذه الحال • وفجأة تعالى صوت قوى من آخر الصالة يصيح قائلاً :

— ما هذه السخافات !

كانت صيحة غير مقصودة • أنا واثق بذلك • هي صيحة انسان استبد به التعب والضجر ، ولم يكن يخطر بباله قط أن يحدث لفظاً وبلبله •

ولكن السيد كارمازينوف توقف عن الكلام ، وألقى على الحضور نظرة سخرية ، واصطنع على حين فجأة لهجة ياوران مزعج قائلاً :

– يبدو أيها السادة أنني أضيـر كم بعض الاضجار ، أليس كذلك ؟

لقد كان خطؤه أنه تكلم أول من تكلم • انه بالقائه هذا السؤال قد منح أى وعد حق الاجابة بطريقة من الطرق • فلو أنه سيطر على نفسه وأمسك عن الكلام ، لأمكن أن يستمر الناس فى التمخط والسعال ، وربما وقفت الأمور عند ذلك الحد لا تتعداه ! ••• اهل كارمازينوف كان يتوقع أن يجيء الجواب عن سؤاله تصفيقاً • ولكن أحداً لم يصفق • بالعكس : ظهر على الناس القلق ، ولبثوا ساكنين لا يتحركون •

قال صوت مغتاض يكاد يكون حائقاً :

– أنت لم تَرَ آنكوس مارسيوس فى حياتك • ما هذه الا جمل

منمقة •

وقال آخر مؤيداً :

– تماماً • لا أحد اليوم يميل الى الرؤى الخيالية • وانما تحب الناس فى هذا الزمان العلوم الطبيعية • هلا اطلعت على العلوم الطبيعية ؟
قال كارمازينوف مذهولاً :

– أيها السادة ، حقاً لم أكن أتوقع اعتراضات من هذا النوع •

ان هذا الرجل العظيم كان قد نسي فى كارلسروهه وطنه •

صرخ شاب يقول بصوت كأنه صوت طائر من الجوارح :

– انه لمن المخزى فى هذا العصر أن يزعم لنا زاعم أن الأرض

تحملها ثلاث سمكات • أنت لم تهبط الى مغارة فى يوم من الأيام ، ولا

رأيت ناسكاً • ومن ذا الذى يتكلم عن ناسك فى هذا الزمان ؟

قال كارمازينوف :

– ان الشيء الذى يدهشنى أكثر من كل ما عداه هو أنكم تأخذون الأمر مأخذ الجد الى هذا الحد • على كل حال ، على كل حال ، أتم على حق • ما من أحد يحترم الحقيقة أكثر منى •••

لقد كان مذهولاً مشدوهاً ، رغم أنه ظل يتسم ساخراً • وكان وجهه يقول : « أنا لست أبداً ما تظنون • أنا معكم • ولكن امدحونى ، اغمرونى بالمديح • انى أعبد المديح ••• » •

وقال أخيراً وقد اغتاض اغتياظاً عميقاً :

– أرى أيها السادة أن قصيدتى الصغيرة المسكينة لم تجيء فى محالها ، واننى أخطأت هدفى •

– رمى غراباً فأصاب بقرة •

كذلك صرخ يقول بأعلى صوته غبىً ربما كان سكران • ولا شك فى أنه كان لا ينبغى الرد على هذه القولة التى أثارت بضع ضحكات يعوزها الاحترام والحق يقال • ولكن كارمازينوف استجاب استجابة عنيفة • فصاح يقول بصوت كان ما ينفك يزداد صياحاً :

– بقرة ؟ فيما يتعلق بالغبان والأبقار ، أعتقد أن الأفضل أيها السادة أن أمتنع عن التعليق • انى أحترم جمهورى أشد الاحترام ، أياً كان هذا الجمهور ، فلا يمكن أن أسبح لفسى بتسيهات ولو كانت بريئة ، ولكننى أظن •••

قال واحد من آخر القاعة :

– أراك تسرف مع ذلك !

- ولكننى ظننت أننى اذ أهجر القلم وأودع القارىء كنتُ
سأسمع... .

فارتفعت فى الصفوف الأمامية أخيراً بضعة أصوات جريئة تقول :

- نعم ، نعم ، نريد أن نسمعك ، نريد أن نصغى اليك !

وصرخت سيدات متحمسات تقول :

- اقرأ ! اقرأ !

ودوت أخيراً تصفيقات وان تكن ضعيفة هزيلة • فابتسم كارمازينوف

ابتسامة متقلصة ونهض •

وقالت زوجة مارشال النبالة نفسها :

- ثق ياكارمازينوف أن الجميع يعدون الاصفاء اليك شرفاً عظيماً... .

ومن آخر الصالة قام معلم مدرسة هو شاب رقيق الحاشية مهذب

وقد اينا واستقر بمديتتنا منذ مدة قصيرة ، قام وهو يصيح قائلاً :

- يا سيد كارمازينوف ، لو قد أسعدنى الحظ فأحببت الحب الذى

تصف ، لما تكلمت عن حبنى فى مقالة تُقرأ على جمهور •

وعاد الشاب يجلس وقد صار كالجمر احمرارا •

فصرخ كارمازينوف يقول :

- أيها السادة ، لقد انتهيت • اننى أترك الخاتمة وأنسحب • ولكن

اسمعوا لى أن أقرأ لكم الأسطر الأخيرة •

قال كارمازينوف ذلك وبدأ يقرأ ناظراً فى مخطوطته دون أن يعود

الى الجلوس فقال :

« صديقى القارىء ، وداعاً • وداعاً أيها القارىء • لا أريد حتى أن

ألح كثيراً على ضرورة أن نفترق كما يفترق أصدقاء • علام أزعجك ؟
 ان في وسعك حتى أن تشتمنى • فاشتمنى ما شئت ، اذا كان ذلك يحدث
 لك أية مسرة • ولكن الأفضل هو أن لا يفكر أحدنا في الآخر بعد اليوم •
 وهبكم جميعاً أيها القراء مضيعتم بشهامتكم فجأة الى حد استعطافى راكمين
 دامعين قائلين : أكتب أيضاً يا كارمازينوف ، اكتب لنا ، لوطنك ، للأجيال
 القادمة ، للمجد ! « ؛ فسوف أجيئكم شاكرًا بأدب كبير طبعاً : « لا يامواظنى »
 الأعرى ! لقد قضينا معاً حتى الآن وقتاً طويلاً كافياً • شكراً لكم • لقد آن
 أن نفترق • شكراً • شكراً • شكراً ! »

وهنا حياً كارمازينوف الجمهور بكثير من الاحتفال وانسحب محمراً
 الوجه احمراراً شديداً •

– ما من أحد يخطر بباله أن يركع أمامه • يا لها من فكرة !

– يا له من غرور !

– هذه فكاهة •

كذلك علّق واحد أعلم من الآخرين • فأجابه ثان :

– أعفى من هذه الفكاهة •

– ويالها من وقاحة أيها السادة !

– لقد انتهى على الأقل !

– حقاً لقد أضجرنا كثيراً !

لكن هذه الصيحات الفظة التي كانت لا تصدر عن آخر العسالة
 فحسب ، قد غلبتها تصفيقات الجزء الآخر من الجمهور الذي أخذ ينادى
 كارمازينوف • وتجمع عدد من السيدات ، فى طبيعتهن جوليا ميخائيلوفنا
 وزوجة مارشال النبالة ، حول المنصة • كانت جوليا ميخائيلوفنا تحمل

اكليلاً رائحاً من الغار موضوعاً على وسادة من مخمل أبيض ومحاطاً باكليل
آخر من ورود طبيعية •

قال كارمازينوف وهو يتسّم ابتسامة فيها قليل من السخرية :

- اكليل من الغار ! ان هذا اللطف يؤثر في نفسى طبعاً ، وأنا أقبل
شاكراً هذا الاكليل الذى سبق تحضيره ولكن لم يذبل بعد • غير أننى
أؤكد لكن يا سيداتى أننى قد بلغت من الواقعية على حين فجأة اننى صرت
أرى أن أكليل الغار تكون في هذا الزمان في مكانها الطبيعي حين توضع
بين يدي طبّاخ ماهر أكثر مما تكون في مكانها الطبيعي حين تُقدّم الى •
- فعلاً ، الطباخ أنفع •

كذلك قال الطالب الذى شارك في « جلسة » فرجنسكى • ان كثيرا
من الأفراد كانوا قد غادروا أماكنهم واحتشدوا حول المنصة ليروا المشهد
رؤية أكمل •

وأضاف آخر وهو يرفع صوته عالياً ، بل عالياً جداً :

- أنا مستعد أن أدفع ثلاثة روبلات لطباخ الآن •

- أنا أيضا !

- وأنا أيضا !

- أليس ههنا اذن بوفيه ؟

- كانت تلك خدعة لا أكثر ، أيها السادة •

ومع ذلك فان هؤلاء الرعاع جميعا كانوا ما يزالون يشعرون بالوجل
من شخصياتنا الكبرى ، ومن مفوض الشرطة الذى كان واقفاً في الصالة •
وعاد الناس الى الجلوس بعد زهاء عشر دقائق • غير أن شيئاً من الفوضى
كان ما يزال قائماً • وفي وسط هذا السديم الناشئ انما وقع المسكين
ستيفان تروفيموفتش •

٤

مضيت ألقاه في الكواليس مرةً أخرى (وكنت خارجاً عن طوري)،
فنبهته الى أن كل شيء قد ضاع في نظري ، وأن الأفضل أن يعدل عن
الكلام ، وأن يرجع رأساً الى البيت بحجة مفص اتابه فجأة • وقلت له
اننى مستعد لأن أرجع معه ، تاركاً شارة المشرف على الحفلة • وكان هو
قد أخذ يتجه نحو المنصة ، ولكنه توقف بغتةً ، وألقى على نظرة احتقار
وقال بلهجة فخمة :

– كيف يمكنك أن تتصور أن فى وسعى أن ارتكب صغارا كهذا
الصغار أيها السيد ؟

فتركنه يمر • كنت وانقأ ، كوثوقى بأن اثنين واثنين أربعة ، أن
خطابه سيؤدى الى كارثة • وفيما كنت باقياً فى مكاني وقد صُعقت تماما ،
أبصرت مرةً الأخرى الأستاذ الذى سيتكلم بعد ستيفان تروفيموفتش ،
والذى كان لا يبنى يرفع قبضته فى الهواء ويخفضها مهدداً • انه لا يزال
يمشى طولاً وعرضاً ، غارقاً فى أفكاره ، مجمجماً بكلمات غير مفهومة ،
مبتسماً ابتسامة حائقة • فناديته رغم ارادتي تقريباً (حقاً اننى لا أعرف
ما الذى دفعنى الى مناداته) •

قلت له :

– انك تعرف أن الخطيب اذا احتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة ،
كفّ الجمهور عن الاستماع اليه • هذا ما تشهد به أملة كثيرة • فما من
رجل شهير ، أياً كان شأنه ، يمكن أن يُحتمل أكثر من نصف ساعة •••
فوقف الرجل مرتعشاً ، جريح الكبرياء ؛ وعبر وجهه عن غطرسة
لا نهاية لها ، ودمدم يقول لى باحتقار :

– لا تخس شيئاً •

واستأنف سيره • وفي تلك اللحظة بلغ الى سمعى صوت ستيفان تروفيموفتش من الصلاة •

قلت بينى وبين نفسى : « اذهب الى الشيطان ! » • وهرعت الى الصلاة •

كان ستيفان تروفيموفتش قد جلس قبل أن يستتب الهدوء تماما • استقبلته الصفوف الأولى بنظرات كارهة (لقد أصبح الناس فى النادى فى الآونة الأخيرة ، لا يحملون له من المودة والاحترام ما كانوا يحملون له من قبل ذلك) • وأسعدنى على كل حال أن رأيتهم لا يصفرون له استنكاراً • لا أدرى لماذا كنت منذ أمس أتخيل أنهم سيصفرون له متى ظهر • ولكن ، فى وسط الاضطراب الذى كان يسود الجو ، لم يلاحظ وجوده فوراً • ماذا كان يمكن أن يتوقع هذا المسكين من الناس اذا كانوا لم يتخرجوا حتى مع كارمازينوف ، ولم يتورعوا عن معاملته تلك المعاملة ؟ كان ستيفان شاحب اللون • هذه أول مرة يظهر فيها أمام الجمهور منذ عشر سنين • أدركت ادراكاً واضحاً حين لاحظت انفعاله ورأيت بعض العلامت التى أعرفها فيه جيداً ، أن ستيفان تروفيموفتش كان يعد ظهوره على المنبر لحظة حاسمة فى حياته أو شيئاً من هذا القبيل • وذلك بعينه ما كنت أخشاه • لقد كان الرجل عزيزاً فى نفسى • لهذا تستطيعون بسهولة أن تتصوروا ما أحسست به حين فتح فاه ونطق جملته الأولى •••

بدأ يتكلم بصوت مخنوق وكأنه عقد العزم على أن يجازف بكل شئ • فقال :

– أيها السادة ! فى هذا الصباح أيضا كانت أمامى ورقة من تلك الورقات التى تُوزَع سرّاً فى البلاد ، فتساءلت للمرة المائة « ما سرُّ هؤلاء ؟ » •

صمت القاعة فوراً • واتجهت الأنظار كلها الى ستيفان تروفيموفتش

فى شىء من القلق • لا شك أنه استطاع منذ الكلمات الأولى أن يجتذب
اهتمام سامعيه • حتى لقد ظهرت رؤوس من خلف الكواليس • وكان
ليوتين وليامشين يصغيان طبعاً •

نادتني جوليا ميخائيلوفنا اليها من جديد ، وهمست تقول لى مرتاعة :

– أسكته ، أسكتبه مهما كلف الأمر !

فلم أزد على أن رفعت كفتى • أين لى أن أسكت انساناً « عزم
أمره » أخيراً ؟ وا أسفاه ! لقد فهمت الآن ستيفان تروفيموفتش !

دمدم بعض فراد الجمهور يقولون :

– هذه منشورات تحريضية •

وظهر فى الحالة اضطراب •

– أيها السادة ، لقد حللت هذا اللغز : ان سر عملهم هو غباؤهم •

قال ذلك وسطعت عيناه • وتابع كلامه فقال :

– نعم أيها السادة ! لو كانت هذه الغباوة مقصودة ، متظاهراً بها ،
محسوبة ، لكاد الأمر أن يكون عبثياً • ولكن يجب أن ننصف كتاب
هذه الورقات : ليس غباؤهم مزيفاً ، بل هو الغباء الخالص العارى البرىء
المسكين ، « هو الغباء فى جوهره الصافى صفاءً عنصر كيمائى بسيط »
(بالفرنسية) • لو كانوا يعبرون ولو بقليل جداً من الذكاء ، لأدرك
جميع الناس غباءهم التافه • ولكن جميع الناس يتوقفون الآن أمام هذه
الأوراق مشدوهين ، ولا يستطيعون أن يصدقوا أنها يمكن أن تكون غيبة
الى هذا الحد من الغباء • ان كل واحد منا يقول لنفسه : « يستحيل
التسليم بأن ليس فيها شىء أكثر من هذا » • ونمضى نبحت عن سرهم ،
ويتراعى لنا أننا نكتشف لغزهم ، ونحاول أن نقرأ بين السطور • وبذلك

يتحقق الغرض ويحدث الأثر المنشود • آه ••• ان الغباء لم يحقق فى يوم من الأيام انتصارا كهذا الانتصار ، انتصارا مسوِّغاً هذا التسويغ ، رغم أنه يستحق هذا الانتصار فى كثير من الأحيان ••• ذلك أن الغباء - أقول هذا بين قوسين - مفيد للانسانية كالعبقريّة سواء بسواء •

قال صوت خجول فى الواقع ، لكنه وضع فى البارود ناراً :

- هذه من مزاحات سنوات الأربعينات !

وهتف ستيفان تروفيموفشى يقول متحدياً الجمهور :

- أيها السادة ! مرحى مرحى ! اننى أنسرب نخب الغباء !

أسرعت الى المنصة كما لو كنت أريد أن أصب له ماء • وقلت له :

- ستيفان تروفيموفتشى ، انصرف ! ان جوايا ميخائيلوفنا تتوسل .

إليك أن تنصرف •••

فقال لى غاضباً :

- بل دعنى وشأنى أيها الشاب العاقل !

فوليت هارباً • وتابع هو كلامه فقال :

- أيها السادة ! لماذا هذا الاضطراب ؟ لماذا هذه الأصوات المستاءة

التي أسمعها ؟ اننى أجيء اليكم حاملاً غصن زيتون • اننى آتيكم بقول

فصل ، ذلك اننى أنا الذى أعرف هذا القول الفصل ، وسوف نتصالح •

أقول بعضهم يقول :

- فليسقط ! فليسقط !

وصاح آخرون :

- صمتاً ! دعوه يتكلم ! ليقل ما يريد أن يقوله •

وكان أسندهم حماسة ، فيما يبدو ، انما هو معلم المدرسة الشاب

الذى تجاسر فتكلم مرة ، فإذا هو قد أصبح لا يستطيع التوقف عن الكلام .

- أيها السادة ! ان القول الفصل لهو قول صفح وعفو ومغفرة .
اننى لأعلن لكم جهاراً ، أنا الشيخ الذى انتهت حياته ، أن روح الحياة تهب اليوم مثلما كانت تهب فى الماضى ، وأن الجيل الجديد ما يزال زاخراً بالقوة . ان حماسة شباب اليوم لا تقل نقاءً وضياءً وسناءً عن حماسة شباب زماننا المنصرم . هناك شىء واحد تغير : ذلك الشىء انما هو الغابة ، انما هو الهدف . ان مثلاً أعلى جديداً قد حل محل المثل الأعلى القديم . والقضية كلها ترجع الى هذا السؤال : هل شكسبير أعلى قيمةً من حذاءين ، وهل رافائيل أرفع شأنًا من صفحة نبط ؟

- هذه وشاية !

- هذه مسائل تعرّض للخطر !

- يا للعميل المحرّض !

صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت حاد :

- أما أنا فأقول لكم ان شكسبير ورافائيل أجل شأنًا من تحرير الفلاحين ، وأرفع قدرًا من القومية ، وأعظم قيمة من الاشتراكية ، وأسمى منزلةً من الجيل الجديد ، وأهم خطراً من الكيمياء ؛ وانهما فوق الانسانية بكاملها تقريباً ، لأنهما ثمرة الانسانية ، ثمرتها الحقيقية ، لأنهما ربما كانا أجمل الثمار الانسانية التى يمكن أن تهبها الانسانية يوماً ، لأنهما يحققان منذ الآن صورة من الجمال كاملة قد لا أحب بدونها أن أحيا . . . آه . . . ربه ! . . . (قال ذلك وضمّ يديه احدهما الى الأخرى) . . . منذ عشر سنين ، فى بطرسبرج ، ناديت من أعلى المنبر بهذه الأفكار نفسها ، معبراً عنها بهذه الألفاظ نفسها تماماً . وكما لا تفهموننى الآن ، كذلك سحروا

منى يومذاك ، وصفروا لى • يا للبشر المساكين ! ماذا يعوزكم حتى تفهمونى ؟ هل تعلمون ••• هل تعلمون أن الانسانية تستطيع أن تستغنى عن الانجليز اذا لزم الأمر ، وأن تستغنى عن ألمانيا ، وأنها تستطيع جداً جداً أن تستغنى عن الروس ، وعن الخبز ، وعن العلم ؟ ولكنها لا تستطيع أن تستغنى عن الجمال ؟ ان الجمال وحده لا غنى لها عنه ، اذ بدون الجمال لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله ! هذا هو السر كله ! ذلكم هو كل التاريخ ! العلم نفسه لا يمكن أن يعيش لحظةً بعد زوال الجمال ! هل تعلمون ذلك أتم يا من تضحكون ؟ نعم ، ان العلم بدون الجمال يتدهور الى تفاهة ، فتصبحوا عاجزين عندئذ حتى عن اختراع مسمار ! •••

قال ذلك ثم أعول فجأة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

- لن أراجع عن رأيى !

ولكن بينما كان ستيفان تروفيموفتش يهذر هذا الهذر كانت الفوضى فى الصالة تزداد • ان جزءاً من الجمهور قد هبّ واقفاً ، وان عدداً من الناس قد أخذوا يقتربون من المنصة متدافعين • وهذا كله حدث بسرعة تبلغ من الشدة أن الوقت لم يتسع لاتخاذ الاجراءات الضرورية • وربما لم يشأ أحد أن تتخذ هذه الاجراءات •

زار الطالب قائلاً وقد وصل الى قرب المنصة ، وكان يضحك ضحكة خبيثة كاشفاً لستيفان تروفيموفتش عن جميع أسنانه :

- هذا يصلح لكم أيها الكسالى الذين تعيشون عاليةً على غيركم كما تعيشون ••••

فلما رآه ستيفان تروفيموفتش وثب الى حافة المنصة •

- ألسنت أنا الذي قلت ان حماسة الجيل الجديد لا تقل صفاءً وضياءاً

وسناءً عما كانت عليه حماستنا نحن ، وانها لا تضيع الا لخطأ في فهم صور الجمال ؟ ألا يكفيكم هذا ؟ هل يستطيع انسان ، يا أيها المحدودون ؟ أن يكون أكثر حيادا وانصافا ، وأن يكون أعظم هدوءاً وحرصاً ؟ ... يالكم من عاقين ناكرين للجميل ! ... لماذا ، لماذا لا تريدون أن تتصلحوا ؟ ...

ألقى ستيفان تروفيموفتش هذا السؤال وأجهش باكيا منتجبا ، وأخذ يمسح بأصابعه دموعه التي طفقت تسيل على وجهه كله . كان جسمه يرتعش متسججا . وكان قد فقد صوابه تماما .

وهبت على الصالة ريح ذعر . ان جميع الحضور تقريبا قد وقفوا . وانتصبت جوليا ميخائيلوفنا فجأة ، سادة زوجها من ذراعه لينهض هو أيضا ... وبلغت الفوضى ذروتها .

هتف الطالب يقول فرحا :

- ستيفان تروفيموفتش ! ان فدكا ، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، قد هرب من السجن وهو الآن يطوف في المدينة وفي الضواحي . انه يسرق ويقتل . ولقد ارتكب في الآونة الأخيرة جريمة قتل جديدة . فهلاً أذنت لي أن ألقى عليك هذا السؤال : لو أنك منذ خمسة عشر عاما لم تبق جنديا لتسد دينا ترتب عليك في القمار ، أو قل بتعبير آخر : لو أنك لم تخسر فدكا في اللعب بالورق ، أفكان ذهب الى السجن ؟ أفكان يقتل كما يفعل الآن في كفاحه من أجل البقاء ؟ ما رأيك في هذا يا عاشق الجمال ؟

اننى أعزف عن وصف ما جرى حينذاك . لقد هبت في أول الأمر عاصفة من التصفيق . صحيح أن الذين صفقوا لا يتجاوز عددهم خمس عدد الحضور في القاعة ، ولكنهم صفقوا بحماسة تشبه الهذيان . واتجه الآخرون نحو باب الخروج . ولكن لما كان المصفقون يتدافعون نحو المنصة ،

فقد عمّ اضطراب شامل ، فالسيدات يطلقن صرخات صغيرة ، والفتيات يبكين ويطلبن اعادتهن الى البيوت • ولبكه واقف أمام كرسيه يجيل على ما حواه نظرات زائغة • وجوليا ميخائيلوفنا تبدو كأنها فقدت صوابها • أما ستيفان تروفيموفتش فقد بان عليه في البداية أن كلام الطالب قد سحقه سحقاً بالفعل • ولكنه لم يلبث أن مدّ ذراعيه فوق الجمهور على حين بغتة وأعول يقول :

– اننى أنفض غبار حذاءى وألعن ! ••••• هذه هى النهاية !
النهاية ! •••

واستدار الى وراء ، وفرّ الى الكواليس ملوحاً بذراعيه على هيئة التهديد •

أعول المسعورون يقولون :

– لقد أهان الجمهور ! هاتوه ! أرجعوه !

وأراد بعضهم أن يركض فى اثره • لقد كان يستحيل استحالة مطلقة ، فى تلك اللحظة على الأقل ، أن تعود الأفكار الى هدوئها ، وأن يرجع الى النفوس صفاؤها وسكونها •

ولم يطل انتظار وقوع الكارثة الحاسمة • فها هى ذى تنفجر انفجار قبلة : ان المحاضر الثالث ، ذلك الرجل المهووس الذى كان لا ينى يشهر قبضة يده فى الكواليس قد انبجس الآن على المنصة فجأة •

كانت هيئته هيئة مجنون تماما • وجهه يشرق بابتسامة نصر ، ويزخر بزهو كبير ؛ وهو يتأمل الصالة مفتونا بالفوضى التى تسودها ، لا يقلقه ولا يشوشه أن عليه أن يتكلم فى وسط هذا اللغط وهذه الضوضاء ، حتى لكأنه مسرور بذلك أعظم السرور • وكان ابتهاجه يبلغ من الوضوح أنه سرعان ما لفت اليه انتباه الناس كافةً على الفور •

هتفت بضعة أصوات تسأل :

- ما هذا أيضا ؟ من هذا ؟ سكوت ! ماذا يريد أن يقول ؟

صاح المهووس يقول بأعلى صوته ، واقفاً على حافة المنصة :

- أيها السادة •••

ان صوته صارخ كصوت كارمازينوف ، ولكن ليس فيه ما فى صوت

كارمازينوف من تعاذب ارستقراطى •

- أيها السادة ! منذ عشرين سنة ، قبل أن تدخل روسيا حرباً ضدّ

نصف أوروبا ، كانت روسيا تجسد المثل الأعلى لجميع مستشارى الدولة

وغيرهم من المستشارين • وكان الأدب عبد الرقابة • وكانت الجامعات تعلم

الخطوة العسكرية ، وكان الجيش قد أصبح فرقة باليه • أما الشعب فكان

يدفع الضرائب ويصمت مجلوداً بسياط القناتة • وكانت الوطنية تعنى قبض

الرشوات ، فأما الذين لا يقبضون رشوات فيعدون عصاة تائرين لأنهم

بشوشون انسجام النظام • وكانت غابات أشجار السندر تُقطع دائماً فى

سبيل الحفاظ على النظام • وكانت أوروبا ترتعش ••• ولكن روسيا خلال

السنين الألف من حياتها البليدة لم تكن قد بلغت ذلك المبلغ من السقوط

الى الدرك الأسفل •••

قال الخطيب هذا ورفع قبضة يده وشهرها غاضباً فوق رأسه

ثم هوى بها كأنه يحطم خصماً من الخصوم • فضجت القاعة بأصوات

معولة مخنونة فى كل جهة من الجهات • وطقق نصف من فى القاعة

يصفقون تصفيقا محموما • وحتى الحجلون الوجلون انقادوا للحماسة

العامة • ان روسيا تُشتم وتلطنح بالوحل على رءوس الأشهاد • فكيف

لا تثور الحماسة تأييدا واستحسانا ؟

- هذا رجل ! هل اسمه كلام ! ما هذا بجمل منمقة فى علم

الجمال ! •••

وتابع المهووس خطابه قائلاً وقد سكر بما أصاب من نجاح :

- انقضت على ذلك العهد عشرون سنة • افتتحت جامعات جديدة •
الخطوة العسكرية أصبحت أسطورة • وأصبح يعوزنا ألوف الضباط
لاكمال القيادات فى جيشنا • السكك الحديدية التهمت العواصم ، وغطت
روسيا كخيوط العنكبوت ، فما ان تمض خمس عشرة سنة أخرى حتى
يكون فى وسع المرء أن ينتقل الى أى مكان فى أغلب الظن • الجسور
لا تحترق الا من حين الى حين ، فى أوقات متباعدة • أما المدن فتحترق
واحدةً بعد أخرى بانتظام ، حين يجىء موسم الحرائق • المحاكم تصدر
أحكاماً كأحكام سليمان الحكيم ، والمحلّفون لا يتقاضون مالاً الا من أجل
أن لا يموتوا جوعاً • ذلك هو الكفاح فى سبيل البقاء • الأفتان أحرار ،
يضرب بعضهم بعضاً لأن السادة أصبحوا لا يضربونهم • بحار من الخمرة
بل أوقيانوسات من الخمرة يشربها الشعب مساعدةً للميزانية • وفى
نوفجورود ، أمام كاتدرائية القديسة صوفيا ، القديمة التى لا فائدة منها ،
نُصبت كرة فخمة كبيرة من البرونز تخليداً لذكرى السنين الألف التى
قضيناها من حياتنا فى فوضى وغباء • وأوروبا تقطب حاجبيها ، وتستأنف
قلقها ••• خمسة عشر عاماً من الاصلاحات ! ومع ذلك لم تسقط روسيا
يوماً ، حتى فى أحلك عهود فوضاها ، الى مثل هذا الدرك الأسفل •••
لم يمكن سماع كلماته الأخيرة : لقد غطّتها هتافات الجمهور وأغرقتها
اغراقاً • وظل المجنون يرى رافعاً قبضة يده ، هاوياً بها على ظفر وانتصار •
تجاوزت الحماسة العامة كل الحدود • كان الناس يعولون ، ويضربون
أكفهم ، حتى لقد أخذت سيدات تصيح قائلة : « كفى ! لن تقول خيراً مما
قلت ! » • كان الناس كالسكارى • وكان الخطيب يطوف ببصره على
الجمهور ويتلذذ بانتصاره • رأيت لمبكه مضطرباً اضطراباً لا سبيل الى
وصفه ، وكان يصدر الى أحدهم أوامره • ورأيت جوليا ميخائيلوفنا شاحبة

كل الشعوب تقول بضع كلمات سريعة للأمير الذي هرع إليها . . . ولكن ستة رجال هم جميعاً أشخاص رسميون قليلاً أو كثيراً ، قد ظهروا على المنصة في تلك اللحظة نفسها ، فأمسكوا بالخطيب واقتادوه الى الكواليس . لا أدري كيف استطاع أن يفلت منهم . ولكنه قد أفلت في الواقع ، وركض الى حافة المنصة ، وأمكنه أن يصرخ مرة أخرى شاهراً قبضة يده قائلاً بصوت عال :

– ولكن روسيا لم تسقط يوماً هذا السقوط . . .

واقتادوه من جديد . وأراد نحو خمسة عشر رجلاً أن يخلّصوه ، فأحدقوا بالمنصة وحطموا الدرايزين الهزيل الذي يحيط بها فسرعان ما سقط . . .

وبعد ذلك رأيت ، دون أن أصدق عيني ، رأيت الطالبة (أخت فرجنسكى) تظهر على المنصة فجأة وقد انبجست لا أدري من أين . انها ما تزال مدوّرة الجسم وردية اللون ، وما تزال ترتدى ذلك الثوب نفسه ، وما تزال تتأبط تلك الليفة من الأوراق نفسها . وكان يصحبها عدة أشخاص ، رجال ونساء ، عرفت منهم طالب المدرسة الثانوية ، عدوّها اللدود . لم أستطع أن أدرك الا عبارة واحدة قالتها :

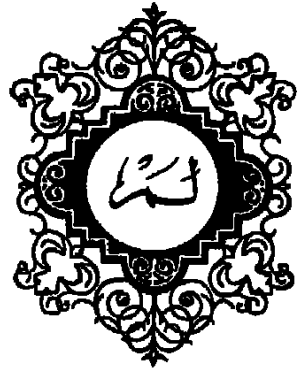
« أيها السادة ، لقد جئت لأطلعكم على آلام الطلاب التعساء ، ولأدعوكم الى الاحتجاج . . . »

وليت هارباً . دسست في جيبي عقدة الشريط الذي كانت موضوعة على كتفي ، وخرجت الى الشارع من باب خفي كنت أعرفه . وقبل كل شيء ذهبت طبعاً الى ستيفان تروفيموفتش .

الفصل الثاني

نهاية الحفلة

١



يقبل ستيفان تروفيموفتش أن يستقبلني • كان
قد سجن نفسه ، وأخذ يكتب • قرعت
مرةً أخرى وناديته من خلال الباب فأجابني
بقوله :

- لقد أنهيت كل شيء يا صديقي ، فماذا يُراد مني أيضا ؟

- لم تنه أي شيء البتة ، وانما أنت أسهمت في الكارثة • كفاك
مزاحاً ، أرجوك ! ستيفان تروفيموفتش ، افتح ! يجب اتخاذ اجراءات •
قد يجيئون الى هنا ويهينونك •

رأيت من واجبي أن أكون قاسياً بل صارماً معه • كنت أخشى أن
يندفع في حماقة أشد وأخطر • ولكن ستيفان تروفيموفتش قاوم مقاومة
غير معهودة فيه ، مقاومةً أدهشتني كثيراً •

- لا تهني ، أنت خاصةً • انني شاكر لك كله ما صنعته لي حتى
الآن ، لكنني أكرر لك انني قد أنهيت صلتى بالناس ، أخيارهم وأشراهم
على السواء • أنا أكتب الآن الى داريا بافلوفنا التي أهملها اهمالاً لا يقتفر ،

فى الآونة الأخيرة • فاحمل رسالتى إليها غداً اذا شئت • والآن - «شكراً» •
 - ستيفان تروفيموفتش ، أوكد لك أن الأمر أخطر شأننا مما تظن •
 أتتصور أنك سحقت أحداً ؟ انك لم تسحق أحداً • وانما أنت تحطمت
 كما تحطم زجاجة فارغة •••

كنت فظاً فى مخاطبته ، وما زلت أتألم حين أتذكر هذا • وتابعت
 كلامى أقول :

- ليس ثمة سبب يدعوك أن تكتب الى داريا بافلوفنا ••• وماذا عسى
 أن تصير بدونى ؟ ماذا تفهم أنت من شئون الحياة العملية ؟ أغلب الظن
 أنك تهىء ضربة أخرى ، أليس كذلك ؟ اذا صح هذا فان شقاء جديدا
 سينزل عليك •••

نهض ستيفان تروفيموفتش واقترب من الباب • وقال :

- انك قد بقيت بقربهم زمناً قصيراً ، ولكنك أخذت عنهم لغتهم
 ولهجتهم • « عفا الله عنك يا صديقى ، وحماك ! » (بالفرنسية) • لقد
 لاحظت فيك نوعاً من الشرف على الدوام ، وربما كانت لك عودة أخرى
 الى أفكار أفضل - « بعد فوات الأوان » - شأننا جميعاً معشر الروس •
 أما عن ملاحظتك التى تعرض فيها بنقص خبرتى فى الشئون العملية ،
 فاننى أذكرك بكلمة من كلماتى : ان لدينا ، فى روسيا ، أناسا كثيرين ،
 يتهافتون تهافت الذباب وراء واحد منهم ويعيرون على الآخرين أنهم يفتقرون
 الى الحس العملى ، دون أن يرجعوا الى أنفسهم فى يوم من الأيام ••
 « يا عزيزى » ، تذكر أننى منفعل جدا ، فلا تعذبنى • « شكراً » مرة
 أخرى لكل ما صنعته من أجلى ، ولنفترق كما افترق كارمازينوف عن
 جمهوره ، أو قل بتعبير آخر : لنكن كريمين سمحين ، فتنسانى كما
 سانساك • ان كارمازينوف كان يمكر حين طلب من قرانه أن ينسوه •

أما أنا فأنى أقل غرورا وأقل حباَ للمظهر • ثم اننى أعتد خاصة على كونك فى عنفوان الشباب : كيف يمكنك أن تحتفظ مدةً طويلةً بذكرى شيخ لا خير فيه؟ « عش مدة أطول » يا صديقى ، على حد التعبير الذى قالته لى ناستاسيا مؤخرا بمناسبة عيد ميلادى (« ان للفقراء كلمات رائعة زاخرة بالفلسفة أحيانا ») (بالفرنسية) • اننى لا أتمنى لك سعادة كثيرة – فالسعادة تعب – ولكننى لا أتمنى لك الشقاء أيضا • وانما أنا أكرر حكمة الفلسفة الشعبية : « عش مدة أطول » ، وحاول أن لا تضجر كثيرا • وهذا التمنى الذى لا سبيل الى تحقيقه ، أنا الذى أضيفه • والآن ، وداعاً ، وداعاً ! ولا تبق أمام بابى • فلن أفتح الباب •

وعاد يكتب • ولم أستطع أن أجنى منه أكثر من ذلك • ولقد تكلم بلهجة متساوية رغم « انفعاله » ، تكلم بغير تعجل ، بل تكلم بفخامة ، بغية أن يفرض على مهابته • لا شك أنه حاقد على سبب المسارقات التى استرسل فى الافضاء بها الى أمس عن « الزلاجة » ، وعن « الأرض التى تميد تحت خطواته » • ثم ان الدموع التى ذرفها أمام الجمهور منذ قليل قد وضعت فى ظرف مضحك رغم هيئة الانتصار التى كان قد اصطنعها ، وهو يدرك هذه الحقيقة • فاذا تذكرنا أنه ما من أحد يحرص حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يحافظ فى علاقاته بأصدقائه على قواعد الأصول وآداب اللياقة ، كان فى وسعنا أن ندرك ما هو عليه الآن من حالة نفسية خاصة • معاذ الله أن أتهمه ! ومهما يكن من أمر فان هذا التأذى السريع وهذه اللهجة الساخرة اللذين احتفظ بهما رغم كل شيء قد طمأنانى : لقد بدا لى قليل الاختلاف جداً عما عهدته فيه عادة ، فلا يمكنه الآن اذن أن يتخذ قرارا فاجعا غير عادى • ولكننى أخطأت الظن ••• لقد غابت عنى أشياء كثيرة •

وهأنذا أستبق الحوادث فأورد لكم مستهل الرسالة التي بعثها الى داريا بافلونا ، فاستلمتها هذه في الغد فعلاً •

« بنيتي ، ان يدى ترتعش ، ولكننى أنهيت كل شيء • لم تشهدى ساعة معركتى الأخيرة مع الناس • انك لم تجيئى لسماع المحاضرة • وحسناً فعلت • ولكنهم سيقولون لك ان رجلاً شجاعاً فى بلادنا روسيا التى تنفقر أشد الافتقار الى رجال شجعان قد نهض مقتحماً تهديدات الموت التى كانت تتقاطر عليه من كل جهة ، فأعلن لأوثك الحمقى الصغار حقيقتهم ، أى قال لهم انهم ليسوا الا حمقى صغاراً • « آه ••• ما هم فى حقيقة الأمر الا صغار تافهون لا قيمة لهم ، ما هم الا صغار أغبياء ، نعم هذه الكلمة التى تصفهم بما فيهم » (بالفرنسية) • لقد قلت كلمتى وحددت مصيرى • سأبارح هذه المدينة الى الأبد ، وأذهب لا أدري الى أين • ان جميع الذين كنت أحبهم قد أشاحوا عنى • أما أنت ، أيتها النفس الطاهرة البريئة النقية ، أنت أيتها الانسانة العذبة الرقيقة ، الذى أوثك مصيرها أن يتحد بمصيرى تنفيذاً لارادة امرأة طاغية ذات نزوات ، أنت التى لعلك كنت تنظرين باحتقار الى العبرات تدرفها عيناي بحقارة وجبانة عشية خطبتنا ، أنت التى لن تملكى الا أن تعدينى رجلاً مضحكاً ، فاقبلى هذه الصرخة الأخيرة يطلقها قلبى • اننى اذ أوجه اليك هذه الصرخة انما أحقق واجباً أخيراً • ذلك أننى لا أستطيع وأنا أتركك الى الأبد أن أدعك تظنين اننى لست الا انسانا عقوقا ، انسانا غليظ القلب ، انسانا أنانياً كما يؤكد لك ذلك كل يوم ، فى أغلب الظن ، شخص عقوق قاسٍ لا أستطيع أن أنساه وا أسفاه ! ••• » •

وهكذا دواليك على مدى أربع صفحات كبار •

حين قال لى ستيفان تروفيموفتش انه لن يفتح ، قرعت الباب بقبضة يدي ثلاث مرات وصرخت أقول له انه سيبعث ناستاسيا لاستدعائى فى ذلك

اليوم نفسه ، ولكننى أنا الذى سأرفض عندئذ أن أجيء • ثم تركته
وأسرعت أذهب الى جوليا ميخائيلوفنا •

٢

هناك حضرت مشهداً يثير الأعصاب فعلاً : كانوا بصدد غش المرأة
المسكينة بوقاحة لا حياء فيها ، ولم أستطع أن أفعل شيئاً • ماذا كان فى
وسعى أن أقول لها فى الواقع ؟ كنت قد ثبت الى رشدى وعدت الى صوابى
وأدركت أن ليس لدى على وجه الاجمال الا انطباعات ومشاعر وشبهات
وشكوك وتوجسات لا أكثر • رأيتها غارقة فى دموعها توشك أن تصاب
بنوبة عصبية • كانت تشرب ماء ، وتمسح وجهها بالكولونيا • وكان بطرس
ستيفانوفتش واقفاً أمامها يتكلم بغير توقف أو انقطاع ، بينما كان الأمير
هنالك أيضاً لا ينطق بكلمة واحدة • انها تأخذ على بطرس ستيفانوفتش ،
بصرخات ودموع ، ما كانت تصفه بأنه « خيانة » منه • ما كان أشدّ دهشتى
حين رأيتها تنسب اخفاق الاجتماع وكل ما جرى الى مجرد غياب بطرس
ستيفانوفتش عن الحفلة •

ولقد لاحظت فيه تغيراً كبيراً : كان يبدو مشغول البال كثيراً • ان
وجهه رصين جاد • ان هيئته لا تعبر فى العادة عن جد : فهو يضحك دائماً
حتى حين يغضب ، وذلك ما يحدث له فى أحيان كثيرة • انه الآن أيضاً
حائق ، ولكنه يتكلم بلهجة فظة ، متذمرة ، متململة ، خالية من
التحرج زاخرة بالاهانة • كان يؤكد أنه قد أصيب بصداع شديد وتقيؤ
قوى عند جاجانوف الذى ذهب اليه فى الصباح • وا حسرتاه ! لقد كانت
المرأة المسكينة لا تتوق الا الى أن تُخدع مرة أخرى • كانوا لحظة دخولى
يتناقشون فى أمر حفلة الرقص : أتقام أم لا ؟ فكانت جوليا ميخائيلوفنا

تصر على أنها لن تظهر في هذه الحفلة بحال من الأحوال بعد « الاهانات التي نالتها في الصباح » • قل بتعبير آخر : انها كانت تريد أن تُجبر اجباراً على حضور الحفلة ، وأن يجبرها على ذلك بطرس ستيفانوفتش نفسه • كانت تنظر اليه نظرتها الى عرّاف لا يخطيء • وأظن أنها كانت ستمرض لو انصرف • ولكن بطرس ستيفانوفتش لا يخطر بباله أن ينصرف : انه يصر اصرارا قاطعا على أن تقام حفلة الرقص ، وعلى أن تحضرها جوليا ميخائيلوفنا حتماً •••

– ما بالك تبكين ؟ أنت حريصة هذا الحرص كله على خلق مشكلة ؟ ألا بد لك من صبّ غضبك على أحد ؟ طيب ! صبّي غضبك علىّ أنا ، ولكن أسرعى ، لأن الوقت يمضى سريعاً ، ولا بد من اتخاذ قرار • أخفقت صيحتك الأدبية ؟ طيب ••• ان حفلة الرقص ستصلح من الامر ما فسد • انظري الى الأمير • انه يوافقنى على رأيى • نعم ، لو لم يكن الأمير هناك ، لما عرف أحد كيف كان يمكن أن تنتهى القضية !

لقد كان من رأى الأمير فى البداية أن لا تُقام الحفلة (أو قل كان من رأيه أن لا تحضرها جوليا ميخائيلوفنا ، اذ لا بد من اقامة حفلة الرقص على كل حال) ، ولكنه بعد أن ذكر مرتين أو ثلاث مرات قال فى النهاية بضع كلمات مبهمه يفهم منها أنه موافق •

وقد دُهِشت كثيرا كذلك من لهجة بطرس ستيفانوفتش التي كانت خالية من الأدب والتهذيب • آه ••• معاذ الله أن أصدّق الاشاعات الدنيئة السافلة التي أذيعت ، فيما بعد ، عن العلاقات التي قالوا انها كانت قائمة بين جوليا ميخائيلوفتش وبترس ستيفانوفتش • ان أمثال تلك العلاقات المزعومة لم توجد ولا كان يمكن أن توجد بينهما • ولئن استطاع بطرس

ستيفانوفتش أن يكون له على جوليا ميخائيلوفتش شيء من السيطرة ،
فالسبب الوحيد في ذلك هو أنه كان يشجع أحلامها الطموحة ، مقنعاً إياها
بأنها تستطيع أن تؤثر في المجتمع وأن تؤثر في الوزير . لقد دخل في
خططها منذ البداية ، وكان يلقتها هذه الخطط هو نفسه ، ويغمرها بأنواع
المدبح المبذول ، فاستطاع أخيراً أن يلتف عليها ويكبلها من أخص
القدمين الى قمة الرأس بحيث أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه .

حين رأتني جوليا ميخائيلوفنا أطلقت صرخة ، وسطعت عيناها ،
وقالت تخاطب بطرس ستيفانوفتش :

– ها هو ذا . أسأله . انه هو أيضا لم يتركني ، كالأمير .
وأردفت تقول لي :

– قل لهم : أليس بديهياً أن المسألة كانت مؤامرة ، مؤامرة دينية
وقحة تهدف الى ايدائي أنا وآندره أنطونوفتش ؟ أوه ! لقد كانوا متواطئين
متفاهمين ! كانت لهم خطة مرسومة . انهم حزب ، حزب حقيقي .
قال لها بطرس ستيفانوفتش :

– انك تبالغين ، على عادتك . لا بد من قصيدة في رأسك دائماً .
ثم أردف يقول لي :

– على كل حال ، يسعدني أن أراك يا سيد . . .
وتظاهر بأنه نسي اسمي . وتابع كلامه :
– . . . سوف يقول لنا رأيه .
أجبت متمجلاً :

– رأيي مطابق لرأي جوليا ميخائيلوفتش في كل ما قالت . بديهي
كل البداهة أن ثمة مؤامرة محبوكة . انني أرد اليك هذه الشرائط يا جوليا

ميخائيلوفنا • لا أدري هل تقام حفلة الرقص • ذلك أمر لا شأن لي به •
 لكنني لن أكون واحدا من المشرفين على الحفلة • انتهى دورى هذا •
 اغفرى لي حدثى • ولكننى لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً مخالفاً للعقل
 والحسن السليم ، منافيا لاقتناعى •

فصاحت تقول وهى تضم ذراعيها :

– هل سمعت ؟ هل سمعت ؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت نحوى :

– سمعت • وفى رأىى أنكم جميعكم قد بلغت شيئا شوش عقولكم
 وبلبل أفكاركم • فى رأىى أنه لم يقع أى شيء خارق • لم يقع شيء يزيد
 على ما سبق أن وقع هنا وما يمكن أن يقع فى كل زمان • أين المؤامرة
 التى تتخيلون ؟ كان الأمر سخيلاً بشعاً مخزياً ، ولكن أين ترون مؤامرة ؟
 مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا ، حاميتهم التى تدلهم كل الدلال ، وتغفر لهم
 كل العيوب ؟ جوليا ميخائيلوفنا ، ماذا كنت أقول لك بلا انقطاع فى الشهر
 الأخير ؟ ألم أنبئك وأحذرك سلفاً ؟ ما كانت حاجتك الى هؤلاء الناس
 جميعاً ؟ ما كانت حاجتك الى الارتباط بهؤلاء الأوغاد ؟ فىم كان ذلك كله ؟
 أكان لتحقيق وحدة المجتمع ؟ هلاً فكرت فيما تقولين ! أهؤلاء قادرين
 على أن يتحدوا ؟

– أنت نبهتنى وحذرتنى ؟ بالعكس ! كنت دائماً تشجعنى ، بل كنت
 دائماً تطالبنى بالمزيد ••• حقاً انك لتدهشنى الآن غاية الادهاش ! أنت
 نفسك جئتى بأشخاص عجيبين جداً •

– لا ، أبدا • كنت أشجرك فى هذا الأمر ، وكنت لا أؤيدك ولا
 أحبذ تصرفك • لقد جئتك بأناس عجيبين ••• هذا صحيح ••• ولكن
 بعد أن كان منزلك قد امتلأ بأمثالهم ••• ثم اتنى لم أجئك بهم الا فى

الآونة الأخيرة من أجل « الحفلة الأدبية » : لقد كان يصعب الاستغناء عن هؤلاء الأوباش . أراهن أن دسّته أو دسّتين منهم قد أُدخلوا بخير تذاكر .

قلت مؤيداً :

- أنا من هذا على يقين .

- أرايت ؟ انك توافق . ثم تذكّر اللهجة التي كانت تسود المدينة كلها في الآونة الأخيرة . لم يكن ثمة الا وقاحة ، واستهتار ، واستخفاف وفضائح متصلة لا نهاية لها . من ذا الذي كان يشجع ذلك ؟ من ذا الذي كان يحميه بسلطته ؟ من ذا الذي شوش الأفكار كلها ؟ من ذا الذي أحق هؤلاء الصغار من الناس جميعاً ؟ ألم تكن جميع أسرارهم العائلية الصغيرة مودعة في ألومك ؟ ألم تكوني تمسحين بيدك على رؤوس شعرائنا ورساميننا ؟ ألم تمدى يدك الى ليامشين ليقبّلها ؟ ألم يتجرأ أحد الطلاب أن يشتم بحضورك مستشارا من مستشارى الدولة ؟ ألم يوسخ بحذاءيه المدهونين بالقطران ثوب ابنة ذلك المستشار ؟ فكيف تعجين بعد هذا أن يقوم عليك الجمهور ؟

- ولكنك أنت الذى كنت تدفعنى . هذه خطيتك . آه رباه !

- لم يحدث هذا أبدا ! لقد نبهتك وحذّرتك . وكنا نختصم ونشتجر فى هذا الأمر . نعم ، كنا نختصم ونشتجر
- أنت تكذب بغير حياء .

- سهل عليك طبعاً أن تقولى هذا الآن . لا بد لك من ضحية تصيب عليها نار غضبك . وقلت لك : صبى نار غضبك علىّ أنا . لا بأس . ولكننى أوتر أن أتجه اليك أنت يا سيد (هنا أيضا لم يفلح فى أن يتذكر اسمى) . لنعدّ على أصابعنا : أنا أوكد أنه ، باستثناء ليوتين ، لم يكن

هناك مؤامرة ، لم يكن هناك أية مؤا . . . مرة ! سوف أبرهن على هذا .
ولكن فلنحلل أولاً حالة ليوتين . لقد ظهر على المنصة حاملاً أسعار ذلك
الأحمق ، ليادكين . وأنت ترى أن هذه مؤامرة ، أليس كذلك ؟ ولكن
ألا يجوز أن يكون ليوتين قد وجد الأشعار فكهة فعلاً ؟ اننى ألقى هذا
السؤال جاداً . لقد ظهر على المنصة آملاً أن يسلى الجمهور ، وأن
يضحك الناس كافة ، وعلى رأسهم حامته جوليا ميخائيلوفنا . ألا تصدق
هذا ؟ ولكن ألا ينسجم هذا مع كل ما كان يجرى هنا منذ شهر ؟ هل
تريد أن أقول لك كل شيء ؟ يميناً ان هذه المزاحة كان يمكن فى ظروف
أخرى ، أن تمر بسلام . صحيح أنها فظة غليظة ، صحيح أنها قوية
قليلاً ، ولكنها مضحكة ، هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله مستاءة :

- كيف يمكنك أن ترى مهزلة ليوتين مضحكة ؟ هذه قلة كياسة
. . . بل هذه دناءة مقصودة محسوبة ! آه . . . انك تقول هذا الكلام
عامداً . واضح بعد هذا أنك أنت أيضا ضالع فى المؤامرة .

- كيف ؟ اذن كنت مختبئاً وراءهم أحرّكهم كما تحرك الدمى !
ولكن لو اننى اشتركت فى المؤامرة - اعلمى هذا - لكان هنالك أشياء
أخرى كثيرة غير ليوتين ! وأنت تتصوّرين اذن اننى تواطأت مع أبى
العزيز على أن يثير فضيحة . من ذا الذى طلب من أبى العزيز أن يقرأ ؟
ومن الذى حاول أن ينيك عن هذا أمس ، نعم أمس ؟

- آه . . . لقد كان بالأمس زاخراً بالفكر والظرف ! كنت معتمدة
عليه أكبر الاعتماد ، لا سيما وأن له آداباً رفيعة وسلوكاً أنيقاً ! كنت أظن
أنه هو وكارمازينوف سوف . . . ولكن انظر ماذا حدث ! . . .

- نعم . . . انظرى ماذا حدث ! ان أبى قد أفسد كل شيء رغم كل

ما يتحلى به من « فكر وظرف » كما تقولين • ولو كنت أعلم سلفاً أنه سيتصرف هذا التصرف ، وأنا ضالع في المؤامرة التي دبّرت لافساد حفلتك ، لما ألححت عليك راجياً منك أن لا يُترك انيس في مزرعة الخضار ! أليس كذلك ؟ ولكنني حاولت أن أُنثيك عن دعوة أبي ، لأنني كنت أوجس ما سوف يقع • ومن المستحيل على المرء أن يتوقع كل شيء طبعاً • هو نفسه كان قبل أن يظهر على المنصة بدقيقة واحدة يجهل ما سوف يقوله • هل هؤلاء الشيوخ العصيون رجال ؟ على أن في إمكاننا أن نصلح الأمور : فلكى تُرضى الجمهور ، أرسلنى الى أبى منذ الغد طيبين يفحصانه ، أرسليهما اليه على جناح السرعة رسمياً • بل يمكن إرسالهما فى هذا اليوم نفسه ، فينقل الى المستشفى رأساً ، ويعالج هناك بكماادات وحمامات باردة • عندئذ سوف يضحك جميع الناس ، وسوف يرون أنه ما كان لهم أن يشعروا باهانة • حتى اننى أستطيع أن أخاطب جمهور الحفلة فى الأمر هذا المساء ، بصفتى ابن الرجل • أما كارمازينوف ، فشأنه شأن آخر • لقد تصرف كارمازينوف تصرف حمّار ذى بردعة ، لا أكثر • لقد جعل خطابه يطول ساعة كاملة • لا شك أنه تواطأ معى • لا شك أنه قال لنفسه : « هيا ، فلنعمل خطيئة من شأنها أن تزعج جوليا ميخائيلوفنا ! » هه ؟ •••

— أوه ! كارمازينوف ! « يا للعار ! » (بالفرنسيه) • لقد احمر وجهى خجلاً من جمهورنا •

— أما أنا فلو كنت فى مكانك لما احمر وجهى خجلاً ، أؤكد لك ••• وانما كنت أضربه ، صاحبك كارمازينوف ! لقد كان الجمهور على حق • وأعود فأسألك مرة أخرى : من المذنب فى هذا ؟ من المخطيء ؟ أنا الذى فرضت عليك كارمازينوف ؟ أنا شاركتك فى تعظيمه الى حد العبادة ؟ شيطان يأخذه ! وأما عن المهوس الثالث ، المهوس السياسى ،

فتلك حكاية أخرى : الجميع مسئولون عن أمره ، أنا مسئول وأنت
مسئولة •

- آه ... لا تجيء على ذكره ! لا تكلمنى عنه ! نى فطيع ، فطيع !
فى هذه الحالة أنا المذنب ، أنا المخطئة ، أنا وحدى !

- طبعاً ، ولكنك معذورة • أنتى للمرء أن يحذر أناساً يبلغون هذا
المبلغ من الصراحة ؟ حتى فى بطرسبرج لا تمكن محاذرتهم دائماً • ألم
يُزكّوه لك ؟ ألم يوصوك به خيراً ؟ بلى ! ولقد فعلوا ذلك بكثير من
الحماسة • والآن يجب عليك أن تفكرى فى الأمر وأن تتخذى قرارك :
انك مضطرة أن تحضرى حفلة الرقص • الأمر خطير : انك أنت التى
أظهرته على المنصة • فمن واجبك اذن أن تعلنى على رموس الأَشهاد أنك
لست متعاونة معه ، وأنه الآن بين يدي الشرطة ، وأنت خُدعت فى
أمره • يجب عليك أن تصرّحى ، مستاءةً ، بأنك كنت ضحية رجل
مجنون • لأنه ليس فى الواقع الا مجنوناً ! على هذا النحو انما يجب شرح
الأمر • انتى أكره هؤلاء الناس الذين يعضون • انه ليتفق لى أن أقول
أموراً أسوأ من تلك التى قالها ، ولكننى لا أقولها من على منبر • والناس
انما تجرى أحاديثهم الآن حول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ •

- أى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟ وماذا يقولون ؟

- أنا نفسى لا أفهم مما يقولون شيئاً • ولكن ألم تسمعى أنت يا جوليا
ميخائيلوفنا شيئاً عن وصول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟

- عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟

- اسمعى • ان الناس جميعاً مقتنعون الآن بأن عضواً من أعضاء
مجلس الشيوخ سيصل قريباً ، وانكم ستعفون من منصبكم • سمعت هذا
الكلام فى كل جهة من الجهات •

قلت مؤيداً :

- وأنا سمعت هذا الكلام •

- ولكن من الذى يقول هذا ؟

واصطبغ وجه جوليا ميخائيلوفنا بحمرة شديدة •

- من الذى أطلق هذه الشائعة ؟ أنتى لى أن أعرف ! على كل حال ،

الناس يتحدثون فى هذا الأمر يمنةً ويسرة • بالأمس خاصة ، كانوا

يتكلمون فيه كثيراً ، وقد لاح فى وجوههم العجد ، وان خالط هذا العجد

تحفظ وتردد • طبعى أن أذكاهم وأخبرهم ببواطن الأمور يلتزمون

الصمت ، ولكن ذلك لا يمنع بعض هؤلاء من الاصغاء بانتباه •

- يا للصغار ! و ••• يا للحماقة ! •••

- هذا سبب آخر يدفعك الى أن تظهرى ، والى أن تبرهنى لهؤلاء

الحمقى على أن •••

- نعم ، اننى أدرك بنفسى أن هذا من واجبى ••• ولكن ماذا لو

كنت أعرض نفسى لاهانة جديدة ؟ ماذا اذا لم يجيئوا الى حفلة الرقص ؟

ان أحداً لن يحضر حفلة الرقص ••• لا ••• لن يجيئ احد ! •••

- انك مسرقة فى التعجل ! أتتصورين أن الناس لن يحضروا حفلة

الرقص ؟ أتتخيلين هذا ؟ فما عساهم فاعلين بالأثواب التى أعدوها لهسذه

المناسبة ، وما عساهم فاعلين بما زُيِّنت به الفتيات ؟ ألسنت امرأة ؟ ألا انك

لا تعرفين العالم حق معرفته !

- ان زوجة مارشال النبالة لن تجيئ حتماً • أنا واثقة بهذا !

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وقد أصبح لا يستطيع السيطرة على

تململه وحققه :

– ولكن أى شيء رهيب حدث ؟ لماذا تتصورين أنهم لن يحيثوا ؟

- حدث شيء مخجل ، شيء مخزٍ ، شيء دنيء ، ذلك ما حدث .
- شيء لا أفهمه ، ولكننى لا أستطيع أن أظهر للناس بعد أن حدث .

– لماذا ؟ ما هى أخطاؤك وذنوبك فى الحساب الأخير ؟ لماذا تحمّلين نفسك كل التبعة ، وتلقين على عاتقك بكل الخطأ ؟ أليس المخطيء هو الجمهور ، وهؤلاء الشيوخ الكبار ، وأرباب الأسر أولئك ؟ لقد كان عليهم أن يحتجزوا الأوباش والأوغاد ، وما هم فى الواقع الا أوباش وأوغاد ؟ تم ينتهى الأمر • ان الشرطة لا يمكن أن تكفى لكل شيء • وانما ينبغى للمجتمع أن يقوم بواجبه ويبدل جهده • ان كل انسان فى بلادنا يتطلب عند دخوله الى حفلة أن ينتدب له شرطى خاص يسهر على سلامة شخصه العظيم • الناس فى بلادنا لا تدرك أن عليها أن تحافظ على نفسها بنفسها فى مثل هذه الظروف • ماذا يفعل أرباب أسرنا وكبار موظفينا ، وسيداتنا ، وآسائنا ؟ يصمتون ويحردون • ما من مبادرة يقومون بها ، ولو لقسع سفالة السفلة !

– آ ••• نعم ••• ما أصدق هذا الذى تقول ! ••• انهم يصمتون ويحردون ولا يزيدون على أن ينظروا الى ما يعجرى !

– اذا كان ما أقوله صادقاً فأعلنه جهاراً ، أعلنه بكبرياء ، أعلنه بقسوة ، لكى تُظهري أنك لم تُصعقي وتُغلبى ، لكى تظهري ذلك لأولئك الشيوخ وأمهات الأسر • آ ••• لسوف تعرفين كيف تفعلين هذا ! انك تملكين الموهبة اللازمة حين تكونين صافية الذهن • اجمعينهم ، واعلنى لهم الحقيقة بصوت عالٍ ••• ثم نبعث برسالة صحفية الى جريدة «الصوت» أو «البورصة» • انتظري • سوف أشرع فى العمل • وسوف أدبر كل شيء بنفسى • لا بد طبعاً من الانتباه واليقظة • يجب أن يراقب البوفيه •

ويجب الالحاق على مجيء الأمير ، ومجيء السيد انك لا تستطيع
يا سيدى أن تتركنا فى اللحظة التى يجب علينا فيها أن نبذل جهداً جديداً .
وسوف تظهرين متأبطة ذراع آندره أنطونوفتش . كيف حاله الآن ؟
فصاحت جوليا ميخائيلوفنا فجأة تقول باندفاع غير متوقعة حتى لكأن
دموعاً أخذت تترقرق فى عينيها :

- أوه ! ما كان أظلمك دائماً فى حق هذا الانسان الملائكى ! لقد
كانت آراؤك فيه خاطئة كل الخطأ ، مهينة كل الاهانة !
ورفعت منديلها الى عينيها . فجمد بطرس ستيفانوفتش فى الوهلة
الأولى مذهولاً .

- رحماك . . . أنا . . . أنا . . . ما هذا الذى تقولين ؟ لقد كنت
دائماً . . .

- لا ، أبداً ، أبداً ، لم تنصفه فى يوم من الأيام !

- يستحيل على المرء أن يفهم النساء .

كذلك جمجم يقول بطرس ستيفانوفتش وهو يتسهم ابتسامة
مقهورة .

قالت جوليا ميخائيلوفنا :

- انه بين الناس أصدقهم فولاً ، وأرهفهم شعوراً ، وأقربهم الى أن
يكون ملاكاً من الملائكة ! هو خير الناس طراً !

- أرجوك . . . فيما يتعلق بطيبة قلبه وشهامة نفسه ، أنا أنصفته
دائماً . . .

- لا ، أبداً . ولكن دعنا من هذا . لقد كان كلامى الآن خراقة فى

غير محلها • منذ قليل ، رمتنى زوجة مارشال النبالة تلك ، رمتنى هى أيضا ، ببضعة سهام عن أحداث الأمس ، ماكرةً مكر يسوعى •

– هوه ! ان فى رأسها الآن هموماً أخرى غير أحداث الأمس • ان أحداث اليوم تكفيها • لماذا تقلقين هذا القلق كله من أنها قد لا تحضر حفلة الرقص ؟ انها لن تحضر حتماً بعد الفضيحة التى وجدت نفسها مقحمة فيها • قد لا يكون لها بها شأن • ولكن سمعتها ستأثر ، ويديها ستظلان متسختين •

سأله جوليا ميخائيلوفنا مدهوشةً أشد الدهشة :

– ما هو الأمر ؟ اننى لا أفهم : لماذا « ستظل يداها متسختين » ؟ •••
قال بطرس ستيفانوفتش :

– لاحظى أننى لا أؤكد شيئاً ، الا أن شائعة تجرى فى المدينة قائلة انها كانت هى الوسيطة •

– وسيطة ؟ بين من ومن ؟

– كيف ؟ ألا تعلمين بعد ؟

كذلك صاح يقول بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً دهشة كاذبة ، وأردف يقول :

– بين ستافروجين وليزافتا نيقولايفنا •

– ماذا ؟ كيف ؟

كذلك صححنا نسأل جميعاً فى أن واحد •

قال بطرس ستيفانوفتش :

– هل يُعقل أن تكونوا جاهلين بالأمر ؟ عجيب ! انها «تراجيديا –

كوميديا» : ان ليزافتا نيقولايفنا قد انتقلت رأساً من مركبة زوجة مارشال

النبالة الى مركبة ستافروجين ، وهربت معه الى سكفورشنيكى فى وضوح
النهار ، منذ ساعة واحدة ، بل منذ أقل من ساعة •

جمدنا من الدهول • وأردنا أن نحصل على تفاصيل طبعا • فما كان
أسد دهشتنا حين رأيناه عاجزاً عن أن يمدنا بأية تفاصيل ، رغم أنه قد
شهد الحادث « مصادفةً » • يظهر أن الأمور جرت كما يلى : بعد الجلوسه
الأدبية ، حين كانت مارشالة النبالة تصطحب فى مركبتها ليزا ومافريكى
يقولايفتش الى منزل أم ليزا (التى كانت ما تزال تعاني آلاماً فى ساقها) ،
لمحوا مركبة كانت مرابطة على مسافة خمسة وعشرين متراً من باب المنزل •
فما كان من ليزا الا أن وثبت الى الأرض ، وركضت رأساً الى تلك العربية ،
فركبتها ، ولكن دون أن تنسى أن تصرخ فائلة للافريكى يقولايفتش :
« ارحمنى ! » • وأسرعت العربية تطوى الأرض منجبهةً الى سكفورشنيكى •
فلما سأله « هل كانا على اتفاق ؟ ومن ذا كان بالعربية ؟ » أجاب بطرس
ستيفانوفتش بأنه لا يعلم • قال : لا بد أنه كان ثمة اتفاق بين الشاب والفتاة ،
ولكنه لم يستطع أن يتعرف الشخص الذى كان بالعربية ، فعمله الخادم
العجوز الكسى ايجوروفتش • سأله : « ولكن أنت ، كيف اتفق أن كنت
هناك ؟ » ، و « كيف عرفت أنها ذهبت الى سكفورشنيكى ؟ » ، فأجاب
بأنه كان ماراً بالمكان عرضاً ، فلما لمح ليزا أسرع نحو العربية (ورغم ذلك ،
ورغم فضوله ، لم يستطع أن يتعرف الشخص الذى كان بالعربية) ،
وأضاف أن مافريكى يقولايفتش لم يحاول حتى أن يلاحق ليزا ، بل انه
على عكس ذلك أسكت زوجة مارشال النبالة التى أخذت تصيح بصوت
عالٍ قائلة : « انها ذاهبة الى ستافروجين ، انها ذاهبة الى ستافروجين ! » •
فجأةً رأيتنى أفقد صبرى وأصرخ قائلاً لبطرس ستيفانوفتش وقد
أخذ منى الغضب كل مأخذ :

— أنت الذى دبرت كل شىء أيها الشقى ! فى تدبير هذه المؤامرة

انما قضيت الصباح ! أنت الذى ساعدت ستافروجين ! أنت الذى كنت فى
العربة ! أنت الذى فتحت الباب لليزا ! ... أنت ... أنت ! ... يا جوليا
ميخائيلوفنا ، هذا عدو لك فأحذريه ! سيهلكك أنت أيضا !

قلت هذا ووليت هارباً كمجنون .

ما أزال الى هذا اليوم لا أفهم كيف أمكنتى أن أصبّ على رأسه
هذه الكلمات . ولكن رأى كان على صواب : فكما علمنا فيما بعد كان
كل شيء قد تمّ على ذلك النحو الذى ذكرته له ، على ذلك النحو نفسه
تقريباً . والعذر الذى اتحلله لينبئنا بالخبر كان زانفا زيفا واذنـحـا كل
الوضوح . انه بدلاً من أن ينبئنا بالخبر فور دخوله من حيث أنه خبر هام
جدا مثير جدا ، تظاهر بأنه يظن أننا على علم به قبل وصوله هو ، وذلك
فى الواقع مستحيل ، لأن الحادث وقع منذ هنيهة قصيرة . ولو كنا نعرف
الخبر قبله لبادرناه نحن بالكلام عنه . ولم يكن فى امكانه كذلك أن يعرف
ماذا تقول المدينة عن زوجة مارشال النبالة وماذا تشيع عنها لأن المدة التى
انقضت على وقوع الحادث أقصر من أن تتيح رواج الشائعات . وكنت قد
لاحظت عدا ذلك ابتسامة الاحتقار التى ارتسمت على سفيته مرتين أثناء
رواية القصة : فلعله كان يعدنا أناساً بلهاء يسهل الضحك عليهم والتغريير
بهم . ولكن ما شأنى وبطرس ستيفانوفتش ! لقد أخذت أفكر فى الأمر
الأساسى . فهربت من عند جوليا ميخائيلوفنا خارجاً عن طورى . ان هذه
الكارثة قد طغنت قلبى فى الصميم ، فبلغت من الحزن والكرب اننى لعلى
بكيت . كنت لا أعرف ماذا يجب أن أفعل . أسرعت راكضاً الى عند
ستيفان تروفيموفتش ، ولكن الشيخ اللعين رفض أن يفتح لى أيضا .
وهمست ناستاسيا تقول لى خائفة : « انه يرتاح » . فلم أصدق من ذلك
شيئاً . وذهبت الى دار ليزا فاستطعت أن أسأل الخدم فأكدوا لى نبأ هروبها
ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عدا ذلك . كان المنزل قد انقلب عاليه سافله .

• براسكوفيا ايفانوفنا تُصاب باغماء • ومافريكي نيقولايفتشس لا يتركها •
 بدا لي مستحيلاً أن استدعيه • وحين سألت عن بطرس ستيفانوفتشس وعن
 دوره في القضية فيل لي انه في الآونة الأخيرة أصبح لا يجيء الى البيت
 أحدٌ غيره ، وانه ربما جاء في اليوم الواحد مرتين • كان الخدم حزانى ،
 وكانوا يتكلمون عن ليزا بلهجة الاحترام • انهم يحبونها • لم يراودنى
 أى شك في أنها ضاعت ، في أنها ضاعت ضياعاً لا خروج لها منه • ولكن
 الجانب السيكولوجي من هذه القضية كان لا يزال مجهولاً عندي ، وكنت
 ما أزال عاجزاً عن فهمه كل العجز ، لا سيما حين كنت أتذكر مشهد
 الأمس بين ليزا وستافروجين • وكنت أكره أن أسعى في المدينة سائلاً
 بعض الأصدقاء والمعارف الذين لا شك في أنهم كانوا على علم بالحادث
 وكانوا يعلقون عليه أسوأ التعليق في أغلب الطن • لا سيما وأن مثل هذه
 المساعي تشتمل في رأيي على مذلة ألحقها بليزا • ولكن لا أدري لماذا
 ذهبت الى داريا بافلوفنا (على اننى لم أستقبل هناك • فان منزل آل
 ستافروجين قد أوصد في وجه كل قادم منذ أمس) • لا أدري أنا نفسى
 ما الذى كان يمكننى أن أقوله لها لو أتيح لي أن ألقاها • ومن هنا ذهبت
 الى عند أخيها • بدا لي شاتوف مربدٌ الوجه اربدادا شديدا • أصغى الى
 كلامى ذاهلاً مفكراً كأنه يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتابع ما أقوله
 له • ولم يكذب بيغيبى بشيء ، بل جعل يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى
 أثقل من خطاه المعهودة • ولم ألبث أن تركته • ولكن بينما كنت أهبط
 السلم ، صاح ينصحنى بأن أذهب الى ليوتين ، قائلاً : « هناك ستعرف كل
 شيء » • ولكننى لم أذهب الى ليوتين • فبعد أن قطعت شوطاً كبيراً من
 الطريق قررت فجأة أن أعود الى شاتوف • لم أدخل عليه • ولكننى
 شققت بابه وسألته هل يريد أن يذهب الى ماريا تيموفنا • فأجابنى شاتوف
 بشتيمة • فرجعت أهبط السلم • أحب أن أذكر هنا ، خشية النسيان ، أن

شاتوف في ذلك المساء نفسه قد مضى الى الطرف الآخر من المدينة ، الى
 عند ماريا تيموففنا التي لم يكن قد رآها منذ مدة طويلة . فوجدها في ذلك
 اليوم موفورة الصحة مشرقة المزاج . أما أخوها ليادكين فكان قد اضطجع
 على الديوان في الحجرة الأولى ونام وهو في حالة سكر شديد . كانت
 الساعة هي التاسعة تماماً كما ذكر لي شاتوف ذلك في الغداة حين لقيني
 عرضاً في الشارع . وفي الساعة العاشرة قررت أن أحضر حفلة الرقص ،
 لا « مشرفاً » (فان عقدة الشريط كانت قد بقيت عند جوليا ميخائيلوفنا) ،
 بل مشاهداً يدفعه حب الاطلاع وتدفعه الرغبة في أن يسمع ما تقوله
 المدينة عن جميع هذه الأحداث دون أن يلقى على أحد سؤالاً . ثم انني
 كنت أريد أن أرى جوليا ميخائيلوفنا ولو من بعيد : لقد لمت نفسي كثيراً
 على أنني تركتها بمثل تلك السرعة .

٣

تلك الليلة ، مع جميع أحداثها المستحيلة و « خاتمتها » الرهيبة ،
 ما تزال تبدو لي اليوم كابوساً فظيماً ، و ما تزال تؤلف فيما يتعلق بي أنا
 على الأقل ، أشقّ جزء من أجزاء هذه القصة . لقد وصلت الحفلة متأخراً ،
 ولكنني استطعت أن أشهد نهايتها ، فانها لم تدم طويلاً . كانت الساعة قد
 تجاوزت العاشرة قليلاً حين دخلت باب منزل زوجة مارشال النبالة . لقد
 أعدوا الصالة البيضاء الكبيرة التي قامت فيها الصبيحة الأدبية لتكون صالة
 رقص ، اذ كانوا يعتقدون أن المدينة ستشارك في الحفلة . ولكن الواقع
 تجاوز أسوأ التنبؤات . وكنت أنا منذ الصباح متشائماً فيما يتصل بالاقبال
 على هذه الحفلة . غاب المجتمع الراقى كله ، وغاب كذلك جميع الموظفين
 الذين لهم قدر من الشأن ، وتلك وحدها علامة سوء ونذير شر . أما عن
 السيدات والأنسات فان حسابات بطرس ستيفانوفتش (وهي حسابات

خادعة مضللة طبعا) فقد اتضح بطلانها وكذبها : ان عدد السيدات
والآنسات اللواتى حضرن الحفلة عدد ضئيل جدا • لا تكاد توجد سيدة
واحدة فى مقابل أربعة رجال • ويا لهن من سيدات ! انهن نساء ضباط
صغار ، وزوجات كتاب فى الدواوين ، وثلاث ممرضات مع بناتهن ،
وأسة السكرتير التى سبق لى أن جئت على ذكرها ، واثنان أو ثلاث من
المالكات الفقيرات بمقاطعتنا ، وبائعات ••• أفهذا ما كانت تتوقعه وترجوه
جوليا ميخائيلوفنا ؟ أما السادة فانهم ، رغم غياب الطبقة الارستقراطية ،
كانوا كثة كثيفة • ولكنهم يحدثون فى النفس تأثيراً سيئاً ، ويشيرون
الشبهة • كان بينهم طبعا ضباط متواضعون محترمون مع زوجاتهم ، وكان
بينهم أرباب أسر طيِّعون ، مثل ذلك السكرتير الذى له سبع بنات ؛ ان
هؤلاء الناس البسطاء انما جاءوا بنوع من « الاضطرار » ، على حد تعبير
واحد منهم ، ولكن كان بينهم أشخاص من طينة أخرى : فتیان مستهترون ،
وأشخاص من نوع الذين قدّرنا أنا وبطرس ستيفانوفتش أنهم أدخلوا
الجلسة الأدبية بدون تذاكر • حتى لقد كان عددهم الآن أكبر كثيرا من
عددهم فى الصباح • انهم الآن واقفون فى قاعة البوفيه • وقد لاحظت
أنهم ما ان دخلوا حتى مضوا اليها رأساً ، كأنهم على موعدٍ فيها • وكان
البوفيه قد أُعدّ فى نهاية سلسلة من الغرف ، فى قاعة فسيحة أقام فيها
بروخورتش وسط مجموعة من أشهى المأكولات والمقبلات التى يعدها
مطبخ النادى مع أعداد كبيرة من قناني الخمر • ولاحظت هنالك أفرادا
لا يدرى الا الله من أين خرجوا ، وقد أخذهم السكر منذ ذلك الحين ،
وكانت هيناتهم الزرية لا تليق بحفلة رقصٍ حتماً • كنت أعرف أن جوليا
ميخائيلوفنا قد ارتأت أن تقيم حفلةً ديموقراطية الى أبعد حد ، وأن تسمح
بدخول الحفلة حتى « للبورجوازيين الصغار اذا كان بينهم من يملك ثمن
تذاكر دخول » • وهى حين قالت هذا الكلام أمام جلستها لم تكن تجازف

بشيء ، لأنها تعلم علم اليقين أن لا أحد من بورجوازيينا الصغار ، وكلهم فقراء ، يخطر بباله أن يشتري بطاقة دخول • مهما يكن من أمر ، ورغم الميول الديموقراطية لدى اللجنة ، فإن حضور هؤلاء الأشخاص المشثومين الذين يرتدون ملابس مرقعة منقبة لم يبد لي أمراً مقبولاً • ولكن من ذا الذي تركهم يدخلون وماذا كان غرضه من ذلك ؟ ان ليوتين وليامشين كانا قد حرّما من شارتي المشرفين (ولكنهما حضرا الحفلة على كل حال ، لأنهما كانا سيشاركان في الرقصة الرباعية) • ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت أن ليامشين قد حلّ محله في مهمة الاشراف ذلك الطالب الذي أحدثت مشاحنته مع ستيفان تروفيموفتش فضيحة كبرى في « الصبيحة الأدبية » • وأما ليامشين فقد ناب عنه في وظائفه بطرس ستيفانوفتش نفسه • فماذا كان يمكن أن يُنتظر اذن ؟ لقد أصحخت بسمعي الى المحادثات ، فأدهشني في بعضها غباؤها وخبئها • ففي جماعة من الجماعات مثلاً كانوا يؤكدون أن هرب ليزا انما دبّرتة جوليا ميخائيلوفنا نفسها ، وان جوليا ميخائيلوفنا قد قبضت من ستافروجين ثمن ذلك مبلغاً من المال • حتى لقد حددوا المبلغ ؟ وأن اقامة الحفلة لم يكن لها من غرض الا تنفيذ هذه الخطة ، فلهذا السبب تخلف نصف المدينة عن المجيء بعد أن علم بالأمر • وقد بلغ لمبكه من الدهشة لهذه القصة كلها أنه فقد عقله ولكنه ينقاد لامراته ولا يخرج على ارادتها • وكان الناس يضحكون ضحكاً فظاً مسجاً شريراً ولم يفتهم أن ينتقدوا حفلة الرقص انتقاداً عنيفاً ، وأن ينعثوا جوليا ميخائيلوفنا بأبشع الأوصاف دون أي تخرج • ولكن كان يصعب على المرء أن يستخرج أي شيء محدد معين من هذه الرثرة المشوشة الحانقة المحمومة • وكان الملجأ كذلك ملاذاً للأشخاص الذين يريدون أن يتسلوا ويتندروا ويضحكوا لا أكثر • فهناك يرى المرء نساءً من أولئك السيدات اللواتي يطفحن نشاطاً ومرحاً ، واللواتي أصبح لا يدهشنهن

شيء ولا يرهبن شيء • انهن فى صحبة أزواجهن ، الضباط فى الغالب الأعم • وكان أزواجهن هؤلاء قد جلسوا الى موائد صغيرة يشربون الشاي ويتمازحون ضاحكين • وما هى الا فترة وجيزة حتى أصبح نصف الجمهور فى تلك الحجرة • شعرت بخوف حين تصورت ما قد يحدث حين يتزاحم هذا الجمهور كله دفعةً واحدة فى صالة الرقص حيث كانت قد تكونت بمساعدة الأمير ثلاث رقصات رباعية بسيطة •

كانت الفتيات ترقص أمام آبائهن وأمهاتهن ، وكان الآباء والأمهات يبتهجون بذلك ويسرّون له • ولكن عددا كبيرا من هؤلاء الآباء والأمهات كانوا يقولون بعضهم لبعض ان بناتهن قد تسلّين بما فيه الكفاية ، فيحسن الانصراف فى الوقت المناسب قبل أن « يبدأ الأمر » • ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأن « أمراً سيبدأ » لا محالة • يصعب على أن أصف الحالة النفسية التى كانت عليها جوليا ميخائيلوفنا • ورغم انى وجدتنى بقربها عدة مرات ، فانى لم أكلمها • كما أنها لم ترد التحية التى حييتها بها عند دخولى ، لا لشيء الا كونها لم تلاحظنى • كان وجهها منقلبا ، وكان فى نظرها غطرسة واحتقار ، ولكن كان فى هذه النظرة قلق أيضا • واضح أنها كانت تحاول أن تتغلب على نفسها • لماذا ؟ ولمن ؟ لقد كان ينبغى لها أن تتصرف ، وأن تقتاد زوجها خاصة ، ومع ذلك بقيت • يكفى أن ينظر المرء الى وجهها حتى يدرك أن عينيها قد « زالت عنهما الغشاوة » ، وأنها لم يبق لديها أى وهم • أصبحت لا تتبته حتى الى بطرس ستيفانوفتش (وكان بطرس ستيفانوفتش يتحاشاها على كل حال • لقد لمحتّه فى البوفيه ، فرأيتّه شديد المرح) • لقد بقيت جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك ، ولم تترك زوجها • فى ذلك الصباح نفسه ، لو أن أحداً ألمع الماعاً الى صحة آندره انطونوفتش لرفضت هذا الالماع مستاءة أصدق الاستياء حتماً • ولكن عينيها قد زالت عنهما الغشاوة الآن فى هذا الأمر أيضا ولا شك •

أما أنا فقد بدا لي منذ النظرة الأولى أن هيئة آندره أنطونوفتش أسوأ مما كانت في الصباح • لكأنه الآن لا يعنى ما يعمل ، بل لا يدرك أين هو من المكان • كان من حين الى حين يلقي على ما حوله نظرات قاسية • وقد تلبثت احدى هذه النظرات على مرتين • وفجأة أخذ يتكلم بصوت قوى ، ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته ، فامتلاً من ذلك بالرعب قلب 'موظف' عجوز خجول كان حينذاك بقربه مصادفة • ثم ان هذا الجزء نفسه من الجمهور الذى كان واقفاً فى الصالة البيضاء بتواضع ، كان يتعد عن جوليا ميخائيلوفنا مكفهر الهيئة حانقا ، ملقيا على زوجها نظرات غريبة ، نظرات يتناقض اصرارها وتتناقض دلالتها تناقضا قويا مع ما كانت تعبر عنه هيئاتهم من وجل •

لقد أسرّت الى جوليا ميخائيلوفنا ، فيما بعد ، قائلة :

— ذلك بعينه هو ما فجأني • وعندئذ انما أخذت أدرك حقاً الحالة النفسية التى كان عليها آندره أنطونوفتش •

نعم ، مرةً أخرى ارتكبت غلطة • انه لمن الجائز أنها منذ قليل ، حين خرجت من عندها هارباً ، وكانت قد قررت بالاتساق مع بطرس ستيفانوفتش أن الحفلة ستقام ، وأنها ستحضرها ، أقول انه لمن الجائز أن تكون قد ذهبت الى حجرة آندره أنطونوفتش الذى كانت المصيبة الأدبية قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، فما زالت به تغريه وتغريه حتى حصلت منه على موافقته على مصاحبته الى حفلة الرقص • ولكن لا شك أنها تلوم نفسها على ذلك أشد الموم الآن ! ومع ذلك لم تشأ أن تنصرف • أكان العجب هو الذى يعذبها ؟ لا أدري ! انها رغم زهوها قد حاولت عدة مرات أن تعقد حديثاً بينها وبين بعض السيدات ، موجّهة اليهن ابتسامات متواضعة ، ولكن السيدات سرعان ما كن يتخوفن ثم يتخلصن من الحديث بكلمة نعم أو بكلمة لا ، موجزات مقتضبات ، ويتعدن عنها متعجلات تعجلاً واضحاً •

وكان لا يمثل الطبقة الارستقراطية في الحفلة الا ذلك الجنرال
المحال على التقاعد الذي سبق أن أتيج لى الكلام عنه والذي « فصح باب
النذمر على مصراعيه للناس كافة » بعد المباراة التي قامت بين ستافروجين
وجاجانوف . كان الجنرال يتجول في القاعات مهيب المنظر ، ملاحظاً كل
شيء ، حريصاً أشد الحرص على أن يظهر بوضعه أنه لم يجيء الا من
باب حب الاطلاع على عادات أهل الاقليم . وانتهى به الطواف الى التثبيت
بجوليا ميخائيلوفنا ، فلم يتركها بعد ذلك ، محاولاً أن يسرّي عنها
ويواسيها ويهدى روعها . ان الرجل الممتاز ، المهيب المنظر ، كان قد
بلغ من التقدم في السن أن المرء يقبل منه العطف والشفقة . ومع ذلك
كان واضحاً على جوليا ميخائيلوفنا أنها يحقنها أن ترى نفسها مضطرة الى
الاعتراف بأن هذا العجوز الثرثار قد أباح لنفسه أن تأخذها به شفقة وأن
يكون لها بمثابة الحامي تقريبا ، شاعراً بأنه اذ يفعل ذلك انما يشرفها .
ومع ذلك لم يتركها الجنرال ، وظل يتكلم بلا توقف .

— يقال ان مدينة من المدن لا يمكن أن تبقى الا اذا كان يحميها
سبعة صالحين . . . نعم . . . سبعة . . . فيما أظن . . . لا أتذكر العدد
المطلوب على وجه الدقة . ومن بين صالحينا السبعة الذين لا يجحدون ،
لا أعرف عدد الذين يشهدون حفلتك هذه ، ولكنني رغم حضورهم
لا أشعر بالثقة والطمأنينة . انك تغفرين لي ، يا سيدتي الفاتنة ، أليس
كذلك ؟ انني أتكلم رمزاً . ولكنني ذهبت الى البوفيه فعددت نفسي سعيداً
لأنني استطعت أن أخرج منه سليماً لم يمسنني سوء . ان صاحبنا الطيب
بروخورتش ليس في مكانه ، وأنا أخشى أن لا يطلع الصباح الا ويكون
مبناه قد انقلب عاليه سافله ! أنا أمزح على كل حال . ولكنني أنتظر الرقصة
الرباعية التي مدارها على الأدب ، وبعد ذلك أمضي الى سريري فأنام .
اعذريني فأنا مريض بداء النقرس . انني أنام في ساعة مبكرة . وعلى

كل حال ، فأنا أنصحك بأن تنامي أنت أيضا • أنا انما جئت خاصة لأمتع بصرى بالجمال الفض النضر • ولست أستطيع طبعاً أن أجد منه تشكيلة غنية كالتشكيلة التي يمكن أن أراها في هذا المكان ••• انهن جميعاً من الحى الذى يقع على الضفة الأخرى من النهر • وهو حى لا أذهب اليه أبدا • هناك زوجة أحد الضباط ، الضباط القنّاصة اذا لم يخطيء ظنى • انها حسناء ••• وتعرف أنها حسناء • لقد تحدثت مع الصغيرة الفنجية • ما هى بالخجول ! ••• ثم ••• ان الفتيات نضيرات • ولكن ليس فيهن شىء غير هذا • على كل حال ، لقد سُررت بمرآهن • ان بينهن لبراعم ورد حقاً • خسارة أن شفاهن سميكة قليلاً • ان الجمال الروسى بوجه عام يفتقر الى اتساق القسما ••• « تغفرين لى ، أليس كذلك ؟ (بالفرنسية) • الأعين جميلة ، يجب الاعتراف بهذا ••• هى أعين ضاحكة • ان براعم الورد هذه لذيذة ما ظلت فتية ••• أى مدة سنتين ••• أو ثلاث سنين ••• ثم هى تفتح تفتحاً شديداً ، فتشوه ، الى الأبد ••• فتبعث فى الأزواج ذلك النوع من « اللا ••• اكثرا ••• ثية » التى تساهم كثيرا فى مفاقة قضية المرأة ••• اذا صحّ ما أفهمه من هذه القضية وما أعرفه عنها ••• هم ••• الصالة جميلة ، والغرف قد أعدت اعداداً لا بأس به • كان يمكن أن يكون اعدادها أسوأ • والموسيقى أيضا كان يمكن أن تكون أردأ • لا أقول انها كان ينبغى أن تكون أردأ ! ••• الشىء الذى لا ترتاح اليه النفس هو قلة عدد السيدات • لا أقول شيئاً عن زينة السيدات ، بل عن عددهن • من المؤسف أن هذا الرجل ، الذى يرتدى بنطلوناً رمادياً ، قد أباح لنفسه أن يرقص الكانكان منذ الآن • اننى أعذره لو كان يتهزز هذا التهزز عن فرح • ثم انه أحد الصيادلة عندنا ••• انه لكثير على صيدلى أن يبدأ منذ الساعة الحادية عشرة • لقد بكّر كثيراً ••• وفى البوفيه رأيت رجلين يتبادلان اللكمات منذ لحظات ، ولم يطردهما • ان الذين يتضاربون فى الساعة الحادية عشرة يجب أن يُطردوا ، مهما

تكن عادات الجمهور وأخلاقه ... لا أقول شيئاً عن الساعة الثالثة من الصباح ، ففي الساعة الثالثة من الصباح لا بد من بعض التنازلات • ولكن هل يمكن أن تدوم هذه الحفلة حتى الساعة الثالثة ؟ ... أرى أن فر فارا بتروفا لم تبرّ بوعدها فترسل أزهاراً • هم • ان هموم رأسها الآن لا تسمح لها بالتفكير في هذا الأمر • يا للأم المسكينة ! والشقيه ليزا ! هل سمعت ؟ هذه قصة ملفزة فيما يقال ، ان ستافروجين يظهر على المسرح من جديد ! ... هم • ... يحصلو لى أن أذهب الآن فأنام • ان عينيّ تغمضان • والرقصة الرباعية الأدبية ، متى عساها تبدأ ؟

وبدأت الرقصة الرباعية الأدبية أخيراً • وكان الناس بالمدينة ، في الآونة الأخيرة ، ما ان يجيء الحديث على ذكر الحفلة حتى يتعرضوا لأمر هذه الرقصة ، فان حب الاطلاع كان يثور حتى يبلغ أقصاه • ولا شيء يمكن أن يكون خطراً على نجاح هذه الرقصة كهذه الحالة النفسية • لذلك ما كان أشد خيبة أمل الناس حين رأوها !

انفتح أحد أبواب الصالة البيضاء التي ظلت مغلقة حتى ذلك الحين ، وخرج منه فجأة عددٌ من الراقصين المقنعين • فسرعان ما أحاط بهم الجمهور • وجميع الذين كانوا في البوفيه هرعوا الى القاعة • وتهايأ المقنعون للرقص مصطفين • واستطعت أنا أن أتسلل الى أمام ، فصرت وراء جوليا ميخائيلوفنا وآندره أنطونوفتش والجنرال تماما • وفي تلك اللحظة رأيت بطرس ستيفانوفتش الذي ظل متنجياً طوال الوقت ، رأيت يهرع نحو جوليا ميخائيلوفنا ، ويهمس قائلاً لها بهيئة تلميذ مذنب •

— سوف أبقى في البوفيه وأراقب الناس •

وكان ذلك منه تظاهراً زائفاً مفضوحاً لا يهدف في الواقع الا الى احناق المرأة المسكينة مزيدا من الحقن • فاحمر لونها احمراراً شديداً من فرط الغضب •

فأقلت من لسانها قولها بصوت عالٍ سمعه الناس :

— لا تحاول أن تخدعنى بعد الآن أيها الشخص الوقح •

فولت بطرس ستيفانوفتش هارباً ، راضياً عن نفسه كل الرضى •

انه ليصعب على المرء أن يتخيل رقصة رمزية أشجع ولا أغبى ولا أدعى الى الرثاء من تلك « الرقصة الرباعية الأدبية » ! ولا شيء أبعد منها عن ذوق جمهورنا ، وأبعث منها على نفوره ! ومع ذلك فان كارمازينوف ، فيما يظهر ، هو الذى وضع فكرتها • صحيح أن التنفيذ قد تولاه ليوتين ، وساعده فيه الأستاذ الأعرج الذى شهد سهرة فرجنسكى • ولكن واضح الفكرة هو كارمازينوف على كل حال • حتى لقد أكد بعضهم أن كارمازينوف خطر بباله أن يتقنع وأن يشارك هو نفسه فى « الرقصة الرباعية الأدبية » • لم يتجاوز عدد المقنعين ستة أزواج ، هذا اذا صح أن يطلق اسم المقنع على شخص يرتدى ملابس كملايس سائر الناس : كان أحد المقنعين مثلاً ، وهو سيد متقدم فى السن ، قصير القامة ، يلبس رداء فراك ، وله لحية بيضاء محترمة (هى الشيء الوحيد المصنوع الذى كان بمناسبة قناع) ، كان هذا الرجل يرقص أو قل يتهزز فى مكانه بجد لا يرحزحه عنه شيء ولا يعكره عليه شيء ؟ وينطق أحرفاً غريبة بصوت خافت مبحوح ، فكانت هذه البحة هى الشيء الوحيد الذى يرمز الى جريدة معينة معروفة • وأمام هذا الشخص كان يرقص رجلان عريضان هما « جيم » و « دال » • كان هذا الحرفان معلقين بدبوسين على رداءيهما (الفراك) ، ولكن لم يعرف أحد ماذا يعنيان ولا الى شيء يرمزان • وكان « الفكر الروسى الشريف » انما يمثله سيد متوسط العمر ، على عينيه نظارتان ، وفى يديه قفازان ، ولباسه فراك ؟ مع جنزير فى قدميه (جنزير حقيقى من جنازير السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة) • انه يتأبط بحفظة تحتوى على

« ملف » لا أدري ما هو • ومن جيبه تخرج رسالة مفضوضة^١ مرسلة إليه من الخارج تبرهن لأكثر الناس شكاً وريبة على شرف « الفكر الروسى الشريف » ، كما سُرح لنا ذلك بصوت عالٍ ، لأن الرسالة لم تكن قراءتها ممكنة بطبيعة الحال • والرجل يحمل بيده اليمنى قدحاً كأنه يتهيأ لأن يقترح نخباً • وعلى جانبيه يتواهب اثنان من العدميين قد قصَّ شعرهما قصيراً • وأمام هذا « الثلاثى » يرقص رجل كهل يرتدى فراكاً ويحمل بيده هراوة • انه يمثل جريدة يومية تصدر بموسكو ، وكأن هيته تقول : « انتظروا قليلاً فلسوف ترون ما أفعل بكم ! » • ولكنه رغم هراوته لا يستطيع أن يتحمل النظرة التى يطارده بها « الفكر الروسى الشريف » من خلال نظارتيه ، فهو يحاول أن يشيح عينيه ، حتى اذا خطا خطوة من اثنتين ، انحنى وتلوتى ، ثم لم يعرف أين يدس نفسه من شدة ما يعانى من عذاب الضمير ! ••• لا أتذكر الآن بقية سخافات هذه الرقصة • ولكنها كانت جميعا من هذا الطراز على كل حال ، حتى شعرت أخيراً بعار شديد وخزى أليم • وقد تجلى هذا الشعور بالعار فى جميع الوجوه ، حتى فى الوجوه المشثومة التى وفدت من البوفيه • ولقد ظل الناس صامتين خلال مدة من الوقت ، يتأملون هؤلاء المقنَّعين مدهوشين دهشة غاضبة حانقة • ولكن من عادة الانسان أن الشعور بالعار يجعله شريراً ميالاً الى الاستهتار والاستخفاف • فهذه جلبة صماء تملو شيئاً بعد شيء :

دمدم أحد أصدقاء البوفيه متسائلاً :

— ما معنى هذا كله ؟

وقال آخر :

— يا للبلاهة !

فأجاب ثالث :

- هذا أدب • انهم ينتقدون جريدة « الصوت » •
- ولكن فيم يعينى أنا هذا ؟
- وبين جماعة أخرى دار الحوار التالى :
- هؤلاء حمير !
- أنا لست حماراً !
- وأنا لست حماراً !
- وفى جماعة أخرى دار الحوار التالى :
- يجب أن يُر كل قفاهم بالأقدام وأن يرسلوا الى الشيطان !
- تعال نخرب الصالة كلها •
- وفى حلقة أخرى :
- كيف لا يستحى آل لمبكه أن يروا هذا كله ؟
- علام يستحون ؟ وأنت لماذا لا تستحى ؟
- اننى لأشعر بالحياء فعلاً • ثم انه هو حاكم !
- وأنت أيضا خنزير !
- لم أشهد فى حياتى كلها حفلة رقص تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال •

كذلك قالت بلهجة مسمومة وصوت عالٍ ، راغبةً فى أن تُسمع ، سيدةٌ كانت بقرب جوليا ميخائيلوفنا • ان جميع الناس فى المدينة تقريباً يعرفون هذه السيدة التى تبلغ من العمر زهاء أربعين عاماً ، السمينه ، المثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ ، المرتدية ثوباً من حرير صارخ الألوان • ولكنها لم تكن تُستقبل فى منازل عليه القوم • انها أرملة مستشار دولة ، أورثها زوجها منزلاً من خشب وراثباً هزيبلاً • وكانت قبل شهرين

قد مضت الى منزل جوليا ميخائيلوفنا تحاول زيارتها ، ولكن جوليا لم تستقبلها •

أضافت تقول وهي تلقي على جوليا ميخائيلوفنا نظرة وقحة :

– على كل حال كان هذا متوقعا •

فلم تستطع جوليا ميخائيلوفنا أن تسيطر على نفسها ، فأجابتها قائلة :

– اذا كان متوقعا ، فما كان ينبغي لك أن تجيئي •

فسرعان ما ردّت السيدة تقول رافعة رأسها في تحدٍ :

– كنت ساذجة مسرفة في السذاجة •

كان واضحا أن السيدة كانت تتحرق شوقا الى مشاجرة جوليا

ميخائيلوفنا •

ولكن الجنرال تدخل قائلاً بصوت خافت وهو يميل نحو جوليا

ميخائيلوفنا :

– سيدتى العزيزة ، حقاً انه لمن الأفضل أن تنصرفي • نحن لا نزيد

هنا على أن نضايقهم • فلو انصرفنا لتسلوا وابتهجوا أكثر من هذا • لقد

قمت بواجباتك الآن ••• لاسيما وأن آندره أنطونوفتش ليست صحته

حسنة فيما أظن ••• قد يحصل شيء خطير •

ولكن كان قد فات الأوان •

ان آندره أنطونوفتش ، منذ أن ظهر المقنعون ، لم ينقطع عن النظر

اليهم بدهشة يمازجها غضب • وحين أخذ الجمهور يضحك ، ألقى على

ما حوله نظرات قلقة عدة مرات • وحينذاك انما لاحظ لأول مرة وجوهاً

كريهة تستحق العقاب • فارتسمت على وجهه عندئذ أقصى معاني الشدة •

وانفجرت قهقهات على حين فجأة : ان ناشر الجريدة اليومية « الرهية »

بموسكو ، الذي كان يرقص مع هراوة ، وقد عجز عن أن يحتمل النظرة

التي يرشقه بها « الفكر الروسي الشريف » مزيداً من الاحتمال ، وأصبح لا يعرف كيف يتجنبها ، لم يجد وسيلةً أفضل من أن يمشى على يديه ، رافعاً قدميه في الهواء ، وهذه اشارة لطيفة الى الفوضى الفكرية التي تتخبط فيها هذه الجريدة والى ما تصف به من بعد عن الحس السليم ونأى عن العقل . ولما كان ليامشين هو الشخص الوحيد الذى يستطيع السير على يديه ، فقد تولى بنفسه تمثيل دور هذه الشخصية التي تحمل الهراوة . لم يكن يخطر ببال جوليا ميخائيلوفنا أن مشهداً كهذا المشهد سيُمثل : « لقد أخفوا عنى هذا الأمر ، لقد كتموه عنى ! » . كذلك كانت تردد فيما بعد مستاءةً غاضبةً حانقة . وكان الناس يضحكون . ولكنهم لا يضحكون طبعاً من « الرمز » الذى لا يهم أحداً ، وانما كانوا يضحكون من منظر سيد يرتدى فراكا وقد جعل رأسه فى أدنى قدميه فى أعلى . وارتعش فون لمبكه غضبا . وما هو ذا يأخذ يصيح مشيراً الى ليامشين :

- شقى ! ... أمسكوه ! ... اقلبوه ! ... اجعلوا قدميه فى أسفل ، ورأسه فى أعلى ... فى أعلى ! ...

استقام ليامشين على قدميه . وتضاعفت القهقهات .

وصاح فون لمبكه أمراً على حين فجأة :

- اطرّدوا جميع هؤلاء الأوغاد الذين يضحكون !

فاشتد الضحك صخباً ، وطفق الجمهور كله يضحج مرحاً :

- هذا سلوك غير لائق يا صاحب السعادة !

- لا تجوز اهانة الجمهور !

وصاح صوت فى ركن من الصالة يقول :

- أنت الغبى !

وقذف آخر قوله :

— نصابون !

فلما سمع لمبكه هذه الصيحة التفت فجأة ، واصفر وجهه اصفرارا شديدا • وألمت بشفتيه ابتسامة مبهمة • لكأنه كان يتذكر شيئا ويسترد وعيه •

قالت جوليا ميخائيلوفنا وهي تحاول أن تقتاد زوجها وأن تُخرجه من الجمهور الذي كان يزحمهما من كل جهة :

— أيها السادة ! اعدروا آندره أنطونوفتش • ان آندره أنطونوفتش مريض • اعدروه • اغفروا له •••

نعم ، لقد سمعتها تنطق بهذه الجملة « اغفروا له » • وقد جرى المشهد سريعا جدا • ولكنني أتذكر جيدا أن جزءا من الجمهور قد ارتاع حين سمع ذلك ، فهرع يخرج من الصالة • بل انني لأتذكر تلك الصرخة التي أطلقتها امرأة جعلت تبكي بكاء عصيبا وتقول :

— آه ••• تجدد الأمر !

وفي وسط هذه الفوضى والبلبلة ، انفجرت قبلة جديدة • فهذا صوت يصيح قائلاً :

— النيران ! النيران ! الضاحية تحترق !

لا أدري على وجه الدقة من أين انبعثت هذه الصرخة • أظن أن أحداً في حجرة المدخل قد أطلقها بعد أن صعد درجات السلم أربعاً أربعاً • المهم أن هلعاً وجزعاً عاماً لا يوصفان قد استوليا على الناس • ان أكثر من نصف الجمهور انما يسكن في الضاحية (أى في الحى الذى يقع على الضفة الأخرى من النهر) • وهرع الناس الى النوافذ ، فأبعدوا الحجب وانتزعوا الستائر • كانت الضاحية تحترق فعلاً • ان الحريق

لم يبدأ الا منذ برهة قصيرة • ولكن المرء يرى رؤية واضحة أن النار قد شبت في ثلاثة أماكن مختلفة • وذلك هو أفضح ما في الأمر •

أعول الجمهور يقول :

– عمال مصنع شيبجولين هم الذين أشعلوا النار •

وانى لأتذكر بضع صيحات ذات دلالة كبيرة :

– كنت أتوقع أن يشعلوا النار ! كنت أوجس هذا طوال هذه الأيام

الأخيرة !

– هذه ضربة من عمال مصنع شيبجولين • ليس في هذا شك •

– لقد جمعونا هنا عمداً لاشعال النار في بيوتنا •

ان هذه الصرخة الأخيرة ، وهى أغرب سائر الصرخات كافة ، انما أطلقتها على غير ارادة منها ، دون أن تفكر فيها ، امرأة جُنت من الذعر يقال لها كوروبوتشكا •

واتجه الناس نحو باب الخروج • لن أحاول أن أصف عويل النساء المروّعات ، وبكاء الفتيات ، والتزاحم والتدافع فى حجرة المدخل حول المعاطف والشالات • ولا غرابة فى أن عدداً من الناس قد انصرف فى وسط هذه الفوضى قبل أن يعثر على معطفه • ولكنى لا أعتقد أنه كان هناك سرقات كما رُوى ذلك بالمدينة فيما بعد • وقد أوشك لمبكه وجوليا ميخائيلوفنا أن يداسا فى هذا الزحام فيهبهما تهشيمًا •

وكان لمبكه يصرخ مرغياً مزيداً ، ماداً نحو الجمهور ذراعه ،

مهدداً :

– أوقفوا الجميع ! اعتقلوا الجميع ! لا يخرجن أحد !

فجاءه الجواب على ذلك شتائم وسباباً من كل جهة بالقاعة •

وصرخت جوليا ميخائيلوفنا تقول له وقد طاش صوابها :

- آندره أنطونوفتش ! آندره أنطونوفتش !

فصرخ يقول وهو يوميء اليها باصبه :

- اعتقلوها هي قبل أى شخص آخر • وفتشوها قبل أن تفتشوا أى

شخص آخر ! لقد أقيمت حفلة الرقص لاشمال النار فى المدينة •

فأطلقت جوليا ميخائيلوفنا صرخة ، وسقطت مغشياً عليها (لقد أغمى عليها اغماءً حقيقياً فى هذه المرة) • فأسرعنا الى نجدها أنا والأمير والجنرال • وهبنا الى مساعدتنا فى هذه اللحظة الصعبة أشخاص آخرون ، حتى ان عددا من السيدات كان بين الذين هبوا الى مساعدتنا • وأفلحنا فى أن نخرجها من هذا الجحيم وأن نركبها عربتها • ولكنها لم تستيقظ من اغمائها الا حين وصلت الى البيت • فكانت الكلمات الأولى التى نطقت بها هى السؤال عن آندره أنطونوفتش • لقد أصبحت لا تفكر الا فيه وسط انهيار جميع أحلامها • وأرسلنا نستدعى طبيباً • وبانتظار وصول الطبيب قضيت الى جانبها ساعة أنا والأمير • وقد عصفت بالجنرال نوبة كرم وأريحية (رغم أنه كان هو نفسه خائفاً مذعوراً) فقرر أن يبقى ساهراً على « سرير المسكينة » طول الليل • ولكنه ما ان انقضت عشر دقائق حتى أخذه الكرى فنام على مقعد ، وترك وشأنه •

وقد استطاع رئيس الشرطة الذى كان يريد أن ينتقل الى مكان الحادث المشغوم بأقصى سرعة ، استطاع أن يخرج لمبكه من صالة الحفلة وأن يركبه العربة الى جانب جوليا ميخائيلوفنا ، ناصحاً « صاحب السعادة » الحاكم بأن ينال قسطاً من الراحة • اننى لا أفهم لماذا لم يلح مزيدا من اللحاح • وطبعى أن كان فون لمبكه لا يريد أن يسمع أحداً ينطق بكلمة « الراحة » ، ويصر على أن يرى الحريق بنفسه اصراراً شديداً • ولم

يكن هذا بالحجة الكافية ، ولكن رئيس الشرطة اصطحبه في عربته أخيراً ، وأخذه الى «الضاحية» • وقد روى بعد ذلك أن فون لمبكه ظل طوال الطريق يحرك يديه بإشارات معينة ويصدر أوامر غريبة عجيبة «يستحيل تنفيذها» • وفي التقرير الذي قدمه فيما بعد صرَّح بأن «صاحب السعادة كان في تلك اللحظة ، بسبب دعر مفاجيء وهلع مباغت ، يعاني نوبة حمى حارة» • • •

لا داعي الى أن أروى عليكم كيف انتهت الحفلة • لقد هرب الجميع الا عشرين أو ثلاثين شخصاً وبضع سيدات • أما الشرطة فلم يبق منها أحد • وهؤلاء الذين لم يهربوا لم يسمحوا لأعضاء الأركسترا أن ينصرفوا ، حتى انهم ضربوهم حين أرادوا الفرار • وفي الصباح كانت «دكان» بروخورتش قد خوت تماما • لقد ظلوا يشربون حتى ضاعت عقولهم ، وظلوا يرقصون بخطى مترنحة مبغثرة ، وملأوا بالأوساخ الأرض ولطخوا بالأقذار الجدران • فلما طلع الفجر اتجه جزء من العصابة الى الضاحية سكارى تماما ، وكانت النيران قد بدأت تنطفئ • وهناك استرسلوا في أنواع جديدة من الفوضى والتشويش ••• أما الجزء الآخر منهم ، فكانت الحمرة قد خرَّبتهم تخريباً ، فقضوا بقية الليل على الأرض أو على أرائك المخمل يعانون جميع ما يعانيه السكارى من عقابيل السكر البشعة الأليمة • حتى اذا شرقت الشمس أُخرجوا من المنزل جرأً من أقدامهم • فهكذا انتهت حفلة الرقص التي أقيمت لمعاونة معلمات اقليمنا •

ان النار لم تشب في الضاحية من تلقاء نفسها • لقد كان واضحاً أنها من فعل فاعلين • وذلك خاصةً هو ما بث الذعر والهلع بين سكان «الضاحية» • يجب أن نلاحظ أن الصرخة التي انطلقت قائلة : «النيران!» قد أعقبتها على الفور صرخة أخرى تقول : «انهم عمال مصنع شيجولين!» • ولقد أصبح معروفاً اليوم أن ثلاثة من عمال مصنع شيجولين هم الذين

أشعلوا النار فعلاً • ولكن زملاءهم جميعاً قد اتضح براءتهم ، للقضاة وللناس على حد سواء • ان أولئك الأوغاد الثلاثة (الذين قبض على واحد منهم فاعترف بكل شيء ، وما يزال الآخران هاربين) ، قد فعلوا فعلتهم هذه مع فدكا ، السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة : ذلك أمر لم يبق أى شك فيه الآن • وهذا مجمل ما نعرفه عن أصل الحريق الذى شب فى « الضاحية » • أما الافتراضات التى قامت فى الأذهان فشانها شأن آخر • ماذا كان هدف هؤلاء الجناة الثلاثة ؟ أكان يوجههم أحد أم لا ؟ ما تزال الاجابة عن هذا السؤال صعبة أشد الصعوبة حتى الآن !

المهم أن ريحاً قوية قد أوردت النيران ، فاذا بالحريق الذى اندلع فى ثلاثة أماكن مختلفة فى آن واحد ، ينتشر انتشاراً سريعاً جداً فيمتد فى حى بكامله ، لا سيما وأن المنازل التى تقع على هذه الضفة الأخرى من النهر كانت جميعها تقريباً من خشب (سيتبين لنا فيما بعد أن واحداً من المساكن الثلاثة قد اكتشفت فيه النار فسرعان ما أطفئت) • على أن مراسلى صحف العاصمة قد ضخمت الحادث : فالنيران لم تلتهم فى الواقع الا ربع الضاحية فى أكثر تقدير (ان لم يكن أقل من ذلك) • ان رجال المطافئ فى مدينتنا ، رغم أن عددهم قليل بالقياس الى سعة المدينة وعدد سكانها ، قد عملوا بهمة ونشاط ، وتصرفوا تصرفاً يتسم بالجرأة والجمسارة • ومع ذلك فان جميع جهودهم كان يمكن أن تذهب سُدى ، رغم مساعدة الأهالى لهم ، لولا أن الريح قد سكنت فجأة عند طلوع الشمس • اننى حين وصلت الى « الضاحية » بعد ترك الحفلة بساعة رأيت الحريق يستعر استعاراً مجنوناً • كان الشارع الموازى للنهر مشتعل كله • وكان المرء يرى على وهج النيران كلَّ شيء كأنه فى وضوح النهار • لن أسهب فى وصف المشهد تفصيلاً : من ذا الذى لا يعرف روسيا ؟ فى الشوارع الصغيرة المجاورة ، بلغ الاضطراب حدّاً رهيباً • السكان الذبن ما تنفك

النيران تقترب منهم مهددة ، ينقلون أثاث بيوتهم وأمتعتهم العتيقة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على الابتعاد عن منازلهم ، فيظلون في الشارع ، جالسين على صناديقهم وأحفظهم ، تحت نوافذ بيوتهم . الرجال يندفعون في القيام بأعمال قاسية : يهدون ألواح الحواجز بغير رحمة ، ويهدون حتى الخصاص والأكواخ حين تكون في متناول النيران والرياح . الأطفال الذين انتشلوا من نومهم يبكون . النساء اللواتي فرغن من جمع أمتعتن حولهن ينتجن انتحابا شديدا . واللواتي لم يفرغن من ذلك مازلن يعملن في نقل متاعهن صامتات . الشرارات وجمرات الفحم تتطاير الى بعيد ، فيسارع المسارعون الى اطفاؤها كيفما اتفق لهم ذلك . أناس يهرعون من جميع أركان المدينة ويحتشدون في أمكنة الكارثة . فبعضهم يساعد رجال المطافئ وبعضهم لا يزيد على أن ينظر الى الحريق مشاهدا . ان رؤية نيران عظيمة في الليل يحدث على الدوام أثرا يهيج الأعصاب ويحرّض النفس في آن واحد . ذلك هو سرُّ تأثير الأسهم النارية التي تُطلق في الأعياد ابتهاجا . ولكن الأسهم النارية زينة مقصودة ، وليس فيها خطر مهدد . لهذا لا تحدث في النفس الا احساسات خفيفة ونشوة يسيرة كتلك التي تحدثها كأس شمبانيا . ولا كذلك الحريق : فها هنا دعر وشعور بخطر شخصي يضافان الى احتياج فرح تولّده نيران الليل ، فاذا بالمشاهد (اللهم الا اذا ألت به الكارثة هو نفسه) يشعر بنوع من هزة عصبية وتستيقظ في نفسه غرائر التدمير ، الغافية عند كل انسان - وا أسفاه ! - وحتى عند موظف خجول هادئ ! ان هذا الاحساس الغامض يكاد يكون مسكراً دائماً . « أشك أن يكون من الممكن أن يتأمل المرء حريقا دون أن يشعر من ذلك بلذةٍ ما . » ذلكم ما قاله لي ، كلمة كلمة ، في ذات يوم ، ستيفان تروفيموفتش ، حين عاد من رؤية حريق شهده في الليل مصادفةً ؟ ولقد قال لي هذا الكلام وهو ما يزال

يشعر بالآثر الأول الذى تركه فى نفسه منظر ذلك الحريق • لست أنفى طبعاً أن هذا الهاوى نفسه من هوة الحريق قد يكون قادراً قدرة تامة على أن يلقى بنفسه فى النار لانتقاذ طفل أو امرأة عجوز عند اللزوم • ولكن هذا الأمر أمر آخر •

تبعتم جمهور المستطلعين فاستطعت دون سؤال أحد أن أصل الى أخطر مكان فى الحريق ، وهنالك لمحت أخيراً لمبكه الذى كنت أبحث عنه بالحاح من جوليا ميخائيلوفنا • قرأيت الرجل فى ظرف من أعجب الظروف • كان واقفاً فوق بقايا سياج • وفى يساره ، على مسافة ثلاثين خطوة ، يرى المرء هيكلًا أسود لمنزل خشبي من طابقين ، احترق احترقا شبه كامل ، وبانت فى مكان نوافذه فوهات مفعورة • لقد انهار سقف المنزل • وهذه حبات من النار ما تزال تعلق عوارضه المتفحمة هنا وهناك • وفى الفناء يحاول رجال من رجال المطافئ أن يكافحوا ألسنة اللهب التى أخذت منذ ذلك الحين تخرج من جناح فى وسط الفناء ذى طابقين • وعلى اليمين ، كانوا يحاولون أن يحموا مبنى كبيراً من خشب فد تسلفت إليه النار مراراً ، وكان واضحاً أن مصيره الى الاحتراق • فكان لمبكه يصرخ ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة أمام الجناح ، ويصدر أوامر لا ينفذها أحد • أحسست أنهم قد تركوه لشأنه يصيبه ما يصيبه • والواقع أن الجمهور الذى كان يحيط به وكان كثيفاً وكان متنوعاً ، وقد عرفت منه عدداً من السادة ، بل لقد عرفت منه كبير كهنة الكاتدرائية ، أقول ان هذا الجمهور كان يصغى الى لمبكه مدهوشاً مستغرباً مستطلعا ، غير أن أحداً لا يكلمه • كان لمبكه أصفر الوجه ، ملتحم العينين ، يلقى خطاباً عجيباً ويقول كلاماً غريباً • وكان الى ذلك حاسر الرأس ، لأنه فقد قبعته منذ مدة طويلة •

– هذا فعل فاعلين ! انهم عديمون ! حين يشب حريق فالمذهب العدمي هو المسئول ...

هذا ما سمعته مرتاعا • والحق أنه أصبح على المرء أن لا يستغرب من لمبكه شيئاً • ولكن حتى حين يتوقع الانسان كل شيء ، لا يملك الا أن يهزه الواقع القاسى الأليم وأن يبث الاضطراب فى نفسه •

قال له واحد من مفوضى الشرطة وقد هرع اليه مسرعاً :

– صاحب السعادة ، عليك أن تعود الى المنزل وأن تنال قسطا من الراحة ... بل انه لخطر عليك أن تبقى هنا يا صاحب السعادة ! ...

ان هذا الموظف ، كما علمت ذلك فيما بعد ، كان قد كلفه رئيس الشرطة بأن يسهر على آندره أنطونوفتش وأن يحاول اقتياده الى المنزل ولو بالقوة فى حالة الخطر ، وذلك أمر يفوق طاقة مفوض الشرطة طبعاً •

– دموع الضحايا ستكفكف ، ولكن المدينة ستهلك • انهم أولئك الأوغاد الأربعة ... الأربعة والنصف ! ... اعتقلوا هذا الشقى ! انه وحده المسئول • أما الآخرون فقد افترى عليهم زوراً ! هو يتسلل الى الأسر ، ويدمر شرفها • لقد كلفوا المعلمات باشعال النيران فى البيوت • هذا جبن ! هذه حقارة ! هذه خسة ودناءة ! ...

هكذا كان يتكلم الحاكم • واذ رأى فجأةً على سطح البيت المحترق رجلاً من رجال المطافىء تحديق به أسنة اللهب ، صرخ يقول :

– آى ... ماذا يفعل هنا ؟ اسحبوه من هذا المكان ! سوف يسقط ! سوف يهلك ! اطفئوه ! ماذا يعمل هنالك ؟

– انه يطفىء النيران يا صاحب السعادة •

– مستحيل ! النيران فى الضمائر لا فى المنازل • اسحبوه من هناك ،

ودعوا كل شيء ! الأفضل أن يُترك كل شيء ! سينتهى الأمر من تلقاء نفسه ! ... من ذا الذى يبكى أيضا ؟ عجوز ! العجوز تبكى ! لقد نسوا العجوز !

فى الطابق الأرضى من الجناح المحترق كانت تصرخ فعلاً عجوز فى الثمانين من العمر ، هى قريبة صاحب المنزل الذى كانت تلتهمه النيران . لكنها لم تكن قد نُسيت ، وانما هى رجعت بارادتها كالمجنونة تريد أن تتنسل لحافها من غرفة لم تكن النيران قد نالتها ، ولكنها بلغت الآن فهى تشتعل . فكانت العجوز وقد خنقها الدخان والحرارة الشديدة تصرخ صراخاً قوياً مع استمرارها فى دفع لحافها من اطار النافذة بكلتا يديها . فأسرع لمبكه يحاول نجاتها : رثى يركض نحو النافذة ، ويمسك طرف اللحاف ويشده اليه بكل ما يملك من قوة . ولكن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن يسقط لوح من ألواح خشب السقف فى تلك اللحظة نفسها ، فيصيب عنق آندره أنطونوفتش . لم يقتل لوح الخشب حاكمنا ، ولكنه وضع خاتمةً لحياته بالوظيفة ، فى اقليمنا على الأقل . لقد قلبته الصدمة ، ووقع مغشياً عليه .

وطلع الفجر أخيراً ... طلع كالحلأ مششوماً حزيناً . خبت النيران ، وسكنت الريح . وأخذ يهطل مطر ناعم كسول . كنت قد صرت فى حىٍ آخر من الضاحية ، بعيداً عن مكان الحادث الذى وقع للحاكم . وهناك علمت أشياء غريبة جداً : علمت أنه فى أرضٍ نائية مقفرة ، وراء بساتين الخضار ، على مسافة خمسين خطوة من المساكن الأخرى فى أقل تقدير ، كان يوجد بيت صغير من خشب ، جديد كل الجدة ؛ وفى ذلك البيت المنزول انما اشتعلت النار قبل أى مكان آخر ، فى أول ظهور الحريق . فلو أن هذا البيت قد احترق ، لما أمكن أن تصل ألسنة اللهب الى المنازل الأخرى من « الضاحية » . وكذلك كان يمكن أن تحترق الضاحية كلها

دون أن يكون هذا البيت مهددا بأى خطر ، مهما تكن الرياح شديدة عاتية • فكيف اشتعلت النار فى هذا البيت اذن ؟ هل كان ذلك من فعل فاعل متعمداً ؟ ولكن الأمر الأغرب من هذا هو أن النار التى شبت فى البيت قد أمكن اطفائها منذ البداية ، فاذا بأمور خارقة رهيبه تتكشف فيه • ان مالك البيت ، وهو تاجر صغير كان يسكن غير بعيد عن ذلك المكان ، قد رأى النار تشتعل فى بيته الجديد ، فأسرع يطفئها بمساعدة الجيران على الفور ، ونجح فى ذلك فعلا ببشرة الحطب المتكوم عند الحائط • ولكن البيت كان مسكونا • فماذا رأى فى البيت ؟ رأى ساكنيه ، وهم كابتن معروف فى المدينة ، وأخته وخادمتها العجوز ، وآهم جميعا مذبوحين فى تلك الليلة نفسها ، وقد سلبوا ما يملكون حتما (من أجل أن يذهب الى مكان الجريمة انما كان رئيس الشرطة قد ترك فون لمبكه قبيل انقاذ اللحاف •) كان نبا جريمة الاغتياى هذه قد انتشر بسرعة ، فما طلع الصباح حتى كان جمهور كبير من الناس قد غزا الأرض الخاوية حول البيت الصغير ، وقد انضم اليه حتى أناس من المنكوبين • وبلغ الازدحام من الشدة أنه أصبح يستحيل على المرء أن يتقدم • وقد ذُكر لى أن الكابتن وُجد منحور الرقبة ، راقدا على دكة وهو يرتدى ثيابه كلها ، ولعله حين طُعن كان نائما كالميت من فرط السكر ، فلم يشعر بشيء ، وانما نزف كما « تنزف بقرة » • أما أخته ماريما تيموفتفنا فقد كانت « مخرقة بطعنات سكين » ، راقدة على العتبة • وهذا ما يمكن أن يُستنتج منه أنها تخبطت وقاومت القاتل • وأما الخادمة التى لا شك أن الضجة هى التى أيقظتها من نومها فقد كانت مهشمة الرأس • ومما رواه مالك البيت أن الكابتن قد جاء اليه فى صبيحة أمس سكران كل السكر ، وأراه على سبيل التباهى والمفاخرة بالغنى ، حزمة من الأوراق المالية قدرها مائتا روبل على وجه التقريب • وقد وُجدت المحفظة الخضراء التى كان لبيادكين يضع فيها نقوده ،

و جدت فارغةً ملقاةً على أرض الغرفة • ولكن صندوق ماريا تيموفثنا لم يمسه أحد ، وكذلك اطار الأيقونة المصنوع من فضة ، وأمتعة الكابتن • واضح أن القاتل ، وهو مستعجل أمره ، كان يعرف المكان ، وكان لا يريد أن يأخذ الا مال الكابتن ، وكان يعرف أين يوجد هذا المال • ولو أن مالك البيت لم يصل بالسرعة المناسبة لأحرقت كومة الحطب البيت كله ، ولكان من الصعب اكتشاف الحقيقة •

ذلك ما كان يرويه الجمهور • وكانوا يضيفون الى هذا أن البيت انما استأجره نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين ، ابن الجنرالة ستافروجين ، وانه هو الذى فاوض مالك البيت على استئجاره : لقد كان مالك البيت لا يريد تأجير بيته ، لأنه كان يقدّر أن يفتح فيه حانة ، ولكنه استجاب لالحاح ستافروجين الذى دفع له أجرة ستة أشهر سلفاً دون أن يكثر بمقدار الأجرة أصلاً •

كان الناس يقولون فى الجمهور :

— لا شك أن هناك أمراً مدبراً •

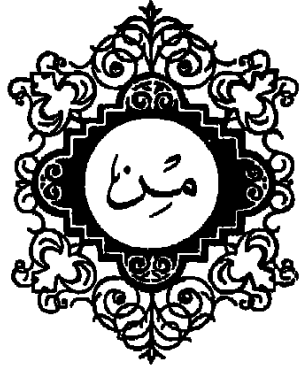
ولكن أكثرهم كانوا يلزمون الصمت • الوجوه مظلمه مربدة مكفهرة • ولكن النفوس لا تبدو مهتاجة اهتياجا شديدا • على أنهم لا يكفون عن الكلام على ستافروجين • كانوا يقولون : ان المرأة القليل زوجته • وبالأمس استمال اليه « بحيلة غير مشروعة » ابنة الجنرال دروزدوف ، وهى آنسة تنتمى الى أكرم أسر المدينة • وكان سيُشكى الى بطرسبرج • فمن أجل أن يستطيع تزوج الأنسة دروزدوف انما قُتلت اذن زوجته •

لم تكن سكفورشنيكى تبعد عن المكان أكثر من فرسخين ونصف • لذلك تساءلت (ما زلت أذكر هذا) : أأست أحسن صنعا اذا أنا مضيت

أنبيء آل ستافروجين بما حدث دون أن أذكر مع ذلك أنهم يستثيرون
الجمهور ويحرّضونه ؟ ولكنني أبصرت عددا من أفراد مشبوهين عرفتهم
فورا لأنني كنت قد رأيتهم في حفلة الرقص • واني لأذكر منهم على وجه
الخصوص شاباً طويلاً هزيلاً ، جعد الشعر ، أدكن اللون : انه قفّال
كما عرفت ذلك فيما بعد • لم يكن الشاب سكران ، ولكن على خلاف
الجمهور القاتم الصامت ، كان يبدو خارجا عن طوره • انه لا يني يتكلم
فيقول أمورا مفككة مبشرة ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة ، ويستشهد
بالشعب سائلا : « ما معنى هذا أيها الاخوة ؟ هل يجوز لنا أن ندع الأمور
تجرى على هذا النحو ؟ » • • • •

الفصل الثالث

نهاية رواية



الصالة الكبرى بسفورشنيكى (تلك الصالة نفسها التي استقبلت فيها فرافرا بتروفنا صاحبنا ستيفان تروفيموفتش آخر مرة) ، كان المرء يستطيع بنظرة واحدة أن يشمل منظر الحريق كله • وفي الفجر ، في نحو الساعة السادسة من الصباح ، كانت ليزا واقفة قرب النافذة الأخيرة على اليمين تتأمل الضياء الأحمر الواسع الذي كان يشحب شيئاً فشيئاً • لقد كانت وحيدة • انها ترتدى ذلك الثوب نفسه الذي كانت ترتديه أمس ، في الصبيحة الأدبية ، وهو ثوب أنيق جداً ، أخضر كابي ، مغطى بالدنتيلا ، لكنه الآن مجعد تماماً • واضح أن ليزا قد لبسته بسرعة لتغطي به جسمها ، حتى أن جزأه الأعلى عند الصدر لم يزرر تماماً • فلما لاحظت الفناة ذلك احمرّ وجهها ، وأسرعت تصلح من فوضى هندامها ، وتناولت خماراً كانت قد ألقته عنها في الليلة البارحة على مقعد حين دخولها ، فلفّت به الآن جيدها • ان شعرها الكثيف يتدلى حلقاتٍ على كنفها اليمني وان وجهها يبدو منهكاً مهموماً ، ولكن عينيها تلتمعان تحت حاجبيها المقطيين • وها هي ذى تقرب من النافذة ، وتسند جبينها الملتهب على زجاجها البارد •

وفتح الباب ، ودخل نيقولاى فسيقولودوفتشس • قال :

- مضى يستطلع الأخبار خادم يركب حصاناً • فما هى الا دقائق حتى نعرف كل شيء • يقول الناس ان جزءاً من « الضاحية » قد احترق ، على طول الشاطئ ، يمين الجسر • وقد اشتعلت النار بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل • وهى الآن تنطفىء •

لم يمض ستافروجين الى النافذة ، وانما لبث وراء ليزا • ولم تلتفت ليزا •

قالت ليزا غاضبة :

- لو صدق التقويم لكان ينبغي أن يطلع الصبح منذ ساعة • ومع ذلك ما يزال يخيم الظلام كأننا فى الليل •

فقال نيقولاى فسيقولودوفتشس ستافروجين بابتسامة لطيفة محببة :

- التقاويم كلها تكذب •••

ولكنه لم يلبث أن شعر بالخجل من قول كلام مبتذل معاد مكرور ، فأسرع يضيف :

- لشدما تكون الحياة مضجرة اذا عيشت وفقاً لحسابات التقاويم يا ليزا !

وغضب ستافروجين مرة أخرى من افلات لسانه بسخافة جديدة ، فسكت نم لم ينطق • فابتسمت ليزا بمرارة ، وقالت :

- ان مزاجك ليبلغ من الحزن انك لا تدري ما عساك تقول لى • ولكن هدىء نفسك ! لقد صدقت فيما قلت : اننى أعيش دائماً على حسب التقويم • كل خطوة من خطاى مرتبة وفقاً للتقويم • أنت مدهوش ؟

والتفتت ليزا بقوة وجلست على مقعد • وقالت :

– اجلس أنت أيضا ، أرجوك ! لن نبقي معا مدة طويلة • ويجب أن أقول لك كل ما بنفسى ••• لماذا لا تقول لى أنت أيضا كل ما تود أن تقوله ؟

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش الى جانبها ، وأمسك يدها برفق ، أو قل بما يشبه الوجمل •

– ما هذه اللغة يا ليزا ؟ لماذا هذه اللغة ؟ ما معنى قولك : « لن نبقي معا مدة طويلة ؟ » هذه هى المرة الثانية التى تقولين لى فيها هذه الجملة الملهزة خلال نصف ساعة منذ أن استيقظت •

قالت وهى تبسم ابتسامة خفيفة :

– هأت ذا قد أخذت تحصى جملى الملهزة • ولكن هل تتذكر اننى بالأمس ، حين دخلت ، قد قلت لك انك تستقبل ميتة ؟ لقد رأيت من المناسب أن تنسى هذه الجملة ، أن تنساها وأن لا توليها اتباها •

– لا أذكر هذا يا ليزا • لماذا « ميتة » ؟ يجب أن نحيا •••

– وهأت ذا تقف • لست اليوم جمّ الفصاحة والبلاغة • لقد دقت ساعتى على هذه الأرض ويكفينى هذا • هل تتذكر كريستوفر ايفانوفتش ؟

أجاب ستافروجين وقد أظلم وجهه :

– لا !

– كريستوفر ايفانوفتش ؟ فى لوزان ؟ كان يضجرك اضجارا رهيبا • كان يقول دائما حين يدخل : « اننى آت للحظة واحدة » ، ثم يمكث يوما بكامله • لا أريد أن أكون مثل كريستوفر ايفانوفتش ، فأبقى يوما بكامله •

- ليزا ، هذه اللغة الساخرة تؤلمنى • وهذه التمثيل يؤلمك أنت
نفسك • علام هذا ؟ لماذا ؟

وسطعت عيناه • وتابع كلامه يقول :

- ليزا ، أحلف لك : اننى أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك بالأمس
حين دخلت الى هنا •

- يا له من اعتراف غريب ! لماذا هذه المقارنة بين أمس واليوم ؟
لماذا القياس ؟

واستأنف ستافروجين كلامه فقال بلهجة تكاد تعبر عن اليأس :
- لن تتركينى ! سوف نسافر معاً ، فى هذا اليوم نفسه ! أليس
كذلك ؟

- اى ! انك توجعنى ! لقد ضغطت يدي ضغطاً شديداً جداً ! نسافر
معاً ؟ فى هذا اليوم نفسه ؟ الى أين ؟ « انبعث جديد » مرة أخرى ؟ •••
لا ••• كفى تجارب ! ••• ثم اننى عاجزة عن هذا • هذا كله أكبر منى
وأعظم منى ! اذا سافرنا ، فسيكون سفرنا الى موسكو ، من أجل أن نستقبل
الناس ونزور الناس • ذلك هو مثلى الأعلى • انك تعرفه جيداً • أنا لم
أخف عنك حقيقتى منذ كنا بسويسرا • ولما كان من المستحيل أن نسافر
الى موسكو وأن نقوم بزيارات ، مادمت متزوجاً ، فلا داعى الى الكلام على
السفر •••

- ولكن ما الذى جرى بالأمس اذن يا ليزا ؟

- جرى ما جرى !

- مستحيل • هذه قسوة !

لا يهم أن تكون هذه قسوة ! احتملها !

فدمدم ستافروجين يقول بابتسامة صفراء :

– تتقمين منى لنزوتك بالأمس •

• فاحمرت ليزا •

– بالها من فكرة دنيئة •

– فلماذا وهبت لى اذن « تلك السعادة كلها » ؟ هل من حقى ان

أعرف جواب هذا السؤال ؟

– لا ! ••• استغن عن هذا الحق • لا تضسف الحماقة الى دناءة

افتراضك • لا حظ لك اليوم ! بالمناسبة : أترك تخشى رأى الناس ، وأن

يدينوك بسبب تلك « السعادة » ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فهدىء روعك ،

ناشدتك الله ! أنت لم ترتكب اثماً ، وليس لأحد أن يحاسبك ! حين فتحت

أنا بابك بالأمس ، كنت أنت لا تدري من ذا الذى يدخل عليك • لم يكن

الأمر الا نزوة منى ، كما قلت منذ هنيهة ، ولا شىء غير ذلك • فى وسعك

أن لا تغض الطرف أمام أحد ، وأن تسير فى الناس مرفوع الرأس •

– ان أقوالك وضحكاتك تجمّدى ذعراً منذ ساعة • ان هذه

«السعادة» التى تكلمينى عنها الآن بهذه اللهجة المبغضة الكارهة ، تكلفنى

••• كل شىء ! هل يمكنى فى هذه اللحظة أن أفقدك ؟ أوكد لك أننى

كنت أحبك أمس أقل مما أحبك اليوم • فلماذا تنتزعين منى اليوم كل

شىء ؟ هل تعلمين ماذا كلفنى هذا الأمل الجديد ؟ لقد دفعت ثمنه حياة •••

– حياتك أنت أم حياة أحد غيرك ؟

فنهض ستافروجين فجأة • وقال يسألها وهو يتحدثق اليها بانتباه :

– ماذا تعنين ؟

– أردت أن أعرف فقط هل دفعت ثمنه من حياتك أو من حياتى

أنا •••

ثم هتفت تسأله :

– أتراك أصبحت لا تفهم شيئاً؟ لماذا نهضت ذلك النهوض المفاجئ؟
لماذا تنظر الىّ على هذا النحو؟ انك تخيفنى ! ما الذى تخشاه؟ انك تبث
الرعب فى نفسى ! لكأنك خائف • اننى ألاحظ منذ مدة طويلة أنك
خائف ، ولا سيما الآن ••• فى هذه اللحظة بالذات ••• رباه ! ما أشد
اصفرار وجهه !

– اذا كنت تعرفين شيئاً يا ليزا ، فاننى أنا لا أعرف شيئاً ••• أحلف
لك • وما عن «هذا» تكلمت حين قلت لك اننى دفعت الثمن •••

دمدمت ليزا تقول خائفة :

– لا أفهمك البتة !

• وسرحت على وجه ستافروجين ابتسامة مبهمة بطيئة آخر الأمر •
• وعاد يجلس ، وأسند كوعيه الى ركبتيه ، وأخفى وجهه فى يديه •
– حلم سيء ••• كابوس ثقيل ••• كنا نتكلم فى أمرين مختلفين •
– لا أدرى عمّ كنت تتكلم • هل يُعقل أن لا تكون قد حذرت
بالأمس اننى سأتركك اليوم؟ أكنت تعلم هذا أم لا؟ لا تكذب • أكنت
تعلمه؟

دمدم ستافروجين يقول :

– كنت أعلمه •

– فماذا تريد أكثر من ذلك؟ كنت تعلم ، ومع هذا اختلستها ، تلك
«اللحظة» • فعلام هذا الحساب كله الآن؟
صاح ستافروجين يسألها بلهجة أليمة :

- قولى لى الحقيقة كلها : حين فتحت بابى بالأمس ، أكنت تعلمين أنك لا تفتحينه الا من أجل يوم واحد ؟
فرشقتة بنظرة كره وبغض ، وقالت :

- يتفق لأكثر الرجال جدا أن يلقوا أسئلة سخيفة مضحكة • فيم تقلق هذا القلق ؟ أهى الكبرياء التى تدفعك اليه ؟ أهو تصورك أن امرأة هى التى تتركك ولست أنت الذى تتركها ؟ هل تعلم يا نيقولاى فسيفولودوفتش اننى منذ دخلت هذا المكان لاحظت فيما لاحظت أنك كريم معى غاية الكرم • ذلك بعينه هو ما لا أستطيع أن أحتمله منك •

نهض ستافروجين وسار بضع خطوات فى الغرفة •
- طيب ••• أسلمم بأن الأمر كان لا بد أن ينتهى هذه النهاية •••
ولكن كيف حدث كل هذا ؟

- يا له من اهتمام يشغل بالك ! لا سيما وأنتك تعرف الأمر ، وتدركه خيراً مما يدركه أى انسان آخر ، وأنتك كنت تتوقع هذه النهاية ! أنا آنسة ، وقد نشأ قلبى وترعرع فى الأوبرا • هكذا بدأت المسألة • ذلك هو السر كله •
- لا •

- لا شىء فى هذا يمكن أن يجرح كبرياءك • هذه هى الحقيقة كلها • بدأ الأمر بلحظة جميلة لم أستطع مقاومتها • أمس الأول ، حين آذيتك بالكلام على مسمع من الناس ، فأجبتنى بطريقة تزخر فروسية ، حزت فوراً أنك تتحاشانى وتتجنبنى لأنك متزوج ، لا لأنك تحتقرنى ، وهو أمر كنت أخشاه أكثر مما أخشى أى شىء آخر بصفتى فتاة من فتيات المجتمع • لقد أدركت أنك اذ تتجنبنى انما كنت تحمى هذه المجنونة ، أنا • فانظر كم أقدر لك كرمك ! وفى تلك اللحظة هرع بطرس

ستيفانوفتش ، فشرح لى كل شيء • قال انك ملك فكرة عظيمة لا نساوى نحن بالقياس اليها شيئاً ، لا أنا ولا هو ، غير أنتى مع ذلك حجر عثرة فى طريقك ؟ ثم انه لا يريد أبدا أن يتركنا ، وانما هو يحرص على أن يكون الثالث • قال لى أشياء رائعة عن « سفينة » لا أدرى ما هى ، سفينة شراعية لها مجاديف من أشجار القيقب ، وانشدنى أغنية روسية • أزجيت له المديح ، وقلت له انه شاعر ، فقبل ذلك وسلم به على أنه أمر محقق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • واذ كنت أعلم منذ زمن طويل أن قراراتى ليست الا كئار القش ، عزمت أمرى على أن أتصرف فوراً • ذلك كل شيء • وكفى هذا الآن • أرجوك ، لا تسألنى ايضاحات أخرى • والا فقد تتشاجر • لا تتخف من شيء اننى أتحمّل التبعة كلها • أنا شريرة ، ذات نزوات ، انقدت لاغراء سفينة أوبرا ••• أنا آنسة ! ولكن هل تعلم أنتى كنت أتخيل ، رغم كل شيء ، أنك تحببى حباً جنونياً ؟ لا تحقر الحمقاء ولا تسخر من هذه الدمعة التى سالت من عيني الآن • اننى أحب سكب الدموع على نفسى ، رثاء لمصيرى ، وتألماً لخطى ! ولكن كفى كفى ! اننى غير قادرة على شيء ، ولا أنت قادر على شيء ! فليعزّ كل منا صاحبه بمدّ لسانه له تهكماً وسخرية ! بهذا لا تتألم كبرياؤنا على الأقل • هتف نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يعقف يديه :

- حلم ! جنون ! عزيزتى المسكينة ليزا ، ماذا فعلت ؟

وكان يذرع الغرفة بخطى كبيرة •

حرقّت اصبعى ، وهذا كل شيء • أرجو أن لا تأخذ فى البكاء •

أصلح وقفك ، وكن أقل حساسية !

- لماذا جئت ؟

- أترارك لا تدرك أخيراً سخافة الموقف الذى تضعنى فيه أمام الناس

اذ تلقى علىّ هذه الأسئلة ؟

- لماذا ضيّعت نفسك بهذه الطريقة الغبية ، السخيفة ؟ وما العمل الآن ؟

- أهذا هو ستافروجين ، «الدموى ستافروجين» ، كما تسميك بمبداً تهواك هوى شديداً ؟ اسمع ، لقد سبق أن قلت الأمر : اننى أعطيت حياتى كلها من أجل ساعة • وأنا الآن هادئة • فافعل مثلى ! ••• على كل حال ، أنت شأنك شأن آخر : ستكون لك « ساعات » أخرى كثيرة ، و « لحظات » أخرى كثيرة !•••

- على قدر ما سيكون لك منها ، على قدر ما سيكون لك منها • أعاهدك على ذلك • لا ساعة واحدة أكثر منك •

كان لا ينفك يمشى • لم يرَ النظرة السريعة الثاقبة التى ألقتهما عليه ، والتى سطع فيها على حين فجأة شعاع أملٍ سرعان ما انطفأ •

- ليتك تعرفين ثمن « صدقى » المستحيل فى هذه اللحظة ، ليتنى أستطيع فقط أن أكشف لك يا ليزا •••

- أن تكشف لى ؟ هل تريد أن تكشف لى عن شيء أيضاً ؟ وقانى الله شرّاً مكاشفاتك •••

كذلك قاطعته ليزا شبه مذعورة •

فوقف وانتظر قلقاً مهموماً • قالت ليزا :

- يجب أن أعترف لك بأننى منذ كنا فى سويسرا قد رسخ فى ذهنى أن ضميرك يخفى شيئاً ما ، شيئاً رهيباً ، موحشاً ، دامياً ••• لكنه فى الوقت نفسه يجعلك مضحكا الى درجة فظيعة • فحذار أن تكشف لى عن هذا الشيء ان صح تقديرى : والافسوف أضحك منك ، وأتهكم على حياتك كلها ••• آى ! ••• هانت ذا يصفر لونك من جديد ! فلن أقول بعدُ شيئاً ، لن أقول شيئاً ! هأنذا منصرفه •••

كذلك هتفت تقول وهى تنهض بحركة احتقار واشمئزاز •

قال ستافروجين يائساً :

— عذبينى ! أدينينى ! صببى على غضبك ! من حقت أن تفعلنى هذا •
لقد كنت أعلم اننى لا أحبك وأنتى ضيعتكَ ! نعم ، «لقد انتهزت اللحظة» •
كان لى أمل ••• منذ مدة طويلة ••• أمل أخير ••• ولم أستطع أن
أقاوم الضياء الذى بهرنى حين جئت من تلقاء نفسك ، بمحض ارادتك •
عندئذ ، ظننت فجأة ••• ولعلنى ما زلت أظن •••

— سأجيب على صراحتك النبيلة بصراحة مثلها • لا أريد أن أكون
لك راهبة رحمة واحسان • ان لم أفلح فى أن أموت اليوم — وهذا يجىء
فى حينه اذا جاء — فقد أصبح فى يوم من الأيام راهبة ممرضة ، ولكننى
لن أكون ممرضة لك أنت ، رغم أنك أشبه بكسيح أو أكتع • لقد خيلت
الىّ دائماً أنك ستقودنى فى يوم من الأيام الى مكان يسكنه عنكبوت ضخم
فى حجم انسان ، وأنا سنقضى حياتنا كلها ناظرين الى العنكبوت مرتعشين
من الخوف ، وأن هذا هو ما سيؤول اليه حيناً • اذهب الى داشا : ان داشا
ستبعك الى حيث تقودها •

— لا تستطيعين أن تسيها ، حتى فى هذه اللحظة !

— يا للكلبة الصغيرة المسكينة ! سلّم لى عليها ! هل تعلم أنك منذ
كنت فى سويسرة ، تدّخرها لشيخوختك ؟ يا للتبصر بالمستقبل ! آى •••
منّ هناك ؟

لقد شقّ الباب الذى فى آخر الصالة ، فأطل من شقه الضيق رأس
سرعان ما اختفى فى تلك اللحظة نفسها •

قال ستافروجين سائلاً :

- أهذا أنت يا ايجورتش ؟

فعاد الرأس يظهر من شق الباب ، فاذا هو رأس بطرس ستيفانوفتش
يجيب عن السؤال قائلاً :

- بل هذا أنا • نعمت صباحا يا ليزافتا نيقولايفنا • كنت أعلم اننى
سأجدكما كليكما فى هذه الصالة • لم أجدىء الا للحظة واحدة يانيقولاى
فسيفولودوفتش : يجب علىّ حتماً أن أقول لك كلمتين ••• انه أمر
مستعجل جدا ، ولا غنى عنه أبدا • كلمتان فقط !

اتجه ستافروجين نحو الباب • ولكنه ما ان قطع ثلاث خطوات حتى
رجع الى ليزا ، وقال :

- اذا سمعت شيئاً يا ليزا ، فاعلمى أن الجانى هو أنا •

فارتعشت ونظرت اليه مرتاعة • وخرج مسرعا •

انتقل ستافروجين الى الغرفة المجاورة ، وهى حجرة مدخل كبيرة
بيضوية الشكل • وكان بطرس ستيفانوفتش ، عند دخوله ، قد رأى الخادم
العجوز الكسى ايجورتش ، فطلب منه أن يتركه وحيدا •

أغلق نيقولاى فسيفولودوفتش باب الصالة وانتظر • فشمله بطرس
ستيفانوفتش بنظرة سريعة فاحصة •

قال ستافروجين :

- هيه ؟

فأجاب الزائر وما تزال نظرتة كأنها تريد أن تنبش أعماق
ستافروجين ، أجب قائلاً :

- اذا كنت على علم بما جرى ، فيجب أن أقول لك ان أحدا منا ليس

مذنباً طبعاً ، ولا سيما أنت ، ولا يبدو الأمر أن يكون مصادفة ... لا يبدو أن يكون تضافراً عدد من الظروف ... الخلاصة ... من الناحية القانونية لا يمكن أن تُمسَّ ، وقد جئت لأنبئك ...

– هل حرقوا؟ هل قتلوا؟

– قتلوا ! ولكن أجسامهم لم تمسسها النار . ذلك هو الشيء المؤسف . أقسم لك بشرفي أنني غير ضالغ فيما حدث ، مهما تكن شكوكك وشبهاتك . ذلك أن من الجائز أن تشبهه فيَّ ، هه ؟ هل تريد أن تعرف الحقيقة كلها ؟ اسمع : في لحظة من اللحظات ، خطر ببالي فعلاً أن ... وأنت الذي أوحيت إليَّ بهذه الفكرة ، لا ايهاءً جاداً بطبيعة الحال ، بل من باب السخرية لا أكثر ... (ذلك أنك لا يمكن أن توحى إليَّ بشيء كهذا ايهاءً جاداً) ، ولكنني لم أستطع أن أعزم أمرى ، وما كنت لأعزم أمرى بحال من الأحوال ، بأي ثمن ، ولو كان مائة روبل ... لا سيما وأن ذلك لا يعود عليَّ بأي نفع ، عليَّ أنا طبعاً ... (كان تدفق كلامه يزداد سرعة) . ولكن انظر الى هذه المصادفة العجيبة ! من مالى الخاص (نعم ، من مالى الخاص ، فليس لك فى هذا الأمر روبل واحد ، وانك لتعرف هذا حق المعرفة) ، أعطيت ذلك الأبله ليادكين مائتين وثلاثين روبلاً ، مساء أمس الأول . هل تسمع ؟ مساء أمس الأول ، لا أمس ، بعد الجلسة الأدبية . لاحظ هذا . فهو أمر هام . ذلك اننى فى أمس الأول لم أكن قد تيقنت بعد من أن ليزافتا يقولاننا ستجىء اليك . أعطيت ليادكين ذلك المبلغ من جيبى ، لأنك فى أمس الأول دبّرت لى مكيدة وكشفت عن سرّك لجميع الناس . لا أدخل الآن فى بحث الأسباب التى ... فهنا من شأنك ... لقد تصرفت تصرف فارس ... ولكننى أعترف لك أن ذلك كان ضربة عصا على ظهري ... لقد ذُهِلت وصُعقت . لقد طاش صوابى . ومع ذلك فأننى وقد سئمت جميع هذه التراجيديات ، وكان هذا يعرقل

خططى أخيراً فقد عاهدت نفسى على أن أرحل لبيساديك وأخته الى
 بطرسبرج مهما كلف الأمر ، على غير علم منك ، لا سيما وأن الكابتن
 كان لا يحلم الا بهذا . لم أرتكب الا خطيئة واحدة : هى أنتى أعطيت
 المال زاعماً أنه منك أنت . أهذا خطأ أم لا ؟ ربما لم يكن هذا خطأ ؟ هه ؟
 ولكن اسمع الآن ، اسمع كيف جرت الأمور

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو فى قمة الحرارة من حديثه ،
 واقرب من ستافروجين فأمسك ثنية رديجوتة (لعله فعل ذلك عامداً) ،
 فما كان من ستافروجين الا أن هوى على ذراعه بضربة قوية .

قال بطرس ستيفانوفتش :

— ماذا جرى لك ؟ اتبه كدت تكسر ذراعى

واستأنف حديثه الأول بمزيد من التدفق ، غير مدهوش للضربة :

— نقدته المال مساء أمس الأول ، وتمّ الاتفاق على أن يسافر هو
 وأخته فى الغداة عند طلوع الصباح . وكلفت ذلك الوغد ليوتين أن يضعه
 فى القطار . ولكن ليوتين كان حريصاً أشد الحرص على أن يدبر للجماهير
 ذلك « المقلب » القدر فى الصبيحة الأدبية . لعلك سمعت عن هذا ؟ فاسمع
 اذن ، اسمع ! لقد شربا معا ، ونظما أشعارا . وكان نصف الأبيات على
 الأقل من نظم ليوتين . وألبس ليوتين صاحبه الكابتن رداء فراك (مؤكداً
 لى منع ذلك أنه قد اصطحب لبياديكين الى المحطة فى ذلك الصباح نفسه) ،
 وأخفاه لا أدري أين ، ليدفعه الى المنصة فى اللحظة المنشودة . ولكن
 لبياديكين يسكر بسرعة ، لذلك تولى ليوتين قراءة الأشعار نيابةً عنه .
 وقامت الفضيحة . اقتيد الكابتن لبياديكين الى البيت شبه ميت من فرط
 السكر ، واختلس منه ليوتين مائتى روبل ولم يترك له الا قليلا من نقود
 صغيرة . ولكن كان من سوء حظ لبياديكين أنه فى ذلك الصباح قد تباهى

وأظهر على المائتي روبل أولئك الذين ما كان ينبغي لهم أن يروها . ولما كان فدكا لا ينتظر الا هذه الفرصة ، ولا سيما أنه كان قد سمع بعض الأمور عند كيريلوف (هل تذكر تلميحك) فقد قرر أن ينتهز هذه الفرصة . تلك هي الحقيقة كلها . يسرني على الأقل أن فدكا لم يجد المال ، بينما كان يعول أن يعثر على ألف روبل حتماً . ولقد كان متعجلاً . فان النيران قد أخافته هو أيضا . . . هل تصدق ؟ لقد كان الحريق أشبه بضربة مطرقة على رأسى . شىء غير مقبول ، هذا الخروج على النظام والانضباط ! اسمع ! اننى أعلق عليك آمالاً كبارا وانتظر منك أمورا كثيرة ، لذلك لن أخفى عنك شيئاً : الحق أن فكرة الحريق هذه تراودنى منذ مدة طويلة . انها وسيلة من وسائل العمل شائعة جدا فى وطننا . ولكننى كنت أحتفظ بهذه الوسيلة للحظة الحرجة ، للدقيقة الرائعة العظيمة التى سنقوم فيها كلنا قومةً واحدة . . . ولكن هاهم أولاء أباحوا لأنفسهم أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم ، دون أمرٍ يصدر اليهم عنى ، وفى لحظة نحن أحوج ما نكون فيها الى أن نبقى ساكنين . هذا قلة نظام وانضباط ! . . . الخلاصة ، لا أعرف بعدُ شيئاً . . . وانما يجرى الحديث عن عاملين من عمال مصنع شيجولين ! . . . ولكن اذا كان واحد من جماعتنا قد شارك فى اشعال هذا الحريق ، وضلع فى هذه القضية من قريب أو بعيد ، فالويل له ! انك تعرف ما يحدث متى تراخى المرء معهم قليلاً ! لا ، لا ، يستحيل الاعتماد على معونة هذا الوغد الديموقراطى و « حلقاته » . ان ما نحن فى حاجة اليه هو ارادة واحدة عليا طاغية تعتمد على شىء ثابت . . . عندئذ تأتى الجماعات تعلق أحذيتنا ونستطيع عندئذ أن نستعملها . على كل حال ، رغم ما يُذاع فى كل مكان بالمدينة الآن من أن المدينة قد احترقت لأن ستافروجين يريد أن يقتل زوجته . . .

— ماذا ؟ أيداع هذا منذ الآن ؟

- لا ، لا منذ الآن والحق يقال • واني لأعترف بأنني لم اسمع شيئاً من هذا القبيل • ولكن ماذا يمكن أن يُنتظر من الجمهور؟ ولا سيما المنكوبين : « صوت الخلق صوت الحق » (باللاتينية) ! هل من الصعب نشر أسخف الشائعات؟ ولكن ليس هناك ما يجب أن تخشاه على كل حال • انت من الناحية القانونية بريء ، بل أنت بريء في الواقع حتى من الناحية النفسية ، لأنك لم ترد جريمة القتل هذه ، أليس كذلك؟ هل كنت تريدها؟ لا • وليس هناك أي دليل يدينك ••• هي مصادفة محض • مع ذلك قد يتذكر فدكا كلماتك الطائشة عند كيريلوف (لماذا قلت تلك الكلمات؟) • ولكن هذا لا يبرهن على شيء ، وسوف نسكت فدكا • سأتولى الأمر في هذا اليوم نفسه •

- ألم تنل النيران أجسامهم البتة؟

- البتة ! ان هذا الوغد لم يحسن حتى القيام بالمهمة • ان مايبهجنى على الأقل هو أنك هادىء هذا الهدوء كله ••• فانك ، وان تكن بريئاً كل البراءة ، حتى من جهة النية والتفكير ••• على كل حال ، لاحظ أن هذا يرتب أمورك على خير وجه : هأنت ذا قد ترملت ، ففى وسعتك أن تتزوج على الفور فتاةً أخاذة واسعة الثراء ، عدا أنها بين يديك منذ الآن ! انظر ماذا يمكن أن ينتج عن مجرد تضافر عدد من الظروف • هه ؟

- أتهددنى أيها الأحمق؟

- دعك من هذا الكلام • ما أسرع ما تصفنى بأننى أحمق ! ما هذه اللهجة؟ عليك أن تكون راضيا مسرورا ، فاذا أنت ، بدلاً من ذلك ••• انظر كيف تكافئنى أنا الذى هرعت أخبرك بالنبأ خصيصاً ••• بماذا عساني أهددك؟ اننى لا أريد أن أملكك بالتهديد • وانما أنا فى حاجة الى ارادتك

الحررة • أنت الضياء والشمس • وأنا الذى أخاف منك خوفا رهيبا • أنا
لست مافريكى نيقولايفتشس ••• بالمناسبة ، تصور : لقد رأيت مافريكى
نيقولايفتشس فى قرارة حديقتك قرب السياج حين مررت هناك • لا شك
أنه قضى الليلة كلها فى ذلك المكان • ليس للجنون الانسانى حدود •

- مافريكى نيقولايفتشس ؟ صحيح ؟

- هى الحقيقة خالصة ! انه جالس قرب السياج ••• على مسافة
ثلاثمائة خطوة من هنا ، ان لم يخطىء ظنى • مررت أمامه بأقصى سرعة
استطعتها ، ولكنه رآنى • ألم تكن تعلم ؟ يسعدنى اذن أنى أنباتك •
ان أمثال هذا الرجل يمكن أن يصبحوا خطرين جدا اذا كان فى حوزتهم
مسدس • أضف الى ذلك : الليلَ والمطر وما يعتمل فى نفسه من خنق
طبيعى فى مثل هذه الظروف • فعلاً : تصورْ وضعه الآن ! هاها ! •••
ما رأيك ؟ لماذا تُراه يبقى متربصا هناك ؟

- واضح أنه ينتظر ليزافتا نيقولايفنا •

- تماما ! ولكن لماذا عساها تلحق به ؟ ثم ••• فى مطر منهمر كهذا
المطر ••• ياله من أحمق !

- ستلحق به •

- هه هه ••• يا لها من فكرة عجيبة ! معنى ذلك ••• ولكن اسمع :
ان وضعها الآن قد تغير رأساً على عقب : ما حاجتها الى مافريكى نيقولايفتشس ؟
أنت أرمل ، وفى وسعك أن تتزوجها منذ غده انها لا تعرف شيئاً بعد • دعنى
فأتصرف فى الأمر كله • أين هى ؟ يجب أن نرف إليها النبأ الجميل ،
إليها هى أيضا •

- النبأ الجميل ؟

– أظن أنه نبأ جميل • هيّا !

– ألا يدور في خلدك أن هذه الجثث سوف تثير شبهاتها ؟
كذلك سأله ستافروجين وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة •
فأجابه بطرس ستيفانوفتش يقول متغابياً :

– لا ، أبدأ ••••• اذ من الناحية القانونية ••••• ثم هبها حذرت
شيئاً ما ! ان هذه الأمور تُرتَّب مع النساء بسهولة ! انك لا تعرف النساء
بعد ! ••••• ومن جهة أخرى فإن من مصلحتها أن تتزوجك ، لأن سمعتها
قد ساءت مهما يكن من أمر • زد على ذلك اننى كلمتها عن السفينة الشراعية
التي لها مجاديف من خشب القيقب ، فلاحظت أن هذه الأشياء تفعل فيها
فعل السحر • هذه فتاة حارة الطبع • لا تخشى شيئاً ، لسوف تخطو من
فوق هذه الجثث حتى تستغرب أنت نفسك ذلك ، لا سيما وأنت برىء ،
ألسنت بريئاً ؟ ولكنها ستدخر لك ذكرى هذه الجثث لتقدمها اليك بعد
سنتين من الزواج مثلاً • ان كل امرأة تدّخر لزوجها بعض الخطايا
القديمة انستعملها في الوقت المناسب • ولكن هل يعلم المرء ماذا يمكن أن
يجد بعد سنة ؟ هاهاها ! •••••

– اذا كنت قد جثت راكباً عربية فاصططحبها فوراً الى مافريكى
نقولاً يفتش • لقد قالت لى منذ هنيهة انها تكرهنى وانها تتركنى • ولن
تقبل عربتى أنا طبعاً •

– عجيب ! تريد أن تنصرف ؟ لماذا ؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش مذهولاً • فأجابه ستافروجين
بقوله :

– لعلها حذرت فى هذه الليلة من بعض العلامات والقرائن اننى
لا أحبها ••••• وذلك ما تعرفه منذ زمن طويل على كل حال •

سأله بطرس ستيفانوفتش متظاهراً بالدهشة :

- هل صحيح أنك لا تحبها ؟ ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا احتجزتها بالأمس بدلاً من أن تتصرف تصرف رجل شريف فتعلن لها أنك لا تحبها • هذا جبن من جانبك • وما أدناً الوضع الذي وضعتى فيه ازاءها !

فانفجر ستافروجين ضاحكاً • ثم أسرع يشرح قائلاً :

- اننى أضحك من قردى •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك مرحاً :

- آ ••• حذرت اذن اننى انما كنت أمثل • لقد أردت أن أضحكك • تصور أننى منذ رأيك داخلًا على أدركت من وجهك فوراً أن ثمة « مصيبة » قد حلت • بل ربما اخفاق كامل ، هه ؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم هتف يصيح وقد غمره الفرح :

- أراهن أنكما قضيتما الليلة كلها جالسين أحكما الى جانب الآخر ، على كرسيين ، تضيئان وقتاً ثميناً فى مناقشة أمور رفيعة نبيلة سامية ! ••• اغفر لى ! اغفر لى ! ما شأنى أنا على كل حال ••• لقد كنت أعلم منذ الأمس أن ذلك كله سينتهى بينكما الى سخافات • اننى لم آتكم بها الا لأسليكم ، ولأبرهن لك على أنك لن تضجر معى • سوف أخدمك خدمات كثيرة من هذا النوع • اننى ، على وجه العموم ، أحب أن أسرّ الناس • اذا كنت قد سئمت منها الآن - وهذا ما كنت أتوقعه وأعوّل عليه حين أتيت الى هنا - فاننى فى هذه الحالة •••

- ألم تجيئنى بها اذن الا لتسلينى ؟

- طبعاً •

- وليس لتجعلنى أقرر قتل زوجتى ؟

- ولكن هل أنت الذى قتلتها ؟

- بل أنت ، فكأن ..

- أنا ؟ ألم أقل لك اننى لا شأن لى فى الأمر . لقد بدأتَ تقلقنى ..

- أكمل . لقد قلت لى منذ برهة : « اذا كنت قد سئمت منها الآن ،

فانى فى هذه الحالة .. »

- نعم ، فانى فى هذه الحالة أتولى كل شىء . سأزوجها مافريكى

نقولاً يفتش بسهولة . يجب أن أذكر لك عابراً أننى لست أنا الذى

جعلته يربط فى آخر الحديقة . فلا ينصرفن بك الخيال الى هذا أيضا .

أؤكد لك اننى خائف منه . لقد جئتَ منذ قليل على ذكر العربية ، فاعلمُ

اننى مررت أمامه بأقصى سرعة .. ذلك لأن معه مسدسا . من حسن

الحظ أن معى مسدسى أنا أيضا . هو ذا (هنا أخرج بطرس ستيفانوفتش

المسدس وأراه ستافروجين ثم أسرع يخبئه) . لقد تزودت به احتياطاً

للمطارىء .. على كل حال سأدبر لك الأمر كله فى برهة وجيزة : ان

قلبها يتألم الآن حين تفكر فى مافريكى .. أو على الأقل لا بد أن قلبها

يتألم . وانى لأشفق عليها حقاً . وما ان أخذها الى مافريكى حتى تعود

تفكر فىك ، وتتغنى له بمحاسنك ، وتتدّد بعيوبه . ذلك هو قلب المرأة .

آ .. هأت ذاً تضحك من جديد . لشدما يسرنى أن أراك مرحاً هذا

المرح كله . طيب . هيتاً بنا ! سأبدأ أولاً بمافريكى .. أما الآخرون

.. الذين قُتلوا .. فلعل الأفضل أن لا نذكر عنهم شيئاً الآن ، أليس

كذلك ؟ ستعلم هى بالأمر قريباً .

- أى أمر سأعلم به ؟ من الذى قُتل ؟ ماذا قلت عن مافريكى

نقولاً يفتش ؟

كذلك صاحت ليزا سائلةً وهي تفتح الباب •

– آه ••• أكنت تنتصتين وراء الباب ؟

– ماذا قلت عن مافريكى نيقولايفتش ؟ هل قُتل ؟

– اذن لم تسمعى • هدئى نفسك • ان مافريكى نيقولايفتش حى ،
وان صحته جيدة ، كما تستطيعين أن تقتنعى من ذلك بنفسك فوراً ، لأنه
مرابط فى الحديقة ، قرب الطريق ••• أظن أنه بقى هنالك طوال الليل،
تحت معطفه • لا بد أنه مبلل • وقد رأنى حين وصلت •

– ليس هذا صحيحاً • لقد نطقتَ بكلمة « قُتل » • فمن الذى
قُتل ؟

كذلك ألحت تقول بشك أليم •

فقال ستافروجين بصوت ثابت :

– زوجتى هى التى قُتلت مع أخيها ليادكين وخادمتها •

ارتعشت ليزا ، واصفرت اصفراراً شديداً •

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتدخل فقال :

– مصادفة غريبة ، عجيبة ، باليزافتا نيقولايفنا • اغتيال من اغبى
وأسخف الاغتيالات • استغل الجناة الحريق ليقتلوا ويسلبوا • انه فدكا
السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة • لقد كان هذا الأحمق ليادكين
يتباهى فى كل مكان بأن جيوبه مملأى مالاً ••• ذلك ما جعلنى أهرع •••
ضربة فظيمة فعلاً • لقد كاد ينقلب ستافروجين حين أبلغته النبأ • وكنا
نتباحث الآن لنقرر أنعلمك بالخبر أم لا !

قالت ليزا تسأل ستافروجين وهي تنطق كل كلمة بمشقة :

– نيقولاى فسيفلودوفتش ، أهو يقول الحقيقة ؟

– لا ، انه لا يقول الحقيقة •

فصرخ بطرس نيقولايفتشس يقول :

– كيف ؟ ما هذا أيضا ؟

صاحت ليزا :

– رياه ! أكاد أجن !

فصرخ بطرس ستيفانوفتشس صراخا قويا يقول :

– ألا فأعلمي اذن أن هذا الرجل قد فقد عقله • مهما يكن من أمر ، فان زوجته هي التي قتلت • أنظري الى شحوبه الشديد ! ••• لقد قضى الليلة كلها معك ، ولم يتركك • فكيف يمكن الاشتباه فيه ؟

– نيقولاى فسيفولودوفتشس • قل لى صادقاً كما لو كنت أمام الله • أنت جان أم لا ؟ يمينا لأصدقن كلامك كأنه كلام الله ، ولا تبعنك الى آخر الدنيا ! نعم ، نعم ! سأبعك ، مثل كلب ! •••

زار بطرس ستيفانوفتشس يقول غاضباً غضباً مسعوراً :

– ما بالك تعذبها هذا التعذيب أيها الانسان العجيب ! يا ليزافتسا نيقولايفشا • أحلف لك صادقاً ، ولتدقيني فى هاون ان كنت أكذب : ان نيقولاى فسيفولودوفتشس برىء • والأحرى أن يقال انه هو الذى قتل بهذا النبأ • انه يهدى • هانت ذى ترينه بعينيك • انه عاجز عن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل ، حتى بالخيال ! ••• ان الذين فعلوا هذه الفعلة أناس من قطاع الطريق ، سيُعرفون حتماً فى غضون ثمانية أيام ، وسيُجلدون • هو فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة وعمال من مصنع شيبجولين • المدينة كلها تتحدث فى الأمر ••• وهذا هو السبب فى أننى ••• أنا أيضا •••

قالت ليزا تسأل ملحة :

– أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟

وكانت تنتظر الكلام الحاسم واجفة راعشة •

قال ستافروجين :

– لم أقتل ، وكنت أعارض هذا القتل ، ولكنني كنت أعرف أنهم

سيقتلونهم ، فلم أمنع القتل من ارتكاب ما ارتكبوا • دعيني يا ليزا •

قال ستافروجين ذلك ، ورجع الى الصلاة •

خبأت ليزا وجهها بيديها وخرجت من المنزل • فأراد بطرس

ستيفانوفتش أن يركض وراءها ، ولكنه عدل عن رأيه هذا ، وهرع يعود

الى الصلاة •

دمدم يقول وقد جُن جنونه غضباً وأخذ الزبد يخرج من بين

شفتيه :

– آ ••• هكذا اذن ! هكذا اذن ! لست خائفاً اذن من شيء •

كان ستافروجين واقفاً في وسط الصلاة • فظل صامتا ولم يجب

بكلمة • وكان يشدُّ شعره بيده اليسرى وقد ألت بوجهه ابتسامة غامضة •

شدّه بطرس ستيفانوفتش من كمنه بقوة ، وقال له :

– هل فقدت عقلك ؟ ألى هنا وصلت ؟ انك سوف تشي بجميع

الناس ثم تمضي تمكف في أحد الأديرة ، أو تمضي الى جهنم ! •••

ألا فاعلم اذن أنني سأقتلك ، وان لم تكن خائفاً مني •

دمدم ستافروجين يقول وكأنه لم يلاحظ وجود بطرس ستيفانوفتش

الا في تلك اللحظة :

– هه ؟ أنت الذى تحدث هذه الجلبة كلها ؟

وبدا عليه فجأة أنه رجع الى وعيه ، فأضاف يقول له :

– اركض وراها ! خذ العربى ! لا تتركها ! ... ما بالك لا تركض ؟
أعدها الى بيتها ، ولا يعلمن أحد ! ... امنعها خاصة من الذهاب الى
هناك ورؤية الجثث ... الجثث ! أركبها فى العربى قسراً ! ... يا ألكسى
ايجورتش ، يا ألكسى ايجورتش !

– انتظر ! لا تصرخ ! هى بين ذراعى مافريكى منذ الآن ! ... لن
يركب مافريكى عربتك ... انتظر ... ليس الأمر الآن أمر عربى !
وأخرج مسدسه ثانية ، فالقى عليه ستافروجين نظرة رصينة ، وقال
له بصوت هادىء :

– اقتلنى !

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول مرتعشاً من شدة الغضب :

– عجيب ! هل يمكن المرء أن ينطلى عليه تمثيله هو نفسه ! حقاً
يجب على أن أقتلك ! وقد كان ينبغى لها أن تبصق فى وجهك ! لا ،
ما أنت «سفينه» ! أنت قارب عتيق مثقوب ، لا يصلح فى أكثر تقدير الا
حطباً للموقد . ذلك أنت ! ... هلاً غضبت بعض الغضب على الأقل .
لا شك أن جميع الأشياء تستوى فى نظرك الآن ، ما دمت تطلب بنفسك
أن تقتل !

ابتسم ستافروجين ابتسامة غريبة وقال :

– لولا أنك مهرج لكان يمكن أن أقول لك نعم ... لبتك أذكى
قليلاً على الأقل ...

– أنا مهرّج • ولكننى لا أريد أن تكون أنت مهرجاً ، أنت الجزء الأساسيّ من نفسى • هل تفهمنى ؟

ولقد كان ستافروجين يفهم • ولعله الوحيد الذى كان يستطيع أن يفهم بطرس ستيفانوفتش • انكم تتذكرون دهشة شاتوف حين قال له ستافروجين ان بطرس ستيفانوفتش قادر على أن يتحمس •

– اذهب الآن الى الشيطان ! قد أستطيع من الآن الى الغد أن أتخذ قرارا ما • ارجع غدا •

– فى الغد اذن ؟ أهذا أكيد ؟

– أننى لى أن أعرف ! اذهب الى الشيطان !

قال ستافروجين ذلك وخرج •

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه قائلاً : « ربما كان هذا أفضل ••• من يدرى ! » • وأعاد المسدس الى جيبه •

٢

اسرع بطرس ستيفانوفتش يلحق بليزافنا نيقولايفنا التى لم تكن قد ابتعدت كثيراً •

كان ألكسى ايجورتش قد حاول أن يثيها عن الخروج ، ولكنه لم يفلح ، فهو الآن يتبعها باحترام ، لابساً رداء الفراك ، حاسر الرأس ، على مسافة منها • ان الخادم العجوز مرتاع أشد الارتياح ، يهيم أن يبكى من الهلع ، وهو يضرع اليها أن تنتظر العربة •

قال له بطرس ستيفانوفتش وهو يدفعه :

- ارجع الى البيت • مولاك يطلب شيئاً ، وليس هناك من يجيئه
بالشاي غيرك •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك للخادم العجوز ، وأمسك ذراع ليزا فتا
نيقولاً يفتش بسطوة • فلم تسحب ليزا ذراعها • ولم تكن تملك وعيها
كاملاً على كل حال : انها لم تعد الى صوابها بعد •
دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول لها :

- أولاً : لقد سرت في اتجاه خطأ ؛ فما ينبغي أن نمر أمام الحديقة؛
لنمض من هنا • وثانياً : يستحيل عليك استحالةً مطلقة أن تعودى الى
بيتك سيراً على القدمين ، فالمسافة تبلغ ثلاثة فراسخ ، ولست ترتدين
معطفاً • فالأفضل أن تنتظري قليلاً • لقد وصلت أنا بعربة • وهى الآن
فى فناء المنزل • سأستدعيها فتركيها وأوصلك الى بيتك • فلا يراك أحد •

قالت ليزا بصوت رقيق عذب :

- ما أطيب قلبك ! •••

- ما هذا الذى تقولين ؟ ان كل انسان شريف لا بد أن يفعل
ما أفعل ، فى مثل هذه الحالة •

فنظرت اليه ليزا مدهوشةً تقول :

- رباه ! كنت أظنه الخادم العجوز ! •••

- اسمعى • يسرنى أن تأخذى الأمر هذا المأخذ ، فما ذلك كله على
كل حال الا وهم من الأوهام الاجتماعية الباطلة • ولكن ، اذا كان الأمر
كذلك ، أفليس الأفضل أن نأمر العجوز باعداد المركبة ، فما تنقضى دقائق
عشر الا وتكون المركبة مهيأة ؟ وبانتظار ذلك نحتمى بسقيفة الباب ، هه ؟

- أريد قبل كل شئ ••• أين هى الجثث ؟

- يا لها من نزوة غريبة ! ذلك ما كنت أخشاه ... لا ... لا تفكرى فى هذا • لترك هذه الجثث اللعينة حيث هى • ما بك حاجة الى رؤيتها •

- أنا أعرف أين هى ؟ اننى أعرف ذلك البيت !

- ليس بالأمر الهام أن تعرفيه • اسمعى • ان المطر ينهمر ، والضباب يغطى كل شىء - رباه ! ما أغناني عن هذا العناء كله ! ... - اسمعى يا ليزافتا نيقولايفنا ! أحد أمرين : اما أن تركبى فى العرببة معى ، وفى هذه الحالة فلنقف هنا ، ولتنتظرنى ، اذ لو سرنا عشرين خطوة" أخرى فسوف نلقى مافريكى نيقولايفتش ...

- مافريكى نيقولايفتش ؟ أين هو ؟ أين ؟

- اذا كنت تحرصين حرصاً مطلقاً على أن تذهبى اليه ، فاننى أوافق على أن أسير معك بضع خطوات أخرى ، لأدلك أين هو ، ولكنى أفرّ بعد ذلك • اننى لا أريد الاقتراب منه الآن •

صاحت ليزا قائلة وهى تقف فجأة :

- رباه ! انه ينتظرنى ! ...

واصطبغ وجهها بحمرة شديدة •

- اذا كان رجلاً متحرراً من الأوهام الاجتماعية ، فلا قيمة للأمر البتة • تعلمين يا ليزافتا نيقولايفنا اننى لا شأن لى فى هذه القضية كلها • تعلمين هذا علماً تاماً ... ولكننى مع ذلك لا أريد لك الا الخير • اذا لم تنجح « سفينتنا » ، واتضح أنها ليست الا قارباً قديماً بالياً ...

- آه ... رائع !

- ها هى ذى تبكى الآن ! يجب أن يتحلى المرء بالشجاعة فى مثل

هذه المناسبات • لا ينبغي للمرأة أن تخضع أمام الرجل • فى أيامنا هذه
••• حين يحدث لامرأة أن •••

هنا كاد بطرس ستيفانوفتش أن يبصق من شدة الغضب • ولكنه
أردف يقول :

- الشيء الرئيسى هو أن لا تأسفى على شيء : ان من الجائز أن
تسوئى جميع الأمور فى النهاية • ان مافريكى نيقولايفتش رجل •••
رجل حساس ••• رغم أنه صموت ••• والصمت صفة ممتازة على كل
حال ••• المهم أن يكون متحرراً من الأوهام الاجتماعية •

- رائع ! رائع !

كذلك هتفت ليزا وهى تضحك ضحكاً عصبياً •

فقال بطرس ستيفانوفتش منزعجاً على حين فجأة :

- هوه ! لاحظى يا ليزافتا نيقولايفنا أنتى فى سبيلك انما أسعى الآن
هذا السعى كله • ما شأنى أنا ! ••• لقد ساعدتك أمس حين أردت أنت
تفسك ••• واليوم !••• اننا نستطيع أن نرى مافريكى نيقولايفتش من
هنا • انظرى • هو ذا • انه لم يبصرنا • ليزافتا نيقولايفنا ، هل قرأت
« بولين ساكس » •

- ماذا ؟

- « بولين ساكس » • هى رواية • قرأتها حين كنت طالباً • انها
تحدثنا عن موظف ، غنى جدا ، رأى زوجته متلبسةً بالجرم المشهود ، فى
الريف • دعينا من هذا على كل حال ! ماشأنى أنا ؟ ان مافريكى نيقولايفتش
سيعرض عليك الزواج حتى قبل أن تصلى الى البيت • سوف ترين • لم
يبصرك حتى الآن •

هتفت ليزا تقول كالمجنونة :

- آه ... ما يجب أن يرانى • فلنهرب ! فلنهرب ! فى الغابة !
فى الحقول ! ...

• وعادت أدراجها راكضة •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يركض وراءها :

.. ليزافتا نيقولايفنا ! ما هذا الضعف ؟! ... لماذا لا تريدان أن
يراك ؟ بالعكس : حدّقى فى عينيه ، بكبرياء ! ... اذا كانت المسألة هى
مسألة ... هى مسألة بكارتك ... فذلك وهم اجتماعى سخيف ...
ذلك تأخر فكرى كبير ! ... ولكن الى أين تذهبان ؟ الى أين تذهبان ؟
انها تركض ! ... لنعد الى سكفورشنيكى ، لركب عربتى ... ولكن
الى أين تركضين هذا الركب ... فى الحقول ؟! ... ها ... ها ...
ذى تقع !

وقف بطرس ستيفانوفتش • كانت ليزا تركض كالمجنونة دون أن
تعرف الى أين تمضى • وكان بطرس ستيفانوفتش قد أصبح بعيدا عنها •
وتعثرت أخيراً بتلعة من الأرض فسقطت • وفى تلك اللحظة دوّت صرخة
رهيبية : انه مافريكى نيقولايفتش رأى هرب الفتاة وسقوطها ، فهو الآن
يركض لنجدتها عبر الحقول •

فسرعان ما رجع بطرس ستيفانوفتش الى منزل ستافروجين ليركب
عربته بأقصى سرعة •

ها هو ذا مافريكى نيقولايفتش يقف بقرب ليزا مرتاعاً • لقد نهضت
ليزا • وها هو ذا يميل عليها ويتناول يدها بيديه • ان الظروف الخارقة
التي تكتنف هذا اللقاء قد بنت فى نفس الفتى اضطرابا شديدا ، وهذه

دموع تسيل غزيرةً على خديه • لقد رأى تلك التي يحبها حباً يبلغ العبادة،
 رآها تركض كالمجنونة خلال الحقول ، في هذه الساعة المبكرة من الصباح،
 تحت المطر ، دون معطف ، بثوبها الجميل الذي كانت ترتديه أمس ،
 مشعّنة ملطخة بالوحل ••• فلم يملك أن يقول كلمة واحدة ، ولم يزد
 على أن خلع عنه معطفه ، ودثّر به كتفى ليزا بيديه المرتعشتين • وها هو ذا
 بهتف قائلاً على حين فجأة ، إذ أحس بشفتي ليزا على يده :

– ليزا ! أنا لا أصلح لشيء • ولكن لا تنبذيني ! لا تطرديني !
 فقالت له ليزا :

– لنصرف من هنا ! لا تتركني !

وأمسكت ذراعه وجرتته وراءها • وأردفت تقول بصوت خائف :
 – ما فريكى نيقولا يفتش ، كنت أظهر الشجاعة هناك ، ولكنني هنا
 خائفة من الموت • سوف أموت ، سوف أموت بعد قليل ، ولكنني خائفة ،
 خائفة من الموت •••

بهذا دمدمت ليزا وهي تضغط على ذراع صاحبها •

فقال ما فريكى نيقولا يفتش وهو يلقي من حوله نظرات يائسة :

– ليت أحداً هنا على الأقل ••• قدماك ستبتلان ••• سوف •••
 سوف تفقدين عقلك •

دمدمت تقول محاولةً أن تبث فيه شيئاً من الشجاعة :

– لا تخف ! ما هذا بشيء ! ما هذا بشيء ! لقد قلّ خوفى منذ
 أصبحت أنت بجانبى • أمسك يدي ، قدنى ! ••• الى أين نذهب الآن ؟
 الى الدار ؟ لا ••• اننى أريد أن أرى الجثث أولاً • يقال انهم قتلوا
 زوجته • ولكنه يقول انه هو الذى قتلها • ليس هذا صحيحاً ، أليس

كذلك ؟ ليس صحيحاً ، هه ؟ أريد أن أرى بعينيّ . . . الأشخاص الذين قتلوهم بسببي أنا ! . . . بسببهم انما فقدت حبه هذه الليلة . . . سوف أرى كل شيء وأعرف كل شيء . أسرع ! أسرع ! اننى أعرف ذلك البيت . . . ولقد أشعلوا فيه النار . . . مافريكى نيقولا يفتش ، لا تغفر لى ، لقد كان سلوكى غير شريف ! لماذا عسى يُغفر لى ؟ ما بالك تبكى ؟ اصفعنى ، واقتلنى ، فى هذا المكان نفسه ، كما يُفعل بكلب !

قال مافريكى نيقولا يفتش بصوت ثابت :

— لا أحد يحق له أن يحكم عليك . وأنا آخر من يحق له أن يحكم عليك ! غفر الله لك !

ان الحوار الذى جرى بينهما سيدو للقارىء غريباً عجيباً اذا أنا نقلته . كانا يمشيان يداً بيد ، بخطى وثيدة ، كمجنونين ، سائرين نحو الحريق قدماً لا يلويا على شيء . لم يكن مافريكى نيقولا يفتش قد فقد الأمل ، بعد ، فى أن يلقى عربةً ما ، ولكن الطريق كانت خالية مقفرة . وان رذاذاً من المطر يحجب المنظر ، مديباً الأشكال والألوان ، مغشياً كل شيء بنقاب أشهب . كانت الشمس قد شرقت منذ مدة ، ومع ذلك كان الجو كأنه ليل . وفجأةً ، من هذا الضباب المتجدد ، انبجست قامة غريبة ، شاذة . اننى حين أتصور هذا المشهد أتخيل اننى لو كنت فى محل ليزافتا نيقولا يفنا لما صدقت عينيّ . ولكن ليزافتا نيقولا يفنا سرعان ما تعرفت صاحب القامة ، فأطلقت صرخة فرح . انه ستيفان تروفيموفتش . كيف هرب من بيته ؟ كيف استطاع أن ينفذ ذلك المشروع الخيالى الغريب الذى كان يساوره منذ زمن طويل ؟ . ستعرفون كل شيء فيما بعد . وحسبى الآن أن أشير الى أنه كان مريضاً منذ ذلك الصباح : كانت به حمى . ولكن لا شيء كان يستطيع أن يثنيه عما عقد النية عليه . انه يسير

فى الطريق الموحلة بخطى ثابتة • ومن يرّاه يدرك أنه كان قد أعدّ قراره كما يمكن أن يُعدّه رجل غير ذى خبرة ، وحيداً فى غرفة مكتبه الهادىء الساكن • كان ستيفان تروفيموفتش مرتدياً « لباس السفر » ، أى أن معطفه كان مشدوداً على جسمه بحزام عريض من جلد لامع ، وكان يحتذى جزمتين عاليتين • لعل هذه الصورة هى التى كانت فى خياله عن « المسافر » • أما حزام الجلد وحذاء الفارس اللذين كانا يضايقانه فى سيره كثيراً ، فأغلب ظنى أنه كان قد هياهما منذ عدة أيام • وكان يكمل هذا اللباس قبعة عريضة الحافة ، ولثام مشدود حول عنقه • وكان يحمل بيسراه كيساً للسفر صغيراً لكنه محشو حتى ليكاد ينفجر ، ويحمل يميناه عصا ومظلة مفتوحة • ان هذه الأشياء الثلاثة - العصا ، والكيس ، والمظلة - كان حملها مزعجاً جداً ، وقد نقلت على ستيفان تروفيموفتش منذ الفرسخ الثانى •

هتفت ليزا تقول :

- أهذا أنت ؟ هل يُعقل أن تكون أنت ؟

لقد كانت حركتها الأولى فرحاً ، ولكن سرعان ما حلّ محلّ الفرح دهش أليم !

وهتف ستيفان تروفيموفتش هو أيضا يقول وهو يهرع اليها :

- ليزا ! عزيزتى ! عزيزتى ! هل يُعقل أن ... أن تكونى أنت قد ... فى هذا الضباب المظلم ؟ هل ترين الحريق ؟ « انك شقية ، أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) • اننى أرى هذا • لا تقصى على شياً ، ولا تسألينى عن شىء أيضا • « نحن جميعاً أشقياء ، ولكن يجب أن نغفر لهم جميعاً ! فلنغفر يا ليزا ! » (بالفرنسية) ولنكن أحراراً الى الأبد ! ولكى ننتهى من الناس ونصبح أحراراً « يجب أن نغفر ، وأن نغفر ، وأن نغفر ! » (بالفرنسية) •

- ولكن ما بالك تجنو راکماً على ركبتيك ؟

- لأننى وأنا أودّع العالم أريد أن أودّع فى شخصك ماضى كله !

وأخذ ستيفان تروفيموفتش يبكى ، وحمل يدي ليزا الى عينيه •
وأردف يقول :

- انى أجنو راکماً أمام كل ما كان فى حياتى جميلاً • اننى أقبل
يديك وأقول لك شكراً ! لقد شطرت حياتى شطرين : مجنوناً هناك كان
يحلم بأن يرتقى السماء ، « اتنين وعشرين سنة » ! وشيخاً هنا ، مسحوقاً ،
متجهداً ، معلماً ••• « عند ذلك التاجر ، هذا اذا وُجد ذلك التاجر »
(بالفرنسية) •

وصاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو ينهض لأنه أحس بالأرض
رطبة تحت ركبتيه :

- ولكنك مبتلة يا ليز ! وكيف يمكن هذا ؟ أبهذه الملابس ؟ •••
وسيراً على القدمين ؟ ••• وسط الحقول ؟ ••• انك تبكين ! « أنت
شقية ؟ » (بالفرنسية) • آ ••• نعم ••• سمعت ••• ولكن من أين
أنت الآن آتية ؟

كان يلقي عليها هذه الأسئلة وجلّ الهيئة ، ملقياً على مافريكى
يقولايقتش نظرات دهشة • وأردف يسأل :

- ولكن هل تعلمين كم الساعة الآن ؟

قالت ليزا :

- ستيفان تروفيموفتش ، هل سمعت عن أولئك الأشخاص الذين
قتلوا ؟ ••• أهذا صحيح ؟ ••• أهذا صحيح ؟ •••

– أولئك الأشخاص ! لقد لبثت الليل كله أتأمل حمرة لبيب
جريمته • كان لا يمكن أن ينتهوا الى غير هذا •
وسطعت عيناه من جديد • وواصل كلامه يقول :

– اننى هارب من هذيانهم • اننى أتترع نفسى من كوايسهم • اننى
ماضٍ أبحت عن روسيا • أهى توجد ، روسيا ؟ آه ••• هذا أنت أيها
الكابتن العزيز ! لم يساورنى أبدا شك فى أنتى سأراك فى يوم من الأيام
تحقق عملاً نبيلاً • ولكن خذى مظلتى • ثم لماذا السير على الأقدام ؟
ناشدتك الله ! خذى مظلتى على الأقل ! وسأجد فى النهاية عربة تقلى •
لقد رحلت سيراً على القدمين لأن ستارى (يريد أن يقول ناستاسيا) كان
يمكن أن تهيج الشارع كله لو عرفت أننى راجل • لقد تسلفت مجهولاً •
ان جريدة « الصوت » ملأى بقصص عن قطاعى طرق • ولكن يستحيل ،
فيما أظن ، أن أقع على واحد من قطاع الطرق فور سيرى فى الطريق •
عزيزتى ليزا ، يخيل الى أنك قلت منذ هنيهة أن أحداً قتل ، أليس
كذلك ؟ رباه ! انها يُغمى عليها •

هتفت ليزا تقول بحرارة وهى تجر مافريكى نيقولايفتش من جديد :
– هيا بنا ، بسرعة ! ياستيفان تروفيموفتش ، لحظة •••
قالت ذلك وعادت الى ستيفان تروفيموفتش • وتابعت تخاطبه :

– أريد أن أرسم عليك اشارة الصليب ، أيها الرجل المسكين ! لعل
الأفضل أن توثق بالأغلال ، ولكننى أوتر أن أباركك • أنت أيضا صل
للمسكينة ليزا ، قليلاً ، دون أن تتعب نفسك •

وعادت تخاطب مافريكى نيقولايفتش فقالت له :

– يا مافريكى نيقولايفتش ، أعد الى هذا الطفل مظلمته • أعدها اليه
حالا • هلم بنا ••• فلنمشى !

ووصلا الى المنزل المشؤوم بعد أن كان الجمهور الذى يحتشد فى مكان الجريمة قد سمع كلاما كبيرا عن ستافروجين وعن الفوائد التى يجنيها من مقتل امرأته • ومع ذلك ظل أكثر الناس هادئين صامتين • وانما كان يضطرب ويصرخ بينهم عددٌ من السكارى والمدفيعين ، كذلك القفّال الذى سبق أن تكلمت عنه • ان هذا القفّال مشتهر بأنه رجل وديع مسالم ، ولكنه يفقد صوابه تماما حين يعصف به انفعال قوى ، فلا يدرك عندئذ ماذا يفعل •

اننى لم أرَ وصول ليزا ومافريكى نقولايفتش • فما كان أشدَّ دهشتى حين لمحتها فى وسط الجمهور المحتشد ، بعيدا عنى ! أما مافريكى نقولايفتش ، فاننى لم أميّزه فى اللحظة الأولى • جائز أن يكون الجمهور قد فصله عن الفتاة ، فأصبح متخلفاً عنها قليلاً • كانت ليزا تشق الحشد الغفير دون أن ترى أو أن تسمع ما يجرى حولها ، كأنها مجنونة هاربة من المستشفى • لذلك لم تلبث أن لفتت إليها الأنظار • فدوت عندئذ صيحات كثيرة ، وصرخ أحدهم يقول فجأة : « هذه آنسة ستافروجين ! » وقال صوت آخر : « لا يكفيهم أن يقتلوا الناس ، وانما يريدون أيضا أن يروا جثتهم ! » •

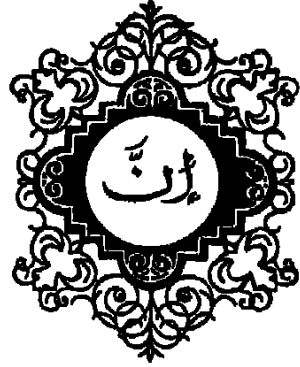
وفجأة رأيت ذراعاً ترتفع فوق ليزا وتهوى على رأسها • وسمعت فى تلك اللحظة نفسها صيحة رهيبية : انه مافريكى نقولايفتش يشب لنجدة الفتاة ، ويضرب بجميع قواه الرجل الذى كان يفصله عن ليزا • ولكن القفّال الذى كان وراءه أمسك يديه •

كان الاضطراب والازدحام يبلغان من الشدة اننى خلال بضع ثوان لم أستطع أن أرى شيئا • أظن أن ليزا نهضت ، ولكنها لم تلبث أن سقطت مرةً أخرى بضربة جديدة • وابتعد الجمهور فجأة فشكل دائرةً حول

ليزا الراقدة على الأرض ومافريكى نيقولا يفتش المسعور النازف دماً ،
الذى كان يميل على الفتاة عاقفاً يديه • لا أتذكر على وجه الدقة ماذا
جرى بعد ذلك • ولكننى أتذكر أن الناس حملوا ليزا • وركضت أنا
وراهم : كانت ليزا ما تزال تتنفس • بل لعلها لم تكن قد أُغْمى عليها •
واعْتُقِل القفَّال وثلاثة أفراد آخرين • ان هؤلاء الثلاثة ما يزالون الى
اليوم يحتجون ببراءتهم ويؤكدون أنهم اعتُقلوا خطأً • ولعلمهم صادقون •
أما القفَّال فرغم أنه شوهد متلبساً بالجرم ، لم يمكن أن يُستخرج منه
شيء ، بسبب اضطراب أفكاره • وحين دُعيت للشهادة ، رغم أننى لم أَرَ
شيئاً كثيراً ، أفدت بأن هذا القتل كان نتيجة تضافر ظروف سيئة ، وأن
القتلة وقد هاجهم كل ما كانوا قد سمعوه ، عدا أنهم سكارى ، انما تصرفوا
بغير وعى أو شعور ، ولم يدركوا ما كانوا يفعلون • وما يزال هذا رأيي
الى اليوم •

الفصل الرابع

فدرار وقصى



أشخاصاً عدة التقوا ببطرس ستيفانوفتش فى ذلك الصباح • وقد تذكروا فيما بعد أنه بدا لهم مهتاجا اهتياجا شديداً •

وفى الساعة الثانية بعد الظهر مرَّ بمسكن جاجانوف الذى وصل أمس من الريف • كان البيت مليئا بالناس ، وكان هؤلاء يناقشون أحداث المدينة بحرارة واندفاع • وقد تحدث بطرس ستيفانوفتش أكثر مما تحدث الآخرون ، واستطاع أن يحملهم على الاصغاء اليه • ان الناس عندنا كانوا دائما يعدونه « طالباً ثرثاراً مختلفاً بعض الاختلال » ، ولكنه أدار الحديث على جوليا ميخائيلوفنا ، فكان ذلك موضوعا مثيراً للاهتمام ، فى وسط تلك البلبلة العامة الشاملة • وقد ذكر عن جوليا ميخائيلوفنا ، بصفته من خلصاتها المقرَّبين ، عدداً من التفاصيل الجديدة غير المتوقعة • ونقل كذلك (كأنما عن طيش ودون أن يريد ذلك) عددا من أحكامها على بعض الأشخاص المرموقين ، فكان من شأن هذا طبعا أن قرص كبرياء الحاضرين منهم • وكان يعبَّر عن نفسه بكلام مبهم مقطَّع مفكِّك • لذلك أشعر الناس بأنه رجل قليل المكر لكنه شريف ، اضطر أن يشرح دفعةً واحدة طائفةً من أنواع سوء التفاهم ، فهو لسذاجته الخرقاء لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهى • وقد أفلت

من لسانه قوله بغير حذر : ان جوليا ميخائيلوفنا كانت على علمٍ بسرِّ ستافروجين ، وانها هي التي حبكت المؤامرة التي كان بطرس ستيفانوفتش هو نفسه ضحية لها ، لأنه كان هو أيضاً مغرماً بحب تلك المسكينة ليزا . وقد بلغت من احكام حبك المؤامرة أنه هو ، بطرس ستيفانوفتش ، قد تولى بنفسه « تقريباً » ايصال ليزا الى ستافروجين بالعربة . « نعم ، يا سادة ، انه لسهل عليكم أن تضحكوا ! ولكن لو اننى عرفت ، لو اننى عرفت ، ما ستؤول اليه الأمور ! » . وجواباً عن الأسئلة القلقة التي ألقوها عليه بصدد ستافروجين صرَّح بقوله انه يعتقد أن مقتل ليادكين لم يكن الا مصادفة محضاً ، وان ليادكين كان ضحية حماقته نفسها ، لأنه راح يتباهى فى كل مكان بأن عنده مالا . وقد بدت تعليقات بطرس ستيفانوفتش فى هذا الصدد واضحة جداً . ومع ذلك علق أحد مستمعيه على كلامه قائلاً « هذا تمثيل لا ينطلى على أحد » : لقد شرب وأكل حتى لقد نام عند جوليا ميخائيلوفنا ان صح التعبير ، وها هو ذا رغم ذلك أول من يقول فيها سوءاً . ليس ذلك بالأمر المستحسن منه كما قد يظن . ولكن بطرس ستيفانوفتش دافع عن نفسه بلهجة وقورة جداً يقول :

– اذا أكلتُ وشربت عندها ، فليس ذلك عن عوز . أأكون مذنباً اذا هى دعتنى دائماً ؟ اسمح لى أن أكون بنفسى حكماً على مايجب لها على من شكر وامتنان !

كان الشعور العام مؤيداً له على وجه الاجمال . « انه لم يخترع البارود طبعاً ، ولكن لا يمكن أن يُعدَّ مسئولاً عن حماقات جوليا ميخائيلوفنا . بالعكس : كان فيما يبدو يحاول أن يكبح جماحها . . . » .

فى نحو الساعة الثانية سرت شائعة على حين فجأة تقول ان ستافروجين قد سافر الى بطرسبرج فى قطار الظهر . وقد أثار هذا النبأ فضولاً قوياً ، حتى ان بعضهم اكفهر وجهه . أما بطرس ستيفانوفتش

فقد بلغ من الاضطراب للنبا أنه غير سحنته فيما يقال ، وصرخ يسأل :
 « من ذا الذى تركه يسافر ؟ » • ولم يلبث أن غادر الحفل فوراً • ولكنه
 رثى فى منزلين آخرين أو فى ثلاثة منازل أخرى •

وفى نحو المساء استطاع أن ينفذ الى عند جوليا ميخائيلوفنا ، بغير
 قليل من العناء ، لأنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تلتاقه • اننى لم أعلم
 بهذه الزيارة الا بعد ثلاثة أسابيع ، وذلك من جوليا ميخائيلوفنا نفسها ،
 قبيل رحيلها الى بطرسبرج • وهى لم تطلعنى على التفاصيل ، ولكنها اعترفت
 وهى ترتعش بأنه فى تلك الزيارة قد «أدهشها ادهاشا يفوق كل حد » •
 أظن أنه هدهدا بأن يشى بها شريكةً اذا هى تكلمت • لقد كان صمت جوليا
 ميخائيلوفنا لا غنى عنه اطلاقاً لمشاريع بطرس ستيفانوفتش التى كانت المرأة
 المسكينة تجهلها طبعاً • ولم تدرك جوليا الا بعد خمسة أيام لماذا كان
 يحرص ذلك الحرص كله على أن تصمت ، ولماذا كان يخشى أن يتجلى
 استياؤها صريحاً •

وفى نحو الساعة الثامنة من المساء ، حين خيم الظلام كاملاً ، كان
 « أصحابنا » يجتمعون كلهم ، هم الخمسة ، فى مسكن الضابط حامل
 الراية ، اركل ، الذى كان يقيم فى منزل صغير بأقصى المدينة يوشك أن
 يتداعى • ان بطرس ستيفانوفتش نفسه هو الذى دعا الى عقد هذا
 الاجتماع • ولكنه تأخر عن الموعد فلم يصل حتى الآن ، فأعضاء الحلقة
 ينتظرونه منذ ساعة كاملة • ان اركل هو ذلك الضابط نفسه الذى لبث
 فى سهرة فرجنسكى جالساً طول الوقت أمام دفتر ملاحظات ، وفى يده
 قلم رصاص • انه مقيم عندنا منذ مدة قصيرة ، وهو يقطن فى شارع صغير
 صامت ، لدى أختين عانسين • وكان يقال انه سيغادر مدينتنا بعد وقت
 قصير • لقد عقد الاجتماع فى بيته لأن عقد الاجتماع فى هذا المكان غير
 معرّض لأن يلاحظ كما يمكن أن يلاحظ فى مكان آخر • ولقد كان

هذا الفنى الغريب صموتاً صمتاً خارقاً : كان يمكن أن يقضى عشر سهرات متتاليات فى مجتمع يبلغ أقصى درجات الحركة والحماسة ، وأن يستمع الى أحاديث طويلة تبلغ أقصى درجات الجلبة والصخب ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وانما هو ينصت الى المتحدثين ساكناً ، منقلاً بينهم عينيه اللتين تشبهان عيني طفل ، متفرساً فيهم بانتباه . وكان له وجه جميل لا يخلو من ذكاء . انه ليس واحداً من حلقة « الخمسة » التي كان أعضاؤها يعدونه مكلفاً بمهمة خاصة تنفيذية لا أكثر . ولكننا نعلم الآن أنه لم يكن مكلفاً بأية مهمة . ولعله هو نفسه كان لا يدرك وضعه ادراكاً واضحاً . لقد كان يكفيه أن يعبد بطرس ستيفانوفتش الذى عرفه منذ مدة قصيرة . بينما لو التقى اركل بأى مخلوق شاذ ، فاستطاع هذا المخلوق الشاذ أن يضفى على حديثه اليه ثوباً اشتراكيا رومانسياً ما ، فى سبيل أن يدفعه الى تأليف عصابة من قطاع الطرق ، ثم أمره من أجل وضعه فى موضع الاختبار أن يقتل ويسلب أول فلاح قادم ، لانصاع اركل للأمر الذى صدر اليه ولفذته بغير أى تردد . كانت أمه المريضة تعيش فى الريف ، وكان يرسل اليها نصف راتبه الهزيل . فما كان أعظم نسوق الأم الى تقبل هذا الرأس الأشقر ، وما كان أشد قلقها عليه ، وما كان أقوى حبها له . لا شك أنها كانت تدعو له كثيراً !

كان « أصحابنا » مضطربين اضطراباً شديداً . لا شك أن أحداث الليلة البارحة قد أدهشتهم وروعتهم . ان الفضيحة التي ساهموا فى احداثها راضين قد انتهت الى خاتمة لم تكن فى الحسبان قط . فحريق الليل ، ومقتل ليادكين ، وتهشيم ليزا ، كل ذلك مفاجآت لم تكن جزءاً من برنامجهم . انهم يهتمون بطرس ستيفانوفتش بالاستبداد ، ويأخذون عليه بكثير من المرارة أنه يخفى عنهم الأمور . الخلاصة أنهم بانتظار وصول بطرس ستيفانوفتش قد بلغوا من الحنق أنهم

قررنا أن يسألوه ايضاحات قاطعة ، وأن يطلبوا منه تفسيرات فاصلة •
 فاذا راوغ مرةً أخرى ، فسوف يحلون حلقتهم ، وسوف ينشئون بدلاً
 منها جمعية سرية جديدة ترمى الى هدف واحد هو « الدعاية للأفكار » ،
 وتقوم على قواعد المساواة والديموقراطية • وكان ليبوتين وشيخالوف
 والشخص الذى يقول انه يعرف الشعب الروسى حق معرفته ، يؤيدون
 هذا المشروع بحرارة وحماسة ، وكان ليامشين صامتا ولكن هيئته تعبر عن
 تأييد وتحييد • أما فرجنسكى فكان ما يزال مترددا ، وكان يلح على
 ضرورة انتظار الايضاح من بطرس ستيفانوفتش • وتقرر أخيرا أن
 يُفسح لبطرس ستيفانوفتش مجال الايضاح • ولكن بطرس ستيفانوفتش
 ما يزال متأخرا عن الحضور ، فكان اهماله هذا يصب على النار زيتاً • وكان
 اركل صامتا يحضر الشاي ويقدمها بنفسه فى أفداح على صينية حتى
 لا تدخل الخادمة الغرفة •

لم يصل بطرس ستيفانوفتش الا فى الساعة التاسعة والنصف •
 وما هو ذا يتقدم بخطى سريعة نحو المائدة المستديرة التى جعلت أمام
 الديوان وتحلقت حولها الجماعة • وقدمت اليه قدح من الشاي لكنه
 رفضها • وكان وجهه يُعبّر عن حنق وقسوة وتكبر • لعله أدرك من
 هيئة الحاضرين فورا أن الحلقة « تتمرّد » •

قال وهو يتنسم ابتسامة صفراء ويطوف ببصره على الوجوه :

— قبل أن أفصح فمى ، أفرغوا ما فى أنفسكم من كلام !

فانبرى ليبوتين يتحدث « باسم الجميع » فقال بلهجة مستائة « ان
 الاستمرار على هذا الأسلوب يهدد كل واحد بتحطيم جبهته » • ونحن
 لا نخشى أبداً أن تتحطم جباهنا ، لا ، بل اننا مستعدون لهذا أتم الاستعداد ،
 ولكن على شرط أن يكون الهدف هو خدمة العمل المشترك وحده •

هنا قام أفراد الجماعة بحركات شتى تنم عن التأييد • وتابع ليبوتين

كلامه فقال : فيجب اذن أن تكون صريحاً مع أعضاء الجماعة ليعرفوا سلفاً الى أين هم سائرون ، والا فما عسى يحدث ؟ » •

هنا أيضا ظهرت حركات تأييد وقامت دمدمات شتى • وواصل ليوتين كلامه يقول : ان هذا التصرف يشتمل على اذلال ، كما أنه محضوف بالخطر • « ليس معنى ذلك أننا خائفون • ولكن اذا عمل فرد واحد بينما الآخرون لا يزيدون على أن يكونوا يبادق شطرنج يحركها كما يشاء ، فانه سيورطهم جميعا فيما لا يد لهم فيه » •

« نعم ، نعم ! » • كذلك تعالت أصوات الآخرين مؤيدة •

– ماذا تريدون مني ؟

– ما شأن المكائد الصغيرة التي يدبرها ستافروجين بالعامل المشترك والقضية العامة ؟

كذلك تابع ليوتين كلامه سائلاً باستياء • وأردف يقول :

– ربما كان عضواً في اللجنة المركزية – هذا اذا كان لتلك اللجنة السرية العجيبة وجود حقا – ولكننا لا نريد أن نعرف عن ذلك شيئاً • غير أن جريمة قتل قد ارتكبت ، والشرطة تبحث القضية ، فاذا تابعت الخيط الى آخره وصلت اليها •

قال تولكاشنكو ، الرجل الذي يعرف الشعب الروسي حق معرفته ، قال مضيفاً الى كلام ليوتين :

– اذا أخذت مع ستافروجين ، فسوف نؤخذ نحن أيضا •

وقال فرجنسكى يختم الحديث :

– وسوف نؤخذ بدون أية فائدة تعود على قضيتنا المشتركة •

– يا للحماقة ! ان جريمة القتل هذه لا ترجع الا الى المصادفة • ان

فدكا هو الذي فعل هذه الفعلة ليسلب الكابتن ما معه من مال •

قال ليوتين معتباً ، وهو يحرك قسما وجهه بمعنى التهكم :

- هم ! ... مصادفة عجيبة مع ذلك *

- ثم ان الخطأ خطؤكم على كل حال *

- خطؤنا نحن ؟ كيف هذا ؟

- أولا : لقد شاركت أنت نفسك في تدبير الحيلة يا ليوتين *
والأخطر من هذا ثانيا أنى أمرتك بترحيل ليادكين الى بطرسبرج ، حتى
لقد أعطيتك المال اللازم * فماذا فعلت ؟ لو أنك رحلته لما حدث شيء مما
حدث *

- ولكن ألسنت أنت الذى أوحيت الى فكرة حمله على قراءة أشعار
فى الصبيحة الأدبية ؟

- اذا أوحيت اليك فكرة فليس معنى ذلك أنى أصدرت اليك أمراً *
ان الأمر الذى أصدرته اليك هو أن ترحله *

- « الأمر » الذى أصدرته الى ؟ يا له من تعبير غريب ... ان
الواقع هو نقيض هذا : لقد أمرت بالتريث ، وارجاء رحيله *

- أخطأت الفهم ، وبرهنت على أنك شديد الحماسة وعلى أنك لاتتقيد
بالنظام * ان جريمة القتل كانت من فعل فدكا * وقد تصرف من تلقاء
نفسه بغية الاستيلاء على مال الكابتن * وأنت سمعت أقاويل فصدقتها
فوراً ، فخفت * ليس ستافروجين غيباً الى هذا الحد * والبرهان أنه سافر
ظهر هذا اليوم بعد أن قابل نائب الحاكم * فلو كان هناك ما يدعو الى
الاشتباه فيه ، لما أذن له بالسفر فى وضوح النهار *

استأنف ليوتين كلامه بلهجة تشتمل الآن على حقد وتخلو من

التحرج :

- نحن لا نقول البتة ان السيد ستافروجين قتل بيديه • حتى ليتمكن
أن يكون جاهلاً بكل شيء ، مثلى أنا • انك لتعلم علم اليقين أنني كنت
أجهل كل شيء ، وهأنذا مع ذلك قد أقمحت في الفخ •

- فمن ذا تتمهم اذن ؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش مربراً الوجه •

فأجابه ليوطين :

- أنهم أولئك الذين يحرقون المدن •

- أنكى ما فى الأمر أنك تمكر وتراوغ • على كل حال ، أرجو أن
تحمل نفسك عناء قراءة هذه الورقة ، وأن تنقلها بعدئذ بين الآخرين من
باب العلم بالشيء •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك واستل من جيبه رسالةً غير مذيلة
باسم صاحبها (وهى رسالة كان لبيادكين قد كتبها الى لبيكه) ، ومدّها الى
ليوتين • فقرأها ليوطين ثم ناولها جاره ذاهلاً الهيئة • ولم تلبث الرسالة
أن طافت على الحضور جميعاً •

سأل شيجالوف :

- أهذا خط لبيادكين حقاً ؟

فقال ليوطين وتولكاشنكو مؤكداً :

- نعم ، هو خط لبيادكين •

فال بطرس ستيفانوفتش وهو يعيد الرسالة الى جيبه :

- لم أطلعكم على الرسالة الا لتكونوا على علم ، ولأننى رأيت أنكم
تترنون لمصير لبيادكين • هكذا يكون فدكا قد خلصنا اذن من رجل خطر

الى أقصى حدود الخطر • هناك مصادفات غريبة أحيانا • أليس هذا بليغ
الدلالة يا سادة ؟

• تبادل أعضاء الحلقة نظرة سريعة •

قال بطرس ستيفانوفتش وقور الهيئة :

– والآن يا سادة جاء دورى أنا لأسألكم • كيف أبحتم لأنفسكم أن
تشعلوا الحريق فى المدينة بدون اذننى •

– ماذا ؟ أنحن أشعلنا الحريق فى المدينة ؟

تابع بطرس ستيفانوفتش يقول دون أن يقيم وزناً لسؤالهم المتعجب :

– أفهم أن تكونوا قد اندفعتم فطرفتم وأسرفتم • ولكن الأمر ليس
أمر فضيحة صغيرة فى هذه المرة • لقد جمعتمك هنا أيها السادة لأريكم
مدى الخطر الذى أدت حماقتكم الشديدة الى وضعه فوق رؤوسكم ،
والذى يهدد مصالح أخرى غير مصالحكم أنتم •

هتف فرجنسكى يقول مستاءً وكان قد ظل ساكتاً حتى ذلك الحين :

– اسمح لى • نحن الذين كنا ننوى أن نحتج على استبدادك وطغيانك

الذين فرضا هذا التدبير الغريب العجيب الخطير !

– اذن أنتم تكفرون • ولكننى أنا أوكد أنكم أنتم أحرقتم المدينة •

لا تكذبوا أيها السادة • اننى أملك معلومات دقيقة • ان عدم انضباطكم
يجعل القضية المشتركة والعمل المشترك فى خطر • ما أنتم الا حلقة
واحدة فى شبكة واسعة ، فيجب أن تخضعوا للجنة المركزية خضوعاً
أعمى • ومع ذلك فان ثلاثة منكم لم يصدر اليهم أى أمر فى هذا الموضوع
هم الذين دفعوا عمال مصنع شيبجولين الى اشعال النار فى المدينة ، فشب
الحريق •

- من هم هؤلاء الثلاثة ؟ اذكر أسماءهم !

- أمس الأول ، في الساعة الثالثة من الصباح ، في كاباريه « ميوزوتس » ، قمتَ أنت يا تولكاتشنكو بتحريض زافيا لوف •

قال تولكاتشنكو منتفضاً :

- اسمح لي • أنا لم أكد أقول الا كلمة واحدة في هذا الصدد ، ولم أكن أتوى أى شيء معين محدد ، ولم أتكلم الا لأنه كان قد جُلد في الصباح • ثم سرعان ما تركته اذ لاحظت أنه سكران • ولولا أنك ذكّرتنى بهذا الحادث الآن ، لما خطر ببالي من تلقاء نفسه في لحظة من اللحظات • ان كلمة تقال عرضاً ومصادفة لا يمكن أن تشعل النار في مدينة •

- أنت أشبه بانسان يدهشه كثيراً أن تفجّر شرارة معزن بارود •

هتف تولكاتشنكو يقول :

- لقد كلمته بصوت خافت ، همساً في أذنه ، وكنا في آخر الصلاة • فكيف علمت بالأمر ؟

- كنت مختبئاً تحت المائدة • لا تخشوا شيئاً أيها السادة • اننى أعرف كل واحد منكم • أراك تبسم ساخراً يا سيد ليوتين • طيب • أنا أعلم مثلاً أنك منذ ثلاثة أيام ، فى منتصف الليل ، حين رقدت على فراشك ، قرصت زوجتك حتى أدميتها •

فغر ليوتين فاه من الدهشة واصفرّ لونه •

(وقد علّم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش قد علم بفعله ليوتين هذه من آجافيا ، خادمة ليوتين التى كانت منذ البداية تتجسس لبطرس ستيفانوفتش) •

سأل شيجالوف وهو ينهض فجأة :

- هل أستطيع أن أقرر واقعة ؟

- افعل •

فعاد شيجالوف يجلس ، وفكّر لحظةً ، ثم قال :

• اذا كان ما فهمته صحيحا - ومن المستحيل أن لا يكون صحيحا - فانك قد قلت منذ البداية ثم كررت مرة أخرى ، متكلما بكثير من البلاغة والفصاحة ، وان يكن كلامك نظريا ، أن هناك شبكة تغطي روسيا كلها وأن جماعتنا ليست الا حلقة في هذه الشبكة • فكل جماعة من هذه الجماعات ، وهى جزء من الحزب الذى يتفرع ويتفرع الى غير نهاية ، يجب عليها أن تقوم بدعاية منظمة تقوّض السلطات المحلية ، وتشر الاضطراب فى الأرياف ، وتثير الفضايح ، وتذكى الرغبة فى حال أفضل ، وكذلك تعتمد الى اشعال الحرائق التى هى وسيلة شعبية جدا ، لتغرق البلاد فى وهدة اليأس فى الوقت المناسب • أهذه أقوالك نفسها حاولت أن أحفظها كلمة كلمة أم لا ؟ أهذا هو برنامجك الذى نقلته الينا بصفقتك عضواً فى لجنة مركزية لا نعرفها بعد ، وتكاد تبدو لنا قائمة فى عالم الغيب ؟

- هذا صحيح • ولكن ما أطول اسهابك !

- لكل انسان أن يعبر عما بنفسه كما يشاء • انك حين أفهمتنا أن الشبكة التى تغطي روسيا كلها تُعدّ منذ الآن بمئات الحلقات ، وحين أفهمتنا أنه اذا قامت كل حلقة من هذه الحلقات بواجبها ، فان روسيا كلها ، فان روسيا كلها ، باشارة واحدة •••

- شيطان يأخذكم جميعا ! ان على عاتقى أعباء كافية ، بدون أن تزيدوها أتم •••

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك على مقعده •

قال شيجالوف :

- طيب • سأوجز • وسأكتفى بأن ألقى عليك السؤال التالي : لقد
نهدنا هنا فضائح منذ الآن ، ورأينا استياء الأهالي ، وحططنا سلطة الإدارة
المحلية ، ونهدنا حريقا • فممّ استياؤك اذن ؟ أليس هذا برنامجك ؟
ما الذى تستطيع أن تأخذه علينا ؟

- آخذ عليكم عدم خضوعكم !

كذلك صرخ يقول بطرس ستيفانوفتش • وتابع كلامه فقال :

- ما دمت أنا هنا فانه لمحظور عليكم أن تتصرفوا بدون اذن منى •
كفى ! سيوشى بنا غداً بل ربما اللبلة ، وسنعتقل جميعا • ذلك ما أردت
أن أقوله لكم • معلوماتى أكيدة •

أذهلهم هذا النبأ بل صعقهم •

- سيوشى بنا من حيث أننا مشعلو حرائق ، ومن حيث أننا ثوريون •
ان الواشى يعرف جميع التفاصيل • هذه ثمرة حماقاتكم !

صاح ليوتين يقول :

- هو ستافروجين حتماً •

- ستافروجين ؟ ••• لماذا ؟ •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجمد • ولكنه لم يلبث الى أن تاب

الى نفسه • ثم قال :

- بل هو شاتوف • أظن أنكم تعلمون جميعا أن شاتوف كان فى
الماضى عضواً بالجمعية • ويجب علىّ أن أقول لكم اننى قد كلفت بمرايبنه

أناساً لا يرتاب في أمرهم ، فما كان أشد دهشتي حين عرفت أن تنظيم شبكتنا ليس سرّاً خافياً عليه وأنه يعلم كل شيء ! . . . ومن أجل أن يجعل السلطة تعفو عن اشتراكه في الجمعية ، فإنه سوف يثني بالجميع . ولقد كان يتردد حتى الآن ، وكنت أنا أداريه . أما الآن فانكم بالحريق قد أطلقتكم يديه ، وحررتموه من التردد ، فعزم أمره ، ولكن يصده عن الوشاية بنا شيء . سنعتقل جميعاً في الغد ، بصفتنا مشعل حرائق وبصفتنا مجرمين سياسيين .

– ولكن هل هذا صحيح ؟ كيف يعرف شاتوف ؟

كان الانفعال الذي سيطر على أعضاء الجماعة لا يوصف .

– هذا صحيح كل الصحة . ليس من حقى أن أطلعكم عن الوسائل التي استعملتها ، ولا أن أذكر لكم كيف اكتشفت كل شيء . اليكم مع ذلك ما لا أزال قادراً على فعله لكم : اننى أستطيع ، بواسطة شخص ما ، أن أؤثر في شاتوف دون أن يشبهه في الأمر ، فاحمله على ارجاء الوشاية أربعاً وعشرين ساعة . ففى وسعكم اذن أن تعدوا أنفسكم فى مأمن حتى الصباح من بعد غد .

ساد الصمت دقيقة .

ثم صاح تولكاشنكو فجأة يقول :

– فلنرسل شاتوف اذن الى جهنم !

فتدخل ليامشين قائلاً بصوت حائق وهو يضرب المائدة بقبضه يده ضربة قوية :

– هذا ما كان ينبغى أن نفعله منذ مدة طويلة .

قدمدم لبيوتين سائلاً :

– كيف ؟

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يتلقف الكرة ويعرض خطته ، فيقول ان المطلوب هو استدراج شاتوف غداً عند هبوط الليل الى المكان النائي الذي دفن فيه آلة الطباعة ، بحجة استردادها • فمتى وصل شاتوف الى هناك « تفعلون اللازم » • وقد دخل بطرس ستيفانوفتش في تفاصيل سأسكت عنها الآن ، وعرض وضع شاتوف في الجمعية ، وهو وضع ملتبس كما يعرف القارىء •

قال ليوتين بصوت متردد :

– هذا كله حسن ، ولكن حكاية القتل الجديدة هذه ••• سوف تبلبل الأذهان •••

فأجابه بطرس ستيفانوفتش مؤيداً :

– حتماً • ولكن هذا أيضا محسوب • انا نملك الوسيلة التي تمكنا من أن نصرف عنا الشبهات تماما •

وبذلك الوضوح نفسه تكلم عن كيريلوف ، وعن اعترامه الانتحار ، وذكر أن كيريلوف لن ينتحر الا في اللحظة المطلوبة ، وأنه سيرك رسالة يتهم فيها نفسه بكل ما يطلب اليه أن يتهم به نفسه (ان القارىء مطلع على هذه الأمور كلها) •

وأضاف بطرس ستيفانوفتش معقباً :

– ان اعترام كيريلوف الانتحار ، وهو اعترام قاطع يفسره هو تفسيراً فلسفياً ولكنه ليس في رأيي الا محض جنون ، معروف "هناك" • و «هناك» لا يدعون لشيء أن يضع ، لا يتركون لشعرة أن تفلت ، بل لا يسمحون لذرة غبار أن تذهب سدى • ان كل شيء يمكن أن يفيد عملنا

المشترك • وهكذا فإن «اللجنة» اذ تنبأت بالفائدة التي يمكن أن تجني من انتحاره ، واذ اقتنعت بأن نية الانتحار لديه جدٌ لا هزل ، قد أعطته مالا ليعود الى روسيا (ذلك أن كيريلوف - لا أدري لماذا ! - يحرص حرصا مطلقا على أن يموت بروسيا) ، وعهدت اليه بمهمة تكفل بانفاذها ، وهو ينفذها فعلاً ، وتعهدّ عدا ذلك بأن لا يطلق الرصاص على رأسه الا حين يصدر اليه الأمر بهذا • لاحظوا أنه يريد أن ينفع المجتمع • لا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك • ففي الغد ، « بعد شاتوف » ، سأملئ عليه رسالةً يصرّح فيها بأنه هو الذي قتله • وسوف يظهر هذا الأمر معقولاً : فقد كان الرجلان صديقين ، وقد سافرا معاً الى أمريكا وتشاجرا هناك ••• سوف يذكر هذا كله في الرسالة ••• و ••• حتى لقد يمكننا ، اذا كانت الظروف مواتية ، أن نملئ على كيريلوف أشياء أخرى أيضا ••• فيما يتعلق بالمشورات التحريضية مثلاً ••• بل فيما يتعلق بالحريق كذلك ••• على كل حال ، سأفكر في الأمر مزيداً من التفكير • لا تخشوا شيئاً : انه متحرر من الأوهام الاجتماعية الباطلة ، وسوف يوقع كل شيء يمكن أن نملئ عليه •

أظهر الحضور بعض الشكوك • ان هذا كله يبدو عجيباً كأنه الخيال • ومع ذلك كانوا قد سمعوا جميعاً عن كيريلوف ، ولا سيما ليبوتين •

فقال بطرس ستيفانوفتش قاطعاً :

- لا تقلقوا أيها السادة • سوف يقبل • وبمقتضى الاتفاقات التي تمت بيننا ، يجب أن أبلغه الأمر قبل موعد التنفيذ بيوم ، أي يجب أن أبلغه في هذا اليوم • لذلك اقترح أن يصحبنى ليبوتين ، ويشهد لقاءنا ، ويقول لكم عند عودته ، في هذا اليوم نفسه ، أنا ذكرت لكم الحقيقة أم لا •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم أسرع يضيف في حلق ، كأنه أحسّ أنه بمحاولة اقناع هؤلاء الناس الصغار يهب لهم شرقاً عظيماً لا يستحقونه :

- على كل حال ، افعلوا ما تشاءون ! فاذا لم تعزموا أمركم فقد انفرط عقدكم وانفكت رابطتكم ، وكان ذلك كله انما يرجع الى عدم طاعتكم والى خيانتكم . وبعد تلك اللحظة ، يمضى كل منا فى سبيله ولكن اعلّموا أنكم مهدّدون عندئذ بالنتائج التى ستترتب على وشاية شاتوف بكم ، وأنكم مهدّدون عدا ذلك بانزعاج سبق أن نُبِّهتُم اليه عند انشاء هذه الحلقة . انى ، من جهتي ، لا أخشاكم كثيراً أيها السادة ... لا تظنوا أن مصيرى مرتبط بمصيركم ... على كل حال ، ليس لهذا كله من قيمة ...

قال ليامشين :

- نحن عازمون على العمل .

ودمدم تولكاشنكو قائلاً :

- ليس هناك حل آخر ؟ واذا أكّد ليوتين أقوالك عن كيريلوف ..

هنا صاح فرجنسكى يقول وهو ينهض :

- أنا معارض ! انى أحتج احتجاجاً شديداً على هذا القرار الدموى .

- ولكن ؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش . فقال فرجنسكى :

- ماذا « ولكن » ؟

- أنت قلت « ولكن » ، وأنا أنتظر أن تتم كلامك ...

- أظن أننى لم أقل « ولكن » ... وانما قصدت انى اذا اتخذتم

هذا القرار ، سوف ...

– سوف ماذا ؟

• صمت فرجنسكى

وتدخل اركل فجأة فقال :

– قد لا يكثرث الانسان بأمنه وسلامته ، ولكن اذا كان الأمر يضر بالقضية ، فلا يحق للمرء عندئذ أن يهمل أمنه وسلامته ...

وارتبك اركل وسكت • ونظر الجميع اليه مدهوشين ، رغم انشغال بال كل منهم بمصيره الشخصى • ذلك أنهم لم يألفوا أن يفتح اركل فمه بكلمة أبداً •

قال فرجنسكى :

– فى سبيل القضية ، أنا مستعد لكل شيء •

ونهبوا • وتقرر أن لا يُعقد اجتماع فى الغد ، ولكن أعضاء الحلقة سيُطلعون على الوضع ظهراً ، وسيُتفق عندئذ على التفاصيل • وشرح بطرس ستيفانوفتش أين توجد آلة الطباعة ، ووزّع على الأفراد أدوارهم واحداً واحداً ، ثم مضى الى كيريلوف يصحبه ليوتين •

٢

صحيح أن « أصحابنا » أصبحوا مقتنعين بأن شاتوف يستعد للوشايه بهم ، ولكنهم مقتنعون فى الوقت نفسه بأن بطرس ستيفانوفتش يحركهم كما تحرك اليادق على رقعة الشطرنج • ومع ذلك كانوا يعرفون جميعاً أنهم سيذهبون الى المكان الذى حدده لهم ، وأن مصير شاتوف قد تقرر • كانوا يشعرون أنهم أشبه بذباب سقط فى نسيج عنكبوت ضخم • فكانوا يشعرون بسخط وحق ، ولكنهم فى الوقت نفسه يرتعشون خوفاً •

لا شك أن بطرس ستيفانوفتش قد أخطأ في حقهم • لقد كان يمكن تدبير الأمور كلها تدبيراً أقرب إلى الكياسة ، وأدنى إلى اليسر والسهولة لو أنه كلّف نفسه عناء تجميل الواقع ولو قليلاً • فبدلاً من أن يعرض لهم الوقائع عرضاً يظهر جانبها النبيل ، كأن يحدثهم عن الرومانيين وعن تقيدهم بالنظام وتفانيهم في سبيل الوطن ، عمد إلى التخويف وحده ، فجعل كل واحد منهم يخشى على جلده هو ، وذلك شيء يفقر إلى اللطف والكياسة حقاً • صحيح أن كل شيء إنما يرتد إلى الصراع في سبيل الحياة ، أي إلى تنازع البقاء ، فذلك هو المبدأ الوحيد : هذا أمر يعرفه الجميع • ولكن ، مع ذلك •••

ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته للاستعانة بالرومانيين • لقد كان هو نفسه في حالة تشوش وحيرة • ان اختفاء ستافروجين قد بث في قلبه كثيراً من الاضطراب • كذب بطرس ستيفانوفتش حين قال ان نيقولاى فيسيفولودوفتش قد تحدث مع نائب الحاكم قبل أن يسافر • الواقع أن ستافروجين استقل القطار دون أن يرى أحداً ، حتى أمه • والشيء الغريب أن الشرطة لم تقلقه (حوسبت السلطات على ذلك فيما بعد) • ولقد حاول بطرس ستيفانوفتش أن يستعلم عن ستافروجين ، ولكنه لا يعرف حتى الآن شيئاً • لذلك كان مضطرباً أشد الاضطراب • هل كان يمكنه فعلاً أن يستغنى هذا الاستغناء عن نيقولاى فيسيفولودوفتش ، وأن يدع عن لفقده ؟ ذلكم هو السبب في أنه لم يكن رقيقاً مع « أصحابنا » ، لا سيما وأنهم كانوا يكبلون يديه : فلقد كان يريد في الواقع أن ينطلق ساعياً وراء ستافروجين على الفور • ولكن كان عليه أن يهتم بأمر شاتوف ، وكان عليه أن يعزز ارتباط الخمسة بعضهم ببعض : « من يدري ؟ قد أظلل أستفيد منهم ! » • ذلك ما لعله كان يحدث به نفسه •

زد على ذلك أن بطرس ستيفانوفتش كان مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن شاتوف

يستعد للوشاية بهم • لقد كذب على « الخمسة » : فالحق أنه لم ير تلك
الوشاية أبداً، ولا سمع عنها في يوم من الأيام، ولكنه كان مقتنعا بوجودها •
كان يُخَيَّل إليه أن شاتوف لن يستطيع احتمال الأحداث الأخيرة - موت
ليزا ، مقتل ماريا تيموفتسنا - وأنه سيعزم أمره أخيراً على أن يفعل • من
يدري ؟ لعل بطرس ستيفانوفتش كان من حقه أن يفكر هذا التفكير •
ولقد عُرف منذئذٍ أنه يكره شاتوف كرهاً شخصياً : فهما قد تشاجرا مرةً
في الماضي ، وليس بطرس ستيفانوفتش بالذى يغفر اهانةً في يوم من
الأيام • بل انى لمقتنع بأن هذا هو السبب الرئيسى فى المؤامرة التى دبَّرها
لشاتوف •

ان أرصفة الأجر ضيقة جدا فى بعض الأماكن عندنا حتى لقد تنوب عنها
ألواح خشبية أحيانا • فكان بطرس يسير فى وسط الرصيف فيشغله كله ،
غيرَ مكترثٍ بليوتين أى الكراث ، وكان ليوطين مضطرا أن يركض
وراءه أو أن تتخبط قدماء فى وحل الشارع اذا هو أراد أن يكلمه •
وتذكر بطرس ستيفانوفتش فجأة كيف كان يحب هو نفسه هذا الخبب
منذ بضعة أيام الى جانب ستافروجين الذى كان هو أيضا (متسل بطرس
ستيفانوفتش فى هذه اللحظة تماما) يسير فى وسط الرصيف فيشغله كله •
فحين وافته ذكرى هذا المشهد كاد يختنق غضبا •

ولكن ليوطين كان غاضبا هو أيضا : فى وسع بطرس ستيفانوفتش
أن يتصرف مع الآخرين كما يحلو له ، ولكن لا معه هو ، هو ليوطين ،
الذى يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون ، ويرتبط بالتنظيم ارتباطا أوثق ،
ويشارك فيه مشاركة أعمق ، وذلك منذ مدة طويلة • صحيح أنه كان
يدرك حق الإدراك أن بطرس ستيفانوفتش يستطيع حتى فى هذه اللحظة
أن يتخلص منه ، بل أن يضيقه اذا لزم الأمر • ولكنه كان قد أخذ يكره
بطرس ستيفانوفتش منذ مدة طويلة ، بسبب موقف الغطرسة هذا الذى

يقفه ، وليس بسبب الأخطار التي يقوده إليها • أما الآن وقد تقرر فنل شاتوف ، فإنه حانق أكثر من سائر « أصحابنا » مجتمعين ؛ ولكنه يعرف مع ذلك أنه سيشرع غداً في عمله أول واحد ، « كعبد ذليل » ، بل أنه سيحمل عليه الآخرين • لذلك لا يساورني أى شك في أنه لو كان يستطيع أن يقتل بطرس ستيفانوفتش فوراً ، دون أن يهلك نفسه طبعاً ، لفعل حتماً بغير تردد •

كان غارفاً في احساساته ومشاعره ، ملتزماً الصمت ، يخبُّ وراء جلاده • وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد نسيه تماماً • ولكنه يصدمه بكوعه من حين إلى حين ، دون أن ينتبه إلى ذلك أى انتباه • وفجأةً وقف في شارع من شوارعنا الصغيرة التي تحفل بالناس ، ودخل أحد المطاعم •

هتف ليوئين يسأله :

– إلى أين ؟ ألا ترى أن هذا مطعم ؟

– أريد أن آكل شريحة من اللحم •

– المكان يفص بالناس هنا •

– لا يهمنى •

– ولكن ... سنصل متأخرين • الساعة قد بلغت العاشرة •

– يستطيع المرء أن يذهب إلى كيريلوف مهما يكن الوقت متأخراً •

– أنا الذي سوف أتأخر • انهم ينتظرون عودتى •

– فلينتظروا ! ومن الغباء أن تعود إليهم • اننى لم أصب غداً

اليوم بسبيكم •

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة خاصة من المطعم • واضطر

ليوئين أن يجلس متنجساً على مقعد ، غاضباً حانقاً ، ينظر إليه وهو يأكل •

دام ذلك أكثر من نصف ساعة • لم يتعجل بطرس ستيفانوفتش ، وكان واضحاً أنه يتلذذ بتناول طعامه • وقد رنَّ الجرس ينادى الخادم عدة مرات ، فطلب منه بيرة ثم طلب خردلاً من نوع خاص ، كل ذلك دون أن يتوجه الى ليوتين بكلمة واحدة • كان يبدو غارقاً في أفكاره العميقة ؛ انه قادر في الواقع أن يفعل شيئين في آن واحد : يأكل بشهوة ويفكر • وكان ليوتين من فرط ما يشعر به من كرهه وبغضه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • شيء مرضى حقاً • كان يعدُّ كلَّ لقمة من لقم شريحة اللحم ، التي كان الآكل يحملها الى فمه • انه يكرهه لطريقته في فتح هذا الفم ، لطريقته في مضغ الطعام ، لتذوقه اللقم الدسمة أكثر من غيرها ؛ انه يكره شريحة اللحم نفسها • واضطرب بصره أخيراً ، وأخذ يشعر بدوار ، وسرت في ظهره رعادات •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يرمى الى ليوتين ورقة :

— ما دمت لا تفعل شيئاً ، فاقراً هذا •

دنا ليوتين من الشمعة • ان الورقة ملأى بكتابة مرصوفة ، خطها لا يكاد يُقرأ وفيها شطب كثير • فلما انتهى ليوتين من قراءة الورقة بغير قليل من الصعوبة ، كان بطرس ستيفانوفتش قد فرغ من طعامه ، ودفع الحساب ، ونهض لينصرف •

وردَّ اليه ليوتين الورقة في الشارع • فقال له بطرس ستيفانوفتش :

— بل احتفظ بها ، سأشرح لك فيما بعد ••• ولكن ما رأيك على

كل حال ؟

فارتعش ليوتين •

— رأيي أن منشورا من هذا النوع ••• سخيف ، ومضحك !

لقد أصبح ليوتين عاجزاً عن أن يحتمل أكثر مما احتمل ، وأن يصبر مزيداً من الصبر ، فكان يحس كأن شيئاً ينهضه عن الأرض ويلقيه الى أمام • واستطرد يقول وهو يرتعش حقاً مسعوراً :

– اذا نحن قررنا أن نوزع منشورات من هذا النوع ، فان الناس جميعاً سيحتقرونا لغبائنا وجهلنا بالواقع •
قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة قاطعة وهو ما يزال يتقدم بخطى ثابتة :

– هم ••• أما رأيي أنا فرأى آخر •••

– ذلك رأيي • هل يُعقل أن تكون أنت الذي كتبت هذا البيان ؟
– لا شأن لك •

– أرى أيضاً أن قصيدة « البطل » قصيدة رديئة جداً كذلك ، ولا يمكن أن يكون هرتمن هو الذي نظم هذه الأشعار •
– أنت تكذب : القصيدة رائعة •

قال ليوتين نافضاً كلَّ ما كان يجيش في قلبه :

– يدهشني أن يُقترح علينا أن نعمل على تقويض كل شيء • في أوروبا طبيعي أن يتمنى المرء أن يتقوض كل شيء ، لأن لديهم طبقة بروليتاريا ، أما نحن فلسنا الا هواة ولا نزيد على أن نثير غباراً • ذلك هو رأيي •

– كنت أظن أنك من أتباع فورييه •

– الأمر عند فورييه مختلف ، مختلف تماماً •

– نعم ، أعرف ! ما آراء فورييه الا سخافات •

– لا ، ليس عند فورييه سخافات ... معذرة ، يستحيل عليّ أن
أصدّق أن الثورة ستقوم في شهر أيار (مايو) •

اضطر ليوتين أن يحل أزراره من شدة ما كان يشعر به من حر •
قال بطرس ستيفانوفتش منتقلاً بهدوء محيّر الى موضوع آخر :
– كفى • والآن – قبل أن أنسى – يجب عليك أنت أن تجمع هذا
البيان وأن تطبعه • سوف نخرج مطبعة شاتوف من مدفنها ، ونسلمها لك
غدا • وعليك ، بأقصى ما تستطيع من سرعة ، أن تطبع لنا عددا من النسخ
لنوزّعها أثناء الشتاء تنفيذاً للتعليمات الصادرة إلينا • عليك أن تطبع أكبر
عدد ممكن من النسخ ، لأن أقاليم أخرى ستطلب منا نسخاً •
– لا ، معذرة ... لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أن ... اننى
أرفض •

– لكنك ستنفذ مع ذلك ما أقوله لك • اننى أعمل وفق تعليمات
اللجنة المركزية ، وعليك أن تطبع •
وأنا أرى أن اللجنة المركزية فى الخارج لا تدرك الواقع الروسى ،
وأنها قد قطعت كل صلة لها بالبلاد • انهم هناك يخرفون • بل ان من
رأبى أنه لا يوجد الا حلقة خماسية واحدة هى حلقتنا ، وأن الشبكة التى
تحدث عنها ليست الا وهماً ...

هذا ما انطلق به لسان ليوتين وقد نفذ صبره • فقال بطرس
ستيفانوفتش :

– انه لشيء يدعو الى الاحتقار أن تكون قد لاحقت القضية دون
ايمان بها ... وأن تظل تركض الآن ورائى مثل كلب صغير ...
– لا ، لست أركض • ان من حقنا أن ننسحب وأن ننشئ جمعية
جديدة •

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة التهديد :

– غبى !

وقدحت عيناه شرراً •

بقى الاثنان متقابلين لحظات • وأتاح بطرس ستيفانوفتش وجهه
أخيراً ، وتابع سيره بخطى ثابتة •

التصت في ذهن ليوتين فكرة سريعة كومض البرق فقال يحدث
نفسه : « سأعود أدراجي وأقفل راجعا • ان لم أفعل هذا الآن فلن أفعله
يوما » • وحين قال ذلك لنفسه كان قد سار عشر خطوات • وفي الخطوة
الحادية عشرة شقت ذهنه فكرة جديدة ، فكرة يائسة ، فلم يعد أدراجه ،
ولم يقفل راجعا •

وكانا قد اقتربا من عمارة فيليوف ، ولكنهما قبل أن يصلا إليها ،
سارا في شارع صغير بل قل في ممر لا يكاد يُرى ، مما يحاذى السياج
ويمتد على طول حفرة • انهما لا يتقدمان هناك الا في مشقة وعناء ،
متشبثين بالسياج في كل لحظة ، لأن القدمين تنزلقان على المنحدر • فلما
وصلا الى ناصية ذلك السياج ، أزاح بطرس ستيفانوفتش لوحاً من
الخشب ، ودخل من الثغرة • وتبعه ايوتين مدهوشاً بعض الدهشة •
وأعاد لوح الخشب بعد ذلك الى مكانه • هذا هو المدخل السرى الذى
كان يتسلل منه فدكا الى المنزل •

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة قاسية :

– يجب أن لا يعرف شاتوف أننا هنا •

٣

كان كيريلوف ، على عادته فى مثل تلك الساعة ، جالساً على أريكته الجلدية يحتنى الشاي • فلما رأى الزائرين لم ينهض ، ولكنه ارتعش وألقى عليهما نظرة قلقة •

قال بطرس ستيفانوفتش :

– لم يخطئ ظنك ، فانما أنا جئت لذلك الأمر نفسه •

– اليوم ؟

– لا ، لا ، بل غدا ••• فى مثل هذه الساعة تقريبا

وأسرع يجلس أمام المائدة متأهلاً كيريلوف بشيء من القلق • وكان كيريلوف قد استرد هدوءه على كل حال ، واستعاد وضعه المألوف • قال بطرس ستيفانوفتش يسأله :

– انهم لا يريدون أن يصدقونى • هل يسوؤك اننى اصطحبت

ليوتين ؟

– لا ، اليوم لا بأس ••• أما غداً فأريد أن أكون وحدى •

– ولكن الأمر سيتم بحضورى •

– بل أود أن لا تكون حاضراً •

– تذكر أنك وعدت بأن تكتب كل ما سأمليه عليك وأن تمهره

بتوقيعك •

– سواء عندى • والآن هل تبقىان مدة طويلة ؟

– هناك شخص يجب أن أراه وسأملك عندك نحو نصف ساعة •

• فرتب أمورك كما تشاء ، لكننى سأبقى نصف ساعة •

التزم كيريلوف الصمت • وكان ليوتين في أثناء ذلك قد جلس
متنجياً تحت صورة الأسقف • ان الفكرة التي ساورته منذ قليل تستولى
على فكره الآن أكثر فأكثر • وكان كيريلوف لا يكاد يلقى اليه بالاً ، ولا
يكاد ينتبه اليه أىّ انتباه • ان ليوتين يعرف نظرية كيريلوف ، وكان في
الماضى يسخر منها • ولكنه اليوم صامت ينظر حوله مظلم الوجه •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يقترب من المائدة :

- يسرنى أن أصيب شيئاً من الشاي • لقد أكلت شريحة لحم منذ
قليل ، وكنت أعوّل على أن أشرب الشاي عندك •
- اشرب اذا شئت •

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة لاذعة :

- فى الماضى كنت أنت الذى تقدم لى الشاي !

- سيان ! وليشرب ليوتين أيضا •

- لا ••• لا أريد !

- لا أريد أو لا أستطيع ؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش فجأةً وهو يلتفت الى رفيقه •
فأجابه ليوتين بلهجة ذات دلالة :

- لن أشرب عنده •

فقطبط بطرس ستيفانوفتش حاجبيه •

- تفوح من هذا الكلام رائحة الغيبة • لا يعرف الا الشيطان أى
ناس أنتم جميعا !

لم يجبه أحد • ودام الصمت دقيقة كاملة •

عاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم بخشونة وجفاف فقال :

- أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً ، هو أنه ما من وهمٍ من الأوهام الاجتماعية سيمنعنا من أن يحقق كل منا واجبه .

سأل كيريلوف :

- هل سافر ستافروجين ؟

- نعم .

- أحسن صنفاً .

ألقى بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف نظرة جادة ، ولكنه كظم ما في نفسه وسيطر على ارادته .

- لا يهمنى كثيراً ما تراه من رأى ، ولكن يهمنى أن يفى كل واحد بما قطعته على نفسه من عهد .

- سأفنى بوعدى .

- على كل حال ، كنت أنا دائماً على ثقة بأنك ستفنى بعهدك ، كما يفعل رجل مستقل متقدم .

- أما أنت فرجل مضحك .

- لا مانع . يسعدنى أن أضحك . يسعدنى دائماً أن أسراً أحداً .

- انك ترغب رغبة شديدة فى أن أنتحر ، وتخشى خشيةً قوية

أن أعزف عن ذلك .

- أنت الذى ربطت خطتك بعملنا . لقد شرعنا فى عمل معين على

أساس تلك الخطة ، فلا يمكنك بحال من الأحوال أن تعدل عنها الا

وتعزفنا للخطر .

- ليس لكم على أي حق •
- أفهم ، أفهم تماما : هذه ارادتك الحرة ، وما نحن بشيء ، وانما المهم أن تتحقق هذه الارادة الحرّة •
- وسيكون على أن أحمل على عاتقى جميع دناءاتكم ؟
- اسمع يا كيريلوف : أتراك خائفاً ؟ اذا كنت تفكر فى التراجع ، فأعلن هذا فوراً •
- لست خائفاً •
- سألتك هذا السؤال لأننى رأيتك تلقى أسئلة كثيرة •
- أتسافر قريباً ؟
- أسؤال آخر ؟
- نظر اليه كيريلوف باحتقار •
- وعاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم وقد أخذ حنقه وقلقه يزدادان وأصبح يعجز عن النور على اللهجة المناسبة :
- اسمع يا كيريلوف : انك تريد أن أسافر من أجل أن تبقى وحدك ، من أجل أن تخلو الى نفسك • وهذه كلها أعراض خطيرة عليك ، خطيرة عليك أنت قبل أى شخص آخر • انك تريد أن تفكر • وفى رأى أن الأفضل أن لا تفكر ، وانما تقدم على العمل ببساطة • لقد أخذت تقلقنى •
- سىء واحد يتير فى نفسى الاشمزاز ، هو اننى فى لحظة كتلك اللحظة سيكون بقربى حشرة مثلك !
- اذا كان هذا ما تخشاه فالأمر بسيط ! اننى مستعد لأن أخرج

أثناء ذلك الوقت فأنتظر على درجات المدخل • اذا كنت تقيم هذا الوزن كله لأمر كهذه الأمور وأنت تنهياً للموت ، فذلك ... فذلك شيء خطر • سأبقى على درجات المدخل ، ولن يكون عليك الا أن تتخيل أنني لا أفهم شيئاً ، وأنتى دونك الى غير نهاية •

- لا ، لست دونى الى غير نهاية : انك لا يعوزك الذكاء ، غير أن هناك أموراً كثيرة لا تفهمها لأنك انسان فاسد شرير •

- طيب • طيب • أنا مفتون بهذا الكلام • سبق أن قلت لك اننى يسعدنى أن أسرك ••• فى مثل هذه اللحظة •
- انك لا تفهم شيئاً •

- أقصد أننى ••• على كل حال ، هأنذا أصفى اليك باجلال واعظام •••

- بل أنت غير قادر على شيء البتة • انك لا تستطيع حتى أن تخفى فى هذه اللحظة حنقك الحقير وغيظك الدنى ، رغم أن ذلك يضرك • ستغضبنى أخيراً ، فأرانى أرجىء الأمر ستة أشهر على حين فجأة •

نظر بطرس ستيفانوفتش فى ساعته • ثم قال :

- اننى لم أفهم من نظريتك شيئاً فى يوم من الأيام ، لكننى أعلم أنك لم تتخيلها من أجلنا نحن • معنى ذلك أنك ستنفذ عزمك حتى بدون أن يكون لنا فى الأمر شأن • وأعلم أيضاً أنك لست أنت الذى التهمت الفكرة وانما الفكرة هى التى التهمت • فلن تتراجع اذن !

- كيف ؟ الفكرة التهمتى ؟

- نعم •

– ولست أنا الذى التهمت الفكرة ؟ هذا كلام ممتاز • ان لك بعض الذكاء • ولكنك تكتفى بالمزاح ، أما أنا فلى كبريائى •

– عظيم ، عظيم • ذلك بعينه هو ما نحن فى حاجة اليه : أن يكون لك كبرياؤك •

– كفى • لقد انتهيت من شرب الشاي ، فانصرف الآن !

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض :

– يجب أن أنصرف فعلاً • ولكن ما يزال الوقت مبكراً • اسمع يا كيريلوف : هل أجد ذلك الرجل عند الجزارة ؟ انك تعلم من أعنى ، هه ؟ أم تراها كذبت هى أيضا ؟

– لا ، لن تجده عندها ، لأنه هنا •

– هنا ؟ شيطان يأخذه ! ولكن أين هو ؟

– فى المطبخ • يأكل • يشرب •

– كيف سمح لنفسه بأن •••

احمر وجه بطرس ستيفانوفتش غضباً ، وتابع كلامه فقال :

– لقد أمر أن ينتظر ••• يا للحماقة • انه لا يملك لا مالا ولا

جواز سفر •

– لا أدري • لقد جاء يودعنى • وهو يستعد للسفر • سيسافر الى

غير رجعة • يقول انك رجل وغد ، وانه لا يريد أن ينتظر مالك •

– آه ••• انه يخاف أن أ ••• اذا ••• أين هو ؟ فى المطبخ ؟

فتح كيريلوف باب حجرة صغيرة مظلمة فيها سلم ذو ثلاث درجات يفضى الى المطبخ الذى هو أشبه بززانة تسكنها الخادمة فى العادة • ففى

ركن بهذا المطبخ ، تحت الأيقونات ، كان فدكا جالساً أمام قنينة فودكا وطبق لحم بارد مع بطاطس • كان يأكل على مهل بغير تعجل ، ويبسود نصف سكران • وكان يرتدى سترته المصنوعة من جلد الخروف تأهباً للرحيل • ان السماور يغلى ماؤه وراء الحاجز ، ولكنه ليس لفدكا • بالعكس : ان فدكا نفسه هو الذى أصبح منذ أسبوع يحضّر الشاي « لألكسى نيلتش لأن ألكسى نيلتش قد ألف أن يشرب الشاي فى الليل...» وهناك ما يجعلنى أعتقد أن الخادمة كانت غائبة ، وأن كيريلوف كان قد أمر بطهو اللحم والبطاطس منذ الصباح ، من أجل فدكا •

هتف بطرس ستيفانوفتش سائلاً وهو يهرع الى المطبخ :

— ما هذا أيضا ؟ لماذا لم تنتظرنى هناك كما أمرتك ؟

وضرب المائدة بقبضة يده ضربة سريعة •

فاصطنع فدكا هيئة قلة الاكثرات ، ثم قال وهو يقطع كل كلمة من كلماته متصنعاً :

— انتظر يا بطرس ستيفانوفتش ، انتظر قليلاً • يجب عليك قبل كل شىء أن تفهم أنك فى زيارة السيد كيريلوف ، ألكسى نيلتش ، الذى يجب عليك أن تلمح له حذائه ، لأنه بالقياس اليك رجل مثقف ، على حين أنك أنت لست الا ••••

قال ذلك والتفت فبصق بغير لعاب • ان لهجته المتعترسة ، المتفهيقة ، الهادئة هدوءاً كاذباً حتى حدوث أول انفجار ، كانت خطرة الى أبعد حدود الخطر • ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته لملاحظة الخطر • هذا عدا أن فكره كان قائماً بعد أن ذهبت بصوابه أحداث النهار واخفاقاته •••

وكان لبيوتين يراقب المشهد من أعلى السلم •

- أتريد أم لا تريد أن تملك جواز سفر وأن تنال مبلغاً ضخماً
لتمضى الى حيث أُمرت أن تمضى؟ أنعم أم لا؟

- اسمع يا بطرس ستيفانوفتش : لقد حدثتني منذ البداية ، وأنا
لذلك أعدك وغداً حقيراً كقملة • هذا أنت في نظري • لقد وعدتني
بمال كبير لقاء الدم البريء ، وعدتني به باسم السيد ستافروجين • ثم
اتضح أن ذلك كله لم يكن الا كذباً دينياً منك • فأنا لم أقبض ألفاً وخمسمائة
روبل ، بل لم أقبض كوبكاً واحداً ؛ كما علمنا أن السيد ستافروجين قد
صفعك منذ قليل على خديك • وهأنت ذا الآن تستأنف تهديديك لي ،
وتستأنف وعدى بالمال ، ولكنك لا تذكر الغرض من ذلك • ولكنني أحس
أنك ترسلني الى بطرسبرج معتمداً على سذاجتي وسرعتي في التصديق ،
لتنقم من السيد ستافروجين ، نيقولاى سيفولودوفتش • فالقاتل حقاً انما
هو أنت • وهل تعلم ماذا ينتظرك من جراء انغماسك في حمأة الرذيلة
الى أن كفرت حتى بالله ، الخالق الحق ؟ انك أشبه بوثنى ، وانك لا تفضل
تترياً • لقد شرح لك ألكسى نيلتش مراراً ، وهو فيلسوف كبير ، شرح
لك مرارا حقيقة الله ، خالق كل شيء ، وحدتك حديثاً طويلاً عن خلق
العالم والحياة الآخرة ، وعن بعث البشر والحيوان كما جاء في رؤيا
القديس يوحنا • ولكنك ظلمت لا تحسن ولا تنطق ، كشخص أبله جامد •
لقد أغويت الضابط اركل ، مثل ذلك المغوى الشرير الذى يسمى
ملحداً •••

- يا للسكير ! يسرق الأيقونات ثم يدعو الى الايمان بالله •••
- هذا صحيح • أعترف لك بذلك يا بطرس ستيفانوفتش • لقد
سلبت أيقونات • لكننى اكتفيت بأخذ الآلىء • ومن يدري ؟ لعل دموعى
فى هذه اللحظة نفسها تتحول الى لآلىء أمام هيكل الرب ، لأننى أهنت
وأوذيت ، لأننى يتيم ، حتى اننى كنت لا أعرف أين أُرقد رأسى • هل

قرأت في الكتب القديمة ، أنه حدث في الماضي ، في الأزمنة السحيقة ، أن رجلاً من البائعين قد سرق لؤلؤة من اكليل السيدة العذراء ، أم المسيح ، وهو يصلى ويبكى ؟ وبعد ذلك ، على مرأى من الشعب المحتشد ، سجد أمام الأيقونة ، ووضع المبلغ كله عند قدميها ، فأقت عليه الأم العذراء حجابها تستره عن أعين الناس جميعاً ؟ لقد تحققت في تلك المناسبة اذن معجزة حقيقية ، وأصدرت السلطات أمرها بتدوينها دقيقةً في كتب الدولة . ولكنك أنت قد سلّلت فأراً . وبذلك تكون قد أهنت يد الرب نفسها . ولولا أنك السيد الذي حملته على ذراعيّ مراهقاً ، لقتلتك في هذه اللحظة نفسها ، فوراً .

جنّ جنون بطرس ستيفانوفتش من الغضب .

- أجبني ، هل رأيت اليوم ستافروجين ؟

- لا أسمع لك بأن تسألني . ان السيد ستافروجين يُدهش من أعمالك . انه لم يصدر إليك أمراً ولا أعطاك مالاً . بل انه لم يشارك في جريمة القتل أي مشاركة ، ولو بالفكر والخيال . لقد كذبت عليّ .

- سوف تنال المال . وسوف تتلقى أيضا ألفى روبل ببطرسبرج ، في المكان المعين ، بل سوف تتلقى هنالك أكثر من ذلك .

- أنت تكذب ، أنت تكذب يا عزيزي ، بل اني ليضحكني أن أراك واثقا هذه الثقة كلها . ان ستافروجين هو بالقياس اليك رجلٌ يقف في قمة سلّم ، وأنت في أسفل السلم تنبج نباح كلب صغير ، بينما هو يحس أنه يشرّوك كثيراً اذا ارتضى أن يبصق عليك من أعلى .

أعول بطرس ستيفانوفتش يقول وقد بلغ ذروة الحنق :

- ولكن هل تعلم أنني لن أدعك تخرج من هنا أيها الشقي ، وأنني سأسلمك للشرطة فوراً ؟

فنهض فدكا بوثة واحدة وقد قدحت عيناه شرراً • فسرعان ما أخرج بطرس ستيفانوفتش مسدسه • انه لمشهد سريع بشع • وقبل أن يتسع وقت بطرس ستيفانوفتش لاطلاق النار ، كان فدكا ، السريع كومض البرق ، قد هوى على خده بلطمة رهيبة أتبعها بلطمة ثانية فثالثة فرابعة على الخد أيضاً • فدمدم بطرس ستيفانوفتش ببضع كلمات مبهوتاً مصعوقاً ، ثم خر على أرض الغرفة •

صاح فدكا يقول باعتزاز وزهو :

- هو ذا • افعل به ما تشاء •

ثم تناول قبعته وسحب خُرجه من تحت الدكة وانسل خارجاً •

كان بطرس ستيفانوفتش يحشرج مغشياً عليه ، حتى لقد تخيل لبيوتين خلال لحظة أنه قد مات • وهرع كيريلوف الى المطبخ • وصرخ يقول :

- الى بماء •

وغرف ماءً من سطل ، وسكب منه على وجه بطرس ستيفانوفتش • فتحرك بطرس بعد لحظة ، وأنهض رأسه ، ونظر أمامه زائغ البصر • سأله كيريلوف :

- هيه ! كيف الحال الآن ؟

فتأمله بطرس ستيفانوفتش ملياً ، دون أن يتعصرفه فيما يبدو • ولكنه حين أبصر لبيوتين الذي كان ينظر اليه من أعلى السلم ، ابتسم ابتسامته الشريرة تلك ، ثم اذا هو يتناول مسدسه فجأة ، وينهض عن الأرض •

وصرخ قائلاً وهو يهرع نحو كيريلوف كمجنون :

– اذا خطر ببالك غداً أن تهرب كما فعل ذلك الوغد ستافروجين
(كان شاحب اللون وكان صوته يخرق في حلقه) ... فلسوف أجذك
... في الطرف الآخر من العالم ... وسوف أقبض عليك ... كذبابة
... فأسحقتك ... هل فهمت ؟ ...

وصوّب مسدسه الى جبهة كيريلوف • ولكن في تلك اللحظة نفسها
تقريباً تاب اليه رشده تماماً ، فخفض يده ، ودسّ المسدس في جيبيه وخرج
راكضاً دون أن يقول كلمة واحدة • وتبعه ليوتين • فسارا في ذلك المر
نفسه ، محاذيين المنحدر مرةً أخرى ، متشبثين بالسسياج كما فعلا في
المجىء • فلما صارا في الشارع أخذ بطرس ستيفانوفتش يسير بخطى تبلغ
من السرعة أن ليوتين لم يستطع أن يتبعه الا بكبير من العناء • حتى اذا بلغ
مفترق طرق توقف على حين فجأة •

وقال يخاطب ليوتين بلهجة التحدى :

– طيب !

وكان ليوتين ما يزال يرتجف ارتجافاً شديداً من ذكرى المسدس
والمشهد الذي رآه • ولكن الجواب تساقط من شفثيه كأنما من تلقاء نفسه
رغم ارادته ، فقال :

– أظن ... أظن « أنهم من سمولنسك الى طشقند ... لا ينتظرون
الطالب نافدى الصبرى الى هذا الحد » ...

– هل رأيت ماذا كان يشرب فدكا في المطبخ ؟

– ماذا كان يشرب ؟ كان يشرب فودكا ...

– طيب ... فاعلم اذن أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة في حياته •
انى أنصحك بأن تتذكر هذا من أجل ماقد تراه من آراء في المستقبل •

سوف يفيدك أن تتذكره • والآن ، اذهب الى الشيطان ! ••• لم أعد فى حاجة اليك حتى الغد ••• ولكن حذار : لا ترتكب حماقات !
رجع ليوتين الى بيته سريع الخطى •

٤

كان ليوتين قد صنع لنفسه منذ مدة طويلة جواز سفر باسم مزور ان هذا الشخص الصغير الحيسوب ، هذا الخادم الطاغية ، هذا الموظف الذى ينتمى الى أتباع فورييه ويتعاطى الربا فى الوقت نفسه ، قد بدت له منذ زمن طويل هذه الفكرة العجيبة ، وهى أن يحصل على جواز سفر استعدادا لكل طارئ ، كى يستطيع أن يسافر الى الخارج اذا حدث أن ••• نعم لقد بدت له هذه الفكرة ، مهما يدهشكم ذلك من مثله • لقد كان يسلم اذن أن ذلك يمكن أن يحدث ، ومع هذا ، لو سألته ماذا تعنيه هذه العبارة « اذا حدث أن ••• » ، لما استطاع أن يجيبك على وجه الدقة . ولكن ها قد اتضح اليوم هذا الاحتمال على حين فجأة مكتسباً صورةً هى أبعد ما تكون عن التوقع • ان الفكرة اليائسة التى دخل بها على كيريلوف والتى كانت قد ومضت فى ذهنه حين وصفه بطرس ستيفانوفتش بالغباء هى أن يترك كل شئ وأن يهرب الى الخارج فى صباح الغد • ان الذى يرفض أن يسلم بأن أشياء خارقة من هذا النوع يمكن أن تحدث فى واقعنا الحالى ، ما عليه الا أن يراجع حياة المهاجرين الروس • ما من أحد منهم هرب لأسباب معقولة أكثر من ذلك : هذا أفق العجائب ، هذه رحاب اللاواقع !

فلما رجع ليوتين الى البيت أغلق على نفسه الباب بالمفتاح ، ثم أخذ يهيم كيس السفر • وكانت مسألة المال تشغل باله أكثر من أى شئ

آخر : كم يجب أن يأخذ؟ هل يتاح له أن ينقذ كل ما يملك؟ نعم، أن ينقذ • فهو يتصور أنه لم تبق ساعة واحدة يمكن أن يضيعها، وأن عليه أن يسير عند طلوع الشمس • وكان لا يعرف أيضا أين يجب عليه أن يركب القطار : لعل الأفضل أن يركب القطار بعد محطتين أو ثلاث محطات من مدينتنا، ولو اقتضى الأمر يمضي الى هناك سيراً على الأقدام • كانت هذه الأفكار كلها تدور في رأسه كالاعصار وهو يرتب أمتعته في كيسه، حين توقف فجأة، فترك كل شيء، وتهاوى على أريكته وهو يئن أنه طويلاً •

لقد أحس احساساً واضحاً وأدرك على حين فجأة أنه سبهرب طبعاً، ولكنه عاجز عن أن يقرر بنفسه هل يهرب «قبل» مقتل شاتوف أو «بعده» • ذلك أنه الآن ليس الا جسماً عاطلاً عن الحركة، ليس الا كتلة ساكنة تحركها قوة غريبة رهيبه • انه يملك جواز سفر من أجل أن يرحل الى الخارج، فيستطع اذن أن يهرب «قبل» شاتوف (أكان يستعجل لولا أن الأمر كذلك؟)، ولكنه مع ذلك يدرك أنه لن يسافر «قبل» شاتوف، بل «بعده»، لأن الأمر قد تقرر، ووُقع، وخُتم • وها هو ذا يبقى على هذه الحال، مستلقياً على أريكته، يعذبه القلق، ويرتعد لأيسر ضجة؛ يئن تارة، ويحبس أنفاسه تارة أخرى، ولا يفهم هو نفسه ما الذي يحدث في نفسه، حتى حانت الساعة الحادية عشرة، فحدثت أخيراً الصدمة التي أطلقت قراره • ففي الساعة الحادية عشرة، ما ان فتح باب غرفته حتى أخبره ذووه أن فدكا، الهارب من سجن الأشغال الشاقة، الذي كان ينشر الرعب والقتل والحرائق في كل مكان، والذي تلاحقه الشرطة منذ مدة طويلة دون أن تستطع القبض عليه، قد وُجد مقتولاً هذا الصباح، على مسافة سبعة فراسخ من المدينة عند تقاطع الدرب الكبير وطريق زاخارينو • ان المدينة كلها لا تتحدث الا عن هذا النبأ • أسرع

ليوتين يتقصى الأخبار فوراً فعرف ما يلي : أن فدكا الذى وُجد مهشم الرأس لا بد أنه قد سُلِب ما كان معه ؛ وأن الشرطة تعتقد ، لأسباب وجيهة ، فيما يبدو ، أن القاتل هو فومكا ، أحد عمال مصنع شيجولين ، الذى قتل ليادكين وأخته مشتركاً مع فدكا ، وحاول أن يشعل النار فى بيتهما • ولعل الرجلين ، فدكا وفومكا ، قد تشاجرا فى الطريق على المبلغ الضخم الذى كان فدكا (كما يظن رفيقه) قد سرقه من عند الكابتن ليادكين ••••

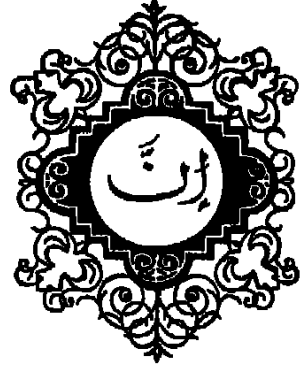
أسرع ليوتين ا لى منزل بطرس ستيفانوفتش فعلم من الخادمة أن مولها قد رجع الى البيت فى نحو الساعة الواحدة من الصباح ، فنام نوماً هادئاً حتى الساعة الثامنة •

لا عجب طبعاً فى موت فدكا : فعلى هذا النحو انما يموت فى العادة أمثال هؤلاء الرجال • ولكن تحقق نبوءة بطرس ستيفانوفتش (« فاعلم اذن أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة فى حياته ! ») ، بدا له مليئاً بالدلالة ، فوضع حداً لتردده • لكأن صخرة قد سقطت عليه فسحقتة الى الأبد •

وحين عاد الى البيت دفع كيس السفر بقدمه حتى جعله تحت السرير • وفى الساعة المحددة من المساء وصل أول من وصل الى المكان الذى كان يجب أن يلتقى فيه بشاتوف • ولكنه كان يحمل فى جيبه جواز السفر •

الفصل الخامس

المسافرة



موت ليزا وموت ماريّا تيموفتفنا قد سحقا شاتوف سحقاً ، وهدماً نفسه تهديماً • سبق أن قلت اننى لقيته فى ذلك الصباح ، ففوجئت بهيئته التائهة ونظرته الزائفة • وقد ذكر لى ، فيما ذكر ، أنه فى الليلة البارحة ، فى نحو الساعة التاسعة (أى قبل الحريق اذن بثلاث ساعات) كان قد ذهب الى ماريّا تيموفتفنا • وفى الصباح مضى يشاهد الجثث ، ولكنه احتفظ بافتراضاته ولم يبح بها لأحد • غير أن عاصفة حقيقية قد ثارت فى نفسه آخر النهار ••• و ••• أظن اننى أستطيع أن أوكد أنه فى لحظة من اللحظات قد مرّت به لحظة قرر فيها أن يكشف عن كل شىء • أما ما هو « كل شىء » هذا فانه كان هو نفسه لا يعرفه على وجه الدقة • ومن الواضح أن قيامه بهذه الخطوة ما كان يمكن أن يؤدى الى أية نتيجة • كل ما هنالك أن الرجل كان سيعرّض نفسه للخطر • انه لا يملك أية براهين تدين الجناة : انه لا يملك الا ظنونا وتخمينات لا تعدل اليقين الا فى نظره هو • ولكنه كان مستعداً لأن يضحى بنفسه فى سبيل « سحق هؤلاء الأشقياء » على حد تعبيره هو • فلم يكن بطرس ستيفانوفتش اذن على خطأ حين توقع هذا الانفجار عند شاتوف ، وحين أدرك أنه بارجاء تنفيذ مشروعه الرهيب الى الغد انما

يجازف كثيراً • ومع ذلك قرر الارجاء • غير أنه على عادته كان يمتليء ثقة بنفسه واحتقاراً لجميع هؤلاء « الناس الصغار » ولشاتوف خاصة • انه يحتقر شاتوف منذ مدة طويلة ويحتقر « طبيعته الخاصة البكائة » ، كما قال عنه حين كان لا يزال في الخارج ؛ لهذا كان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يتغلب بسهولة على انسان يبلغ مبلغه من السذاجة والبساطة : يكفيه من أجل هذا أن يكلف أحداً بمراقبته طول النهار ، فإذا لاحظ شيئاً وقف في طريقه وسدّ عليه سبيل انفاذ ما يريد انفاذه • ومع ذلك أستطيع أن أقول ان « الأنقياء » لم ينجوا وبسلموا في هذه المرة الا بفضل حادث غير متوقع ما كان لهم أن يتنبأوا به •

ففي الساعة الثامنة من المساء ، بينما كان أصحابنا عند ار كل ينظرون وصول بطرس ستيفانوفتش ويضطربون ويتحركون ، كان شاتوف ، المثلث الرأس المصاب بحمى ، كان مستلقياً على سريره في الظلام • وكان في أثناء ذلك يتقلب بين قرار وقرار ، فيغتاظ ويحنق ويتعذب ، ويأمن تردده ، ويتنبأ بأنه عاجز عن المبادرة الى القيام بعمل • وشيئاً فشيئاً نام وحلم : حلم بأنه موثق في سريره لا يستطيع حراكاً ، ولكنه مع ذلك يسمع ضجة رهيبية : ان طرقات قوية تهز باب المنزل ، وجدرانه ، وجناح كيريلوف ، وان صوتاً بعيداً ، مألوفاً أليماً ، يناديه باسمه شاكياً متوجعاً • استيقظ شاتوف من نومه منتفضاً ، وانتصب على سريره • فما كان أشد دهشته حين أدرك أن الباب ما يزال يُطرق ، وأن الطرقات وان تكن أقل قوة مما كان يسمعها أثناء الحلم ، متكررة وعنيدة ؛ وأن الصوت الغريب الأليم ما يزال يرتفع ولكنه ليس شاكياً متوجعاً ، بل هو على عكس ذلك نافذ الصبر شديد الغضب • وكان يختلط به صوت آخر أهدأ منه • وثب شاتوف عن سريره ، وفتح النافذة الصغيرة ، ومدّ رأسه ناظراً ، ونادى قائلاً وقد تجمد من الخوف حقاً :

- من هذا ؟

فأجابه من تحت صوت جاف قاطع :

- اذا كنت شاتوف فأرجوك أن تقول لي بصراحة وسرف وصدق
أتسمح لي بأن أدخل أم لا ؟

• « انها هي ! »

لقد تعرّف صوتها •

- ماري ! ... أهذه أنت ؟

- نعم ، أنا ماري شاتوف ، وأؤكد لك أن الحوذى لا يستطيع أن
ينظر دقيقة واحدة أخرى •

فنادى شاتوف يقول بصوت ضعيف :

- حالاً ... سأشعل الشمعة ...

وأخذ يبحث عن عيدان كبريت ، ولكنه كما يحدث دائماً في مثل
هذه الأحوال لم يهتد اليها ، حتى لقد قلب الشمعدان والشمعة • غير أنه
ترك أخيراً كل شيء ، استجابةً للنداء المتكرر الذى أطلقه الصوت نافذ
الصبر تحت ، وانطلق على السلم يهبط درجاته أربعاً أربعاً ، وفتح الباب •

قالت ماري شاتوف وهى تمد اليه كيساً خفيفاً من أكياس السفر
المصنوعة من قماش والمزودة بمسامير من نحاس ، مما يُصنع بمدينة
درسدن :

- تناول كيسي لحظةً ، أرجوك ، حتى أدفع لهذا النبى أجره •

والتمتت نحو الحوذى فقالت له بلهجة غاضبة :

- أبيع لنفسى أن أقول لك ان مطالبتك غير عادلة • لقد ظلمت

تجرى بي هنا وهناك ساعة كاملة فى هذه الشوارع الوسخة • فذلك
خطوك : كنتَ لا تعلم مكان هذا الشارع الغبى وهذا المنزل البليد ! خذ
التلايين كوبكاً التى تستحقها وثق أنك لن تنال كوبكاً واحداً آخر غيرها •

- أنت التى سميت لى شارع « الصعود » يا سيدتى • أما هذا الشارع
فهو شارع الابيفانيا • ان شارع الصعود بعيد جداً عن هنا • لقد أوشك
حصانى أن يموت تعباً •

- شارع « الصعود » ، شارع « الابيفانيا » ! ••• لا بد أن تعرف
هذه الأسماء الحمقاء خيراً منى أنا ، لأنك من هذه المدينة • ثم انك مخطئ :
أنا انما أسميت لك منزل فيليوف قبل كل شيء ، فأكدت لى أنك تعرفه •
على كل حال ، تستطيع أن تشكونى غداً الى قاضى الصلح ، أما الآن
فأرجوك أن تدعنى وشأنى •••

تدخل شاتوف قائلاً :

- هذه خمسة كوبكات أخرى •••

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مدّها الى الحوذى •

قالت السيدة شاتوف محتجة :

- ما تدخلك أنت ؟ اننى أمنعك •••

ولكن الحوذى كان قد انصرف •

أمسك شاتوف زوجته من يدها وأدخلها فى الدهليز •

- لنصعد بسرعة يا مارى ، بسرعة ••• لا قيمة لهذا البتة ! انك

مبتلة تماماً ! اتبهى ••• وهنا درجات • يؤسفنى أننا من شدة الظلام

لا نرى شيئاً ! السلم وعمر ••• تمسكى بالدريزين جيداً • ها نحن

وصلنا • هذه غرفتي • معذرة • ليس عندي ضوء ! ••• حالا •••
حالا •••

وتناول الشمعدان من أرض الغرفة • ولكنه ظل لا يهتدى الى أعواد
الكبريت أيضاً • كانت السيدة شاتوف واقفةً في وسط الغرفة ، جامدةً
لا تتحرك ، تنتظر صامته •

– الحمد لله • ها هي ذى عيدان الكبريت •

كذلك هتف شاتوف فرحاً • وأشعل الشمعة • فطافت ماري شاتوف
ببصرها على المسكن • ثم قالت بصوت مشمئز :

– ذُكر لي أن مسكنك سيء ، ولكنني لم أتوقع كل هذا السوء •
آه ••• ما أشد ما أعانيه من تعب ! •••

وتهالكت على سرير شاتوف ، الخشن القاسي ، خائرة القوى •
وأردفت تقول :

– أرجوك ، ضع الكيس على الأرض ، واجلس على هذا الكرسي •
بل افعل ما يحلو لك • ولكن لا تبق واقفاً هذا الوقوف أمامي • لن أمكت
عندك الا وقتاً قصيراً ، الى أن أجد عملاً ، ذلك أنني لا أعرف أحداً هنا؛
ولا أملك قرشا واحداً • ولكن اذا كان وجودي يضايقتك ، فأرجو أن تعلن
لي هذا فوراً ، كما ينبغي أن تفعل اذا كنت رجلاً شريفاً صادقاً • مهما
يكن من أمر ، أستطيع أن أبيع في الغد متاعاً ما ؛ فأدفع أجر فندق ؛ ولكن
سيكون عليك في هذه الحالة أن تقودني الى فندق ••• آه ••• ما أشد
ما أشعر به من تعب واعياء •

قال شاتوف وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً :

– ماري ، لا يجب أن تتكلمي عن فندق ! ما هذه الفكرة ! لماذا ؟
وضمّ يديه احدهما الى الأخرى •

- اذا كان يمكن تدبير الأمور دون الذهاب الى فندق ، فيجب مع ذلك توضيح الموقف • تذكر يا شاتوف اننا عشنا معا بمدينة جنيف كما يعيش رجل وزوجته ، مدة خمسة عشر يوماً ، قبل ثلاث سنين ، ثم افترقنا ، بغير شجار على كل حال • ولكن لا يذهبن بك الظن الى أنني أعود الآن لأستأنف تلك الحماقة • أنا انما أعود لأعمل ، واذا كنت قد اخترت هذه المدينة ، فلأن الأمور كلها عندي سواء • انى غير نادمه على نىء • أرجو أن لا تخطر ببالك سخافة من هذا النوع •
دمدم شاتوف يقول :

- أوه ! مارى ! هذا كله لا داعى اليه ، لا داعى اليه البتة !

- مادام الأمر كذلك ، ما دمت تملك آراء تبلغ من التقدم هذا المبلغ الذى يتيح لك أن تفهم ما أقول ، فأننى أبيع لنفسى أن أضيف اننى اذا كنت قد اتجهت اليك ، اذا كنت قد جئت اليك رأساً ، فمما يدفعنى الى ذلك أنتى لم أعددك فى يوم من الأيام رجلاً حقيراً ، بل لعلى عددتك فى جميع الأحيان فوق جميع أولئك ... الأوغاد •

كانت عيناها تلتصقان • واضح أنها لا بد أن تكون قد تأملت كثيراً من بعض أولئك « الأوغاد » •

- وثق أنتى لم أكن أسخر منك منذ قليل حين وصفتك بأنك طيب • لقد تكلمت بصراحة ، دون اصطناع جمل مزوقة • ثم اننى أحتقر الجمل المزوقة • ولكن كفى عن هذا ! لقد أمّلت دائماً أنك ستكون ذكياً ذكاء يكفى لأن يجعلك تتركنى هادئة • آه ... كفى ! ما أشد هذا التعب !

ونظرت اليه طويلاً ، بألم • كان شاتوف واقفاً على مسافة بضعة خطوات منها يصغى الى كلامها خجل الهيئة • ولكن وجهه كان يسطع

بنور جديد كمن ارتد عمره سنين عدة الى وراء . ان هذا الرجل القوي القاسي ، المشعث دائما ، قد أحس بعدوبة كبيرة تنفذ فيه فجأة . ان شيئاً غريباً ، غير متوقع ، قد أخذ يهتز في نفسه . ثلاث سنوات من الفراق لم تكن قد محت من قلبه شيئاً . وفي خلال تلك السنوات الثلاث ، لعله لم يمض يوم واحد دون أن يذكر فيه هذه الانسانة الغالية التي قالت له ذات مرة : « أحبك » . اننى أعرف شاتوف معرفة كاملة ، فأستطيع أن أوكد واثقاً أنه لم يحلم يوماً أن تقول له امرأة « أحبك » . لقد كان قوى العفة شديد العياء الى حد التوحش ، وكان يظن في نفسه بشاعة رهيبة ، وكان يكره وجهه وطبعه ، ويعد نفسه نوعاً من مسخ مشوه خليق بأن يعرض في المعارض . لذلك كان 'ينزل الشرف في أعلى منزلة ، ويعده اسمي من كل شيء ، وكان مخلصاً لاعتقاداته الى حد التعصب ، فكان يبدو مظلم الوجه صموتا متكبراً في جميع الأحيان . وها هي ذى الآن ، تلك الانسانة الوحيدة التي أحبته طوال أسبوعين (من هذا هو على يقين) ، الانسانة التي كان يضعها في مقام أعلى من مقامه بما لا نهاية له ، مع ادراكه الكامل لأخطائها ، الانسانة التي يغفر لها « كل شيء » ، كل شيء على الاطلاق (حتى ان الأمر نقيض هذا ، فان شاتوف يحمل نفسه جميع الأخطاء) ، هذه الانسانة ، ماري شاتوف ، ها هي ذى أمامه من جديد ، بقربه . . . ذلك أمر لا يكاد بفهم . ان دهشته تبلغ من القوة ، وان في هذا الحادث شيئاً يبلغ من الهول ويبلغ من السعادة في الوقت نفسه ، أنه كان لا يستطيع حتماً ، ولعله لا يريد ، أن يثوب الى رشده ، فهو يخاف أن يفعل . هذا حلم . ولكنه حين لاحظ نظرتها الموجعة المرهقة المضناة أدرك أن هذه المرأة تتألم . فارتعش قلبه عندئذ ، وتأمّل قسماات وجهها بعطف أليم : كانت نضارة الشباب الأول قد زايلت هذا الوجه المتعب منذ مدة طويلة . ولكنها مع ذلك ما تزال جميلة ، وهي في نظر شاتوف ما تزال رائعة

الجمال (انها فى الخامسة والعشرين من عمرها ، ممثلة الجسم ، طويلة القامة بل هى أطول من شاتوف ؛ لها شعر كستنائى غزير ، ووجه شاحب مستطيل ، وعينان سوداوان جميلتان تعانيسان الآن من حمى) ؛ ولكن حيويتها القديمة التى تشتمل على سداجة وتسودها قلة الاكثراث ، والتى يعرفها شاتوف جيدا ، قد حلت محلها الآن سرعة الغضب والاهتياج وحل محلها نوع من الاستهتار لم تألفه حتى الآن فلا شك أنه شاق عليها .
 • وهى الآن مريضة بخاصة . رأى شاتوف ذلك واضحا كل الوضوح .
 • لذلك اقترب منها وأمسك يديها رغم خوفه منها . وقال لها :

- مارى ... اسمعى ... لا بد أنك متعبة جدا ... لا تزعلى ، أتوسل إليك ... ما رأيك فى أن تجرعى شيئا من الشاى ، هه ؟ الشاى مفيد دائما . ليتك توافقين ، هه ؟ ...

- أوافق طبعاً . انك ما تزال طفلاً كما كنت . اعطنى شاياً اذا كان عندك شاى ما أضيق مسكنك هنا ! وما أشد البرد !

- آه ... سأجىء بحطب فوراً . عندى حطب !

كذلك هتف شاتوف وهو يتحرك ويسعى هنا وهناك . وتابع يقول :

- نعم ... حطب ... أى ... وسأتىك بشاى أيضا ...

وتناول قبعته عازماً أمره .

- الى أين تذهب ؟ أليس عندك اذن فى البيت شاى ؟

- سيكون عندى شاى ، بعد لحظة واحدة . سوف يكون عندنا كل

• ما يجب •

• وتناول مسدسه من على الرف •

- سأبيع هذا المسدس ... أو أرهنه .

- يا للغباوة ! وسيستغرق هذا زمناً طويلاً . اليك بعض النقود
ما دمت لا تملك شيئاً . ههنا أربعة وعشرون كوبكا فيما أظن . ذلك كل
ما معي . لكأن مسكنك مسكن رجل مجنون .

- لا ، لا ، لست في حاجة الى نقودك . أنا عائد حالاً ، بعد لحظة
... سأدبر أمرى حتى بدون المسدس !

وأسرع الى كيريلوف . حدث هذا قبل زيارة بطرس ستيفانوفتش
وليوتين بساعتين تقريباً . ان شاتوف وكيريلوف ، وهما يقيمان في مبنى
واحد ، كانا لا يتزاوران أبداً ، واذا اتفق أن التقيا عرضاً لم يكلم أحدهما
الأخر ولم يسلم أحدهما على الآخر : لقد عاشا في أمريكا جنباً الى جنب
مدة أطول مما يجب .

- كيريلوف ، أنت عندك دائماً شاي . فهل تستطيع أن تعطيني شيئاً
من الشاي وأن تعيرني السماور ؟

كان كيريلوف يسير في الغرفة طولاً وعرضاً على عادته (انه يظل
يسير هكذا طول الليل) ، فوقف وتأمل شاتوف بانتباه ، ولكن بغير دهشة
كبيرة .

- عندي شاي ، وسكر ، ولكن لماذا السماور ؟ الشاي ساخن :
فاجلس واشرب .

- كيريلوف ، لقد عشنا معاً في أمريكا ... ان زوجتي وصلت الى
بتي ... وأنا ... اعطني شاياً ... واني أحتاج أيضاً الى السماور .

- اذا كانت زوجتك قد وصلت فأنت في حاجة الى السماور . لكنك
ستتاله فيما بعد . عندي اثنان . أما الآن فخذ غلاية الشاي من على المائدة .

• انها ساخنه ، ساخنه جدا • خذ كل شيء ، خذ السكر ، خذ كل شيء •
• الخبز ••• عندي خبز كثير • خذ الخبز كله • وعندي أيضا لحم عجول •
• وروبل •

– اعطني الروبل ، سأرده اليك غدا • آه ••• كيريلوف !

– أهى زوجتك التى كانت بسويسرا ؟ هذا حسن • وحسن أيضا
• أنك هرعت الى •

صاح شانوف يقول وهو يتأبط غلاية الشاي ويحمل بيديه الخبز
والسكر :

– كيريلوف! كيريلوف! ليتك تستطيع أن تتخلى عن نزواتك الرهيبة
وأن تنبذ الحادك • اذن لصرت انسانا كبيرا ••• يا كيريلوف !

– واضح أنك تحب امرأتك بعد الذى حدث بسويسرا • حسن جدا •
إذا احتجت الى مزيد من الشاي فارجع الى • فى أية ساعة تعال • اننى
أسهر الليل كله • سيكون السماور بهياً • خذ الروبل • هذا هو • عد
الى زوجتك • سابقى هنا وسأفكر فيك وفى زوجتك •

انقضت ماري شاتوف على الشاي بشراهة ، مسرورة سروراً واضحا
بسرعة زوجها • ولكنهما لم يحتاجا الى السماور : فانها لم تشرب الا
نصف فنجان من الشاي ولم تزدرد الا قطعة صغيرة من الخبز • أما لحم
العجل فقد نبذته مسمترة حانقة الهيئة •

قال شاتوف خجلاً وجلاً مع استمراره على التحرك حولها :

– أنت مريضة يا ماري • فيك شيء مريض •

– طبعا أنا مريضة • اجلس اجلس • من أين جئت بهذا الشاي ؟
لم يكن عندك شاي •

شرح لها شاتوف ، ببضع كلمات ، من هو كيريلوف • وكانت قد سمعت عنه على كل حال •

- أعرف أنه مجنون • كفى ، أرجوك • لا ينقصنا أغبياء • اذن ذهبت الى أمريكا؟ أنا أعلم أنك كتبت من هناك •

- نعم ••• كتبت ••• الى باريس •

- كفى عن هذا الموضوع ! لتحدث عن شيء آخر ! هل أنت من دعاة السلافية •

- أنا ••• ليس معنى هذا أنني ••• ولكن لأننى لم أستطع أن أكون روسياً ، فقد أصبحت من دعاة السلافية •

قال شاتوف ذلك وهو يجبر نفسه على ابتسامة هي ابتسامة اسنان يعلم أنه يمزح فى غير موضع المزاح •

- ألسنت اذن روسياً؟

- لا •

- هذه كلها سخافات • اجلس ، أرجوك • ما بالك تركض هذا الركض يميناً ويسرة؟ أملك تظن أنني أهذى؟ ربما هذيت بعد قليل • هل قلت انكما فى هذا المنزل اثنان لا أكثر؟

- نعم ، اثنان ••• وتحت •••

- وكلاكما ذكى كصاحبه؟ وتحت؟ لقد قلت منذ لحظة : «تحت» ••• فماذا تحت؟

- لا ، لا شيء •

- كيف لا شيء؟

– أردت أن أقول اننا الآن اثنان لا أكثر ، وتحت كانت تقيم أسرة ليادكين •

– التي ذُبحت في هذه الليلة ؟

ألقت ماري شاتوف هذا السؤال وهي تنتصب فجأة • وتابعت تقول :

– سمعت عن القتل منذ وصولي • وشبت عندكم حرائق أيضا ؟

– نعم يا ماري • ولعلني ارتكب دناءة كبيرة في هذه اللحظة لأنني

أغمر لأولئك الأوغاد •••

قال شاتوف ذلك ونهض وأخذ يسير شاهراً قبضتي يديه في انتفاضة

غضب •

ولكن ماري لم تفهمه • لقد كانت تسأل زوجها ، غير أنها لا تصفى

الى أجوبته • قالت ماري :

– تحدث أشياء جميلة في مدينتكم ! آه ••• ما أحقر هذا كله !

ليس هؤلاء جميعهم الا أوغادا • ولكن لماذا لا تجلس ؟ لشدما تضايقني •••

ولم تطق صبراً على ما بها ، فهوت برأسها على الوسادة •

– ماري ، سوف أجلس • تحسنين صنعا اذا نمت يا ماري ،

ما رأيك ؟

لم تجب ماري شاتوف وأغمضت عينيها • انها بوجهه الشاحب أشبه

بميتة • واستولى عليها الندم في تلك اللحظة نفسها تقريبا • نظر شاتوف

حواليه • وقوّم الشمعة • وبعد أن ألقى نظرة قلقة أخيرة على المرأة

الشابة ، ضمّ يديه احدهما الى الأخرى وخرج الى فسحة السلم بخطى

رفيقة لا يسمع لها وقع • ولبت هنالك واقفا قرابة عشر دقائق ، ساكنا

لا يتحرك ، ملتفتاً بوجهه الى الجدار • وكان يمكن أن يمكث مدة أطول

- لولا أنه سمع خطى خفيفة : ان أحداً كان يصعد السلم ببطء وحذر •
- تذكر شاتوف أنه نسي أن يغلّق باب فناء المنزل •

قال يسأل بصوت خافت :

– مَنْ هنا ؟

- فلم يجب الزائر المجهول • حتى اذا وصل الى فسحة السلم توقف •
- ان المرء لا يستطيع في هذا الظلام أن يميز وجهه • وها هو ذا يسأل
- مدمماً على حين فجأة :

– ايفان شاتوف ؟

- فأجابه شاتوف بنعم ، وأسرع يمد يده ليمنعه من الدخول • ولكن
- الزائر أمسك باليد الممدودة اليه ، فارتعش شاتوف كأنه لامس حية •
- وقال بصوت مختنق :

- – ابق هنا • لا أستطيع أن أستقبلك الآن • لقد وصلت زوجتي
- ساجيء بشمعة •

فلما عاد حاملاً الشمعة رأى ضابطاً شاباً لا يعرفه الا وجهاً •
عرّف الآخر بنفسه قائلاً :

– أنا ار كل • لقد التقينا عند فرجنسكى •

– أذكر هذا • كنت تدوّن ما يدور من نقاش •

وظل شاتوف يتكلم بصوت خافت ، وهو يقترب من الفتى خارجاً
عن طوره :

- اسمع ••• أراك رسمت على راحة كفى اشارة • فاعلم اذن اننى
- احتقر هذه الاشارات جميعاً وابصق عليها جميعاً • اننى لا أقبل •••
- لا أريد ••• اننى أستطيع أن أرميك الى أسفل السلم ، هل تعرف هذا ؟

فقال الزائر بسذاجة :

- لا ، اننى لا أعرف شيئاً • هناك شيء علىّ أن أبلغك اياه • وهذا هو السبب فى اننى جئت بغير ابطاء • ان عندك آلة مطبعة ليست لك ، ويجب عليك أن تردها الى أصحابها كما تعلم ذلك أنت نفسك • لقد تلقيت أمراً بأن أقول لك ان عليك أن ترد الآلة غداً ، فى الساعة السابعة من المساء ، الى ليويتين • وأنا مكلف عدا هذا بأن أعلن لك أنك بعد ذلك لن يُطلب منك أى شيء •

- لن يُطلب منى أى شيء ؟ أصبح هذا حقاً ؟

- لن يُطلب منك شيء على الاطلاق • ستتحقق رغبتك ، ستكون حراً • ذلك بعينه ما كُلتت بأن أنقله اليك •

- من أمرك بهذا ؟

- الذين أبلغونى الاشارة •

- أأنت آتٍ من الخارج ؟

- يخيّل الىّ ، يخيّل الىّ ••• انك يجب أن لا تكثرث بهذا •

- طيب • ولكن لماذا لم تأت قبل الآن ، منذ صدر اليك الأمر ؟

- تقيدت بالتعليمات الصادرة الىّ ، ولم أكن وحدى •

- أفهم ••• أفهم أنك لم تكن وحدك • ولكن لماذا لم يجيء ليويتين

بنفسه ؟

- سأجيء اليك غداً فى الساعة السادسة من المساء ، وسنمضى الى

هناك معاً ، ولن يكون ثمة أحد غيرنا نحن الثلاثة •

- وفرخوفنسكى ؟

- لن يكون هناك • ان فرخوفنسكى يسافر غدا فى الساعة الحادية عشرة من الصباح •

دمدم شاتوف يقول محققا مغتاظا وهو يلطم فخذة بقبضة يده :
- قدّرت هذا • انه بهرب ، هذا الشقى !

وشرد ذهنه • وكان اركل ينتظر صامتاً ، وهو يلاحظه بانتباه •

- ما عساكم تصنعون بالمطبعة ؟ لا يمكنكم أن تحملوها فى خلال المدينة على مرأى وعلم من جميع الناس •

- لن نأخذها • ستدلنا على المكان المدفونة فيه ، فتأكد من أنها موجودة حقا • اننا نعرف الجهة ولكننا لا نعرف الموضع على وجه الدقة • هل سبق أن دلت أحداً على المكان ؟

حدّو اليه شانوف متفرساً •

- صبي مثلك ••• أحقق صغير ••• ها أنت ذا قد وقعت فى الفخ كخروف ! انهم فى حاجة الى شباب مثلك فعلاً ! طيب • انصرف الآن • ان ذلك الوغد قد ورطكم جميعا ، ولاذ بالفرار •

كانت هيئة اركل ، المسالمة الساذجة ، تدل على أنه لا يفهم •

وردّد شاتوف يقول كازاً أسنانه :

- نعم ، لقد هرب فرخوفنسكى ، نعم ، فرخوفنسكى !

فل اركل بلهجة مجيبة مقنعة :

- ولكنه لا يزال هنا • انه لم يسافر • لقد طلبت منه أن يحضر استرداد المطبعة شاهداً ، كما تقتضى ذلك التعليمات التى صدرت الى ••• فما كان أنسد أسفى حين رفض ذلك بحجة السفر •

قال اركل ذلك مصطنعا السذاجة • وأضاف :

– والحق أنه يتعجل السفر ، لا أدري لماذا !

ألقى شاتوف نظرة شفقة على الغر المسكين ، مرةً أخرى ، ثم رفع منكبيه كأنما يقول : « هل يستحق أن أرثي لحاله ؟ » •

ثم أعلن قائلاً :

– طيب ، سأجىء ! والآن ، هياً انصرف !

قال اركل وهو يحيى تحيةً مهذبة :

– سأنتى اذن لاصطحابك فى الساعة السادسة تماما •

وهبط السلم بغير تعجل • ولم يطق شاتوف أن يكظم ما بنفسه ، فهتف يقول له من أعلى :

– مغفل !

وكان اركل قد وصل الى تحت ، فالتفت يسأله :

– ماذا ؟

– لا سىء ! هياً انصرف !

– ظننتك تريد أن تقول لى شيئاً •

٢

ان اركل واحد من أولئك « المغفلين الصغار » الذين يعجزون عن التفكير بأنفسهم فينفذون أوامر غيرهم أحسن تنفيذ ، حتى لقد يبرهنون فى تنفيذها على شىء من حسن الحيلة والمكر • انه مخلص « للقضية » أو قل هو مخلص لفرخوفنسكى اخلاصا متعصبا ، اخلاصا طفوليا ، فهو

يتصرف وفق التعليمات التي أصدرها اليها فرخوفنسكى عند «أصحابنا»، حين وزّعوا فيما بينهم أدوار العمل في الغد • حتى ان بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى قد انتحى به جانبا قبل الافتراق ، وتحدث معه بضع دقائق • ان الطاعة حاجة ملحة من حاجات هذه الطبيعة الغبية، الشرهة الى الخضوع، باسم «فضية كبرى» أو «فكرة عظيمه» طبعاً • ولكن الهدف ليس له على وجه الاجمال من شأن في هذه الحالة ، لأن الشباب المتعصين مثل اركل لا يفهمون الاخلاص لقضية الا بمقدار ما تكون هذه القضية متجسدة في شخصية تمثلها في نظرهم • ان اركل ، على أنه حساس ورقيق وطيب ، قد يكون أبعد هؤلاء المتأمرين عن الرأفة والرحمة ، وسوف يساهم في مقتل شاتوف ربما دون أى كره شخصى ، ولكن دون أى تردد أيضا • لقد أوصى مثلاً بأن يلاحظ وضع شاتوف بانتباه ؛ وحين أفلتت من لسان شاتوف (ربما دون أن يشعر بذلك) أن امرأته قد عادت اليه ، كان اركل ماكرأ مكرأ كافيا من أجل أن يدرك أن عليه أن لا يُظهر أى فضول بهذا الصدد • ومع ذلك حزر فورا أن عودة ماري شاتوف يمكن أن يكون لها شان كبير فى نجاح ما عقدوا النية على تنفيذه •

والحق أن هذا الحادث وحده هو الذى كان له الفضل فى نجاة هؤلاء « الأوغاد » ، وأن عودة امرأة شاتوف هى التى أتاحت لهم أن ينخلصوا منه • ان عودة امرأة شاتوف قد قلبت شاتوف رأساً على عقب ، وأخرجته عن عاداته ، وجرّده مما عهد فيه من محاذرة و نفاذ بصيرة • لقد غرف فى مشاغله الجديدة ، فأصبح الآن عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن التفكير فى الخطر الذى كان معرّضاً له • بالعكس : صار يحلو له أن يصدّق حكاية هرب فرخوفنسكى التى تأتي مؤيدة لجميع شكوكه أكبر تأييد •

عاد شاتوف الى الغرفة ، وجلس فى ركن من الأركان ، وأسند كوعيه الى ركبتيه ، وخبأ وجهه فى يديه • ان خطرات مرةً تعذبه •

وكان ينهض من حين الى حين ، فيمضى الى السرير ماشياً على
 رءوس الأصابع ليتأملها ، فيقول : « حدثاً نفسه : يا الهى ! لا شك أن حمى
 خبيثة ستلتمُّ بها غدا ؛ بل لعل الحمى قد بدأت ! واضح أنها قد أصابها
 برد . انها لم تألف هذا الجو الفظيع . ثم . . . الدرجة الثالثة بالقطار . . .
 والرياح فى الخارج والأمطار ! . . . ان معطفها خفيف جدا ! . . . ولا
 تكاد تكسوها ثياب ! كيف أتركها وأمنع عنها أية نجدة ؟ وهذا الكيس . . .
 هذا الكيس الصغير ، الخفيف ، الذى لا يزيد وزنه على عشرة أرتال . . .
 فى أكثر تقدير ! مسكينة . . . كم تعذبت ! كم احتملت من آلام ! ولكنها
 ذات كبرياء ، لذلك لا تتشكى ! غير أنها غاضبة محنقة ! ما أشد حنقها !
 الذنب فى هذا ذنب مرضها ! المرض يجعل حتى الملائكة شديدي الحنق !
 لا بد أن جبينها محترق جاف . ويا لهذه الهالة الزرقاء حول عينيها ! . . .
 ومع ذلك ما أجمل استدارة وجهها المستطيل ! وهذا الشعر الرائع ! . . . »
 قال ذلك محدثاً نفسه ثم حوّل عينيه بأقصى سرعة ، وابتعد سراً
 من مجرد أن يرى فيها أكثر من انسانة شقية معنّاة مضناة يجب اسعافها .
 « هل يمكن أن تساور المرء آمال فى مثل هذه اللحظة ؟ ! . . . ما أدنأ
 الرجل وما أسفله ! » .

ورجع الى ركنه ، وجلس ثانية ، ودفن وجهه فى يديه من جديد ،
 واسترسل فى الأحلام ، والذكريات . . . وعادت الأحلام تنبعث فى
 نفسه .

« آه . . . ما أشد ما أشعر به من تعب ! » تذكر شاتوف هذه الصيحة ،
 وتذكر الصوت الضعيف المحطم . « رباه ! كيف يمكننى أن أتركها فى
 مثل هذه اللحظة ! انها لا تملك الا أربعة وعشرين كوبكاً . وقد مدت
 الىّ محفظة نقودها ، الصغيرة ، العتيقة الرثة ! انها تبحث عن عمل . . .
 ماذا تعرف عما يجرى هنا ، بل ماذا يعرفون جميعا عن روسيا ؟ أطفال

سذَّج أغرار يسنطيعون الاسترسال في الأخيلة والأوهام ! يا للمسكينة !
 انها تغضب لأن روسيا لا تشبه الفكرة التي قامت في ذهنها عنها وهي في
 الخارج ! مساكين ! سذج أبرياء ! ولكن ... حقاً ان البرد هنا
 شديد ! ... » •

تذكر أنها اشتكت من البرد ، وأنه وعد بايقاد المدفأة • « عنسدى
 حطب • فى وسعى أن أضعده • بشرط أن لا أوقظها ! سأحاول • وما
 العمل بلحيم العجل ؟ قد تأكل منه حين تستيقظ ... سوف نرى ! ان
 كيريلوف يظل ساهراً طول الليل ! بأى شيء يمكننى أن أعطيها ؟ انها
 نائمة نوما عميقاً ، ولكن لا شك فى أنها تحس ببرد ، ببرد شديد ... » •
 دنا من السرير مرة أخرى • كان ثوب المرأة الشابة مشمورا بعض
 الشيء فكانت ساقها اليمنى مكشوفة حتى الركبة • فتقهقر شاتوف بحركة
 مفاجئة ، كأنه أحس برعب ، ونضا عن جسمه معطفه (محتفظاً بردنجوته
 وحده) ، فغطى به ساقها مشيحاً بعينه عن النائمة •

هذه الأمور كلها - الاسترسال فى الأحلام ، التأمل ، ايقاد المدفأة ،
 السير فى الغرفة ذهاباً وإياباً على رءوس الأصابع - قد استغرقت ساعتين
 أو ثلاث ساعات جاء فرخوفنسكى وليبوتين فى أثناءها الى عند كيريلوف •
 ونام شاتوف أخيراً فى ركنه • وانطلقت من صدر ماري أنهت على حين
 فجأة ؛ لقد استيقظت من نومها ونادته • فانتفض كما ينتفض مجرم •

- ماري ... لقد نمت ... ما أشقائى يا ماري !

نهضت ماري ، ونظرت حولها مدهوشة ، فلعلها كانت لا تدرك أين
 هي ! وها هي ذى تضطرب على حين فجأة ، مستاءة غاضبة ؛ وصاحت
 تقول له :

- لقد اسنوليت على سريرك • وغلبنى النوم فنمت ، ولكن لماذا ام

توظفني ؟ كيف أبحث لنفسك أن تظن أنني أريد أن أكون عالمةً عليك ؟

– هل كان يمكنني أن أوقفك يا ماري ؟

– نعم ، كان يمكنك أن توظفني ، بل كان يجب عليك أن توظفني .
ليس عندك الا سرير واحد استوليت أنا عليه ، فما ينبغي لك أن تضعني
في موقف خطأ ! أتراك تظن أنني أتوى استغلال حسناتك ؟ استرد
سريرك فوراً ، وسأرقد أنا على كراسي ...

– ماري ، ليس عندي كراسي كافية . ثم ليس عندي ما أضعه عليها .
– اذن سأرقد على أرض الغرفة . والا سيكون عليك أنت أن ترقد
على أرض الغرفة . سأنام على أرض الغرفة حالاً .

ونهبضت ، وتقدمت خطوة ، الا أن آلام مفص شديد قد جردتها
فورا من كل قوة ، ومن كل عزيمة ، فعادت تتهالك على الكرسي في أنين .
فهرع شاتوف اليها ، ولكن ماري أمسكت يده ، وشدت على هذه اليد
شداً قوياً يكاد يهشمها ، وهي تدفن رأسها في الوسادة .

– ماري ، عزيزتي ، ان الدكتور فرنتزل قريب جدا من هنا . وأنا
أعرفه جيداً ... ففي وسعي أن أستدعيه .

– دعني وشأني !

– أين أملك يا ماري ، قولي لي ! في امكاننا أن نضع لك كمادات
ساخنة ... على البطن . لا حاجة الى طيب من أجل هذا ... أم تؤثرين
قليلاً من دواء الخردل .

سألته بصوت غريب :

– ما هذا الكلام ؟

ورفعت رأسها ونظرت اليه مرتاعة .

قال شاتوف مدهوشا :

– ماذا تعنين يا ماري ؟ رباه ! لقد فقدت عقلي تماما • ماري ،
سامحيني • ولكنني لا أفهم شيئاً البتة •
– دعني • ليس هذا شأنك • بل انه ليكون أمراً سخيفاً مضحكاً من
جهتك أن •••

• وابتسمت بمرارة •

وأردفت تقول :

– اقصص عليّ شيئاً • امش وتكلم • انني أطلب منك هذا للمرة
المائة •

أخذ شاتوف يسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، محاولاً أن لا يرفع
عينيه نحو المرأة الشابية •

– يوجد هنا – لا تزعلي يا ماري ، أرجوك – يوجد هنا شيء من
لحم العجل وقليل من الشاي • انك لم تأكلي الا قليلاً جدا •••

فحركت ماري يدها بإشارة اشمزاز وتقزز • فعضّ شاتوف على
شفتيه •

قالت ماري :

– اسمع • انني اتوى أن أفتح هنا ورشه تجليد أقيمها على أسس
الاستراك المبنيّ على العقل • فقل لي : ما رأيك ؟ أأنجح أم أخفق ؟

– لكن الناس عندنا لا تقرأ يا ماري • ولا توجد كتب • أنّي له
«هو» أن يفكر في تجليد الكتب ؟

– من «هو» ؟

– القاري • ساكن هذه المدينة يا ماري •

– هلاًّ تكلمت بوضوح • ما معنى قولك «هو» ؟ من هو ؟ ألا تعرف قواعد النحو ؟

دمدم شاتوف يقول متلعثماً :

– هذا في روح اللغة يا ماري •

– دعني من الروح هذه • أرخني من كلامك • لقد سئمت • ولماذا لا يجلد القارىء هنا كتبه ؟ لماذا لا يجلد ساكن هذه المدينة كتبه ؟

– لأن قراءة كتاب وتجليده مرحلتان من مراحل الحضارة تضم كل منهما فترة طويلة • ففي البداية يتعلم الانسان القراءة ، شيئاً فشيئاً ، خلال عدة فرون ، ولكنه لا يعنى بكتبه أى اعتناء ، بل يعاملها معاملة شيء ليس له أية قيمة • أما تجليد الكتاب فهو علامة على أن الكتاب أصبح يحظى باحترام ، وهو يدل على أن الانسان أصبح لا يجب أن يقرأ فحسب ، بل على أنه أصبح يعرف ما للقراءة من عظيم الشأن • ان روسيا لم تبلغ هذه المرحلة حتى الآن • أما أوروبا فانها تجلد الكتب منذ مدة طويلة •

قالت ماري :

– رغم لهجتك المتعالمة المتفهيقة ، فان ما تقوله ليس غيباً ، وهو بذكورنى بالأحاديث التي كانت تقوم بيننا منذ ثلاث سنين • لقد كنت لمأح الفكر أحيانا قبل ثلاث سنين •

نظقت ماري هذه الكلمات بتلك اللهجة نفسها التي تكلمت بها حتى تلك اللحظة ، وهي لهجة فيها اشمزاز ، وفيها جموح ونزوة •

عاد شاتوف يتكلم فقال في حنان :

– ماري ، ماري ! أوه ! ماري ! ليتك تعرفين جميع التغيرات التي حدثت منذ ثلاث سنين حتى الآن ! لقد سمعت عنك أنك تحقريينى لأننى

بخلبت عن اعتقاداتي السابقة ! وهل تعلمين ما الذي أصبحت أنبذه وأرفضه ؟ لقد أصبحت أنبذ أعداء الحياة الحية ، صرت أرفض اللبراليين الصفار المتخلفين الذين يختنون استقلال أنفسهم ، صرت أنبذ العبيد من أدعياء المفكر ، وصرت أنبذ أعداء الحرية والشخصية ، وصرت أنبذ أولئك المنحطين من دعاة التحلل والفساد والتفسيخ • ماذا نجد عند هؤلاء ؟ اننا نجد عندهم التردى ، والتفاهة ، والسخف فى أحقر أشكاله وأكثرها بورجوازية ؟ ونجد مساواة الحسد ، المساواة الخالية من الكرامة الشخصية ، المساواة كما يتصورها خادم أو كما كان يتصورها فرنسى عام ٩٣ ••• والأنكى من ذلك أنهم جميعا ليسوا الا أوغادا ، أوغادا ، أوغادا ! •••

دمدمت مارى تقول بصوت فيه ألم :

- نعم ، هناك أوغاد كثير •••

كانت مستلقية استلقاء تاما ، على الجنب قليلاً ، كأنها تخاف أن تتحرك ، محدقةً الى السقف بنظرة ثابتة محمومة • وكان وجهها شاحبا ، وكانت شفتاها يابستين محترقتين •

قال ساتوف :

- أنسلمين اذن بهذا يا مارى ؟ أنسلمين به ؟

فهمت أن تحرك يدها بإشارة انكار ، غير أن مفصلاً جديداً عقف جسمها فجأة ، فهرع اليها ساتوف كالمجنون من الذعر ، فشدت على يده بكل ما تملك من قوة ، دافنةً وجهها فى الوسادة ، كما فعلت فى المرة الأولى •

- مارى ، مارى ! قد يكون مرضك خطيراً ! مارى !

فصرخت تقول بما يشبه الغضب الحانق وهى تدير ظهرها :

- اسكت ... لا أريد ! لا أريد ! اننى أمنعك من أن تنظر الى
هكذا • اننى لا أريد شفقتك • اننى أرفض هذه الشفقة • امش ، تكلم ،
قل أى شىء ! ...

كان شاتوف كمن ضاع عقله تماما ، فقدم ببضع كلمات غير متميزة •
فقاطعته سائلةً بصوت منزعج :

- ما الذى تعمله هنا ؟

- أعمل فى مكاتب تاجر من التجار • ولو شئت يا مارى لكسبت هنا
مالاً كثيراً •

- هنيئاً لك به ...

- لا تتخلى يا مارى أننى ... أنا لم أقصد شيئاً البتة ...

- وماذا تعمل أيضاً ؟ الى ماذا تدعو ؟ انك لا تستطيع الامتناع عن
الدعوة الى شىء ما : ذلك فى طبعك •

- أدعو الى الله يا مارى •

- الذى لا تؤمن به أنت نفسك • اننى لم أستطع أن أفهم هذه
الفكرة فى يوم من الأيام •

- دعينا من هذا يا مارى • سوف نتحدث عنه فيما بعد •

- ماذا كانت ماريا تيموففنا تلك ؟

- هذا أيضاً ندعه الآن ونتحدث عنه فيما بعد •

- أمنعك من أن تكلمنى بهذه الطريقة ! هل صحيح أن جريمة

القتل هذه انما هى من صنع أولئك ... الأوغاد •

- بدون أى شك يا مارى •

قال شاتوف ذلك كازاً أسنانه • فأنهضت ماري رأسها ، وهتفت
تقول له :

- أمنعك من أن تحدثني عن هذه الأمور أبدا ••• أبدا •••
وتهالكت على السرير وقد وافتها آلام أخرى عنيفة • هذه ثالث نوبة •
غير أن الأنثى في هذه المرة قد أصبحت صرخات •

قالت :

- آه ••• انك لا تطاق ! لا تطاق !
وكانت تتخبط وتدفع عنها شاتوف الذي مال عليها •
قال لها شاتوف :

- ماري ، سأفعل ما تريدن ، سأمشي وأتكلم •••
- ولكن ألا ترى اذن أن الأمر بدأ ؟
- الأمر بدأ ؟ أي أمر بدأ ؟

- لا أعرف ! لا أفهم شيئاً ! آه ••• لعنة الله على ••• لعنة الله على
كل شيء !

- ماري ، ليتك تقولين لي ما هو الأمر الذي بدأ ••• اذ ماذا أستطيع
أن أفعل ؟ ••• انني لا أفهم •••

- أنت رجل ثرثار لا فائدة منه ، أنت مغرور • تفهق ••• آه •••
ألا لعنة الله عليكم جميعاً ! •••

- ماري ! ماري !

وأخذ يعتقد أنها جنّت •

فنهضت ماري نصف نهوض ونظرت اليه ، وقالت له :

- أأست ترى اذن أنتى فى مخاض ؟
 وكان الكره والألم قد قلبا وجهها • وأردفت تقول :
 - ألا فلتحل اللعنة على هذا الولد !
 هتف شاتوف يقول وقد أدرك أخيراً ما يحدث :
 - مارى ! مارى ! لماذا لم تقولى لى قبل الآن ؟
 وتناول قبعته بحركة حازمة • قالت مارى تجيبه :
 - وهل كنت أعرف ذلك حين دخلت الى هنا ؟ أكنت أجيء اليك لو
 كنت أعلمه ؟ لقد قيل لى اننى لن ألد الا بعد عشرة أيام • الى أين تذهب ؟
 الى أين تذهب ؟ اننى أمنعك •••
 - سأجيء بمولدة • سوف أبيع مسدسى • نحن الآن فى حاجة الى
 المال قبل كل شىء •
 - أأمنعك من أن تفعل أى شىء • لا أريد مولدة ••• تكفينى أية
 امرأة عجوز • ما يزال معى أربعة وعشرون كوبكاً فى محفظة نقودى •••
 الفلاحات يستغنين عن المولدة • واذا فطست ، كان ذلك أفضل •••
 - سأجيء بامرأة عجوز ، وبمولدة أيضاً • ولكن كيف أتركك
 وحيدة يا مارى ؟
 لكنه وقد قدر أن تركها الآن وحيدة خيراً من تركها وحيدة بعد
 حين ، هرع يهبط السلم مسرعاً ، لا يلتفت الى أناتها وصرخاتها •

٣

دخل شاتوف أولاً على كيريلوف • كانت الساعة قريبة من الواحدة •
 ان كيريلوف واقف فى وسط غرفته •

– كيريلوف ، امرأتى تلد •

– كيف ؟

– تلد • سوف تلد ولداً •

– أنت متأكد ؟

– نعم • الآلام بدأت • هى فى حاجة الى امرأة عجوز ما ••• فوراً

••• هل يمكننا العثور على واحدة ؟ كان هنا عجائز كثيرات •••

قال كيريلوف :

– يؤسفنى أنى لا أحسن التوليد ••• أقصد لا أعرف كيف يكون

التوليد ••• أوه ! اننى لا أهتدى الى الكلمات التى تعبّر عن قصدى •

– تريد أن تقول انك لا تستطيع أن تساعد امرأة تلد • ولكن ليس

هذا هو الأمر • ما نحن فى حاجة اليه انما هو امرأة عجوز ، خادمة ،

ممرضة •••

– سنأتى بواحدة • ولكن قد لا نستطيع احضارها فوراً • أستطيع أن

أحلّ محلّها اذا شئت •

– أوه ! مستحيل • أنا ذاهب فوراً الى عند المولّدة فرجنسكى •

– حقيرة !

– نعم يا كيريلوف ، لكنها خير مولّدة • صحيح أن كل شىء سيجرى

معها بغير رأفة ، وبغير فرح ، وبغير حب ، صحيح أنها فظة غليظة القلب •

آه ••• ما أكبره من سرّ مع ذلك أن يولد كائن جديد ! وما أعجب مارى

اذ تلعه منذ الآن ! •••

– اذا شئت فاننى •••

– لا ، لا ، ولكن أثناء غيابى (نعم ، سأجىء بها هذه الفرجنسكى)

اصعد أنت الى غرفتي من حين الى حين ، وتنصت من خلال الباب على ما يجري . ولكن لا تدخل ، لأنك سترعبها اذا دخلت . لا تدخل أبدا .
تنصت فقط . لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحدث . فاذا سمعت شيئا رهيباً يحدث ، فادخل عند ذاك .

- فهمت . اليك هذا الروبل أيضا . كنت أريد أن آكل في الغد دجاجة . أما الآن فقد صرفت النظر عن ذلك . أركض بسرعة ، اركض بكل ماتملك من قوة . سيظل السماور يغلي طول الليل .

كان كيريلوف يجهل كل شيء عن المؤامرة الميته لشاتوف . بل انه كان لا يخطر بباله الخطر الذي يتعرض له شاتوف . كل ما كان يعرفه هو أن بين « هؤلاء الناس » وبين شاتوف حسابات قديمة . ومع ذلك كان قد أقحم بعض الاقحام في هذه القضية ، على أثر تعليمات تلقاها في الخارج (وهى على كل حال تعليمات مبهمه وسطحية ، لأن كيريلوف قد ظل دائما في خارج الجمعية) ، ولكنه في الآونة الأخيرة كان قد ترك كل شيء ، وتحرر من جميع المهمات ، ونأى بنفسه عن كل أمر من الأمور ، ولا سيما « العمل المشترك » ، وانصرف انصرافا تاما الى حياة التأمل وحدها . لذلك فرغم أن فرخوفنسكى قد جاء الى كيريلوف مع ليويتين بغية أن يقتنع ليويتين بأن كيريلوف سيرضى أن ينسب الى نفسه مقتل شاتوف ، فان بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى لم يقل لكيريلوف كلمة واحدة عن هذه القضية ، مقدرا أن ذلك خطر ، لأن كيريلوف ليس بالرجل الذى يوثق به ويطمأن اليه . وهكذا آثر أن يرجىء الايضاحات الى الغد ، وأن يضع كيريلوف أمام الأمر الواقع . كان فرخوفنسكى يقول لنفسه : ان كيريلوف ستستوى عنده جميع الأمور فى تلك اللحظة . وقد لاحظ ليويتين جيدا أن فرخوفنسكى لم يجىء على ذكر شاتوف عند كيريلوف ، رغم الوعد الذى

بذله « لأصحابنا » • ولكن لبيوتين كان عندئذ أكبر اضطرابا وأشد انفعالا
من أن يعترض أو يحتج •

ركض شاتوف الى شارع « النملة » بسرعة الريح ، لاعتأ طول الطريق
ساعراً بأنه لن يصل الى نهايته •

وكان أفراد أسرة فرجنسكى قد ناموا جميعا منذ مدة طويلة حين
طرق شاتوف بابهم • فلما لم يتلقَ أى جواب أخذ يضرب مصراع الباب
بقبضة يده ضربات قوية • فأخذ كلب من كلاب الحراسة فى فناء المنزل
ينبح نباحا شديدا حائقا ، وهو يجر سلسلته • وطفقت كلاب الشارع كلها
تردد على نباحه بنباح مثله فورا • فكانت جلبة رهيبة •
وقفت كوة النافذة أخيراً •

— ما بالك تطرق الباب هذا الطرق ، وماذا تريد ؟

انه فرجنسكى نفسه ، الذى يتعارض صوته الرقيق تعارضا واضحا مع
هذه الضوضاء الشديدة •

وعلا صوت صارخ غاضب حائق يسأل منسجما فى هذه المرة مع
الظروف ، هو صوت أخت زوجة فرجنسكى ، العانس :

— من الطارق ؟ من هذا الوغد ؟

— أنا شاتوف • امرأتى عادت ، وقد جاءها المخاض فهى تلد •••

— طيب • مع السلامة •

— جئت ساعياً الى آرينا بروخوروفنا أريد اصطحابها ، ولن أنصرف
بدون آرينا بروخوروفنا •

— انها لا تستطيع أن تذهب الى أى بيت • ولا يحق لجميع الزبائن
أن يوقظوها فى الليل • اذهب الى ماكشابفنا ، ودعنا وشأننا •

كذلك صرخت العانس الساخطة • وكان يُسمع مع ذلك أن فرجنسكى كان يحاول أن يسكتها ، ولكنها كانت تدفعه عنها ولا تدع له أن يتكلم •

صرخ شاتوف يقول مكرراً :

– لن أنصرف •

فأجابه فرجنسكى الذى استطاع أخيراً أن يبعد أخت زوجته عن كوة النافذة :

– انتظر ! انتظر ! أرجوك يا شاتوف ، انتظر خمس دقائق ، وسوف أوقف آرينا بروخوروفنا ••••• ولكن كفاك طرقاتاً ونداءً • هذا فظيع !
وبعد دقائق خمس أحسَّها شاتوف دهرأ ، ظهرت آرينا بروخوروفنا فى النافذة •

قالت له من الكوة تسأله :

– أرجعت زوجتك اليك ؟

فما كان أسدَّ دهشته من أن صوتها لم يكن غاضباً ، بل كان صارماً فحسب : الحق أن آرينا بروخوروفنا لا تستطيع أن تتكلم بغير هذه الطريقة •

قال يجيبها :

– نعم رجعت • وهى الآن تلد •

– ماريا اجناتيفنا ؟

– نعم ، ماريا اجناتيفنا طبعاً •

وساد صمت • كان شاتوف ينتظر • وسمع تهامس وراء الزجاج •

سألت السيدة فرجنسكى :

- هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

- هذا المساء ، الساعة الثامنة • تعالى بسرعة ، أرجوك •••

واستؤنف التهامس : لعلهم يتشاورون •

- ألسنت مخطئاً ؟ أهى التى أرسلتكَ ؟

- لا ، لم ترسلنى اليك • لقد طلبت أية امرأة عجوز ، حتى لا تتكلف

نفقات • ولكن لا تخافى • سادفع لك •

- طيب • سأجىء ، سواء أدفعت أم لم تدفع • لطالما قدرت العواطف

الاستقلالية لدى ماريا اجناتيفنا ، رغم أنها لا تتذكرنى فى أغلب الظن • هل

عندك الأشياء الضرورية فى البيت ؟

- لا ، ليس عندى شيء • ولكن يمكن احضار أى شيء •••

حدث شاتوف نفسه قائلاً وهو يتجه الى بيت ليامشين : « هؤلاء

الناس قادرون على الكرم مع ذلك • ان الانسان وأفكاره سيئان مختلفان

اختلافاً كبيراً ، فيما يخيّل الى • اعلنى مخطئاً كثيراً فى حقهم ••• جميع

البشر مذنبون ••• جميعهم يخطئون ••• ولكن ليتهم يدركون

ذلك ! ••• » •

لم يحتج شاتوف الى أن يطرف باب ليامشين مدة طويله • وما كان

أشد دهشته حين رأى ليامشين يفتح الكوة على الفور تقريباً : لقد قفز من

سريره حافى القدمين متعرضاً للإصابة بالبرد ، رغم انه رهيف العناية بنفسه

سديد الاهتمام بصحته • غير أن تعجله كان له فى تلك اللحظة سبب خاص :

انه منذ الاجتماع الذى عقده أصحابنا يحس باضطراب شديد وقلق عنيف

فلا يستطيع أن ينام • كان يرتعد خوفاً ، و ينتظر فى كل لحظة ظهور زوار

لا يرغب في زيارتهم • وكان الشيء الذي يعذبه خاصةً هو وشاية شاتوف التي كان لا يشك في أن شاتوف مقدم عليها لا محالة • وهذا بابه يُطرق طرفاً قوياً •

فلما لمح شاتوف بلغ من الرعب أنه أوصد الكوة ورجع الى سريره •
وعاد شاتوف يطرق الباب ويصرخ •
صاح ليامشين يقول بصوت مهدّد متوعّد ولكنه كان يرتعد خوفاً ،
صاح يقول بعد دقيقتين حين قرر أن يفتح الكوة واستطاع أن يقتنع بأن شاتوف وحيد ليس معه أحد :

– كيف تجرؤ أن تحدث هذه العجبة كلها في الليل ؟

– هذا مسدسك • خذه واعطني خمسة عشر روبلاً •

– ما معنى هذا ؟ أنت سكران ؟ هذا عمل خليق باللصوص وفطّاع الطرق • سوف يصيبني زكام • انتظر قليلاً ، ريثما أتدثر بمعطف •

– اعطني خمسة عشر روبلاً على الفور • والا ظللت أصرخ وأطرق الباب الى الصباح • لسوف أحطم النافذة •
– وأنا سأصرخ مستنجداً ، فتسجن •

– أتظن أنني سأظل أخرس فلا أستدعي الشرطة ؟ من منا نحن الاثنين أخرى بأن يخاف الشرطة ، أنا أم أنت ؟

– كيف يمكن أن تراودك أفكار دنيئة هذه الدناءة كلها ! ••• انني أعرف الى ماذا تلمح • انتظر • انتظر • لا تطرق الباب • رحماك ! هل يمكن أن يملك المرء في بيته ليلاً مبالغ ضخمة كالتي تطلبها ؟ وما حاجتك الى المال اذا لم تكن سكران ؟

– ان امرأتى رجعت • لقد خفّضت لك عشرة روبلات • ولم أطلق

من المسدس رصاصة واحدة • استردت المسدس • استردته فوراً ، في هذه اللحظة !

مدت ليامشين يده من الكوة بحركة آلية وأخذ المسدس • ولكنه بعد لحظة تفكير أطل برأسه مرة أخرى ودمدم يقول زائف الهيئة مرتعشاً كل الارتعاش :

– أنت تكذب • لم ترجع امرأتك ••• كل ما هنالك أنك تريد أن تهرب •

– يالك من غبي أبله ! لماذا عسانى أهرب ؟ ان صاحبك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى هو الذى يهرب ، لا أنا • لقد ذهبت الى زوجة فرجنسكى ورضيت أن تأتى • اسأل • ان زوجتى تلد • أنا فى حاجة الى مال • أعطنى خمسة عشر روبلاً •

ها هى ذى نيران من أفكار متناثرة تنتشر فى رأس ليامشين • ان الموقف يبدو له فى ضوء جديد كل الجدة على حين فجأة • ولكن الخوف زاد عقله ظلاماً •

– ولكن كيف هذا ؟ ••• انك لم تكن تعيش مع امرأتك !

– سأحطم رأسك اذا ألقيت أسئلة كهذه !

– أوه ! سامحنى • فهمت • ولكن ذلك النبأ قد أدهشنى ••• فهمت ••• فهمت ••• ولكن هل رضيت آرينا بروخوروفنا أن تجيء حقا ؟ لقد زعمت فى البداية أنها عندك منذ الآن • ألم يكن ذلك صحيحاً اذن ؟ رأيت كم تكذب فى كل لحظة ؟

– لا شك أنها الآن عند امرأتى • لا تؤخرنى • ليس ذنبى أنا أنك غبى أبله •

- لا ، لست غيباً • هذا غير صحيح • معذرة ، يستحيل عليّ تماماً
أن ...

قال ليامشين ذلك ، وفقد صوابه من جديد ، فعاد يفلق الكوة •
ولكن شاتوف أطلق صرخات بلغت من القوة أن لياشيين ظهر ثانية •
- هذا اعتداء عليّ ... لا أكثر ولا أقل ! ماذا تريد مني ؟ هيّا ،
قل ، ماذا تريد مني ؟ أفصح عن مرادك • ولاحظ ، لاحظ أن الوقت
ليل •

- أريد خمسة عشر روبلاً يا حمار !

- ولكن ربما كنت لا أريد استرداد المسدس • ليس هذا من حقت
انك قد اشتريت وانتهى الأمر ، فليس من حقت أن ترد ما اشتريت • لست
أملك مبلغاً كهذا المبلغ ليلاً • أين لي بمتل هذا المبلغ الآن ؟ من أين
عساني أجيئك به ؟

- لا يخلو بيتك من مال أبداً • لقد تنازلت لك عن عشرة روبلات ،
ولكن جشعك أمر معروف جداً •

- تعال بعد غد • هل فهمت ؟ بعد غد صباحاً ، عند الظهر تماماً ،
فأرد اليك كل شيء ، كل شيء ، هه ؟

عاد شاتوف يضرب بقبضة يده اطار النافذة ضربات قوية • ثم قال :

- اعطني عشرة روبلات حالاً ، ثم تعطيني الباقي غداً في الصباح •

- لا بل خمسة روبلات بعد غد في الصباح • أما غداً ، فمستحيل •
مستحيل كل الاستحالة • لا فائدة من مجيئك غداً ، لا فائدة البتة !

- هات عشرة روبلات يا حقيير !

.. لماذا تشتمنى وتهيننى ؟ انتظر حتى أشعل شمعة • لقد كسرت
مربع الزجاج • يالها من فكرة أن يجيء المرء الى الناس ليلاً لاهاتهم !
خذ !

قال ليامشين ذلك ومدّ الى شاتوف ورقة نقدية •
تناول شاتوف الورقة • انها خمسة روبلات •
قال له ليامشين •

– أحلف لك اننى لا أستطيع أن أعطيك أكثر من هذا • اقتلنى اذا
شئت • ولكن هذا كل ما أملك أن أعطيك • بعد غدٍ ، ممكن • أما الآن ،
فلا •••

أعول شاتوف قائلاً :

– لن أنصرف !

– طيب • خذ أيضاً • هاتان ورقتان • ولكن ذلك كل شيء • اصرخ
ما شئت أن تصرخ ، فلن أعطيك شيئاً آخر ••• لا ••• لا ••• لا ! •••

كان يشعر بكرب رهيب ، وكان العرق يتصبب منه •

نظر شاتوف فى الورقتين النقديتين • ان كلاً منهما روبل واحد •
فمجموع ما قبضه اذن سبعة روبلات •

قال شاتوف :

– شيطان يأخذك ! سأعود غداً يا ليامشين ، ولأقتلك اذا لم تكن قد
أعددت لى التمانية روبلات الباقية •

فحدث ليامشين نفسه قائلاً : « وأنا لن أكون غداً فى البيت أيها
الغبي ! » •

وصاح يقول لشاتوف الذى كان قد أخذ يركض مسرعاً :
 - انتظر لحظة ، انتظر • ارجع • قل لى : هل رجعت اليك زوجتك
 حقاً ؟
 فأجابه شاتوف قائلاً :
 - غيبى !

٤

كانت آرينا بروخوروفنا لا تعلم شيئاً عن القرارات التى اتخذت
 أمس فى الاجتماع • ذلك أن فرجنسكى ، حين عاد الى البيت ، وكان
 مصعوقاً ، لم يجرؤ أن يحدث امرأته فى الأمر • لكنه فى صباح الغد لم
 يطق صبراً فروى لها جزءاً مما يعرف أى قال لها ان المعلومات المتوفرة لدى
 فرخوفنسكى تشير الى أن شاتوف يستعد لأن يثى بالجميع • ولكن
 فرجنسكى حرص على أن يضيف الى ذلك قوله انه من جهته لا يصدق
 هذه الدعوى كثيراً • ومع هذا شعرت آرينا بروخوروفنا برعب شديد •
 وذلك هو السبب فى أنها ، رغم تعبها الشديد كل الشدة بسبب اشرافها
 فى الليلة البارحة على ولادة عسرة ، قد قررت أن تذهب الى شاتوف بلا
 ابطاء حين سعى اليها شاتوف طالباً معونتتها • لقد كانت دائماً مقتنعة بأن
 رجلاً امّعة مثل شاتوف لا يتورع أى تورع عن ارتكاب دناءة من هذا
 النوع ، ولكن وصول ماريما اجناتيفنا يبدل الوضع تبديلاً كاملاً • ان ذعر
 شاتوف ، وكرهه ، ويأسه ، وتوسله ، وضراوته ؛ ان ذلك كله يدل على
 أن عواطف الخائن قد تغيرت : ان رجلاً يقرر تسليم نفسه لا لشيء غير
 تضييع الآخرين ، لا يمكن أن يكون وجهه هذا الوجه ، ولا يمكن أن
 تكون لهجته هذه اللهجة • كذلك كانت تقول لنفسها آرينا بروخوروفنا •

الخلاصة : لقد قررت أن ترى كل شيء بعيني رأسها ، وأن تعرف كل شيء بنفسها . وقد سرّ فرجنسكى كثيراً من قرارها هذا . حتى لقد شعر بأنه يتخفف من حمل ثقيل ، بل انه أخذ الآن يأمل خيراً : ان وضع شاتوف يتعارض تعارضاً تاماً مطلقاً مع شكوك فرخوفنسكى .

لم يخطئ شاتوف : فحين وصل الى البيت كانت آرينا بروخوروفنا قد سبقته اليه . وقد بادرت آرينا بروخوروفنا منذ وصولها الى طرد كيريلوف الذى كان يترقب عند أسفل السلم . ولم تشأ المريضة أن تعرف المولّدة على أنها من قدامى الأصحاب . كانت فى حالة نفسية سيئة جداً ، فهى شريرة شرسة ساخطة قد استبد بها وسيطر عليها « يأس فيه جبن لا ميل له » ، على حد تعبير آرينا بروخوروفنا . ولكن آرينا لم تلبث أن طوّعتها بعد خمس دقائق فى أكثر تقدير .
و حين دخل شاتوف كانت تقول لها :

— ما بالك تكررين أنك لا تريدين مولّدة باهظة الأجور ؟ هذه سخافات ، هذه آراء فاسدة ناشئة عن حالتك التى ليست حالة طبيعية سليمة . اذا جاءتك امرأة عجوز ما ، فمن الجائز أن تجرى الأمور مجرى سيئاً . هذا أحد احتمالين متساويين قوة . ثم انك قد تقعين فى مشاكل وتدفعين نفقات ضخمة اذا لم تتعهدك مولّدة ماهرة تزعمين أنها باهظة التكاليف . ثم من قال لك ان أجورى غالية ؟ سوف تدفعين لى فى المستقبل ، ولن أطلب منك كثيراً . وأنا من جهة أخرى أضمن لك النجاح والسلامة . لن تموتى بين يدي . ما أكثر ما رأيت من حالات كحالتك ! أما الولد فسأحمله منذ الغد الى ملجأ ، ثم نعهد به الى مرضع فى الريف ، فينتهى كل شيء . حتى اذا شفيت وجدت عملاً ، فما هو الا وقت قصير حتى تكونين قد عوّضت شاتوف أجور الإقامة والنفقات التى لن تكون ضخمة الى الحد الذى تتصورين

- لا يحق لى أن أكون عالةً عليه . . .

- هذه عواطف معقولة ومشاعر نبيلة . ولكن تبقى أن شاتوف لن يتكبد أية نفقة اذا هو رضى أن يترك أوهامه وأخيلته وأن يعتقد آراء أسلم وأصح . يكفى أن لا يرتكب حماقات، أن لا يجرى فى المدينة مدلباً لسانه نافخاً فى بوق . ان شاتوف ، اذا لم يحتجز بالقوة ، لن يتورع عن الذهاب منذ الغد الى جميع أطباء المدينة بغية اصطحابهم اليك . عندى أنا ، أهاج جميع كلاب الحى . لست فى حاجة الى طيبب . قلت لك اننى أضمن كل شىء . على أنك تستطيعين أن تستعينى بامرأة عجوز لخدمة البيت . هذا لا يكلف نفقة ذات بال . ثم ان شاتوف يمكن أن يفيد فى شىء ما أيضا . ان له ذراعين وساقين . فسيذهب اذن الى الصيدلية دون أن يجرح هذا كرامتك . ما هذا منة منه وكرم . أليس هو الذى جعلك فى هذا الوضع ؟ ألم يوقع شقافاً بينك وبين تلك الأسرة التى كنت تعملين عندها مربية ، ولم يكن له من ذلك الا هدف أنانى هو أن يتزوجك ؟ لقد سمعنا عن هذا . . . ثم انه قد هرع الينا كالمجنون وأحدث جلبةً كبيرة . اننى لا أريد أن أفرض حضورى على أحد . واننى لم أجدى الا من أجلك أنت تقيداً بالمبدأ ، لأن جماعتنا يجب أن ينصر بعضها بعضاً . قلت له هذا حتى قبل أن أخرج من بيتى . فاذا كان وجودى فى نظرك نافلاً فوداعاً اذن ! بشرط أن لا يقع لك سوء ، وهو سوء ليس نحاشيه بالأمر السهل .

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا ، حتى لقد قامت لتصرف .

وكانت مارى قد بلغت من الضعف والألم ، وبلغت من الخوف مما ينتظرها فى الواقع أنها لم تجسر أن تدع آرينا بروخوروفنا تنصرف . ولكن آرينا بروخوروفنا أصبحت كريمة فى نظرها فجأة : ان كل ما قالت آرينا كان متعارضاً أشد التعارض مع ما كان يحدث فى نفس مارى . غير أن خوفها من أن تموت بين يدي مولدة ليست بذات خبرة قد جعلها

تغلب على نفورها من آرينا وكرهها لها • وكذلك أصبحت تجاه شاتوف منذ تلك اللحظة أكثر شدةً وأقل رحمةً ، حتى لقد حظرت عليه في النهاية لا أن ينظر اليها فحسب ، بل أن يلتفت بوجهه نحوها •

وتفاقت الآلام مزيدا من التفاقم ، واشتدت اللعنات والشتائم التي تطلقها ماري مزيدا من الاشتداد •

قالت آرينا بروخوروفنا :

– سنطرده الى الخارج • انه بوجهه المنقلب يبث في نفسك الخوف والرعب • انه شاحب كميث •
والتفتت تقول لشاتوف :

– ولكن فيم يعنك أنت هذا ؟ ألا انك لرجل غريب شاذ حقا ! ماهذه المهزلة !

لم يجب شاتوف • لقد قرر أن يلتزم الصمت •

– رأيت في مثل هذه الأحوال آباء بلهاء يفقدون عقولهم تماما •
ولكن أولئك على الأقل ...

– اسكتي ، أو دعيني أفطس ! لا يقل أحد كلمةً بعد الآن، لا أريد •
لا أريد •

كذلك صرخت ماري •

– يستحيل على المرء أن لا يفتح فمه • لا بد أن يكون المرء قد فقد عقله حتى يفرض مثل هذه المطالب • ولكنك في حالة غير طبيعية • لتتكلم في أمور جدية على الأقل • قولى لى : هل أعددت كل شيء ؟ أجب يا شاتوف • هي في حالة لا تمكنها من الاجابة •

- قولى لى ما هى الأشياء اللازمة تماما •

- ألم تهىء اذن شيئاً ؟

كذلك أجابته آرينا بروخوروفنا ، ثم أخذت تحصى له ما هى فى حاجة اليه • يجب أن نذكر لها هذا الفضل ، وهو أنها لم تطلب الا ما هو لازم كل اللزوم • وقد اتضح أن بعض الأشياء المطلوبة متوفر عند شاتوف • وأخرجت مارى مفتاحها ومدته اليه ليفتح الكيس الذى حملته فى سفرها • واذ كانت يدها ترتعشان فقد استغرق ادخال المفتاح فى القفل وقتاً أطول من الوقت اللازم ، فأثار هذا حنق مارى وأغاضها غيظاً شديداً • ولكن حين هرعت آرينا بروخوروفنا لتأخذ المفتاح من يدي شاتوف لم تشأ المريضة أن تنظر آرينا فى كيسها وأصرّت باكيةً صارخةً على أن يكون شاتوف هو الذى يتولى فتح الكيس •

وكان لا بد من الذهاب الى كيريلوف لاحضار بعض الأشياء • ولكن ما ان غادر شاتوف الغرفة حتى أخذت مارى ناديه بصرخات كبيرة ، ثم لم تهدأ نائرتها الا حين رجع شاتوف مسرعاً ليشرح لها أنه لا يخرج الا لحظةً واحدة ، وأن خروجه لا غنى عنه ، وانه عائد على الفور •

قالت آرينا بروخوروفنا ضاحكة :

- ما أصعب ارضاءك يا سيدتى الصغيرة ! فتارةً تطلين أن يلصق أنفه بالحائط فلا ينظر اليك ، وتارةً تنفجرين باكيةً اذا هو اضطر أن يغيب لحظةً • لا بد أن يتخيل شيئاً فى النهاية • هيّا ، هيّا ! لا تضطربى • أنا أمزح طبعاً •

- ليس من حقه أن يتخيل شيئاً •

- لولا أنه هائم بك حباً لما ركض فى الشوارع كالمجنون ، ولما هاج جميع كلاب المدينة • لقد حطم اطار نافذة بيتى •

٥

كان كيريلوف مستمراً في ذرع غرفته جيئةً وذهاباً ، وقد بلغ من فرط الاستغراق في تأمله أنه نسي حتى وصول امرأة شاتوف ، فكان يصغى الى شاتوف دون أن يفهم عنه .

قال أخيراً وكأنه ينتزع نفسه انتزاعاً شاقاً من فكرة جذابة فاتنة :

— آ . . . نعم . . . امرأة عجوز . . . أكنت تتكلم عن زوجتك أم عن حاجتك الى امرأة عجوز . آ . . . نعم ، عن زوجتك وعن امرأة عجوز ، أليس كذلك ؟ تذكرت الآن . لقد بحثت وسألت : فالعجوز ستأتى ، ولكنها لن تأتى فوراً . خذ الوسادة . ماذا أيضاً ؟ نعم . . . انتظر . . . هل اتفق لك يا شاتوف في يوم من الأيام أن شعرت بلحظات انسجام كلى شامل ؟

— اسمع يا كيريلوف ، يجب عليك بعد الآن أن لا تسهر كل ليلة . . .

بدا على كيريلوف أنه ثاب الى نفسه . والشئ الغريب أنه أخذ يتحدث حديثاً فيه من اليسر والسهولة والراحة والمنطق أكثر مما عهد فيه . واضح أنه كان قد صاغ هذه الأفكار لنفسه منذ مدة طويلة ، بل لعله أيضاً قد سطرها على الورق . قال :

— هناك لحظات تدوم خمس ثوان أو ستاً تحس أثناءها فجأة بحضور الانسجام الأبدى ، وبأنك بلغت هذا الانسجام الأبدى . ليس ذلك شيئاً أرضياً : لا أقول انه سماوى ، ولكننى أقول ان الانسان من جانبه الأرضى عاجز عن احتمالها . فيجب أن يتغير جسم الانسان أو يموت . انه شعور واضح ، لا جدال فيه ، مطلق . تدرك الطبيعة كاملة على حين فجأة ، وتقول لنفسك : نعم ، هذا هو ، هذا حق . حين خلق الله العالم كان يقول في

آخر كل يوم : « نعم ، هذا خير ، هذا عدل ؛ هذا حق » . ليس ذلك نوعاً من ترقق العاطفة والحنان . انه شيء آخر . انه فرح . وأنت عندئذ لا تغفر شيئاً ، اذ لا يبقى ثمة ما تغفره . وليس ذلك حتى حباً . آه . . . انه فوق الحب . الأمر الرهيب هو أنه واضح وضوحاً مخيفاً مروّعاً . غير أن فرحاً واسعاً يغمر كل شيء ! لو دام أكثر من خمس ثوانٍ ، لما استطاعت النفس أن تتحملة ولكان عليها أن تزول . في هذه الثواني الخمس أحيا حياةً بكاملها ، وانى لمستعد في سبيلها أن أهب حياتي كلها . . . لأن هذه الثواني الخمس تساويها . من أجل أن يستطيع المرء احتمال ذلك عشر ثوانٍ يجب أن يتغير جسمه . وأظن أنه يجب على الانسان أن يكف عن التناسل . لماذا الأطفال ، لماذا نمو الانسانية ، اذا كانت لغاية قد بلغت ؟ لقد جاء في الانجيل أن البشر لن يلدوا بعد البعث في الحياة الآخرة ، وانهم سيكونون جميعاً كملائكة الله . هذه اشارة . هل امرأتك تلد ؟

- هل يحدث لك هذا كثيرا يا كيريلوف ؟

- كل ثلاثة أيام ، كل أسبوع . . .

- أأنت مصابا بمرض الصرع .

- لا .

- ستصاب بهذا المرض . انتبه يا كيريلوف : لقد سمعت أن مرض الصرع انما بهذا يبدأ . وقد حدثني أحد المصابين به فوصف لي المشاعر التي تسبق نوبات الصرع تفصيلاً . لقد تكلم هو أيضا عن ثوانٍ خمس ، فكان يقول ان المرء يستحيل عليه أن يتحمل هذا مدةً أطول . تذكر جرة النبي محمد ، التي لم تكن قد فرغت من مائها حين عاد من معراجه الى السماء . ان الجرة هي هذه الثواني الخمس التي تحدث عنها ، وان

المعراج هو هذا الانسجام الكلى الذى تحس به • ولقد كان محمد يصاب
بغيبوبة •

انتبه الى الصرع يا كيريلوف •

قال كيريلوف وهو يتسم ابتسامة وادعة :

- لن يتسع الوقت لاصابتي بهذا الداء •

٦

كان الليل ينقض ببطيئا • وكان شاتوف يُطرد ويُسْتدعى •
لقد بلغت ماري ذروة الهلع • كانت تصرخ قائلةً انها تريد أن تعيش
« حتماً ، حتماً » ، وانها خائفة من الموت ، فهي ما تنفك تكرر « يجب أن
لا أموت ، يجب أن لا أموت ! » • ولولا أن آرينا بروخوروفنا كانت هناك
لكان يمكن تجرى الأمور مجرى شيئاً جداً • ولكن آرينا بروخوروفنا قد
استطاعت أن تسيطر على المريضة شيئاً فشيئاً ، فأصبحت المريضة فى النهاية
تخضع لأى أمرٍ تصدره اليها ، كما يخضع طفل • لقد عمدت آرينا
بروخوروفنا الى الشدة والقسوة لا الى الرفق واللين ، ولكنها كانت خبيرة
فى فنّها • وأخذ الصبح يطلع • وتخلت آرينا بروخوروفنا فجأةً أن
شاتوف ، وقد خرج الى فسحة السلم ، هو الآن يصلى ويدعو الله ،
فانفجرت تضحك • فأخذت ماري تضحك هي أيضاً ، ضحكا خبيثاً ،
ضحكا ساخراً ، فكان هذا الضحك كان يخفّف عنها بعض التخفيف
وأخيراً أُخرج شاتوف من الغرفة • فبقى على فسحة السلم ، مستنداً الى
الجدار ، فى الوضع الذى فاجأه فيه اركل بالأمس • كان يرتعش كورقة
فى مهب الريح ، وكان يخشى أن يفكر • ولكن ، كما يحدث للمرء فى
الحلم ، كان فكره يتابع الصور التى تتشكل فى خياله وتقطع فى كل لحظة •

لم يعد يسمع أنات ، بل أصبح يسمع اعوالات رهيبية ، وصرخات كصرخات وحش ، صرخات لا تطاق تصل اليه من الغرفة • أراد أن يسدّ أذنيه ، ولكنه لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك ، وجنا على ركبتيه مكرراً بغير شعور : « ماري ! ماري ! » وفجأة سمع صرخة جديدة أرعشته وأنهضته بوثة واحدة ، هي صرخة طفل صغير ، صرخة ضعيفة ، كأنها مصدوعة • فرسم على نفسه اشارة الصليب وهرع الى الغرفة • كانت آرينا بروخوروفنا تمسك كائناً صغيراً أحمر مجعداً ، لا حول له ولا قوة ، يستدر الشفقة ، يمكن أن تعصف به نسمة خفيفة كأنه ذرة من غبار ، ولكنه يصرخ ويحرك ذراعيه وساقيه الصغيرة كمن يريد أن يطالب بحقه في الحياة • وكانت ماري كالمغمى عليها ، لكنها فتحت عينيها بعد دقيقة ، وألقت على شاتوف نظرة غريبة ، نظرة جديدة كل الجودة ، نظرة كان لا يستطيع أن يفهمها بعد ، ولا رآها أبداً قبل الآن •

سألت بصوت فيه ألم :

- صبي ؟ صبي ؟

فأجابتها آرينا بروخوروفنا وهي تغمّط الطفل :

- نعم ، صبي بدين •

وقبل أن تضعه بين وسادتين على السرير ، ناولته شاتوف لحظة ، فاذا بماري ، وكأنها تخشى أن تراها آرينا بروخوروفنا ، توميء الى زوجها ، فيسرع يقرب منها الطفل •

دمدمت تقول بصوت ضعيف وهي تبسم :

- ما أجمله !

فهتفت آرينا بروخوروفنا تقول وقد أدهشها ما رأته في وجه شاتوف من تهلل الأسارير :

- انظروا اليه قليلاً ! انظروا الى وجهه العجيب !
فجمعهم شاتوف قائلاً وقد أسكره الكلام الذي قالتها ماري عن
الطفل :

- ابتهجي يا آرينا بروخوروفنا ... انها فرحة كبرى !
فصاحت آرينا بروخوروفنا تقول مرحة وهي تذهب وتهجي في
الغرفة لترتبها :

- فرحة كبرى ؟ ما هذا الذي تقول ؟

فدمدم شاتوف يقول كالسكران :

- ان انبثاق كائن جديد سر كبير ، سر لا يفهم يا آرينا بروخوروفنا .
خسارة أنك لا تفهمين هذا .

كان شاتوف كمن فقد عقله ، وكانت الكلمات كأنها تخرج من فمه
رغم ارادته . وتابع كلامه يقول :

- كانا اثنين ، فاذا بكائن انساني جديد يظهر : روح جديدة ، تامة .
مكتملة ؟ لم تخلق مثلها يد انسانية قط ؟ فكر جديد ، حب جديد . هذا
أمر يكاد يكون رهيباً . لا شيء أعظم من هذا في العالم .

- أمواج من الكلام ! ليس الأمر كله الا نمو الجسم ، ولا شيء غير
هذا . لا سر !

كانت آرينا بروخوروفنا تضحك ضحكاً مرحاً صريحاً . وتابعت
كلامها تقول :

- على هذا الأساس يكون نشوء أحقر بعوضة سرّاً من الأسرار .
ولكن اسمعي ما سأقوله لك : الأجدد أن لا يولد في العالم بشر لا فائدة

منهم • قبل أن تلدوا أطفالاً ابدأوا بتغيير كل شيء ، بحيث لا يكونون
بغير فائدة منهم • أما الآن فيجب عليك أن تحملي الوليد بعد غدٍ الى ملجأ
اللقطاء •

قال شاتوف مطرقاً الى الأرض :

- لن أحمله الى ملجأ اللقطاء بحال من الأحوال !

- أتبناه ؟

- هو ابني منذ الآن !

- طبعاً • انه يحمل اسم شاتوف ؛ ان القانون نفسه يوجب أن يكون
اسمه شاتوف • فلا تمثل دور محسن الى الانسانية • انك لا تستطيع
الاستغناء عن الألفاظ الكبيرة ! هذا كله حسن جدا • ولكن آن لى أن
أنصرف •

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا وقد فرغت من ترتيب الغرفة •
وأردفت تقول :

- سأرجع فى هذا الصباح مرةً أخرى ، وسأعود أيضا فى المساء
اذا وجب الأمر • أما الآن وقد تمَّ كل شيء على ما يُرام ، فيجب أن أزور
نساءً أخريات ينتظرننى • لقد عثرت على امرأة عجوز يا شاتوف ، ولكن
لا تتكل عليها وابق هنا • قد يُحتاج اليك • أعتقد أن ماريا اجنايفنا لن
تطردك ••• هيا ، هيا ، أنا أمزح •

وبقرب البوابة التى رافق اليها شاتوف المولدة مشيعاً ، أضافت
تقول :

- لقد أضحكتنى الى آخر أيام حياتى • لن أتقاضى منك أجراً •••
لسوف أضحك من هذا حتى فى المنام • حسبى ذلك • لم أر فى حياتى
رجلاً أبعث على الضحك منك هذه الليلة •

وانصرفت مرتاحة أشد الارتياح ، راضية كل الرضى • كانت تحدث نفسها قائلة : « انه لو اوضح من منظر شاتوف ومن أقواله أن هذا الرجل قد صيّر نفسه أباً منذ الآن ، وأنه ليس الا امّعة ضعيف الشخصية » • ورغم أنها كان عليها أن تزور امرأة أخرى على الفور فقد ذهبت أولاً الى بيتها لتبلغ فرجنسكى انطباعاتها •

بدأ شاتوف يكلم ماري خجلاً وجلاً فقال لها :

– ماري ، انها تقول ان عليك أن لا تنامي حالاً • لكنني أرى مع ذلك أن هذا سيكون شاقاً جداً عليك • سأجلس هنا ، قرب النافذة ، أسهر عليك ، هل تريدین ؟

قال ذلك وجلس قرب النافذة وراء الديوان ، بحيث لا تستطيع أن تراه • ولكنها نادته بعد دقيقة ، وسألته بلهجة احتقار أن يرتب وسائدها • وبينما كان شاتوف ينفذ أمرها ، كانت هي تحدّق الى الجدار باصرار •

– ما هكذا ! ما هكذا ! ••• يا لخرافة يدك !

كان شاتوف يبذل كل ما في طاقته •

وأمرته على حين فجأة قائلة له بصوت أجش ، جاهدة أن لا تنظر اليه :

– ملّ علىّ •

فارتعد ولكنه مال عليها •

– مزيداً من الميل ••• ما هكذا ••• اقترب أكثر ! •••

وفجأة أمرت يدها اليسرى حول عنق شاتوف • وأحسّ شاتوف على جبينه بقبلة حارة مخضلة •

– ماري !

كانت شفتا المرأة الشابة تختلجان • وكان واضحاً أنها تحاول أن تسيطر على نفسها ، ولكنها أنهضت جسمها فجأة ، وقالت متقدة العينين :

– ان يقولاى ستافروجين رجل شقى !

وبارحتها قواها بغتة فعاتت تنهالك على السرير ، دافنة رأسها فى الوسائد ، وانفجرت باكية وهى تضغط يديها يد شاتوف •

ومنذ تلك اللحظة لم تفلت زوجها • وطلبت اليه أن يجلس الى جانب سريرها • وكانت لا تستطيع أن تتكلم ، فهى تتأمله ملياً ، وقد ألمت بوجهها ابتسامة افتتان ، ابتسامة طفلة صغيرة بلهاء • كل شىء كان يبدو لهما متغيراً • أخذ شاتوف يبكى بكاء طفل ، ثم طفق يتكلم فيما دبّ ودبّ بلهجة الملهم كأنه سكران ، ويقبل يديها من حين الى حين مرة تلو مرة • وكانت هى تصغى اليه نشوى ، ربما دون أن تفهم ما كان يقوله ، ولكنها تمسّد شعره بيد ضعيفة واهنة ، وترتبه وتصففه وهى تتأمله بحب ووجد • كلّمها عن كيريلوف ، وعن الحياة الجديدة التى ستبدأ بالنسبة اليهما ، وعن وجود الله ، وعن طيبة البشر • ومن فرط حماستهما أخرجوا الطفل من أقماطه ليُعجبا به مزيداً من الاعجاب •

هتف شاتوف قائلاً وهو يمسك الطفل فى ذراعيه :

– ماري ! لقد انتهينا من الهديان القديم ، من الخزى ، من الموات القذر • ألا فلنبداً العمل نحن الثلاثة ! ان حياة جديدة تفتح ذراعيها لنا ! نعم ، نعم ! ولكن ماذا نسميه يا ماري ؟

فأجابت تكرر سؤاله بدهشة :

– ماذا نسميه ؟

وارتسم على وجهها فجأة ألم شديد •

وضمت يديها احدهما الى الأخرى ، ونظرت الى شاتوف عاتبه
الهيئة ، ودفنت وجهها فى الوسائد •

هتف شاتوف يسألها مرتاعا :

— ماذا ؟

— كيف أمكنك أن ••• كيف أمكنك أن ••• آه ••• عقوق !

— عفوك يا ماري ، عفوك يا ماري ! ••• أنا انما سألت ماذا نسميه

••• لست أفهم •••

قالت وهى تنهض رأسها المحترق المبلل بالدموع :

— سنسميه ايفان ، ايفان • كيف أمكنك أن تتصور أن فى وسعنا

أن نسميه باسم آخر ، باسم « فطيع » ؟

— ماري ، هدثى نفسك • ان أعصابك مهتاجة !

— وهذه فظاظة أخرى منك • لماذا تنسب دموعى الى احتياج أعصابى ؟

••• يميناً لو اقترحت أن نسميه بذلك الاسم ••• ذلك الاسم البقيع •••

لوافقنت أنت فوراً ، حتى لقد لا تتبه الى الأمر أى انتباه • آه ••• ما أشد

عقوقكم ••• ودناءتكم ••• جميعاً ، جميعاً ! •••

وبعد دقيقة ، ساد بينهما السلام طبعاً ، وألح عليها شاتوف أن تنام

فليلاً • فنامت ، ولكن دون أن تدع يده التى كانت تقبض عليها بيديها •

وكانت تستيقظ من حين الى حين ؟ فتتظر اليه كأنها خائفة أن ينصرف ،

ثم تغفو ثانية على الفور •

وصلت المعجوز التى أرسلها كيريلوف حاملة « تهنئاته » ، وحاملة

كذلك شايّاً ساخناً وشرائح لحم ومرقاً وخبزاً أبيض « لماريا اجناتيفنا » •

فشربت المريضة المرق بشراة ؛ وقمطت العجوز الطفل • وأجبرت ماري زوجها شاتوف على أن يأكل شريحة لحم أيضا •

وكان الوقت يمضي • وأخذ التعب من شاتوف كل مأخذ فغفا على كرسي مستنداً برأسه الى وسادة زوجته • وعلى هذه الحال انما وجدتهما آرينا بروخوروفنا حين جاءت برأ بوعدها • فأيقظتهما مرحة ، وألقت الى ماري بتعليماتها ، وفحصت الطفل ، وحظرت على شاتوف مرة أخرى أن يترك زوجته • ثم بعد أن مازحت الزوجين بشيء من الازدراء والتعالي ، انصرفت راضية مسرورة كما فعلت في الصباح •

حين استيقظ شاتوف ، كان الظلام قد خيم • فأشعل الشمعة ، وأسرع يبحث عن العجوز ، فما كان أشد دهشته حين هبط السلم فادا هو يسمع وقع خطوات خفيفة محاذرة • كان هناك رجل يتقدم نحوه : انه اركل •

همس شاتوف يقول له :

— لا تدخل •

ثم أمسك يد الزائر وقاده نحو البوابة • وقال له :

— انتظرني هنا • سأرجع فوراً • نسيك تماما • لقد عرفت كيف

تذكرني بك !

بلغ شاتوف من الاستعجال أنه لم يدخل على كيريلوف واكتفى بنبادة المرأة العجوز • وقد غضبت ماري أشد الغضب واستاءت أشد الاستياء من أنه « أمكن أن يخطر بباله أن يتركها وحيدة » •

فهتف يقول لها متحمساً :

— هذه آخر مرة • ان طريقاً جديدة تنشق أمامنا ؛ ولن نفكر أبداً ،

أبداً ، في هول الأيام الماضية •

واستطاع أن يهدئها بعض التهديئة ، ووعداها أن يرجع في الساعة التاسعة تماما ، وقبلها و قبَّلَ الطفل ، وأسرع يدرك اركل •

اتجه الرجلان نحو حديقة آل ستافروجين ، في سكفورشنيكى ، حيث كان شاتوف ، قبل سنة ونصف سنة ، قد دفن في موضع ناء ، على حدود الحديقة ، عند غابة صنوبر ، المطبعة التي عهد بها إليه • ان المكان موحش ، مقفر ، بعيد عن مسكن آل ستافروجين • والمسافة بينه وبين منزل فيليبوف تُقدَّر بثلاثة فراسخ ونصف ، وربما بأربعة فراسخ •

قال شاتوف سائلاً :

– هل تقطع الطريق كله سيراً على الأقدام ؟ اننى أفضّل كراء عربة •

فقال اركل :

– بل يجب أن تقطع الطريق سيراً على الأقدام • لقد أصروا على هذا كثيراً • ان الحوذى يمكن أن يتخذ شاهدا •

– طيب • لا بأس • المهم أن أنتهى ، أن أنتهى !

وكانا يسيران بخطى سريعة •

هتف شاتوف يسأل صاحبه :

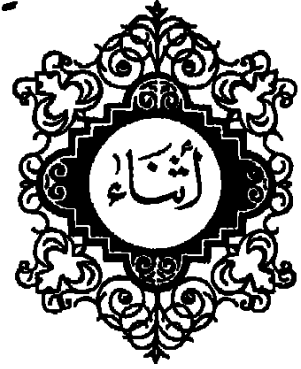
– اركل ، بنى ، هل سعدت في حياتك يوماً من الأيام ؟

فقال اركل متعجباً :

– يبدو لى على كل حال أنك الآن سعيد •

الفصل السادس

ليلة مشقات ومخاوف



النهار طاف فرجنسكى على بيوت جميع «أصحابنا» لينبئهم بأن شاتوف لن يشى بهم حتماً ، وذلك بسبب عودة امرأته التى ولدت عنده منذ قليل : كان يستحيل على فرجنسكى أن يسلم بأن شاتوف يمكن أن يكون خطراً فى هذا الأوان ، « لمعرفته بالقلب الانسانى » . ولكن ما كان أسد حسرة فرجنسكى حين لم يجد أحداً منهم فى بيته ، الا اركل وليامشين . ولقد أصغى اركل الى كلامه صامتا رقيق الهيئة . ولكن حين ألقى عليه هذا السؤال المباشر : « أنت ذاهب اليوم الى الموعد فى الساعة السادسة ؟ » أجابه اركل وهو يتسهم : « طبعاً ! » .

أما ليامشين فقد كان فى سريره ، دافنا رأسه تحت الغطاء ، وكان يبدو عليه أنه مريض فعلاً . وحين رأى فرجنسكى خاف خوفاً شديداً ، ومنذ أن أخذ فرجنسكى يتكلم تضرع اليه ، محركاً يديه ، بأن يترك هادئاً مرتاحاً . غير أن المعلومات التى ذكرها فرجنسكى عن شاتوف بدت له هامة فأصغى اليها بانتباه . حتى اذا علم أن زائره لم يجد أحداً من «أصحابنا» فى بيته ، أزعجه ذلك كثيراً . وقد اهتز فرجنسكى هو أيضاً حين قصَّ عليه ليامشين ، بكلام مفكك ، ما وقع افدكا (وكان قد علم ذلك من ليوتين) . فلما ألقى عليه فرجنسكى هذا السؤال المباشر : « هل

يجب الذهاب الى الموعد ؟ » ، عاد ليامشين يضطرب وأعلن « أن ذلك كله لا شأن له هو به ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأن عليهم أن يتركوه هادئاً . » .

رجع فرجنسكى الى بيته قلقاً مرهقاً . ولقد كان يصعب كثيراً أن يخفى عن أسرته ما يعمل فى نفسه ، لأنه اعتاد أن لا يكتف عن امرأته شيئاً . ولقد كان يمكن أن يرقد أخيراً فى سريره مثل ليامشين لولا أن فكرةً جديدة قد نبتت فجأةً فى ذهنه المحموم ، فكرةً بدا له أنها يمكن أن تدبر الأمور بما يرضى الجميع . وقد بثت هذه الفكرة فى نفسه شجاعةً ، حتى انه أصبح ينتظر الساعة المحددة نافذ الصبر ، وانطلق يسير الى مكان الموعد المضروب فى وقت أبكر من اللازم .

كان المكان حزيناً كثيراً على حدود حديقة آل ستافروجين الواسعة . لقد ذهبتُ اليه خصيصاً فيما بعد ، وانى لأتخيل مدى ما كان يبدو عليه ذلك المكان من جهامة وشؤم فى ذلك المساء الحزين من أماسى الخريف . كانت أشجار الصنوبر الضخمة الطاعنة فى السن تشكّل فى ظلمات الغابة بقعاً سوداً مبهمه . وقد بلغت الظلمة من الحلك أن المرء لا يكاد يرى قدّامه أكثر من خطوتين . ولكن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين واركل قد تزودا بمصاييح . ان مغارة من حجارة غير مقدودة ، مغارةً مضحكة ، كانت قد بُنيت فى ذلك المكان لا يدرى أحد متى ، ولا يدرى أحد لأى غرض بُنيت . والمائدة والكراسى الموجودة فى داخل المغارة كانت منحورة مسوّسة متآكلةً تتساقط غباراً . ان بين منزل السادة أصحاب الأرض وبين الغابة غدراناً ثلاثة تتعاقب على مسافة فرسخ . والغدير الثالث يقع يميناً على بعد نحو مائتى متر من المغارة . يصعب على المرء أن يفترض أن ضجةً ما ، كصرخة أو حتى طلقة رصاص ، يمكن أن يسمعها سكان المنزل الذى هجره أصحابه ولم يبق فيه ، منذ سفر نيقولاى فسيفولودوفتش بالأمس وسفر ألكسى ايجورتش ، الا خمسة خدم عجائز أو ستة . ومن

الجائز جدا على كل حال ، حتى لو سمعوا صرخات ألم أو نداءات استغاثة ،
أن لا يزعجوا أنفسهم بالانطلاق الى مكان الصوت اغانةً للضحية •

فى الساعة السادسة وعشرين دقيقة كان الجميع قد اجتمعوا ، الا
اركل الذى كان عليه أن يقود شاتوف • فى هذه المرة لم يتأخر بطرس
ستيفانوفتش • لقد وصل مع تولكاثسكو • وكان تولكاثسكو قائم الوجه
مهموم النفس • لقد بارحته وقاحته المعهودة فيه ، وبارحته رباطة جأشه
وثقته بنفسه • انه لا يترك بطرس ستيفانوفتش ، ويبدو مخلصاً له بغير
تحفظ • وهو الآن كثير الحركة والسعى ، لا يكف عن الهمس فى أذن
صاحبه ، ولكن صاحبه لا يكاد يجيبه أو هو يجمع منزعج الهيئة بيضعة
كلمات تخلصاً منه •

ولقد وصل شيجالوف وفرجنسكى قبل بطرس ستيفانوفتش بقليل •
فلما أبصراه انسحبا متنحيين ، ملتزمين الصمت • فرجع بطرس ستيفانوفتش
مصباحه وتفرس فيهما بانتباه فيه استهانة واحتقار ، قائلاً لنفسه : « انهما
يستعدان للكلام » •

سأل مخاطباً فرجنسكى :

— ألم يجىء ليامشين ؟ من قال انه مريض ؟

أجاب ليامشين قائلاً وهو يخرج من وراء شجرة :

— أنا هنا •

كان يرتدى معطفاً ضخماً ، وقد أحاط عنقه وكتفيه بنطاء ، فلا يكاد
يميز المرء وجهه الا بكثير من العناء ، ولو سلط عليه ضوء المصباح •

— لا ينقص اذن الا ليوتين •

وخرج ليوتين من المغارة دون أن يقول كلمة واحدة •

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه من جديد • وقال له :

- لماذا تختبئ ؟ لماذا لم تخرج في الحال ؟

فدمدم ليوتين يقول ، ربما دون أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول على كل حال :

- افترض أننا محتفظون بحرية ••• حر كاتنا •••

قال بطرس ستيفانوفتش رافعاً صوته ، محدثاً بذلك جواً يناقض جو الهمس الذي يسود منذ قليل :

- أيتها السادة ••• أظن ••• أنكم تدركون أنه لا فائدة الآن من الافاضة في الكلام • لقد قبل أمس كل شيء ، وكُـرِّرَ كل شيء ، بوضوح ، وبجلاء • ولكنني أرى في الوجوه أن بعضكم يودون أن يتكلموا • فليتكلموا ، بأقصى سرعة • ليس لدينا متسع من الوقت : من الممكن أن يجيء به اركل بين لحظة وأخرى •••

تدخل تولكاشنكو قائلاً لا يدري أحد لماذا :

- لسوف يجيء به حتماً •

وقال ليوتين يسأل دون أن يعرف أيضاً لماذا يلقي هذا السؤال :

- إذا لم يخطيء تقديرى ، فإن أول شيء نفعله هو استلام المطبعة ، أليس كذلك ؟

- حتماً • علام نضج مطبعة ؟

بهذا أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يقرّب المصباح من وجه ليوتين • واستطرد يقول :

- لكننا اتفقنا بالأمس على أن استلام المطبعة ليس الاخذعة • سوف

يدلنا على المكان الذى دفن فيه المطبعة ، فتتولى نحن اخراجها من الأرض فيما بعد • اننى أعلم أنها على مسافة عشر خطوات من احدى زوايا هذه المغارة • كيف أمكن أن تنسى هذا يا ليوتين ؟ شيطان يأخذك ! لقد تم الاتفاق على أن تمضى الى لقائه وحدك ، ثم لا تظهر نحن الا بعد ذلك ••• ان أسئلتك غريبة • اللهم الا أن يكون لكلامك دافع واحد هو الرغبة فى الكلام لا أكثر •••

كان وجه ليوتين مرعباً ، ولم يجب بكلمة • ولبت الجميع صامتين بضع لحظات • وقامت الريح تهب على ذرى أشجار الصنوبر فتزهزها •

أضاف بطرس ستيفانوفتش يقول نافذ الصبر :

– آمل أيها السادة أن يقوم كل منكم بواجبه •

دمدم فرجنسكى يقول منفعلًا انفعالاً شديداً ، وهو يجرى بيديه حركات عريضة :

– أعرف أن زوجة شاتوف قد رجعت اليه هذه الليلة ، وأنها ولدت • ومن يعرف القلب الانسانى ••• يدركُ بداهةً ••• أنه لن يشى بنا ••• لأنه سعيد ! ••• لقد سعيت الى الجميع ركضاً فى هذا اليوم ••• لكننى لم أجد أحداً ••• فلعلنا نستطيع أن نعدل الآن عن •••

وتوقف عن الكلام منقبضَ الحلق •

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يتقدم منه :

– اذا أصبحت سعيداً على حين فجأة ، فهل تتراجع لا عن وشاية (لأن الأمر ليس أمر وشاية) ، بل عن القيام بواجب محفوف ببعض الأخطار ، واجب تصورته قبل أن تعرف سعادتك ، واجب تعدُّه واجبك ، رغم مخاطره ورغم ضياع سعادتك ؟

- لا ، لا أتراجع • لا أتراجع بحال من الأحوال !

كذلك صرخ فرجنسكى مرتعشاً أشد الارتعاش ، بحماسة تكاد تكون مضحكة •

- أنت تؤثر اذن أن تعود شقيماً تعيساً على أن تكون جباناً رعيديدا !

- نعم ، نعم ؟ بالعكس ••• أوثر أن أكون جباناً ••• لا ، ليس هذا ما أريد أن أقوله ••• أريد أن أقول اننى أوثر أن أكون شقيماً على أن أكون جباناً •

- فاعلم اذن أن شاتوف يعدُّ هذه الوشاية واجباً مقدساً ، ويعدها عملاً متفقاً ومبادئه كل الاتفاق • والبرهان على ذلك أنه يخاطر كثيراً حين يسلمنا للسلطات • صحيح أن السلطات ستغفر له أشياء كثيرة ، مراعاةً لوشايته ، واکراماً لها • ولكن رجلاً مثله لا يتقهقر فى يوم من الأيام عن القيام بما يعده واجباً • ما من سعادة تبقى وتدوم • لسوف يثوب الى نفسه منذ الغد ، فيلوم نفسه لوماً مرأ ، ثم ينفذ ما عقد العزم عليه • ثم أين السعادة فى رجعة امرأته اليه بعد غياب ثلاث سنين لتلد فى بيته ولدأ حصلت به من ستافروجين ؟

قال شيجالوف :

- ولكن ما من أحدٍ رأى تلك الوشاية على كل حال !

فصرخ بطرس ستيفانوفتش يقول :

- أنا رأيتها • انها موجودة • وهذا الكلام كله غباء مطلق أيها

السادة •

فانفجر فرجنسكى فجأةً يقول :

- وأنا أحتج ، أحتج بكل قواى ••• اننى أريد ••• اليكم ما أريد :

حين يصل نهب الى لقائه جميعا ، ونسأله عن حفيظة الأمر • فاذا صحَّ أن هناك وساية طلبنا اليه أن يعدل عنها وأن يحلف على ذلك ••• وعندئذ ندعه ينصرف • على كل حال يجب أن نحكم عليه ، لا أن نختبيء ثم نتقض عليه •

– منتهى الغباء أن نفسد عملنا كله بالركون الى يمين يحلفه • أيها السادة ، ان ما تفعلونه الآن لهو البلاهة بعينها ! أهذا هو اذن موقفكم في ساعة الخطر ؟

كان فرجنسكى ما يزال يردد قوله :

– أحتج ••• أحتج •••

– على كل حال ، سُدَّ بوزك ! والا لم تتمكن من سماع الاشارة • ان شاتوف (أوه ! ما هذا الغباء كله !) ••• سبق أن قلت لكم ان شاتوف من دعاة السلافية ، أى انه من أغبى الناس طراً ••• على كل حال ، لا يهمنى هذا ••• لا يعينى هذا فى شيء ! ••• انكم بمقاطعاتكم لى لا تزيدون على ارباك فكرى ، وتشويش ذهنى ••• ان شاتوف ، أيها السادة ، كان رجلاً ساخطاً ؟ ولما كان عضواً فى الجمعية رغم كل شيء ، سواء أراد ذلك أم لم يردده ، فلقد كنت آمل حتى آخر لحظة أن نستطيع الاستفادة منه بصفته ساخطاً . وكنت أهتم به وأداريه وأراعيه رغم التعليمات القطعية التى صدرت الىَّ بشأنه • ومع ذلك قرر أخيراً أن يشى بنا ! الى جهنم على كل حال ! ••• ولكن فليجرؤ واحد منكم أن ينسحب الآن ! ما من أحد يحق له أن يترك « القضية » • تستطيعون أن تقبلوا شاتوف اذا شاء قلبكم ذلك ، ولكن ليس من حقكم أن تعرّضوا كل شيء للخطر ركونا الى عهدٍ يقطعه على نفسه ، أو يمين يحلفه • وليس يتصرف هذا التصرف الا خنازير أو أناس باعوا أنفسهم للحكومة •••

أسرع ليوتين يسأل قائلاً :

- من الذى باع نفسه للحكومة هنا ؟

- ربما أنت • خير لك أن تسكت يا ليوتين • انك لا تتكلم الا بحكم العادة • الذين باعوا أنفسهم للحكومة هم جميع الذين يخافون فى لحظة الخطر • لن تخلو صفوف الجبناء يوماً من غبى يهرب فى آخر دقيقة صارخاً : « المغفرة المغفرة ! اننى أسلمكم اياهم جميعاً • • ولكن اعلّموا أيها السادة أنه ما من وشاية يمكن أن تجعلكم تحصلون على العفو • قد يُخفّف العقاب درجتين ، ولكنه سيظل نفيّاً الى سيبريا • هذا عدا أنكم لن تفلتوا عندئذ من سيفٍ آخرٍ أقطع من سيف الحكومة •

كان بطرس ستيفانوفتش غاضباً فى حديثه أشدّ الغضب • وهنا تقدم شيخالوف نحوه بخطى ثابتة حازمة ، وقال بثقة هادئة ومنطق منظم على عادته (وانى لأعتقد أنه لو تزلزلت الأرض من تحته ، لما رفع صوته ولما غير ترتيب كلامه أى تغيير) :

- اننى ألقب المسألة على وجوهها المختلفة منذ مساء الأمس ، ولقد وصلت بعد طول التفكير الى نتيجة واضحة هى أن قتل شاتوف ليس فقط تضييعاً لوقت ثمين يمكن أن يُستعمل استعمالاً أجدى وأجل شأنًا ، بل هو كذلك انحرافات من تلك الانحرافات المشؤمة التى طالما أضرت بالقضية وأخرت نجاحها عشرات السنين ، باخضاعها لتأثير أناس خفاف سياسيين ليسوا اشتراكيين صرفاً • لقد جئت الى هنا لغرض واحد هو أن احتج على هذا المشروع ، آملاً أن يؤثر عملي هذا فى العقول ؛ وهأنذا أنسحب لا خوفاً من الخطر ولا حباً بشاتوف الذى لا أشتهى أن أقبّله البتة ، بل لأن هذا الأمر ، من بدايته الى نهايته ، يناقض برنامجى • أما عن الوشاية بكم ، ففى وسعكم أن تكونوا مطمئنين كل الاطمئنان : فلن أشى بكم !

قال شيجالوف ذلك ثم استدار وانصرف •
 هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يخرج مسدسه من جيبه :
 - شيطان يأخذه ! لسوف يلقاهما فيحدّر شاتوف •
 وسمع صوت ديك المسدس وهو 'يرفع' •
 قال شيجالوف وهو يلتفت :

- ثق اننى اذا لقيت شاتوف فقد أحياه ولكننى لن أهدّره •
 - هل تعلم أن هذا يمكن أن يكلفك غالباً يا سيد فورييه ؟

- أرجوك أن تلاحظ أننى لست فورييه • انك اذ تخلط بينى وبين
 ذلك الثرثار العاطفى المجرّد ، تبرهن على أنك تجهل مخطئى جهلاً تاماً
 رغم أنها كانت بين يديك • أما عن تهديدك ، فانى أقول لك انك قد
 أخطأت اذ رفعت ديك مسدسك : فان هذا لا يمكن الا أن يضرك فى
 اللحظة التى نحن فيها • واذا نويت أن تنتقم منى غداً أو بعد غد ، فانك
 ستجلب لنفسك بقتلى هموماً جديدة : سوف تقتلنى ، ولكنك ستعود الى
 مذهبي عاجلاً أو آجلاً • الوداع !

فى تلك الدقيقة دوّت صفرة صفارة على مسافة مائتى متر ، فى
 الحديقة ، من جهة الغدير • وكما انشقق بالأمس ردّ ليوتين على الصفرة
 فوراً بصفرةٍ مثلها • (كان قد اشترى فى ذلك الصباح نفسه من السوق
 صفارة من تلك الصفارات الصغيرة التى يستعملها الأطفال ، لأنه لا يستطيع
 الاعتماد فى الصغير على فمه الأثرم) • وكان اركل قد أبلغ شاتوف فى
 أثناء الطريق انه سيتبادل اشارات مع ليوتين ، حتى لا يراود شاتوف أى
 اشتباه •

قال شيجالوف وهو يخفض صوته :

- لا تخش شيئاً • سوف أتجنبهما ، فلا يبصراني •
 وبدون أن يسرع ، قفل راجعا الى بيته عبر الحديقة المظلمة •
 ان الناس يعرفون الآن أدق التفاصيل من حادثة مقتل شاتوف •
 واليكم ما جرى :

في البداية تقدم ليوطين يستقبل شاتوف واركل عند باب المغارة •
 فبادر شاتوف يقول له ، دون أن يحييه ، ودون أن يمد له يده ، رغبةً
 منه في الانتهاء من الأمر بأقصى ما يمكن من سرعة ، قال له بصوت قوى :

- هيه ، اين معولك ؟ أليس معك مصباح آخر ؟ لا تخف ! ليس
 في المكان مخلوق • ولو أطلقت قبلة من مدفع لما سمع أحد في
 سكفورشنكي شيئاً ! المطبعة هنا ، في هذا المكان تماما •••

قال شاتوف ذلك وهو يضرب بقدمه موضعاً من الأرض يقع على
 مسافة عشر خطوات من زاوية المغارة فعلاً ، من جهة الغابة •

في تلك اللحظة نفسها وثب تولكاتشكو على شاتوف من خلف ،
 وانقض اركل على كوعيه يمسكهما ، وهرع ليوطين ينقض عليه من أمام •
 واستطاع الثلاثة أن يقلبوه فوراً ، وأن يهشموه على الأرض • وعندئذ
 تدخل بطرس ستيفانوفتش مساحاً بمسدسه •

يقال ان شاتوف قد التفت الى جهته حينذاك ، فاستطاع أن يتعرفه •
 ان مصابيح ثلاثة كانت تنير المشهد • أطلق شاتوف صرخة قصيرة ، يائسة ،
 غير أن بطرس ستيفانوفتش أطبق مسدسه على جبهة شاتوف بيد نابذة
 واثقة ، وضغط الزناد ، فانطلقت الرصاصة في رأس شاتوف ، ولم يكن
 صوت انطلاقها قوياً فيما يقال • مهما يكن من أمر ، فان أحداً لم يسمع
 صوت انطلاق الرصاصة في سكفورشنكي • لكن شيجالوف الذي لم يكن

بعيدا بعداً كبيراً قد سمع الصرخة وصوت انطلاق الرصاصه حتماً ، ومع ذلك لم يتوقف ، وقد اعترف هو نفسه بهذا فيما بعد .

مات شاتوف توأ ، على وجه التقريب . وأظن أن بطرس ستيفانوفتش كان الشخص الوحيد الذى احتفظ لا بهدوئه فيما اعتقد ، بل بحضور ذهنه . فها هو ذا يجلس القرفصاء ، ويأخذ ينشس جيوب القليل بيدٍ متعجلة لكنها ثابتة . فلم يجد مالا (كانت محفظة نقود شاتوف قد بقيت تحت وسادة ماريا اجنايفنا) ، ولم يعثر الا على ثلاث وريقات لا قيمة لها : رسالة تتعلق بأعمال ، وعنوان كتاب ، وفاتورة مطعم فى الخارج كان شاتوف يحتفظ بها منذ سنتين لا يدري الا الله لماذا ! دس بطرس ستيفانوفتش هذه الوريقات فى جيبه . واذ لاحظ حينئذ أن رفاقه المتجمعين حول الجثة كانوا يتأملونها دون أن يفعلوا شيئاً ، أخذ يشتمهم شتماً فظاً غليظاً . فسرعان ما تاب اركل وتولكاشنكو الى رشدهما ، فأسرعا ينفذان أوامره ، فهرعا الى المغارة ، وعادا منها بصخرتين كبيرتين تزن كل واحدة منهما نحو عشرين رطلاً . ولما كانت النية منصرفة الى القاء الجثة فى الغدير الأقرب (الثالث) ، فقد ربطت الصخرتان بقدميها وعنقها . ان بطرس ستيفانوفتش هو الذى تولى القيام بهذا العمل ، أما تولكاشنكو واركل فلم يزدا على أن أمسكا الصخرتين ، ونقلها اليه . مد اركل صخرته أولاً . وبينما كان بطرس ستيفانوفتش يوثق قدمي الجثة متدمرا ويربطهما بالصخرة مدمماً ، وقد دام هذا وقتاً طويلاً ، كان تولكاشنكو مائلاً الى أمام ، على وضع يشبه أن يكون وضع الاحترام ، ممسكاً الصخرة الثانية بيديه الممدودتين لينقلها الى بطرس ستيفانوفتش بلا ابطاء متى أمره بذلك ، حتى انه لم يخطر بباله أن يضع حملة على الأرض بانتظار صدور الأمر . فلما فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله نهض وتأمل الوجوه التى

تحيط به ، تأملها بانتباه • وعندئذ انما حدث حادث غريب ، لم يكن يتوقعه أحد قط ، حادث أدهش الجميع •

سبق أن قلنا ان ار كل وتولكاشنكو هما اللذان عملا ، وان الآخرين لبثوا في أماكنهم لا يفعلون شيئاً • وحين هجم الجميع على شاتوف فان فرجنسكى هرع هو أيضاً، ولكنه لم يمسس شاتوف ولا ساعد في طرحه على الأرض • أما ليامشين فانه لم ينضم الى الآخرين الا بعد أن أطلق فرخوفنسكى الرصاصة • وبينما كان فرخوفنسكى يربط الصخرتين بالجثة ، أى خلال عشر دقائق تقريبا ، كان من ينظر الى وجوه هؤلاء الناس يخيّل اليه أنهم أشبه بمن لا يشعر بما يحدث ، ويحس أنهم الى الدهشة والاستغراب أقرب منهم الى القلق والاضطراب • ان ليوتين مائل الى أمام ، قرب الجثة • ووراءه ينظر فرجنسكى من فوق كتفه مستطلعاً ، حتى انه منتصب على رموس الأصابع ليرى رؤية أحسن • أما ليامشين فقد اختبأ وراء فرجنسكى ، يختلس نظرة سريعة الى المشهد من حين الى حين، ثم ما يلبث أن يعود الى الاختباء فوراً • ولكن حين فرغ بطرس ستيفانوفش من عمله ونهض واقفا ، أخذ فرجنسكى يرتعش ارتعاشا شديدا من قمة رأسه الى أخمص قدميه على حين فجأة ، ثم ها هو ذا يضم يديه احدهما الى الأخرى ، ويصرخ خائفا :

– ليس هذا أبدا ! لا ، لا ، ليس هذا أبدا !

ولعله كان سيضيف الى هذا الكلام شيئاً جديدا لو أن ليامشين أمهله • غير أن ليامشين لم يلبث أن قبض عليه من الخلف فجأة ، وشده متشبثاً به تشبثاً قوياً ، وطفق يطلق صرخات حادة رهيبة • انه يتفق لرجل أصابه جزع مباغت وهلع عنيف ، أن يأخذ يصرخ بصوت ليس صوته المألوف ولا يمكن أن يفترضه له أحد أبداً في الأحوال العادية • ان الأثر الذى يحدثه هذا الصوت فى النفس احساس لا يحتمل ولا يُطاق فى

بعض الأحيان • فكذلك كان ليامشين يصرخ بصوت ليس صوتا انسانيا بل هو صوت حيواني • وظل ليامشين قابضاً على عنق فرجنسكى من خلف ، وظل يصرخ صراخا ما ينفك يشتد بلا توقف ، محملاً العينين فاغراً الفم ، ضارباً الأرض بقدميه فكأنه يقرع طبلاً • فبلغ فرجنسكى من فرط الخوف أنه أخذ يصرخ هو أيضا ، محاولاً أن ينتزع نفسه من عنق ليامشين ؛ وأخذ يتخبط ويجهد أن يضربه من خلف ما أمكنه أن يفعل ، وقد استبد به واستولى عليه حنق مسعور ما كان لأحد أن يتوقعه منه • وساعده اركل أخيراً في التخلص من ليامشين • ولكن حين استطاع فرجنسكى المرتاع أن يتخلص من ليامشين ، نظر ليامشين حوله فأبصر بطرس ستيفانوفتش فهجم عليه وهو يطلق صرخات جديدة • وتعتز بالجنة فسقط فوقها ، فتشبث ببطرس ستيفانوفتش تشبثاً بلغ من القوة أنه في اللحظة الأولى لم يستطع لا بطرس ستيفانوفتش نفسه ولا تولكاتشكو ولا ليويتين أن يحملوه على تركه • فكان فرخوفنسكى يصرخ ويشتم ويضربه على رأسه بقبضتي يديه • حتى اذا أفلح في الافلات منه أخيراً ، أمسك مسدسه وصوبه على فم ليامشين الفاغر • ولكن ليامشين ظل يصرخ رغم التهديد ، بينما كان تولكاتشكو واركل وليويتين ممسكين بذراعيه امساكاً قويا •

وأخيراً لفَّ اركل منديله حتى جعله كالكرة ، فأدخله في فم ليامشين بحذق ، فأوقف بذلك صراخه ، بينما كان ليويتين وتولكاتشكو يوثقان يديه وراء ظهره بحبل •

دمدم بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر الى المجنون قلقاً :

- غريب !

لقد كان مدهوشاً أشد الدهشة •

وأردف يقول حالم الهيئة شارد الذهن :

– كنت أتصوره غير ذلك !

وتُرك ليامشين في حراسة اركل مؤقتاً • لقد كان ينبغي الاسراع • انهم قد صرخوا وأسرفوا في الصراخ حتى ليتمكن أن يكونوا قد نبهوا أهل سكفورشنيكى • أخذ بطرس ستيفانوفتش وتولكاتشنيكو مصباحيهما ، وأمسكا جثمان القتل من تحت الرأس ؛ كما رفعه لبيوتين وفرجنسكى من القدمين • كان الجثمان ثقيلًا بالصخرتين المربوطتين به • وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة بل أكثر • ان أقوى هؤلاء الرجال هو تولكاتشنيكو • وقد نصح بأن يكون المشى منتظماً، ولكن أحداً لم يُصنع اليه، وساروا كيفما اتفق • كان بطرس ستيفانوفتش يسير على اليمين • انه مقوس الظهر تقوساً شديداً ، يسند بكتفه رأس الميت ، ويمسك الصخرة من تحتها باليد اليسرى • واذ لم يخطر ببال تولكاتشنيكو أن يساعده طوال نصف المسافة، فقد ناداه بطرس ستيفانوفتش شاتما • فدوت صرخته القصيرة في الصمت • ظل الرجال يتقدمون دون أن يقولوا كلمة • حتى اذا صاروا على حافة الغدير صرخ فرجنسكى يقول من جديد ، وقد ثناه حمله وأرهقه ثقله ، صرخ يقول بصوت قلق خائف :

– ليس هذا أبداً ؟ لا ، لا ، ليس هذا أبداً !

ان المكان الذي ينتهى عنده هذا الغدير الثالث ، وهو غدير كبير ، مكان خال لا يرتاده أحد ، ولا سيما في هذا الأوان المتقدم من السنة • والماء قرب الحافة قد اجتاحتها الحشائش •

وُضعت المصابيح على الأرض • ورُجّحت الجثة بضع لحظات ثم رميت في الغدير ، فكان لسقوطها في الماء دوى أصم طويل •

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه يحاول متابعة سقوط الجثة؛ وكذلك فعل الآخرون مستطلعين • ولكنهم لم يروا شيئاً : فان الجثة المثقلة

بالصخرتين قد هوت الى القاع رأساً ، وسرعان ما امتّحت الدوائر التي
 ظهرت على سطح الماء حين سقوطها فيه • انتهى كل شيء •
 قال بطرس ستيفانوفتش مخاطباً الجميع :

- أيها السادة ، ليس يخامرني أى شك فى أنكم تشعرون الآن
 بذلك الزهو المرتبط دائماً بتحقيق واجب ارتضى المرء أن يقوم به حراً
 من تلقاء نفسه • واذا كنتم الآن ، واأسفاه ، أشد اضطراباً من أن تحسوا
 ذلك الشعور ، فسوف تحسونه فى غدٍ حتماً ، والا كان عاراً وخزياً أن
 لا تحسوه • أما السلوك المشين الذى سلكه ليامشين ، فأننى أريد أن
 لا أرى فيه الا نوبة مرض ، ولا سيما أنه كان مريضاً بالفعل هذا الصباح
 فيما قيل لى • وأما أنت يا فرجنسكى ، فتكفيك لحظة تفكير حتى تدرك أن
 مصلحة القضية تجعل من المستحيل علينا أن نركن الى عهد يقطعه شاتوف
 على نفسه ، وأن ما فعلناه هو ما كان ينبغى فعله • سوف ترى فيما بعد أن
 الوساية كانت مهياة كل التهيئة • اننى أوافق على نسيان صيحاتك ! واعلموا
 أن لا شيء يهددنا الآن • فما من أحد سيخطر بباله أن يشتهبه فى أحد
 منكم ، وخاصةً اذا أحسنتم التصرف • أى أن كل شيء على وجه الاجمال
 رهن بكم ومتوقف على اقتناعكم بأنكم أحسنتم عملاً ، وهو اقتناع أمل أن
 يكون راسخاً فى أنفسكم منذ الغد • من أجل هذا الغرض وأغراض
 أخرى انما اجتمعتم ؛ ولأنكم تؤمنون بأفكار واحدة انما أنشأتم بحرييتكم
 هذا التنظيم لیساعد بعضكم بعضاً ، وليكون كل منكم رقيباً على الآخر اذا
 اقتضى الأمر ذلك • ان كلاً منكم يقع على عاتقه عبء كبير يجب أن
 يحمله ، وتقع على عاتقه مهمة ضخمة يجب أن يحققها • انكم مدعون
 الى تجديد مجتمع منهوك فاسد عفن : فلتكن هذه الفكرة حافزاً يث فيكم
 الشجاعة ويحضكم على العمل باستمرار ! ان جميع جهودكم يجب أن
 ترمى الى انهيار كل شيء : الدولة وأخلاقها • سنظل وحدنا واقفين ،

نحن المهينين منذ مدة طويلة لأن نستلم السلطة • فأما الأذكاء فسوف
نجعلهم ملحقين بنا ؛ وأما الأغبياء فسوف نركب على ظهورهم • ما ينبغي
أن يقلقكم هذا • يجب علينا أن نعيد تربية الجيل الحالي ، لنجعله جديرا
بالحرية • ما يزال هناك ألوف من أمثال شاتوف • سوف ننظم صفوفنا من
أجل أن نقود الحركة : انه لعار علينا أن لا نستولى على ما يقدم نفسه
الينا ان صح التعبير • أنا ذاهب توأاً الى كيريلوف • وفي صباح غدٍ سنكون
معى الرسالة التى يصرّح فيها قبل موته بأنه مسئول عن كل شىء • وسيبدو
الأمر معقولاً جداً • أولاً لأنه كان على خصام شديد مع شاتوف : لقد
عاشا فى أمريكا جنباً الى جنب ، فانسع وقتها لأن يكونا عدوين • وثانيا
لأن شاتوف قد هجر عقائده القديمة وهذا أمر معروف ، فلا بد أن يكرهه
كيريلوف لحياته ولامكان وشاية شاتوف به ، فهذه اذن عداوة من العداوات
التى لا سبيل فيها الى صلح • ذلك كله سيذكر فى الرسالة • وسيعترف
كيريلوف أيضا بأنه آوى فدكا • وهكذا لن يستطيع أولئك الحمير أن
يفهموا من الأمر شيئاً ، بل لن يخطر ببالهم أن يشتبهوا فيكم • غداً لن
نلتقى أيها السادة • ان على أن أقوم بجولة فى المقاطعة • ولكنكم
ستعرفون أخبارى بعد غد • أنصحكم بأن تقضوا نهار غد فى منازلكم •
والآن يجب أن نسلك فى العودة طرقاً مختلفة • اليك أعهد بليامشين
يا تولكاتشكو • ارجع به الى بيته • وتستطيع أن تؤثر فى فكره ، وأن
تشرح له خاصةً أن خوفه يمكن أن يكون خطراً أشد الخطر عليه • ولا
أريد أن أشك فى قريبك شيجالوف ، ولا فىك أنت يا سيد فرجنسكى :
انه لن يشى بنا • ولا يبقى علينا الا أن نأسف لوضعه • على أنه لم يعلن
أنه ترك الجمعية • لذلك لم يحن حين دفنه • ولكن فلنسرع يا سادة :
الحذر واجب ، ولو كان الآخرون حميراً •••

انصرف فرجنسكى مع اركل • وقبل أن يعهد اركل بليامشين الى

تولكاتتنكو ، اقتاده الى قرب بطرس ستيفانوفتش وأعلن أن ليامشين قد
 تاب الى رشده ، وأنه نادم ، وأنه يستغفر ، حتى انه لا يتذكر ما حدث
 له تذكراً واضحاً .

انصرف بطرس ستيفانوفتش وحيداً ، وسلك الطريق الأطول ، وهو
 الطريق الذى يدور حول الغدران . فما كان أشد دهشته حين بلغ منتصف
 الطريق فاذا هو يرى لبيوتين ساعياً وراءه لاحقاً به ، سائلاً اياه :

- بطرس ستيفانوفتش ، هل تعلم ان ليامشين سوف يشى بنا ؟

- لا بل شينوب الى صوابه فيدرك أنه اذا وشى بنا كان هو نفسه
 أول من يذهب الى سيبيريا . ما من أحد سيشى بنا الآن . وأنت أيضاً
 لن تشى .

- وأنت ؟

- سأسلمكم جميعاً بطبيعة الحال متى انتبهت أيسر اشتباه فقدرت
 أنكم مقبلون على خيانة . انك لتعلم ذلك . ولكنك لن تخون . أمن أجل
 أن تقول لى هذا انما ركضت ورائى مسافة فرسخين ؟

- بطرس ستيفانوفتش ، بطرس ستيفانوفتش ! قد لا نلتقى بعد
 اليوم أبداً !

- من أين تأتى بهذا الكلام ؟

- قل لى شيئاً واحداً لا أكثر

- ما هو ؟ أنا شخصياً أوتر أن تنصرف

- كلمة واحدة ، ولكن بشرط أن تكون صادقة : هل حلقنا التى
 تتألف من خمسة أعضاء هى الحلقة الوحيدة فى العالم ، أم هل هناك

حلقات أخرى تبلغ عدة مئات ؟ اننى ألقى هذا السؤال من ناحية رفيعة
بمعنى عالٍ يا بطرس ستيفانوفتشس •

- أرى ذلك من فرط احتياجك • ولكن هل تعلم أنك أشد خطراً
من ليامشين ؟

- أعلم ، أعلم ! ولكن أجبنى •

- ما أكبر حماقتك ! انى لأنساءل : فيم يهملك الآن أن تعرف أنحن
حلقة واحدة أم مائة ؟

صاح ليوتين يقول :

- معنى هذا أنه ليس هناك الا حلقة واحدة • كنت أقدر ذلك •
بل كنت واثقاً منه منذ مدة طويلة •••

وبدون أن ينتظر جواباً آخر استدار وغاب فى الظلام •

لبث بطرس ستيفانوفتشس حالماً شارد الذهن لحظة • ثم قال يحدث
نفسه فجأة : « لا ، لن يخون أحد منهم • ولكن يجب أن يبقوا معاً وأن
يطيعوا ، والا فلسوف ••• على كل حال ما أحقرهم من ناس ! » •

٢

ذهب بطرس ستيفانوفتشس أولاً الى بيته وهياً حفيته باعتناء دون
تعجل • ان القطار السريع يسافر فى الساعة السادسة من الصباح • وهذا
القطار الذى لا يسير الا مرة كل أسبوع يعمل منذ مدة قصيرة على سبيل
التجربة • وكان بطرس ستيفانوفتشس قد أبلغ « أصحابنا » أنه سيجول
قليلاً فى المنطقة ، ولكن نيته كانت غير ذلك فى الواقع ، كما ظهر هذا
فيما بعد •

فلما فرغ من اعداد حقييته ، دفع أجرة مسكنه لصاحبة المنزل التي كان قد أبلغها أمر رحيله ، وذهب بعربة الى اركل الذي يسكن غير بعيد عن المحطة • ثم لم يتجه الى بيت كيريلوف الا في الساعة الواحدة ، وقد دخل اليه من الممر الذي كان يسلكه فدكا •

كان بطرس ستيفانوفتش معتكف المزاج جدا • وعدا المزعجات الكبيرة التي كانت آخذة بخناقها (من ذلك مثلاً أنه ما يزال لا يعرف شيئاً عن ستافروجين) ، كان قد بلغه فيما أظن (لكنني لست واثقاً من هذا) نبأً جاءه سرّاً من بطرسبرج في أغلب الظن ينبهه الى خطر كبير يهم أن يحدث به بعد مدة قصيرة • ان أساطير كثيرة تروج الآن في مدينتنا عن هذا الموضوع طبعاً • ولكن لا يستطيع أن يعرف الحقيقة الا أولئك الذين مهمتهم أن يعرفوا كل شيء • أما أنا فأعتقد أن بطرس ستيفانوفتش لا بد أنه كان له عملاء في خارج مدينتنا • فمن الجائز جداً أن يكون قد تلقى تنبيهاً ما • بل اننى لمقتنع ، رغم الشك الشديد المستخف الذي عبّر عنه ليويتين في ذروة كربه ، أن بطرس ستيفانوفتش يمكن أن يكون له حلقتان أو ثلاث حلقات ، في بطرسبرج أو في موسكو مثلاً ؛ ولا بد أن يكون له على كل حال عدد من المنضوين ، وأن تكون له علاقات لعلها غريبة كل الغرابة • انه بعد رحيله بثلاثة أيام وصل الى مدينتنا أمرٌ بالقبض عليه فوراً ، لا أدري هل للجرائم التي ارتكبتها عندنا أو لجرائم أخرى أيضاً • وقد جاء هذا الأمر في حينه ، ليقوّى الرعب الرهيب الذي يكاد يكون رعباً غيبياً ، أعنى الرعب الذي استولى على السلطات في المدينة وعلى المجتمع كله ، بعد أن كان هذا المجتمع مصراً على عدم الاكتراث ، وذلك حين اكتشفت جريمة قتل شاتوف العجيبة التي أوصلت اضطرابنا الى آخر مداه بملابساتها السرية الغريبة • ولكن الأمر بالقبض على بطرس ستيفانوفتش قد وصل بعد فوات الأوان ، فحين وصل هذا الأمر الى مدينتنا،

كان بطرس ستيفانوفتش قد وصل الى بطرسبرج واستقر فيها باسم مستعار • حتى اذا أحس أن الأمور تجري مجرى سيقاً ، تسلل هارباً الى خارج البلاد على الفور • ولكننى أستبق الأحداث •

حين دخل بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف كان خبيث الوجه نرس الهبئة ، حتى لكأنه حاقد على كيريلوف حقداً شخصياً فهو يريد أن ينتقم منه • وبدا على كيريلوف أنه سُـرَّ برؤيته • واضح أنه كان ينتظره منذ مدة طويلة ، وأنه كان ينتظره على حالة من نفاذ الصبر تكاد تكون مرضية • كان وجهه ساحباً أكثر مما عهد فيه من شحوب • وكانت نظرة عينيه السوداوين ثقيلة ساكنة •

قال وهو ينطق بالفاظه فى مشقة :

- كنت أظن أنك لن تجيء • •

ولكنه لم ينهض لاستقبال الزائر ، وظل جالساً فى ركن الديوان • ففترس بطرس ستيفانوفتش فى وجهه صامتاً لا ينبس بكلمة • ثم قال له أخيراً :

- هياً ! كل نىء على ما يرام ! لم نعدل عن خطتنا ! مرحى !

وابتسم ابتسامةً حمائيةٍ وقحة ورعاية مؤذية • ثم أسرع يقول بمرح خبيث :

- اسمع • لقد تأخرتُ عن الموعد • وليس عليك أن تلومنى • لقد أهديت اليك ثلاث ساعات •

- لا أريد أن تهدى الىّ ساعات إضافية • وليس فى امكانك أن تهدى الىّ هدية ••• يا غبى !

فارتعش بطرس ستيفانوفتش وسأله :

- كيف ؟

ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه • فقال له وهو على تلك الهيئة
نفسها التي تعبر عن رعاية وقحة :

- ما أسرع تأذيك ! أوه ! أوه ! أراك غضبت ! ان الهدوء أفضل
في مثل هذه اللحظة • وخير شيء هو أن تعد نفسك مثل كريستوف
كولومب وأن لا تعدني الا فأرة لا يمكنها أن تهينك • سبق أن نصحتك
بهذا أمس •

- لا أريد أن أعدك فأرة !

- أياكون هذا مديحاً ! أوه ! الشاي بارد ! كل شيء مقلوب رأساً
على عقب • ما هذا الذي أراه هناك في صحن ؟

واقرب من النافذة • وأضاف يقول :

- دجاجة بالرز ! ... ولكن لماذا لم يؤكل منها شيء ؟ أنت اذن في
حالة تبلغ من الغرابة أن دجاجة لا ...

- أكلت • ليس هذا شأنك • اسكت !

- طبعاً ليس هذا شأنى • ولكن الأمرين في نظرى لا يستويان •
هل تتصور أننى لم أكد أتغدى ؟ فاذا صحَّ تخمينى ، وهو أنك لست في
حاجة الى هذه الدجاجة ، كان في وسعى أن ... هه ؟

- كل ان استطعت •

- شكراً ، وسأشرب شيئاً •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجلس الى المائدة فوراً ، على الركن
الآخر من الديوان ، وجعل يأكل بشراهة ، مع استمراره على مراقبة

ضحيته بطرف عينه • وكان كيريلوف يحدّق اليه بحنق يمازجه اشمئزازاً،
وكأنه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره •

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول دون أن يكف عن الأكل :

– يجب علينا مع ذلك أن نتكلم فى موضوعنا • لم تتراجع ، هه ؟
والرسالة ؟

– قررت الليلة أن الأمرين عندي سواء • سوف أوقع الرسالة •
وعن المنشورات التحريضية أيضاً ؟

– نعم ، أيضاً • سأملئ عليك النص على كل حال • ما اهتمامك
بهذا ؟ هل يُعقل أن يهتمك مضمون هذه الرسالة فى مثل هذه اللحظة ؟
– ليس هذا شأنك •

– طبعاً • لا يعدو الأمر بضعة أسطر تقول فيها انك أنت وناشونوف
قد وزعتما منشورات بمساعدة فدكا الذى كنت تؤويه • ان هذه النقطة
الأخيرة ، أعنى فدكا واقامته عندك ، أمر هام • هى أهم شىء • هانت ذا
ترى أننى صريح معك •

– تقول ناشونوف ؟ لماذا ناشونوف ؟ لن أتكلم عن ناشونوف •
– يا للفكرة العجيبة ! فيم يهتمك هذا ؟ انك لا تستطيع أن تلحق به
ضرراً بعد الآن !

– رجعت زوجته • ولقد استيقظت وأرسلت تسألنى أين هو •

– أرسلت تسألك أين هو ؟ هم ••• هذا شىء ! قد تسأل مرة
أخرى ••• يجب أن لا يعرف أحد أننى هنا •••

بدا القلق على بطرس ستيفانوفتش •

- لن تعرف شيئاً • لقد نامت ثانية • وان آرينا فرجنسكى ، مولدتها ،
هي الآن بقربها •

- أظن ... أنها لن تسمع • ولكن من الأفضل ، كما ترى ، أن
يُقفل الباب بالمفتاح •

- لا ، لن تسمع • أما شاتوف ، فسوف أخبئك في الغرفة الأخرى
إذا جاء •

- شاتوف لن يجيء • وسوف تكتب أنكما تشاجرتما لأنه كان يستعد
للوשיاية بك هذا المساء ... وأنت قتلته •

هتف كيريلوف وهو يتب عن الديوان :

- مات ؟

- اليوم ، في الساعة الثامنة من المساء ، بل قل أمس ، لأن الساعة
الآن هي الواحدة من الصباح •

- أنت الذى قتلته ... لقد تنبأت بذلك منذ أمس •

- لم يكن التنبؤ بذلك أمراً صعباً • قتلته بهذا المسدس نفسه ...

قال ذلك وأخرج مسدسه كمن يريد أن يريه كيريلوف ، ولكنه
لم يعده الى جيبيه ، بل ظل قابضاً عليه باليد اليسرى ، استعداداً لكل
احتمال ...

وأردف يقول :

- انك لانسان غريب يا كيريلوف : ألم تكن تعرف أنت نفسك أن
الأمور لا يمكن أن تنتهى الى غير هذه النهاية مع هذا النبى ؟ لقد كان
التنبؤ بذلك أمراً سهلاً • كم مرة شرحت لك ! لقد كان شاتوف يستعد

لوشاية ، وكنت أراقبه • ولم يكن يمكننا أن ندعه يفعل • أنت نفسك
تلقيت تعليمات بهذا الشأن • وقلت لي منذ ثلاثة أسابيع •••

– اسكت • أنت قتلته لأنه بصق في وجهك بمدينة جنيف •

– لهذا الأمر ولأمر آخر أيضا ، بل لأمر أخرى كثيرة • ولكن
بدون كره على كل حال • مالك ؟ لماذا هذه الهيئة ؟ أوه ! أوه ! علام هذه
النظرة الى الأمور ! •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ، وهبَّ يقف بوثبة ، ممسكاً
مسدسه بيده لأن كيريلوف كان قد أمسك مسدسه الذي هبَّه وألقمه منذ
الصباح • وصوَّب بطرس ستيفانوفتش سلاحه نحو كيريلوف • فضحك
كيريلوف ضحكة صفراء وقال له :

– اعترف أيها الوغد أنك تناولت مسدسك عالماً بأنني كنت سأقتلك
••• ولكنني لن أقتلك ••• رغم أن ••• رغم أن •••

وصوَّب الى بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى كأنه يجرب نفسه ،
ولا يستطيع العدول عن المذة التي يمكن أن يتمتع بها اذا هو قتله •

وكان بطرس ستيفانوفتش ما يزال ينتظر متأهباً ، مصمماً على الانتظار
الى آخر دقيقة دون أن يضغط الزناد ، متعرضاً بذلك لخطر تلقي الرصاصة
الأولى : ان كل شيء يمكن توقعه من هذا « المهووس » • ولكن المهووس
خفض ذراعه أخيراً ، وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً ، ويعجز عن النطق
بكلمة واحدة •

وقال بطرس ستيفانوفتش خافضاً سلاحه هو أيضا :

– كفى عبثاً ! كنت أعلم أنك انما تتسلى • ولكن هل تعلم أنك كنت
تخاطر مخاطرة كبيرة ؟ لقد كان يمكن أن أضغط على الزناد •

وعاد يجلس على الديوان هادئاً ، وصباً لنفسه الشاي يدٍ ترتجف
بعض الارتجاف •

وضع كيريلوف مسدسه على المائدة ، وجعل يسير في الغرفة طويلاً
وعرضاً •

- لن أكتب أنني قتلت شاتوف ••• لن أكتب شيئاً ••• لن أوقع
الرسالة •

- لن تكتب ؟

- لا !

- يا له من جبن ! ويا له من غباء !

كذلك هتف يقول بطرس ستيفانوفتش وقد اخضر لونه غضباً •

وأردف يقول :

- على كل حال ، كنت أتنبأ بذلك • ولكنك لا تغدر بي وأنا عاجز

عن كل حيلة • افعل ما يحلو لك • اذا استطعت أن أجبرك اجباراً فسوف

أفعل • مهما يكن من أمر ، فأنت جبان !

لقد فقد بطرس ستيفانوفتش صوابه •

واستطرد يقول :

- طلبت منا مالاً ، وبدلت لنا وعوداً كثيرة ••• لكنني لن أدعك

هكذا : سوف أرى بعيني على الأقل كيف ستطلق الرصاص في رأسك •

قال كيريلوف بلهجة حازمة وهو يقف أمامه :

- أريد أن تنصرف فوراً •

فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يتناول مسدسه مرة أخرى :

- أما هذه فلا ! أبداً !... من يدري ؟ لقد تُقرر أن تُؤجل كل شيء الى غد ، خبناً أو جبناً ، ثم تمضى تشي بنا فى الغد لتقبض بضعة قروش أخرى . ذلك أنهم سيدفعون لك مبلغاً طيباً اذا أنت وشيت بنا . شيطان يأخذك . ان أمثالك لا يتورعون عن شيء . ولكن اطمئن . لقد تنبأت بالأمر : لن أنصرف قبل أن أهشم رأسك بهذا المسدس ، كما فعلت بذلك الحقيير ساتوف ، اذا أنت خفت وأرجأت تنفيذ مشروعك . فلتذهب الى جهنم !

- أتصرّ حتماً على معرفة لون دمي ؟

- اعلم اننى لا أفعل هذا كرهاً بك أو بغضاً لك . أنت لا تعينى . وانما أنا أعمل فى سبيل « القضية » . انك لترى أنه لا يمكن الاعتماد على أحد . است أفهم من فكرتك شيئاً . لست أنا الذى أوحيت اليك بهذه الفكرة . حتى قبل أن تعرفنى ، كنت قد أطلعت أعضاء جمعيتنا على خطتك . لاحظ أن أحداً منهم لم يدفعك الى ذلك ، بل ان أحداً منهم لم يكن يعرفك . ولقد أسررت اليهم بكل شيء من تلقاء نفسك ، فى نوع من سورة عاطفية . فما ذنبنا اذا نحن وضعنا ، بالاتفاق معك ، وتلبيةً لاقتراح منك ، (نعم ، تلبيةً لاقتراح منك ، لاحظ هذا) ، أقول ما ذنبنا اذا نحن وضعنا خطه عمل يستحيل علينا أن نغيّر منها الآن شيئاً ؟ لا ، لا ، انك قد ارتبطت والتزمت . لقد قطعت على نفسك عهداً ، وقبضت مالا . هذا لا تستطيع أن تنكره ...

لقد تحمس بطرس ستيفانوفتش وهو يتكلم ، ولكن كيريلوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه منذ مدة طويلة . كان يذرع الغرفة حامل الهيئة ، شارداً الذهن !

قال وهو يقف أمام بطرس ستيفانوفتشس مرةً أخرى :

- اننى آسف على شاتوف •

- وأنا أيضاً آسف عليه ، ولربما ••

- اسكت أيها الشقى ••• سوف أفنلك •

كذلك أعول يقول كيريلوف وهو يحرك يده بإشارة تهديد لا لبس فيها •

فنهض بطرس ستيفانوفتشس بوثة واحدة ، ورفع يده كمن يريد أن يحمى نفسه ، وقال :

- طيب ، طيب ، أنا كاذب ••• اننى غير آسف عليه البتة ! ولكن كفى ، كفى !

فصمت كيريلوف واستأنف سيره فى الغرفة • ثم قال :

-- لن أراجع • أريد أن أنتحر الآن • الجميع أوغاد •

-- فكرة عظيمة : ليس هناك الا أوغاد فى كل مكان ، ولما كان الانسان الشريف لا يستطيع الا أن يشعر من ذلك بامتزاز ، فان الأفضل أن •••

- غبى ! أنا أيضا وغد ، منلك ، ومثل جميع الناس ! لم يوجد رجل سريف فى يوم من الأيام •

- أخيراً وضع اصبعه على الحقيقة • كيف لم تدرك حتى الآن ، وأنت رجل ذكى ، ان جميع البشر سواء ، وأنه لا أحد خير أو شر من أحد • وانما هناك أذكيا وأغيباء ، وأنه اذا كان الجميع أوغاداً (وذلك خطأ على كل حال) فليس هناك اذن أناس شرفاء ؟

سأل كيريلوف وهو ينظر الى بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً بعض
الدهشة :

– ألسنت تمزح ؟ انك تتكلم بحرارة وبساطة • هل يُعقل أن يكون
لأمثالك اقتناعات ؟

– كيريلوف ، أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم لماذا تريد أن
تنتحر • كل ما أعرفه أن انتحارك نابع من اقتناع واعتقاد ••• ولكن اذا
كنت تشعر بحاجة الى أن تفضي بما في نفسك ، ان صح التعبير ••• فأنا
مستعد للاستماع ••• ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت
يجرى •••

– كم الساعة الآن ؟

أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر في ساعته :

– هي الثانية تماما منذ الآن •

وأشعل سيجارة • وحدث نفسه قائلاً لها : « أظن أن التفاهم بيننا
ما يزال ممكناً » •

ودمدم كيريلوف يقول :

– ليس لدى ما أفضي به اليك •

قال بطرس ستيفانوفتش :

– اننى أتذكر تذكراً غامضاً أن مدار المناقشة على الله ••• لقد سبق
أن شرحت لى هذا مرة ، بل مرتين • فقلت لى : اذا أنت انتحرت أصبحت
الهأ ، أليس هذا ما قلته ؟

– نعم ، أصبح الهأ •

حاذر بطرس ستيفانوفتش أن يتسهم • وانتظر • فرشقه كيريلوف
بنظرة ماكرة • وقال له :

- ما أنت الا ماكر محتمل وسياسى كاذب • انك تريد أن تستدرجنى
الى مجال النقاش الفلسفى وأن تورى حماستى من أجل أن تحلّ السلام
والوئام ، من أجل أن تبدّد غضبى ، حتى اذا تصالحنا انتزعت منى الورقة
التي تريدها بشأن شاتوف •

فقال بطرس ستيفانوفتش يعجبه بصراحة وبراعة توشكان أن تكونا
طبيعتين :

- لنسلّم جدلاً بأننى وغد ، ولكن فيم يهيك هذا الآن يا كيريلوف !
لماذا تتشاجر ؟ هلاًّ قلت لى لماذا تتشاجر ؟ أنت لك طبيعتك ، وأنا لى
طبيعتى ، ثم ماذا ؟ ثم انا كلينا •••
- من الأوغاد •••

جائز ••• ولكنك تعلم أنت نفسك أن هذه كلها كلمات لا أكثر •

- لقد ظللت طول حياتى أرغب فى أن لا تكون كلمات ، بل شيئاً
آخر • اننى ما عشت الا من أجل هذا ••• من أجل أن تكون شيئاً آخر
غير الكلمات • وما زلت الى الآن أريد فى كلّ يوم أن لا تكون كلمات
فحسب •••

- كل امرىء يبحث عما يناسبه ، ويسعى الى ما يوافقه ! ••• ان
السمة ••• أقصد ان كل انسان ينشد رخاءه بمعنى من المعانى • هذا
كل سىء • وهو معروف منذ زمن طويل •
- تقول ينشد رخاءه ؟

- لا داعى الى الجدل فى الألفاظ •
- لا بل لقد أحسنت التعبير • الرخاء • صحيح • الله ضرورى ،
اذن لا بد أن يوجد •
- تماما •
- لكننى أعلم أنه غير موجود ، ولا يمكن أن يوجد •
- ذلك أرجح •
- هل يُعقل أن لا تفهم أن انسانا من الناس لا يمكن أن يستمر
فى الحياة حاملاً فكرتين كهتتين ؟
- فليس عليه اذن الا أن يطلق فى رأسه الرصاص •
- هل يُعقل أن لا تدرك أن المرء يمكن أن ينتحر لهذا السبب
وحده ؟ انك لا تفهم أن الممكن أن يوجد رجل ، رجل واحد بين
ملايين الرجال ، قد لا يحتمل هذا التناقض فيعزف عن الحياة !
- لا أفهم الا شيئاً واحداً ، هو أنك تبدو متردداً ... وذلك سيء
جداً •
- قال كيريلوف وهو ما يزال يمشى طولاً وعرضاً ، مظلم الهيئة ،
حتى انه لم يسمع الجملة الأخيرة التى قالها بطرس ستيفانوفتش :
- ان ستافروجين ، هو أيضاً ، قد التهمته الفكرية ...
- كيف ؟
- كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يصيح بسمعه • وتابع
كلامه :
- أية فكرة ؟ هل حدثك عن نفسه ؟

- لا بل حضرت : حين يؤمن ستافروجين ، فانه لا يؤمن بأنه يؤمن •
 وحين لا يؤمن ، فانه لا يؤمن بأنه لا يؤمن •

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول :

- همّ ••• ان لستافروجين أمراً آخر ، أذكى من هذا •

وكان يقلق للمجرى الجديد الذى يجرى فيه الحديث ، ويلاحظ
 وجه كيريلوف الشاحب • قال يحدث نفسه : « شيطان يأخذه • انه لن
 يتحرر • لقد أوجست دائماً هذا • انه يتلذذ بتخيلاته • يا لهذه الزمرة
 من الناس ما أحطها ! » •

- انك آخر من يبقى معى • فلا أحب أن نفترق افتراقاً سيئاً •

فتردد بطرس ستيفانوفتش لحظة قبل أن يجيب ، قائلاً لنفسه :
 « ما هذا أيضاً ؟ » • ثم قال يجيبه :

- ثق كل الثقة يا كيريلوف اننى لا أحمل لك أية عداوة من حيث
 أنا انسان ، ولا أضمر لك أى حقد شخصى ، ولكننى كنت دائماً •••

- أنت رجل شقى وفكر زائف ، ولكننى مثلك • وسوف أموت
 أنا ، وتحيا أنت •

- هل تريد أن تقول اننى أبلغ من السوء والرداءة والخبث ما يضمن
 لى البقاء على قيد الحياة ؟

كان لا يعلم بعدُ هل يفيدُه أن يستمر فى الحديث أو لا يفيدُه •
 وقرر أن « يدع الأمر للظروف » • غير أن لهجة الاستعلاء والاحتقار
 التى يستعملها كيريلوف فى مخاطبته ، والتى طالما أزعجته وأغاطته فى
 الماضى ، تحنقه الآن أكثر من أى وقت مضى • لعل ذلك يرجع الى أن

كيريلوف سوف يموت بعد ساعة (ولقد كان بطرس ستيفانوفتش لا يحول بصره عنه رغم كل شيء) ، فكان ذلك يهوّن شأنه ويطفف قيمته في نظره ، فهو انسان نصف حي نصف ميت ان صح التعبير ، انسان لا يطبق بطرس ستيفانوفتش أن يحتمل كبرياءه وزهوه بنفسه •

– بخيل الى أنك تسحقني بتفوقك لأنك ستتحرر ، هه ؟

فال كيريلوف الذي لم يسمع في هذه المرة أيضا ما قاله بطرس ستيفانوفتش :

– بدهشني أكبر الدهشة أن الناس يستمرون في الحياة •

– هم ! ••• طيب ••• لنسلم جدلاً ••• هذه فكرة •••
ولكن •••

– قرد ! انك تسارع الى قول « نعم » لتستولي على • اسكت • أنت لا تفهم شيئاً • اذا كان الله غير موجود فأنا الله •

– هذه بعينها هي النقطة التي لم أستطع أن أفهمها منك في يوم من الأيام : لماذا أنت الله ؟

– اذا كان الله موجوداً ، كانت الارادة كلها له ، وكنت أنا عاجزاً عن كل شيء في خارج ارادته • أما اذا لم يكن موجودا فالارادة كلها ارادتي ، وعلى أن أنادي بارادتي الخاصة •

– ارادتك الخاصة ؟ ولماذا عليك أن تنادي بها ؟

– لأن الارادة كلها الآن انما هي ارادتي • هل يُعقل أن لا يوجد على وجه الأرض كلها شخص يجرو أن ينادي بارادته الخاصة في صورتها القصوى بعد أن قتل الله وآمن بتلك الارادة الخاصة التي له • ان مثل من يعجز عن ذلك كمثل فقير ورث مالا ولكنه لا يجرو أن

يقرب من الكيس لأنه يعد نفسه أضعف من أن يحق له الاستيلاء عليه •
أريد أن أنادى بارادتي أنا • سأفعل ذلك ولو فعلته وحدي •

– أحسنت ! افعله !

– يجب على أن أطلق الرصاص في رأسي لأن الصورة القصوى
التي تتجلى فيها ارادتي هي الانتحار •

– ولكنك لا تنتحر وحدك • كثيرون انتحروا قبلك •

– لأسباب أخرى • أما للمناداة بالارادة الشخصية وحدها ، لا لأي
سبب آخر ، فأنا الوحيد الذي ينتحر •

حدث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً : « لا ، لن ينتحر » •

وقال منزعجاً مغتاظاً :

– هل تعلم ؟ لو كنت في مكانك لجعلت ارادتي تتجلى في أن أقتل
شخصاً آخر ، أما أن أقتل نفسي فلا • فبذلك يمكنك أن تكون نافعا •
سأدلك على من تقتله ، اذا كنت لا تخاف • في هذه الحالة تستطيع أن
لا تطلق الرصاص على نفسك اليوم • يمكننا أن نتفاهم •

– أن أقتل شخصاً آخر فذلك أدنى شكل من أشكال تجلي ارادتي •
هذا تفعله أنت • هذا أنت • أما أنا فليست أنت : أنا أريد الشكل الأعلى ،
أريد الصورة القصوى • فسأنتحر •

جمع بطرس ستيفانوفتش يقول لنفسه ساخطاً : « اكتشف هذا
وحده ! » •

واستأنف كيريلوف كلامه وهو ما يزال يذهب ويحيى في الغرفة :
– يجب أن أنادى بأنني غير مؤمن • ان أعلى فكرة في نظري هي

أن الله غير موجود • تاريخ الانسانية بأسره يشهد لي • حتى الآن كان
الانسان يخلق الهاً ليعيش دون أن ينتحر • أنا وحدي ، لأول مرة
في تاريخ العالم ، أرفض أن أخترع الهاً • ألا فليعلم جميع الناس هذا ،
مرةً الى الأبد •

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه وقد ازداد قلقه : « لن
ينتحر » •

وقال يجرّضه :

– من الذى سيعلم هذا ؟ لسنا هنا الا اثنين • ربما لبيوتين ؟
– سيعلمونه جميعا ، جميعا ! لا شيء يخفى ! «هو» الذى قال ذلك •
وأنار بنوع من الحماسه الى صورة المسيح التى كان يشتعل أمامها
سراج •

نارت نائرة بطرس ستيفانوفتش • قال :

– اذن ما زلت تؤمن «به» وتشعل سراجاً • ربما من باب الاحتياط
لكل شيء ، هه ؟

لزم كيريلوف الصمت • وأضاف بطرس ستيفانوفتش قوله :

– فى رأى أنك ما تزال تؤمن به أكثر مما يؤمن به كاهن !

– بمن ؟ به « هو » ؟ اسمع •••

قال كيريلوف ذلك وتوقف محمداً الى أمام كأنه فى حالة نشوة
ووجد ؟ وتابع كلامه :

– اسمع • فكرة عظيمة : فى ذات يوم نصبت ثلاثه صلبان • كان
أحد المصلوبين يبلغ من قوة الايمان أنه قال للذى كان الى يمينه : « فى

هذا اليوم نفسه ستكون معي في الجنة » • وانتهى اليوم ومات الانسان ، ولم يجدا لا جنة ولا بعثاً • لم يتحقق قول المصلوب • اسمع • ان ذلك الرجل كان أعظم رجل في الأرض • بسببه انما وُجدت الأرض • فالأرض كلها وجميع ما عليها لا تكون بغيره الا جنونا • لم يوجد قبله ولن يوجد بعده انسان يشبهه ولو تحققت معجزة • والمعجزة انما هي أن هذا الانسان لم يوجد أحد مثله ولن يوجد أحد مثله في يوم من الأيام • فاذا كان الأمر كذلك ، اذا كانت قوانين الطبيعة لم تدار حتى « ذلك الانسان » ، اذا كانت لم تراع حتى معجزتها ، واضطرته أن يجيد في وسط الكذب ، وأن يموت بسبب كذبة ، بينما الأرض كلها ليست الا أكذوبة ، ولا تقوم الا على الكذب والضلال ، فان قوانين هذه الأرض نفسها ليست الا كذبا ، وليست الا مهزلة شيطانية ! فعلام يجيا المرء ؟ أجب اذا كنت رجلاً !

– هذه مسألة أخرى تماما • اخال أنك تخلط بين شيئين مختلفين ، وهذا لا ينبئني بأى خير • ولكن اسمح لى : ماذا اذا كنت الله ؟ ماذا اذا انتهى الكذب فأدركت أن الكذب كان يصدر عن ذلك الاله القديم ؟

صاح كيريلوف يقول خارجاً عن طوره :

– هأنت ذا أخيراً فهمت ! الفهم اذن ممكن ، ما دام واحد مثلك قد فهم • هل تدرك الآن أن سلامة الجميع انما تكون بالبرهان على هذه الفكرة للجميع ؟ ومن الذى سيرهن عليها ؟ أنا ! اننى لا أتصور كيف يستطيع ملحدٌ يعلم أن الله غير موجود ، كيف يستطيع أن لا ينتحر فوراً • لأن يدرك المرء عدم وجود الله ، ثم لا يدرك فى الوقت نفسه أنه هو الله ، فتلك استحالة ، والا وجب على المرء أن ينتحر • اذا كنت تشعر بذلك فأنت ملك ، ولن تنتحر ، بل ستعيش فى المجد • واحد لا بد حتما

أن يتحجر أول من يتحجر • والا فمن عسى يبدأ وبرهن ؟ اننى أنا الذى سأتحجر لأبدأ وأبرهن • لست بعدُ الهأ الا بالرغم منى ، وأنا سقى لأننى « مضطر » أن أنادى بارادتى الخاصة • جميع الناس أشقياء لأنهم يخافون أن يادوا بارادتهم • كان الانسان دائماً حتى الآن فقيراً وشقيماً ، لأنه كان يخشى أن يحقق الصورة القصوى لارادته • كان لا يستعمل ارادته الا خفيةً وسراً ، كتمليذ في مدرسة • اننى بائس بؤساً رهيباً لأننى خائف خوفاً فظيماً • الخوف لعنة الانسان ••• لكننى سأنادى بارادتى ! أنا مضطر أن أومن بأننى لا أومن • سأبدأ ، وسأنهى • سأفتح الباب • وسأنقذ • ذلك وحده سينقذ جميع البشر ، وسيبدلهم تبديلاً جسيماً من الجيل المقبل • اذ ما ظل الانسان فى حالته الجسمية الراهنة - ولقد فكرت فى هذا ملياً - فسيستحيل عليه استحالةً مطلقة أن يستغنى عن الاله القديم • لقد ظللت أسعى ثلاث سنين الى صفة ألوهيتى ، حتى وجدتها : ان صفة ألوهيتى هى حرية ارادتى ! ذلك كل شئ ! فبفضل ارادتى انما يمكن أن تنجلي الصورة القصوى لعدم خضوعى ، ولحريتى الجديدة ، حريتى الرهية • ذلك انها رهية • اننى أتتحجر لأبرهن على عدم خضوعى وعلى حريتى الجديدة •

كان وجهه شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت نظرته ثقيلة • كان يبدو أنه يعانى حمى • خيّل الى بطرس ستيفانوفتش أنه سيقع على الأرض • هتف كيريلوف يقول فجأةً بوحى مباغت :

– أعطنى الريشة ! أمّل علىّ ما شئت ، وسأوقّع على أننى قتلت شاتوف • أمّل علىّ ما دام هذا يسلينى حتى الآن • لا أخشى ما قد يفوله العيد المتطرسون • لسوف ترى بنفسك أن كل ما كان خافياً سيُعلم • وستسحق أنت ••• أظن ! أظن !

اتهنز بطرس ستيفانوفتش اللحظة المواتية مرتعشاً من فرحه بالنجاح،

فنهض بوثبة واحدة ، وأسرع يضع الحجر والورق أمام كيريلوف فوراً ،
وأخذ يملأ عليه :

• « أصرّح أنا ألكسى كيريلوف ... » •

– قف ! لا أريد ! لمن أصرّح ؟

كان كيريلوف يرتعش كأن به حمى • ان هذا التصريح والفكرة
التي أوحاها اليه فجأة ، يستغرقان كل انتباهه ويفتحان مخرجاً مؤقتاً لنفسه
المرهقة التي أسرعت تندفع فيه فوراً •

– لمن أصرّح ؟ أريد أن أعرف لمن أصرح !

– لا تصرّح لأحد ، بل للجميع ، لأول من سيقراً • لماذا التحديد ؟

هل تريد أن تصرّح للعالم كله ؟

– للعالم كله ؟ مرحى ! وبدون أى ندم ! لا أريد ندماً ! لا أريد

أن أخاطب السلطات •

– لا ! فلتذهب السلطات الى جهنم ! هيّا اكتب اذا كنت جاداً !

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش ، نائراً الأعصاب •

– انتظر • أريد أن أرسم فى أعلى الصفحة فماً ماداً لسانه •

– سخافة ! لا داعى الى الرسم • يمكن التعبير عن كل شىء باللهجة

وحدها •

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يكاد يستطيع كظم غيظه •

قال كيريلوف :

– باللهجة ؟ حسن جداً • نعم ، باللهجة ، باللهجة • أمّهل علىّ

اللهجة !

أخذ بطرس ستيفانوفتش يملأ عليه بصوت ثابت صارم ، مائلاً على

كتف صاحبه ، متابعاً بانتباه شديد كلّ حرف من الأحرف التي كان

كيريلوف يرسمها بيد مرتعشة من الانفعال :

« أصرّح أنا ألكسى كيريلوف ، بأننى فى هذا ••• من شهر
تشرين الأول (اكتوبر) ، عند الساعة الثامنة مساءً ، قد قتلت الطالب
ساتوف فى الحديقة ، بسبب خيانه ووشايته عن المنشورات التحريضية
وعن فدكا التى أقام عندنا بعمارة فيلييوف عشرة أيام • واننى انتحر الآن
بطلقة مسدس لا لأن ضميرى يعذبنى ، أو لأننى خائف منكم ، بل لأننى
قد وضعت مشروع الانتحار هذا منذ كنت فى خارج البلاد • • »
سأله كيريلوف مدهوشاً مستاءً :

– أفهذا كل شىء ؟

فقال بطرس ستيفانوفتش وهو يحاول أن ينتزع منه الرسالة :

– لا تزد كلمة واحدة !

هتف كيريلوف يقول :

– فف !

ووضع يده على الورقة • واستطرد :

– ما هذا السخف ! أحب أن أقول مع من قتلت • لماذا فدكا ؟

والحريق ؟ أريد أن أقول كل شىء ، وأن أستمهم فوق ذلك ! اللهجة !
اللهجة !

قال بطرس ستيفانوفتش متوسلاً الى صاحبه ، خائفاً أن يمزق

كيريلوف الورقة :

– هذا كاف يا كيريلوف • أوكد لك أن هذا يكفى ! من أجل أن

يصدّقوك يجب أن يكون كلامك أغمض ما يمكن ، يجب أن لا يشتمل

الا على اشارات • يجب أن لا تبدى الا طرفاً من الحقيقة ، طرفاً صغيراً

هو القدر اللازم لجذبهم واغرائهم • مهما نقل نحن ، فلسوف يكذبون هم

أكثر منا ، وسوف يصدّقون طبعاً ما يكونون قد لفّقوه أكثر مما يصدّقون

ما نلّفقه نحن ، وهذا أفضل • أعطني الورقة • هي هكذا كاملة • هيّا !
أعطنيها !

كان بطرس ستيفانوفتش يحاول أن يستولى على الرسالة • وكان
كيريلوف يصغى اليه محمق العينين ، وكأنه يبذل جهداً من أجل أن
يفهم ، ولكن كان واضحاً أنه أصبح لا يفهم شيئاً •

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً على حين فجأة :
- ما هذا يا رب ! لم بوقع حتى الآن • ما بالك تحمق هكذا ؟
هلاّ وقّعت !

فدمدم كيريلوف يقول :

- أريد أن أستمهم ...

- اكتب : عانت الجمهورية ! هذا كاف •

فافتن كيريلوف بهذا الاقتراح أعظم الافتنان ، وزأر يقول :

- أحسنت ! « عانت الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية الشاملة

أو الموت ! ، لا ، لا ، لا هكذا ! بل : « حرية ، مساواة ، أخوة ؛ أو

الموت ! » • هذا أفضل ! هذا أفضل كثيراً •

وبلذة واضحة كتب تلك الجملة تحت توقيعہ •

كرر بطرس ستيفانوفتش يقول :

- كفى ! كفى !

- انتظر قليلاً أيضاً ! اسمع ، أريد أن أوقّع مرة أخرى باللغة

الفرنسية « من كيريلوف ، السيد الروسي ، المواطن في العالم » •

ها ها ها ! بل انتظر ، وجدت ما هو أفضل من ذلك أيضاً ! أوريكا !

« طالب روسي ، مواطن في العالم المتمدن » • عظيم !

ووثب عن الديوان ، وتناول مسدسه الموضوع على النافذة بحركة

سريعة ، وهرع الى الغرفة المجاورة وأغلقها وراءه بالمفتاح • لبث بطرس

ستيفانوفتش لحظةً حالمًا ، متجهًا ببصره الى الباب • وخاطب نفسه قائلاً :
 « اذا عزم أمره فوراً فقد ينتحر ، أما اذا أخذ يفكر فلن يحدث شيء ! » •
 وبانتظار ما سيقع ، تناول الرسالة وجلس وأعاد قراءتها ، فأعجبته
 كثيراً • وجعل يحدث نفسه قائلاً :

« ما الذى نحن فى حاجة اليه جملةً ؟ نحن فى حاجة الى أن
 نشوشهم فترةً من الوقت ، وأن ندفعهم فى طريق خطأ • الحديقة ؟
 لا حديقة هنا ، وسينتهون اذن الى ادراك أن الحديقة المقصودة فى هذه
 الرسالة انما هى حديقة سكفورشنيكى • ولكن يكون قد انقضى بعض
 الوقت قبل أن توافيهم هذه الفكرة • وبعد ذلك يستغرق البحث فى الحديقة
 وقتاً آخر • فاذا اكتشفوا الجثة أخيراً ، أدركوا أن الرسالة كانت صادقة
 فيما قالته ، ولا بد أن يكون سائر ما قالته صادقا ، ومنه قصة فدكا • ولكن
 ما فدكا ؟ ان فدكا هو الحريق الذى أشعل ، وليادكين الذى قتل • كل
 شيء اذن قد صدر عن هنا ، عن عمارة فيليوف • بينما هم لم يروا شيئاً
 ولا خطر ببالهم شيء ! لسوف يفقدون صوابهم حقا • ولن يدور فى خلدكم
 أن يكون « لأصحابنا » شأن فى هذه الأمور كلها • سوف يدورون حول
 شاتوف وكيريلوف وفدكا وليادكين • ولكن علام هؤلاء القتلى جميعا ؟
 ذلك سر سيظل يصعب عليهم أن يجدوا حلاً له ! ••• غريب ••• ما باله
 لم يطلق على نفسه النار حتى الآن ! ••• » •

كان بطرس ستيفانوفتش يقرأ النص الذى أملاه ويعجب به ، ومع
 ذلك كان يصيح بسمعه شاعراً بقلق يعذبه تعذيباً شديداً • واعتزته نوبة
 حنق مسعور على حين فجأة • ونظر فى ساعته : كان الوقت قد تقدم كثيراً •
 ان كيريلوف قد حبس نفسه فى الغرفة المجاورة منذ أكثر من عشر دقائق •
 تناول بطرس ستيفانوفتش الشمعدان واقترب من الباب • وخطر بباله فى
 تلك اللحظة نفسها أن الشمعة ستكون قد ذابت كلها بعد عشرين دقيقة ،

وأنه لا يملك شمعة أخرى غيرها • وضع يده على قبضة الباب ، ومدّ أذنه : لم يسمع شيئاً • وفجأة فتح الباب ورفع الشمعة ، غير أن شيئاً ما قد وثب عليه معولاً • فأسرع يعيد اغلاق الباب ، واستند اليه بكل ثقله • لم يعد يُسمع شيء • صمت كصمت الموت •

لبث بطرس ستيفانوفتش مدة طويلة واقفاً ، متحيراً ، والشمعة بيده • انه حين فتح الباب لم يستطع أن يميز شيئاً كثيراً • ولكنه لمح كيريلوف في آخر القاعة بسرعة كومض البرق ، لمحّه واقفاً قرب النافذة ، وأدهشه كثيراً ونوب المهندس عليه ذلك الوثوب الذي يعبر عن حنق حيواني وحشي • ارتعش بطرس ستيفانوفتش ، ووضع الشمعة على المائدة ، ورفع ديك المسدس ، ومضى بخطى كخطى الذئب بتربص في آخر الغرفة : هكذا يكون لديه متسع من الوقت لأن بصوت وبشد الزناد قبل كيريلوف ، اذا فتح كيريلوف الباب وهجم عليه •

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يصدّق أن كيريلوف سوف ينتحر • كان يحدث نفسه قائلاً : « انه واقف في وسط الغرفة يفكر • في وسط غرفته المظلمة المشعومة • • • ولقد وثب الى أمام وهو يزرأر • • • هناك احتمالان : فاما اننى أزعجته في اللحظة التي همّ أن يضغط فيها زناد مسدسه لينتحر • واما انه يتساءل ما السبيل الى قتلى • نعم ، هذا هو الأمر • انه يفكر • هو يعلم أنه اذا جبن عن الانتحار ، فلن أنصرف أنا قبل أن أقتله • اذن يجب عليه أن يقتلني حتى لا أقتله • وهذا الصمت المستمر ! • • • أنكى ما في الأمر أنه يؤمن بالله ، بل انه يؤمن بالله أكثر مما يؤمن بالله كاهن من الكهان • • • لا لن ينتحر ! ما أكثرهم الآن ، هؤلاء « الشاذين » ! وغد ! سافل ! ولكن الشمعة ! الشمعة ! بعد ربع ساعة ستكون قد ذابت حتماً • • • يجب انهاء الموضوع • يجب انهاء الموضوع مهما كلف الأمر • • • ثم اننى أستطيع أن أقتله الآن • الآن

وقد وقَّع الرسالة لبني يظن أحد اننى أنا القاتل : يمكننى أن أضع البجته وضاعاً يوهم بأنه انتحر انتحاراً • سأضع المسدس فارغاً فى يده ••• ولكن كيف أقتله ؟ اذا فتحت الباب هجم على مرة أخرى وأطلق قبل أن أطلق ••• نعم ، ولكنه لن يصينى • هذا مؤكد • •

هكذا كان بطرس ستيفانوفتش يترجح متخبطاً بين ضرورة المبادرة وبين التردد عن العمل ، وهو يرتعش من نفاد الصبر • وأخيراً تساول الشمعة واقترب من الباب جاعلاً مسدسه أمامه • وحاول باليد اليسرى التى تحمل الشمعدان أن يمسك قبضة الباب وأن يديرها بغير صوت ، ولكن قبضة الباب صرَّت صريراً مسموعاً • فسرعان ما قال بطرس ستيفانوفتش لنفسه : « سوف يطلق النار » • ودفع الباب بضربة قوية من قدمه ورفع الشمعدان وصوب المسدس • لا صرخة ، ولا انفجار • الغرفة خالية •

ارتعش بطرس ستيفانوفتش • لم يكن للغرفة الا باب واحد هو الباب الذى دخل منه • لم يهرب اذن كيريلوف • رفع بطرس ستيفانوفتش الشمعة الى أعلى ، وجمال ببصره على الغرفة : لم ير أحداً • نادى كيريلوف ، بصوت خافت أولاً ، ثم بصوت قوى • لا جواب •

« أياكون قد هرب من النافذة ؟ » •

وكانت الكوة مفتوحة • « سخف • لايمكنه أن يهرب من الكوة • » • مضى بطرس ستيفانوفتش الى النافذة رأساً • « لا ، مستحيل » • وفجأة التفت بحركة فوية ، وجمد فى مكانه •

عند الجدار المقابل ، توجد خزانة على يمين الباب • وعلى يمين هذه الخزانة ، فى الزاوية التى تتشكل من التقائها بالجدار ، كان كيريلوف واقفا على وضع غريب كل الغرابة : فهو جامد ، ساكن ، مسبل يديه على طول جذعه ، قائم الرأس ، ملتصق الظهر بالجدار ، يبدو كأنه يريد أن

بمّحي ، وأن يختفي أكبر اختفاء ممكن • كان يريد قطعاً أن يتقى نظرة بطرس ستيفانوفتش • أمر يصعب تصديقه • وكان بطرس ستيفانوفتش ، من المكان الذي هو فيه ، لا يرى الا الأجزاء البارزة من هذه القامة ، ولا بجرؤ أن يقترب ليرى كيريلوف رؤية أوضح ، وليحل اللغز ويكشف السر • ان قلبه يخفق خفقاناً ثقيلاً • وفجأةً ، استولى عليه حنق مجنون :
فها هو ذا يصرخ صراخاً شديداً ، ويضرب بقدميه الأرض ، ويهجم على كيريلوف •

ولكن حين صار على مقربه منه ، حتى كاد يلمسه ، توقف بغتةً وقد استبد به ارتياح • ان الشيء الذي شدهه خاصةً هو أنه رغم صرخاته ووثوبه المسعور ، ظل الرجل ساكناً سكونا مطلقاً ، لا يختلج اختلاجة واحدة ، فكأنه تمنال من صخر أو لعبة من شمع • وكان وجهه مصطبغاً بصفرة غريبة ، وكانت عيناه السوداوان تحديقان ثابتتين الى نقطة في الفضاء أمامه • خفض بطرس ستيفانوفتش الشمعدان ورفع ، فأثار بذلك جميع أجزاء ذلك الوجه المتجمد • ولاحظ على حين فجأةً أن كيريلوف ، رغم تحديقه الثابت الى أمام ، كان ينظر اليه بطرف عينه ، ولعله كان يرصده • فخطر بباله عندئذ أن يقرب الشمعة من وجه « ذلك السافل » ، فيحرقه ليرى ما عساه يفعل • ولاح له في تلك اللحظة نفسها أن ذقن كيريلوف تتحرك ، وأن ابتسامة ساخرة تلمُّ بشفتيه ، كأنه قد اكتشف غرضه • فجئن جنون بطرس ستيفانوفتش خوفاً وغيظاً وأمسك كيريلوف من كتفه •

ان ما حدث بعد ذلك قد بلغ من الهول والسرعة أن بطرس ستيفانوفتش لم يستطع بعد ذلك في يوم من الأيام أن يتذكر تسلسل الحوادث على وجه الدقة • انه ما ان أمسك كيريلوف حتى خفض كيريلوف جسمه بغتةً ، ثم اذا هو بضربة من رأسه يسقط الشمعة على

الأرض • لقد تدحرج الشمعدان بضجه قوية ، وانطفت الشمعة • وفي تلك اللحظة نفسها أحس بطرس ستيفانوفتش بألم شديد فى خنصر يده اليسرى • فصرخ صرخة طويلة • لقد تذكر فيما بعد أنه وقد فقد صوابه تماما ، قد ضرب جمجمة كيريلوف بأخمص المسدس ثلاث ضربات ، فكان كيريلوف ما يزال يعض³ اصبعه • واستطاع بطرس ستيفانوفتش أخيرا أن يحمله على ارجاء اصبعه ، وهرع يخرج من الغرفة متلمسا طريقه فى الظلمات ، بينما كانت تلاحقه صرخات رهيبه تكررت عشر مرات :

— فورا ! فورا ! فورا ! ...

ولكن بطرس ستيفانوفتش ظل يركض ، وحين دوت طلقة المسدس كان قد وصل هو الى الدهليز • فلما سمع دوى الرصاص توقف ، ولبث ساكنا بضع دقائق ، يفكر فيما يجب عليه أن يفعله • وأخيرا قرر أن يعود الى الغرفة التى كان فيها كيريلوف • كان عليه قبل كل شئ أن يعبر على الشمعة التى أسقطها كيريلوف من يديه ، والتى لا بد أنها ملقاة على يمين الخزانة • ولكن كيف يشعلها ؟ وهذه صورة غامضة تعود الى ذمه: بالأمس ، حين ركض الى المطبخ حيث كان فدكا يأكل ، قد لمح فى أغلب الظن علبة كبريت فوق لوح كبير من خشب أحمر • فهاهو ذا يتجه الآن الى باب المطبخ نلمسا ، فيفتحه ، ويتبع الممر الصغير ، ويهبط الدرجات الثلاث ، ويمد يده الى ذلك الموضع نفسه من لوح الخشب ، فاذا هو يقع على علبة كبريت ملأى فعلا ، فيأخذها ، ويعود صاعدا الى فوق ، فى الظلام أيضا • حتى اذا صار قريبا من الخزانة ، حيث ضرب كيريلوف بأخمص مسدسه ، تذكر اصبعه المعضوضه فجأة ، تذكرها حينئذ فقط • وفى تلك اللحظة نفسها أحس بألم لا يكاد يُطاق • فكز⁴ أسنانه ، وأشعل الشمعه ، وأعادها الى الشمعدان ، وألقى على ما حوله نظرة دائره : كان جثمان كيريلوف راقدا على الأرض ، قرب النافذة المفتوحة كوثها ، متجه

القدمين نحو الزاوية القائمة من الغرفة • ان الرصاصة التي انطلقت من المسدس فى الصدغ الأيمن قد خرجت من الجهة اليسرى نحو أعلى الجمجمة ، فبذلك اخترقت الرأس من طرف الى طرف • وهذه الطخات من الدم والدماغ قد انتشرت هنا وهناك • وكان المتحر ما يزال ممسكاً سلاحه بيده • لا بد أنه قد مات على الفور •

فحص بطرس ستيفانوفتش كل شيء بعناية ، ثم نهض وخرج ماشياً على رءوس الأصابع • وأغلق الباب وراءه • ووضع الشمعدان على المائدة فى الغرفة الأولى ، وفكر لحظةً ، فقرر وأن لا يطفىء الشمعة ، اذ فال نفسه انها لا يمكن أن تسبب حريقاً • وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الرسالة التي كانت موضوعة فى مكان بارز ، ابتسم على غير ارادة منه ، وترك الجناح سائراً على رءوس الأصابع أيضاً ، لا ندرى لماذا !

حتى اذا تسلل الى الخارج من الممر الذي كان يسلكه فدكا ، حرص على أن يسده وراءه بعناية واهتمام •

٣

فى الساعة السادسة الا عشر دقائق تماما ، كان بطرس ستيفانوفتش واركل يذهبان ويجيئان على رصيف المحطة أمام صف طويل من حافلات القطار السريع • ان بطرس ستيفانوفتش مسافر ، وقد رافقه اركل مودعا • كانت الأمتعة قد سُجِّلت ، وكانت حقيبة السفر قد وُضعت على مقعد فى احدى حجرات الدرجة الثانية ايدانا بأن المكان محجوز • وقد انطلقت الاشارة الأولى التي تؤذن برحيل القطار ، فالمسافرون ينتظرون الآن قرع الجرس بالاشارة الثانية • وكان بطرس ستيفانوفتش ينظر يمنة ويسرة لا يحاول أن يختبئ عن الأبصار ، وكان يلاحظ الناس الذين يدخلون

حافلات القطار ، باتباه شديد • ولكنه لم ير أى صديق ، ولم يُتَح له أن يحيى بحركة من الرأس الا تاجرا كان يعرفه معرفة غامضة ، وكاهناً شاباً كان ذاهباً الى أبرشيته التي تبعد عن المدينة محطتين •

واضح أن اركل كان بود فى هذه اللحظات الأخيرة لو يتكلم فى أمور هامة ، رغم أنه ربما كان لا يعلم على وجه الدقة ما الذى يود لو يتكلم فيه ، ولكنه لا يجروء أن يكون هو البادىء بالكلام • وكان يبدو له أن بطرس ستيفانوفتش قد ضاف ذرعاً بوجوده ، وأنه ينتظر انطلاق الاشارة النائية من الجرس مؤذنة بتحريك القطار •

قال اركل على خجل ووجل ، وكأنه يريد أن ينبّه بطرس ستيفانوفتش الى خطر ما :

- انك تنظر الى الناس بطلاقة وحرية •••

- لم لا ؟ ما المانع ؟ لا ينبغى لى بعد أن أختبىء • لم يحن الأوان بعد • اطمئن • كل ما أخشاه هو أن يرسل الشيطان الينا ليوتين : انه اذا سمع شيئاً فسيهرع الينا فوراً •

قال اركل وقد عزم أمره آخر الأمر على أن يتكلم جاداً :

- بطرس ستيفانوفتش ، انهم ليسوا بمضمونين •

- من ؟ ليوتين ؟

- هو والآخرون •

- سخف ! بعد الذى جرى أمس ، أصبحت قابضاً على زمامهم جميعاً • لا أحد منهم سيخون • لا بد أن يفقد واحد منهم عقله حتى يخاطر هذه المخاطرة •

- بطرس ستيفانوفتش ، سيفقدون عقولهم •

لعل هذه الفكرة قد سبق أن خامرت فكر بطرس ستيفانوفتش ،
لذلك أزعجته ملاحظة اركل مزيداً من الازعاج •

- أتراك خائفا أنت أيضا يا اركل ؟ اننى أعتمد عليك أكثر من
اعتمادى على جميع الآخرين • أنا أعرف الآن ما قيمة كل واحد منهم ،
اننى أعهد بهم اليك ، فأطلعهم على ما حدث ، بل اذهب اليهم فى هذا
الصباح نفسه • أما تعليماتى المكتوبة فاقرأها عليهم غدا أو بعد غد حين
يكونون قد تابوا الى أنفسهم وعاد اليهم رشدهم ••• ولكن ثق أنهم
سيكونون ، حتى منذ الغد ، قادرين على أن يسمعوها وأن يفهموها • ذلك
أنهم خائفون خوفا رهيبا ، وسيصبحون كالشمع ليونة ! ••• أنت خاصة
لا تفقدن شجاعتك •

- آه يا بطرس ستيفانوفتش ، الأفضل أن لا تسافر !

- ولكننى لن أغيب الا عدة أيام • سأعود قريبا •

قال اركل بحذر ولكن بلهجة ثابتة :

- بطرس ستيفانوفتش • هبك ذهبت حتى الى بطرسبرج •••
أتظن أننى لا أدرك أنك انما تعمل فى سبيل « القضية » وحدها ؟

- لم أكن أنتظر منك أقل من هذا يا اركل • اذا كنت قد حذرت
اننى مسافر الى بطرسبرج ، فلا بد انك أدركت أيضا أمس أننى لم أكن
أستطيع ، فى مثل تلك اللحظة ، أن أقول لهم اننى مسافر الى بعيد ، وذلك
حتى لا أفزعهم • لقد رأيت بنفسك صنف هؤلاء الناس • ولكنك تدرك
اننى مسافر لأمر خطير ، خطير أقصى الخطورة ، أمر يعنينا جميعا ويتعلق
بنا جميعا ، ولا أسافر هربا كما يفترض شخص مثل ليوتين •

- بطرس ستيفانوفتش ، هبك سافرت حتى الى الخارج ، فلسوف
أفهم ذلك • أنا أدرك أن المفروض فيك والمطلوب منك أن تكون حذراً ،

حريصا على شخصك ، لأنك أنت كل شيء ، أما نحن فلسنا شيئاً • اننى أفهم يا بطرس ستيفانوفتش •

• وكان صوت الشاب المسكين يتهدج ويختلج •

- شكراً يا اركل ! آى ••• لقد لمست خنصرى المريضة •••

كان اركل قد صافح بطرس ستيفانوفتش بخراقة ، فلمس اصبعه الجريحة المضمدة بضماذ من قماش التافاه الأسود •

وأردف بطرس ستيفانوفتش يقول :

- أكرر لك مرةً أخرى اننى لا أسافر الى بطرسبرج الا التماساً للأخبار • وقد لا أمكث فيها الا أربعاً وعشرين ساعة أعود بعدها الى هنا • ومن أجل أن أحوّل عنى الشبهات سوف أفيم فى الريف ، عند جاجانوف • اذا تخيلوا أنهم معرفّون لخطر فسأضع نفسى فى مقدمتهم ، فأكون أول من يصاب • على كل حال ، اذا أطلت اقامتى ببطرسبرج ، فسأعلمك فوراً ••• بالطريقة التى تعرفها ••• فتتولى أنت ابلاغهم •

وانطلقت الاشارة الثانية التى تؤذن بتحرك القطار بعد قليل •

- لم يبق لنا الا خمس دقائق • اسمع • اننى لا أريد أن تتفرق الحلقة التى هنا وأن تبعثر • لا لأننى خائف ••• فلا تخش علىّ شيئاً • ان حلقات شبكتنا كثيرة ، ولست أحرص على هذه حرصاً خاصاً • ولكنها تزيد حلقات الشبكة حلقةً على كل حال • ثم اننى أعلم أن فى وسعى أن أعتمد عليك ، رغم اننى أتركك هنا وحيداً فى وسط هؤلاء الحمقى الأغبياء • لا تخش شيئاً • لن يخونوا ، لن يجسروا أن يخونوا •••

هنا رأى بطرس ستيفانوفتش فتى كان مقبلاً عليه بفرح ، فصاح

بطرس يسأله بصوت مرح ، صوت يختلف كل الاختلاف عن صوته في حديثه مع اركل :

- آ ... أنت مسافر اليوم ؟ أتركب القطار السريع ؟ لم أكن أعرف ذلك • الى أين أنت ذاهب ؟ الى عند امك ؟
- لا بل اننى ذاهب الى أبعد من ذلك ، الى « ر ... » • ثماني ساعات فى القطار ! وأنت ؟ الى بطرسبرج ؟
كذلك سأله الفتى ضاحكاً • فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك ضحكاً صريحاً طلقاً :

- لماذا تفترض اننى مسافر الى بطرسبرج ؟
فرفع الفتى له اصبعه مهدداً • وكان الفتى يلبس قفازين •
وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه فقال خافضاً صوته خفضاً يحمل معنى السر :

- نعم • حذرت • أنا مسافر الى بطرسبرج ومعى رسائل من جوليا ميخائيلوفنا • يجب علىّ أن أرى ثلاث شخصيات أو أربعا ... بصراحة :
شيطان يأخذهم ! يا لها من مهنة لعينة كريهة !
فسأله الفتى هامسا :

- ولكن قل لى : لماذا دب الذعر فى نفسها فجأة ؟ لقد رفضت حتى استقبالى أمس • وفى رأىى أنها يجب أن لا تقلق على زوجها • ليس هناك ما يوجب القلق • بالعكس : لقد وثب وثبة رائعة أثناء الحريق • جازف بحياته تقريبا •

عاد بطرس ستيفانوفتش يضحك وقال :
- ومع ذلك ... المسألة هى أنها تخشى أن يكون أحد قد كتب من

هنا ... هناك أشخاص تشببه فيهم • ثم هناك ستافروجين خاصة ، أو قل الكونت « ك ... » • هذه قصة طويلة ... قد أروى لك طرفاً منها أثناء الطريق ... إذا سمحت لي بذلك مشاعر الفروسية طبعاً ! ... أعرفك بالضابط اركل • هو قريب لي •

لم يكن الفتى قد انقطع عن التفرس في اركل بطرف عينيه • فلما عرفه به بطرس ستيفانوفتش وضع يده على قبعته محياً ، فردَّ اركل التحية •

- هل تعلم يا فرخوفنسكى أن قضاء ثمانى ساعات في القطار أمر فظيع ؟ عندنا هنا ، فى الدرجة الأولى من القطار ، الكولونيل بيرستوف ؛ رجل مسل جداً ، هو جارى فى الريف • لقد تزوج فتاة اسم أسمرتها جارين • فتاة لائقة جداً • حتى ان عنده أفكاراً ... لقد قضى هنا يومين ، انه يعشق لعب الورق عشقاً جنونياً (الويست) فما رأيك فى أن ننظم لعبة « ويست » ؟ هه ؟ هناك شخص رابع يمكن أن يشاركنا اللعب : انه بريوخلوف ، تاجر من « ت ... » ، له لحية طويلة ، مليونير ، مليونير فعلاً ... أنا أقول لك ذلك ... سأعرفك به • كيس دنانير ، مسل جداً ! سنضحك كثيراً !

- يحلو لي كثيراً أن ألب « الويست » ، ولا سيما فى القطار ، لكننى راكب فى الدرجة الثانية !

- لا قيمة لهذا ! تعال الى حجرتنا • سأنبئك رئيس القطار • انه يطعننى بدون أن يقول كلمة واحدة • ماذا معك ؟ حقيقة سفر ؟ غطاء ؟

- هياً بنا ! نذهب الى هناك •

تناول بطرس ستيفانوفتش حقيقته وغطاءه وكتابه بمساعدة اركل ،

ومضى يستقر في الدرجة الأولى ، راضياً عن هذا التغيير كل الرضى ،
سعيداً به كل السعادة •

ورنَّ جرس المحطة مرةً ثالثة • فقال بطرس ستيفانوفتش يخاطب
اركل منشغلاً أشد الانشغال ، ماداً يده الى الضابط من خلال الباب :

- طيب يا اركل • هانت ذا ترى أن علىَّ أن ألعب بالورق معهم •
- لا داعى الى أن تشرح لى يا بطرس ستيفانوفتش • اننى أفهم حق
الفهم يا بطرس ستيفانوفتش ، أفهم كل شىء •
- طابت أيامك ! •••

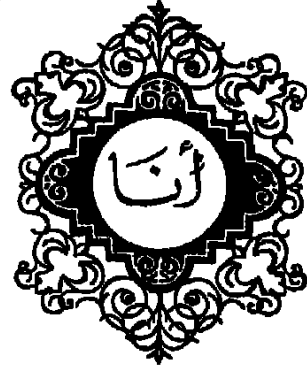
فأل بطرس ستيفانوفتش ذلك مودّعاً اركل ، والتفت على حين فجأة
يستجيب لنداء الفتى الذى كان يريد أن يعرفه بصاحبه • ولم ير اركل
صاحبه بطرس ستيفانوفتش بعد ذلك قط •

رجع الى بيته حزينا كل الحزن • ليس رحيل بطرس ستيفانوفتش
بغتهً هو الذى يبث الاضطراب فى نفسه ، لا ••• ولكن ••• ولكن
بطرس ستيفانوفتش قد تحول عنه بسرعة كبيرة استجابة لنداء هذا الفتى
الأنيق ••• ثم ••• ثم لقد كان فى وسعه أن يقول له فى وداعه شيئاً آخر
غير هذا التعبير « طابت أيامك » ، أو أن يصافحه مصافحةً أقوى على
الأقل •

ان تلك المصافحة التى تشتمل على قلة الاكترات هى التى تحدث
أكبر ألم • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً قد بدأ يعذب قلبه الصغير ، شيئاً
كان هو نفسه لا يفهمه ، شيئاً له علاقة بالليلة البارحة •

الفصل السابع

آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش



وائق بأن ستيفان تروفيموفتش كان يزداد خوفاً كلما اقتربت ساعة تنفيذ مشروعه الجنونى • أنا وائق بأنه تألم كثيراً ، ولا سيما عشية رحيله ، أثناء الليلة الرهيبة التى شب فيها الحريق • لقد روت ناستاسيا فيما بعد أنه اضطجع فى سريره متأخراً ونام • ولكن هذا لا يدل على شيء : ألا يُروى عن المحكوم عليهم بالاعدام أنهم ينامون نوماً عميقاً عشية تنفيذ الحكم فيهم ؟ ورغم أن ستيفان تروفيموفتش قد غادر مسكنه فى الفجر ، أى حين يكون الناس العصيون فى حالة من فرط الاحتياج عادةً (تذكرون أن الميجر ، قريب فرجنسكى ، كان يكف عن الايمان بالله متى طلع النهار) ، فأنا وائق بأنه ما كان له فى يوم من الأيام قبل الآن أن يتصور بغير جزع أنه سيمضى وحيداً فى الطرّق ، وسيجد نفسه فى مثل هذه الحال • ولكن يجب أن نفترض أن الكرب الشديد قد بثّ فى نفسه شجاعة ، وأضعف - فى البداية - فظاعة ذلك الاحساس بالوحدة الكاملة الذى غزاه فجأة منذ ترك « ستازى » وبارح العش الدافئ الذى عاش فيه عشرين عاماً • ومهما يكن من أمر ، فان ستيفان تروفيموفتش ما كان له الا أن يرحل ، ولو أحس احساساً واضحاً بكل ما كان ينتظره • لقد كان فى هذه الرحلة نوع من بطولة يثير حماسه

رغم كل شيء • كان يمكنه طبعاً أن يقبل الشروط الرائعة التي وضعتها له فرفاراً بتروفناً ، وأن يرتضى آلاها « كرجل عامي » طفيلي ، ولكنه رفض تلك الصدقة ورحل • فيها هو ذا الآن يترك كل شيء ، ويرفع « راية الفكرة العظيمة » عالية كل العلو ، الفكرة العظيمة التي سيموت من أجلها في الطريق العام ! ••• لا بد ان حالته النفسية كانت هي هذه • ولا بد أن مشروعه قد بدا له في هذه الصورة •

ولقد أقيمت على نفسي مرارا كثيرة هذا السؤال الآخر أيضا : لماذا رحل ماشياً ؟ لماذا لم يركب عربة ؟ وأجبت نفسي عن ذلك السؤال في أول الأمر بأن هذا يرجع الى ما عُرف في الرجل من ضعف الحس العملي ، والى ما كان عليه من اضطراب فكري بتأثير العاطفة العنيفة التي كانت تسيطر عليه آنذاك • لقد تراءى لي أن الحصول على جواز طريق واكتراء عربة (ولو كانت ذات جرس) كانا يدوان له أمرين مبتدلين عاميين • فالأجمل والأوقع في النفس أن يسافر ماشياً مشى الحجاج (ولو كان هذا الحاجُ مزوداً بمظلة) ، ولا بد أن يكون لهذه البادرة شأن أكبر في نفس فرفاراً بتروفناً • أما اليوم ، بعد أن انتهى كل شيء ، فأننى أتصور أن الأمور جرت مجرى أبسط من هذا : لقد كان يخشى أن يكتري عربة لأن فرفاراً بتروفناً قد تعلم الأمر فتمنعه من السفر بالقوة (لا شك أنها كانت ستفعل ذلك) ، ويخضع هو ، فأين تصير « الفكرة العظيمة » حينذاك ؟ هذا عن اكتراء العربة ، وأما عن جواز الطريق ، فمن الواضح أنه لكي يحصل المسافر على جواز طريق يجب أن يعرف الى أين هو مسافر • ولم تكن تلك حال ستيفان تروفيموفتش • حتى ان هذا بعينه هو ما يعذبه في هذه الساعة أكثر من أى شيء آخر : لقد استحال عليه استحالةً مطلقة أن يعزم أمره على تحديد مكان من الأمكنة • ذلك أنه لو اختار هذه المدينة أو تلك من المدن لبدا له مشروعه على الفور

سخيلاً ومستحيلاً • انه يحس ذلك سلفاً • ما عساه فاعلاً في تلك المدينة التي يختارها ؟ لماذا يختار هذه المدينة دون سواها ؟ أبحثاً عن ذلك «التاجر» ؟ ولكن أى «تاجر» ؟ عندئذ انما كان ينبجس في ذهنه ذلك السؤال الرهيب • الواقع أنه لا شيء في نظره كان مريماً مثل « ذلك التاجر » الذي يسرع هو الى البحث عنه ويخاف أشد الخوف أن يعثر عليه طبعاً • لا ، الأفضل أن يمشى في الطريق العام ، الأفضل أن يمضى دون أن يفكر فى شيء • ما ظل ممكناً أن لا يفكر فى شيء • الطريق العام ••• شيء طويل ، طويل جداً ، لا يرى المرء له نهاية ، كالحياة الإنسانية ، كالأحلام الإنسانية • الطريق العام يتضمن فكرة • أما جواز السفر فى الطريق فأية فكرة يمكن أن يتضمن ؟ جواز السفر نهاية كل فكرة ••• « عاش الطريق العام » ، وعلى بركة الله •••

بعد أن التقى بليزا ذلك اللقاء غير المتوقع ، وهو اللقاء الذى سبق أن وصفته ، استأنف ستيفان تروفيموفتش مشيه وقد اتابته سورة من حماسة أشد • ان الطريق العام يبعد عن سكفورشنيكى مسافة نصف فرسخ • أمر غريب : ان ستيفان تروفيموفتش لم يلاحظ فى البداية أنه سلك الطريق العام • ما كان له فى تلك اللحظة أن يحتمل أن يفكر تفكيراً منطقياً ، أو على الأقل أن يشعر شعوراً واضحاً بما كان يفعله • وهذا رذاذ من المطر يتساقط من حين الى حين ، ولكن ستيفان تروفيموفتش لا يفتن حتى الى هطول المطر ؛ وهو لم يفتن أيضاً الى أنهرمى كيسه وراء كتفه ، وأن ذلك قد سهّل مشيه كثيراً • ولعله كان قد مشى فرسخاً أو فرسخاً ونصف فرسخ ، حين توقف فجأة ونظر حوله • ان الطريق الأسود ، المحفر ، المحفوف بأشجار مائة ، يمتد أمامه الى غير نهاية • وعلى يمينه حقول عارية قد حُصدت منذ مدة طويلة • وعلى شماله حراج مقطوعة نمت على جذوع أشجارها فروع صغيرة ، ثم غابة بعد ذلك •

وهناك ، هناك فى بعيد ، خط السكة الحديدية الذى لا يكاد يرى ،
وانما يدل عليه دخان فطار لا يُسمع له صوت من شدة البعد • شعر
ستيفان تروفيموفتش بخوف ، ولكن الخوف لم يدم الا لحظة واحدة •
وتهد ستيفان تروفيموفتش على غير ارادة منه ، ووضع كيسه على الأرض ،
وجلس ليستريح قليلاً • وشعر برعدة تسرى فى جسمه حين جلس ،
فأحكم تلففه بمعطفه • واذ لاحظ أيضا أن المطر يهطل فتح مظلته •
ولبت جالسا على هذه الحال مدة طويلة ، وهو يحرك شفتيه من حين الى
حين ، ويمسك قبضة المظلة امساكا قويا • كانت صورة مبعثرة أشد التبهر
تدور فى ذهنه وتتلاحق وتتطارد بعضها وراء بعض • « ليز ، ليز ، ومعها
مافريكى ذاك ••• ما أغربهم من ناس ! ••• ولكن ما ذلك الحريق
الذى تحدثوا عنه ؟ ••• وتلك الجثث ؟ ••• أظن أن «ستازى» لم تعلم
بشيء بعد ••• لا بد أنها ما تزال تنتظرنى مع القهوة ••• بالورق ؟ هل
حدث لى أن خسرت رجلاً أثناء اللعب بالورق ؟ هم ••• فى بلادنا ،
فى روسيا ، فى العهد الذى يقال له عهد العبودية ••• آه ••• رباه ! •••
وفدكا ؟ ••• »

ارتعش ستيفان تروفيموفتش مرتاعاً ، ونظر حوله : « ماذا اذا كان
فدكا مخبئاً هنا فى مكان ما ، وراء بعض الشجيرات مثلاً ؟ ••• يقال انهم
عصابة كاملة تهاجم المارة فى الطريق العام • آه ••• يا رب ! وأنا الذى
••• لأقولنَّ له الحقيقة كلها • سوف أقول له اننى مذنب ••• واننى
تألمت له خلال عشر سنين ، أكثر مما تألم هو حين كان جندياً ••• و •••
وسوف أعطيه محفظة نقودى • هم ! ••• « معى أربعون روبلاً • سوف
يأخذ المال ثم يقتلنى مع ذلك » (بالفرنسية) •

بهذا حدث ستيفان تروفيموفتش نفسه جزعاً ، ثم اذا هو أثناء هذا
الجزع يطوى مظلته - لا ندري لماذا - ويضعها على الأرض الى جانبه •

وفى بعيد ، على الطريق ، ظهرت عربية • انها آتية من المدينة •
أخذ ستيفان تروفيموفتش يراقبها قلقاً بعض القلق • وجعل يحدث نفسه
قائلاً : « الحمد لله ••• هذه عربية • انها تسير بطيئة • لا يمكن أن يكون
هذا خطراً • هذه أفراس من هنا ، أفراس بليدة مسكينة ••• لطالما قلت
ان هذه السلالة من الأفراس ••• لا بل ان بطرس ايلتش هو الذى
تكلم فى النادى عن السلالة ، بينما كنت أنا أجمع الحصىلة ، ثم •••
ولكن ماذا وراء العربية ؟ ••• أظن أن فى العربية امرأة قروية ••• قروى
وقروية • هذا مُطمئن • المرأة فى خلف ، والرجل فى أمام • هذا
مطمئن جدا • ووراء العربية بقرة مربوطة من قرنيها • هذا مطمئن الى
أبعد حدود الطمأنينة • » •

ووصلت العربية الى حيث كان ستيفان تروفيموفتش • انها عربية
من عربات الفلاحين ، متينة وجديدة • كانت المرأة جالسة على كيس
كبير ، وكان الفلاح راكباً فى الأمام على حافة العربية متسدلى الساقين •
وكانت بقرة حمراء مربوطة من قرنيها تتبع العربية فعلاً • تأمل الرجل
وامراته ستيفان تروفيموفتش محملقين ، ونظر اليهما ستيفان تروفيموفتش
أيضاً • ولكن ما ان تجاوزاه عشرين خطوة حتى أسرع ينهض ليلحق
بهما • ان مجاورة العربية تبدو له مطمئنة حتما • ولكنه ما ان وصل الى
العربية حتى كان قد نسى كل شيء ، وعاد يفرق فى أحلامه • وأغلب
الظن أنه كان يتقدم فى سيره دون أن يخطر بباله أنه فى نظر الفلاح
وامراته فى هذه اللحظة أعجب وأغرب ما يمكن أن يلتقى به المرء فى
الطريق العام •

ولم تطق الفلاحة صبراً ، فسألته وهو يرفع نحوها نظرة ذاهلة :

– من أنت ، اذا جاز لى أن ألقى هذا السؤال ؟

انها امرأة في نحو السابعة والعشرين من عمرها ، ممتلئة الجسم ،
سوداء الشعر ، زاهية اللون ، كانت ابتسامتها اللطيفة التي ترسم على
شفتيها الحمر اوين تكشف عن صفيين رائعين من الأسنان البيض .

دمدم ستيفان تروفيموفتش يسألها بدهشة أليمة :

– أتكلميني أنا ... أنا ؟

قال الفلاح بثقة :

– لا شك أنه تاجر .

هو فلاح قوى الجسم ، في نحو الأربعين من عمره ، له لحية غزيرة
تضرب الى حمرة وتحف بوجهه العريض . وما هو بالرجل الغبي .

قال ستيفان تروفيموفتش مدافعا عن نفسه كيفما اتفق :

– لا ... لست تاجراً ... أنا ... أنا ... « أنا شيء آخر »

(بالفرنسية) .

وأبطأ خطوه ، فصار وراء العربة يسير محاذيا البقرة .

عاد الفلاح يتكلم فقال بعد أن سمع كلمات أجنبية :

– لا بد أنه سيد من السادة .

وشدَّ الأزمَّة .

وقالت المرأة تكمل كلامه :

– ونحن كنا نقول لأنفسنا : لعله يتنزه .

– هل ... هل عنى تتكلمين ؟

– الأجانب يصلون عادةً بالقطار . وعدا هذا ، لا يبدو على حذاءيك

أنهما من هنا .

قال الفلاح بلهجة الواثق بنفسه أيضا :

- هذان حذاء رجل عسكري •

- لا ، لست عسكريا ، انى •••

وحدثت ستيفان تروفيموفتش نفسه منزعجا يقول : « ما أغرب هذه المرأة ! وما أعجب تفرسها فيّ ! ••• » على كل حال « (بالفرنسية) ••• الخلاصة : أشعر بأننى مذنب فى حقهم ، ومع ذلك لست بمذنب » •

فأخذت « المرأة » تكلم زوجها هامة •

- اذا كان هذا لا يسوؤك ، فنحن يسرنا أن نركبك معنا •••

لا لشيء غير ارضائك •

فثاب ستيفان تروفيموفتش الى نفسه فجأة • وأسرع يقول :

- نعم نعم يا صديقى • يسرنى هذا كثيرا • لأننى متعب جدا •

ولكن كيف أتسلق اليكما •

وأضاف يحدث نفسه : « شىء غريب جدا ••• مشيت الى جانب البقرة هذه المدة الطويلة كلها ولم يخطر ببالى أن أركب عربتهما • حقاً ان « الحياة الراقية » شىء خاص جدا ••• » •

ومع ذلك لم يوقف الفلاح حصانه • وأخيراً قال يسأله بشىء من

عدم الثقة :

- ولكن الى أين أنت ذاهب ؟

فلم يفهم ستيفان تروفيموفتش فورا •

- هل الى خاتوفو مثلا !

- الى خاتوف ؟ لا ••• وأنا لا أعرفه ، وان كنت قد سمعت عنه •

– خاتوفو ، خاتوفو ، هذه قرية ، قرية !

– قرية ؟ « رائع » (بالفرنسية) • أعرف هذا الاسم فعلاً •••

• وظل ستيفان تروفيموفتش يمشى ، ولا يدعو أحداً أن يركب •
وفجأة خطرت بباله فكرة عبقرية • قال :

– لعلكم تتخيلون أنني ••• ولكن معي جواز سفر ، وأنا أستاذ ،
أو قولوا ان شئتم معلم ، ولكننى معلم رئيسى ، « نعم ، هكذا يمكن أن
يُترجم عملى » • أود كثيراً لو أركب معكم ، وسوف أشتري لكم •••
سوف أشتري لكم نصف زجاجة من الخمر •

قال الفلاح :

– خمسون كوبكاً يا سيدى ••• الطريق شاقة •

وقالت المرأة :

– والا كنا مغبونين •

– خمسون كوبكاً ؟ موافق على خمسين كوبكاً • و « هذا أفضل ،

ان مجموع ما معى أربعون روبلاً ، ولكن ••• » (بالفرنسية) •

أوقف الفلاح الحصان ، ورفع ستيفان تروفيموفتش الى العربة
بجهد مشترك ، فجلس على الكيس الى جانب المرأة • وسرعان ما عاد
يفرق فى أحلامه • كان يدرك هو نفسه ، فى بعض اللحظات ، أنه مسرف
فى الذهول وأنه لا يفكر فى حاله • وكان يعجب لذلك • بل ان هذا
الاحساس بالضعف العقلى كان يؤلمه ويجرح كرامته •

قال يسأل المرأة الشابة :

– وما ذاك ••• فى الخلف ؟

فقالت الفلاحة ضاحكة :

– كَأَمِّكَ يَا سَيِّدِي لَمْ تَرَفِي حَيَاتِكَ بِقَرَّةٍ !

وتدخل الفلاح فقال :

– اشتريناها من المدينة • لقد فطست بهائمنا في الربيع الماضي •••
 بالطاعون • هلكت الماشية في كل مكان ، عند جميع الجيران ، هلك أكثر
 من نصفها • كارثة حقا •

• وضرب الحصان بسوطه •

فقال ستيفان تروفيموفتش مدمماً :

– نعم ، هذا يحدث عندنا ، في روسيا ••• ونحن على وجه العموم ،
 معشر الروس ••• نعم ••• هذا يحدث •••

– اذا كنت معلماً فما ذهابك الى خاتوفو ؟ اللهم الا أن تكون ماضياً
 الى أبعد من خاتوفو •••

– أنا ••• لا ••• لن أمضي الى أبعد منها • على وجه الاجمال •••
 أقصد ••• أنا ذاهب الى أحد التجار •

– ربما الى سباسوف ؟

– نعم ، تماما ، الى سباسوف • لا قيمة لهذا على كل حال •

قالت المرأة ضاحكة :

– اذا كنت ذاهباً الى سباسوف ، مشياً على القدمين ، وبهذين
 الحذاءين ، فسوف تصل اليه بعد أسبوع •••

– تماما ، ولكن ما قيمة هذا « يا أصدقائي » (بالفرنسية) ، ما قيمة

هذا ؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش مقاطعاً • وأردف يحدث نفسه :

« ما أعجبهم ! المرأة تتحدث خيراً من زوجها على كل حال • وانتي لألاحظ بوجه الاجمال أن أسلوبهم قد تبدل بعض التبدل منذ الغاء القنائة • ولكن فيم يهمهم أن يعرفوا اننى ذاهب الى سباسوف أو الى مكان آخر ؟ ما دمت أدفع أجر ركوبى فلماذا لا يدعوننى وشأنى ؟ » •

تابع الفلاح كلامه فقال :

– اذا كنت ذاهباً الى سباسوف ، فيجب ركوب السفينة •
وأسرعت المرأة تتدخل فقالت :

– هذا صحيح • اذ لو تبعت الشاطيء بالعربة لدرت دورة طولها ثلاثون فرسخاً •

– بل أربعون •

واستأنفت المرأة كلامها فقالت :

– غداً ، فى الساعة الثانية ، ستجد السفينة فى أوستيفو •

ولكن ستيفان تروفيموفتش أصرّ على التزام الصمت •

وصمت رفيقاه • كان الرجل يحرك الزمام ، وكانت المرأة تبادله ملاحظات قصيرة من حين الى حين • وغفا ستيفان تروفيموفتش ، فما كان أشد دهشته حين هزته المرأة ضاحكة ، فاذا هو يرى نفسه فى قرية من القرى الكبيرة ، أمام باب « عزبة » ذات ثلاث نوافذ •

– غفوت يا سيدى ؟

– ما هذا ؟ أين أنا ؟ آ ••• نعم ••• لا بأس •••

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش متتهداً ، ونزل من العربة •

وألقى حوله نظرة حزينة مكتئبة • وبدا له منظر القرية عجيباً ، وأحسّ بغربة شديدة • وأسرع يقول للفلاح :

– كدت أنسى أن أنقذك الخمسين كوبكاً !

لقد كان واضحاً أنه منذ الآن يخشى أن يتركهما •

قال له الفلاح :

– ستدفع فى العزبة • ادخل ، ارجوك •

فصعد ستيفان تروفيموفتش درجات الباب المرتجة • ودمدم يقول لنفسه متحيراً قلقاً : « كيف يمكن هذا ؟ » • ولكنه مع ذلك دخل • «هى التى أرادت ذلك » (بالفرنسية) • وطغنت هذه الفكرة قلبه • ولكنه سرعان ما نسى كل شيء ، نسى حتى كونه دخل العزبة •

تألف العزبة من غرفتين ، وهى منزل مضيء نظيف ، لم يكن فدفاءً ولكن معارف صاحبه قد ألفوا أن يتلبثوا عنده ، وأن يبيتوا فيه •

اتجه ستيفان تروفيموفتش الى الركن تحت الايقونات ، بدون تخرج أو خشية ، ناسياً أن يسلم ، فجلس هناك واسترسل فى أحلامه • وفى أثناء ذلك انتشر فى جسمه ، على حين فجأة ، احساسٌ لذيذ بالدفء أعقب برد الطريق ورطوبته ؛ فسرت فيه رعدة ، ولكن هذه الرعدة القصيرة التى يعرفها الأشخاص العصبيون حين تتابهم الحمى وينتقلون فجأة من البرد الى الدفء ، كانت لذيذةً له الى أقصى الحدود • وها هو ذا يرفع رأسه • ان الرائحة الشهية التى تفوح من فطائر كانت ربة البيت مشغولة باعدادها قد دغدغت أنفه •

فنهض نصف نهوض ، وتمتم يقول مبتسماً ابتسامة طفل :

– ما هذه ؟ فطائر ؟ «شيء عظيم» (بالفرنسية) •

فسألته ربة البيت بأدب :

– هل تريد أن تصيب شيئاً منها يا سيدى ؟

– نعم ، أريد ، هذا ما أريده • أريد فطائر ••• وأسألك شيئاً من
الشيء كذلك •

– السماور ؟ بسرور كبير •

وقدّمت اليه الفطائر في طبق كبير عليه رسوم أزهار ضخمة زرقاء،
وهي فطائر من قمح وثلث ، مصنوعة بالطريقة القروية ، رقيقة جداً ،
مرشوشة بالزبدة الطازجة المحمية • انها فطائر لذيدة ، ذاقها ستيفان
تروفيموفتش متمتعاً بمذاقها أكبر التمتع •

– ما أدسمها ! وما أطيها ! ليت المرء يستطيع أن يشرب معها
« اصعباً من خمرة » (بالفرنسية) •

– أليست الفودكا هي ما يرغب فيه سيدي ؟

– هي بعينها • قليلاً من الفودكا • قليلاً جداً •

– بخمسة كوبكات ؟

– نعم ، بخمسة ، بخمسة ••• قليلاً جداً •

كذلك كان يردد ستيفان تروفيموفتش وهو يتسهم ابتسامة سعيدة •
إذا سألت شخصاً من الشعب أن يفعل من أجلك شيئاً ، فانه يخدمك
بسرور وعناية اذا أراد واستطاع • ولكن اذا سألته أن يجيئك بفودكا ،
فان استعداد الهادى للخدمة ما يلبث أن يحل محله تعجل فرح ، واعتناء
يوشك أن يشتمل على عاطفة وحنان • ان الذى يجيئك بالفودكا يعرف
حق المعرفة أنك أنت الذى ستشربها لا هو ، ولكنه مع ذلك يشاطرك
اللذة التى تنتظرك نوعاً من المشاطرة •••

ما انقضت ثلاث أو أربع دقائق (وكان الكاباريه على مسافة خطوتين)

حتى وضعت أمام ستيفان تروفيموفتش زجاجة وقده كبيرة •

سأل مدهوشاً :

– أهذا كله لى أنا ؟ لطالما شربت فودكا فى البيت ، ولكننى لم أكن أعلم أنه يمكن الحصول على هذا المقدار كله بخمسة كوبكات •
وملاً القدح ونهض واتجه بشىء من الأبهة صوب رفيقة رحلته ،
القروية الشابة ذات الحاجين الأسودين التى شدت ما أرهقه فضولها ،
والتي كانت جالسة الآن فى الركن المقابل من الغرفة • رفضت القروية فى أول الأمر مضطربةً الهيئة كل الاضطراب ، لكنها لم تلبث أن سايرت المواضع الاجتماعية فنهضت وشربت الكأس ثلاث جرعات ، كما تفعل النساء عادة ، مصعرةً وجهها كأن الشراب قد حرق فيها ، ثم ردت الكأس الى ستيفان تروفيموفتش وهى تنحنى أمامه • فاتحنى ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً ، برصانة ووقار ، ثم رجع الى مكانه مرفوع الرأس •

لكأنه انقاد لالهام مفاجئ : هو نفسه كان لا يعرف قبل ثانية واحدة أنه سيقدم فودكا الى المرأة الشابة •

قال يحدث نفسه راضياً عن سلوكه أشد الرضى : « اننى أعرف معرفة كاملة ، نعم ، معرفةً كاملة ، كيف يجب أن يكون سلوك المرء مع الشعب • لطالما قلت لهم هذا » •

وسكب لنفسه باقى الفودكا ، ورغم أن هذا الباقي كان لا يملأ كأساً كاملة ، فقد بثت الخمرة دفقاً وحرارة فى جسمه ، حتى لقد أثرت فى رأسه •

قال يخاطب نفسه بالفرنسية : « أنا مريض تماماً • ولكن ليس شراً كبيراً أن يكون المرء مريضاً » •

وهنا سمع صوتاً عذبا ، هو صوت امرأة ، يسأله :

– ألا تريد أن تشتري كتابا ؟

فما كان أشد دهشته حين رفع عينيه فرأى سيدة – « سيدة حقا ، ان هيتها هيثة سيدة » – بسيطة المظهر في نحو الثلاثين من العمر • انها ترتدى ثيابا على زى سكان المدن : ثوبا أسود وشالاً أشهب كبيراً على الكتفين • وان في وجهها لشيئاً محبباً الى القلب سرعان ما أعجب به ستيفان تروفيموفتش • لقد عادت في هذه اللحظة الى العزبة التي تركت فيها أشياءها على دكة ، ومنها محفظة نقود كان ستيفان تروفيموفتش قد تأملها مستطلعا حين دخل ، ومنها كيس من قماش مشمّع •

استلت المرأة من الكيس كتابين صغيرين مجلدين تجليدا جميلاً ، وعلى غلاف كل منهما صليب ، ومدتهما الى ستيفان تروفيموفتش •

– « آآآ أظن أنه الانجيل ! » (بالفرنسية) ••• بسرور عظيم
••• آآآ فهمت الآن ••• أنت من تسمى بائعة متجولة • سمعت عن
هذا •• خمسون كوبكاً ؟

أجابت البائعة :

– خمسة وثلاثون كوبكاً •

– بكل سرور • « لا اعتراض لي على الانجيل » (بالفرنسية) •
و ••• اننى أريد منذ مدة طويلة أن أعيد قراءته •

وتذكر في تلك اللحظة أنه منذ ثلاثين عاما على الأقل لم يفتح هذا الكتاب ، وأنه قبل سبع سنين قد تذكر بضع عبارات بمناسبة كتاب رينان « حياة يسوع » • واذ لم يكن معه نقود صغيرة ، أخرج ورقاته الأربع ، ورقات العشرة روبلات التي كانت كل ثروته • فأقبلت ربة البيت تعرض عليه أن تبذل له احدى هذه الورقات بنقود صغيرة ، وعندئذ فقط انما لاحظ ستيفان تروفيموفتش أن العزبة كانت ملأى تقريبا بأناس يلاحظونه

بانتهاء ويبدو عليهم أنهم يتكلمون عنه • وكانوا يتكلمون كذلك عن حريق الضاحية • وكان صاحب البقرة الذي وصل من المدينة متدفقاً في الحديث تدفقاً خاصاً • وكان المتكلمون يتهمون عمال مصنع شيجولين •

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه : « أمر غريب • انه لم يفتحني أنا بكلمة واحدة عن الحريق ، وكان مع ذلك يتكلم طول الوقت ! » •

- ستيفان تروفيموفتش ، أنت من أرى يا سيدى ؟ حقا لم أكن أتوقع أن ألقاك هنا ! ... ألم تعرفنى ؟

هكذا هتف على حين فجأة رجل متقدم فى السن يرتدى دثاراً فضفاضاً له ياقة عريضة مقلوبة • انه بوجهه الحليق يبدو خادماً قديماً •

خاف ستيفان تروفيموفتش حين رأى أنه عُرف • وجمجم يقول :

- معذرة ... لا أتذكر ...

- لا تتذكرنى ؟ أنا أنيسيم ، أنيسيم ايفانوفتش • كنت فى خدمة المرحوم السيد جاجانوف • كم من مرة رأيتك مع فرفاراً بتروفنا عند المرحومة آفدوتيا سرجيفنا ! كنت أحمل اليك كتباً على الدوام ، بل لقد جئتك أيضاً مرتين بمربيات من بطرسبرج •

قال ستيفان تروفيموفتش مبتسماً :

- آ ... نعم ... الآن عرفتك ... أنيسيم ... أنت تسكن

هنا ؟

- قرب سباسوف ، فى دير « ف ... » ، عند مارفا سرجيفنا ، أخت آفدوتيا سرجيفنا • لعلك تذكر أن ساقها كانت قد كُسرت : وثبت من العربة حين كانت ذاهبةً الى حفلة رقص • انها تسكن الآن قرب الدير ، وأنا فى خدمتها • واليوم أذهب الى المدينة كما ترى لألقى أهلى •

اليها شيئاً بوثبة انسان لاح له خلاصه ، فغلب آيسيم على أمره ، وتراجع منسحباً .

كان حضور ستيفان تروفيموفتش قد أيقظ دهشة الفلاحين وقلقهم فعلاً . كانوا يتساءلون : « من هذا الرجل ؟ » . لقد وُجد ماشياً فى الطريق العام . وهو يقول انه معلم . وهو يرتدى ملابس رجل أجنبى . وعقله عقل طفل يخبط فى أجوبته خبط عشواء . لكأنه هارب . وهو عدا ذلك يملك مالا ! » . وخطر ببالهم أن يبلغوا السلطات . « لا سيما وأن المدينة يسودها الاضطراب » . ولكن آيسيم رتب الأمور بسرعة : خرج الى الدهليز وشرح للفلاحين أن ستيفان تروفيموفتش ليس معلماً وانما هو « عالم كبير يعنى بجميع أنواع العلوم . وأنه كان هو نفسه يملك فى البلد أرضاً ، ولكنه منذ اثنتين وعشرين عاما يسكن عند الجنرالة ستافروجين التى يحتل لديها المقام الأول . وان المدينة كلها تحترمه . وأنه كان يتفق له أن يخسر فى « نادى النبلاء » خمسة وعشرين روبلاً بل مائة روبل فى ليلة واحدة . أما رتبته فهى رتبة مستشار ، وهى تعادل لدى العسكريين رتبة ليوتنان كولونيل . وأما المال فلا غرابة فى أن يملك منه قدرأ كبيراً ، لأن الجنرالة تعطيه ما يشاء بغير حساب » ، الخ ، الخ .

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه وقد أسعده أن يتخلص من آيسيم وأخذ ينظر بدهشة ممتعة الى جارته البائعة المتجولة : « ألا انها لسيدة حقا ، سيدة كما يجب تماما . وكانت البائعة فى أثناء ذلك تشرب الشاي من صحن الفنجان عاضة على قطعة السكر بأسنانها . فتابع ستيفان تروفيموفتش حديثه مع نفسه معلقاً : « لا ضير ، لا ضير فى أن تعض على قطعة السكر . . . ما هذا بندى قيمة (بالفرنسية) . ان فيها شيئاً نبيلاً ، مستقلاً ، وادعأ فى الوقت نفسه . « سيدة كما يجب تماما » (بالفرنسية) ، ولكنها من نوع خاص . » .

ولم تلبث أن أعلمته أن اسمها صوفيا ماتفتننا أوليتينا ، وأنها تقيم عادةً في « ك . . . » ، عند اختها الأرملة . وقالت له انها هي أيضاً أرملة . فان زوجها الذي كان مساعداً ورُفَّع الى رتبة ملازم ثانٍ تكريماً لخدماته قد قتل في سباستوبول .

– ولكنك ما تزالين في ريعان الشباب ، « لم تبلغى الثلاثين من العمر »
(بالفرنسية) .

فقلت صوفيا وهي تبسم :

– بل عمري أربعة وثلاثون عاما .

– كيف ؟ أفهمين الفرنسية ؟

– قليلاً . لقد عشت أربع سنين في أسرة من أسر المالكين ، فتعلمت الفرنسية قليلاً بفضل الأولاد .

وقصت عليه أنها ترممت في الثامنة عشرة من عمرها ، فدخلت بعض الوقت في سلك « راهبات المحبة » بسباستبول ، ثم عملت عند أشخاص كثيرين ، وهي الآن تبيع أناجيل .

– « ولكن يا الهى ! » (بالفرنسية) ، ألسنت أنت التي وقعت لها تلك القصة العجيبة ، بل تلك القصة التي لا يكفي أن توصف بأنها عجيبة ؟

فاحمرت المرأة . نعم . انها هي التي وقعت لها تلك القصة .

قال ستيفان تروفيموفتش بصوت يختلج من شدة الاستياء والاستنكار :

– « هؤلاء الحقراء ، هؤلاء الأشقياء ! » (بالفرنسية) .

ولكن حين وافته هذه الذكرى انقبض قلبه ، وهوى غارقاً في أفكاره

وخواطره من جديد • حتى اذا تاب اليه وعيه ، فلاحظ أنها ليست معه ، قال لنفسه : « غريب ! لقد انصرفت ثانية ! انها تخرج باستمرار ، وان هناك ما يشغلها دائماً • حتى ليبدو أنها مهمومة ••• » آه لقد أصبحت أنانيا » (بالفرنسية) •

ورفع عينيه فأبصر آيسيم ، ولكنه أبصره هذه المرة في جو يندر بشر مستطير • كانت العزبة ملاءى بفلاحين أتى بهم آيسيم طبعاً • كان هناك صاحب العزبة ، والفلاح الذي اشترى البقرة من المدينة ، وفلاحان آخران (هما من سائقى العربات) ، ورجل قصير نصف سكران ، يرتدى ثياب الفلاحين لكنه حليق فلعله أحد سكان المدن ، وكان صوته يعلو في الكلام على صوت سائر المتكلمين • كان هذا الجمع كله يتناقش في أمر ستيفان تروفيموفتش • أما صاحب البقرة فكان يؤكد أن اتباع طريق شاطئ البحيرة بالعربة يرسم دورة لا تقل عن أربعين فرسخاً بل تزيد ، فيجب حتماً ركوب السفينة • وكان الرجل القصير الثمل وصاحب العزبة يحتجان على هذا احتجاجاً حاراً :

– اذا قطع سيادته البحيرة بالسفينة فلا شك أن هذا أسرع • ولكن من الممكن في هذا الطقس أن لا تستطيع السفينة الرسو على الشاطئ •

فيقول آيسيم راداً بحرارة شديدة :

– بل سترسو ، سترسو خلال أسبوع آخر •

– صحيح ، ولكنها لا تسير سيراً منتظماً مطرداً لأن الجو قد سبق أوانه • فقد يتفق لك أن تنتظر ثلاثة أيام في أوستيفو •

ويزار آيسيم قائلاً :

– ستكون السفينة هنا غدا ، في الساعة الثانية تماماً • وستصلون الى

سباسوف قبل الليل يا سيد • الأمر كما أقول لك •

تساءل ستيفان تروفيموفتش بينه وبين نفسه وهو يرتعش منتظراً أن يقرروا مصيره : « ولكن من هذا الرجل ؟ » (بالفرنسية) •

وتقدم السائقان هما أيضا يشاركان في الحديث ويعرضان خدماتهما •
انهما يطلبان ثلاثة روبلات للوصول الى أوستيفو • فصاح الآخرون قائلين
هذا أجر معتدل معقول ، هو الأجر نفسه الذي كان يُطلب طوال فصل
الصيد •

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول محاولاً الدفاع عن نفسه :

- ولكن حالتى هنا جيدة ••• ولا أريد أن •••

- حالتك هنا حسنة ••• هذا صحيح ••• ولكنها ستكون عندنا
فى سباسوف أحسن أيضاً ، وسيسعد فيدور ماتفتش برؤيتك أكبر
السعادة !

- يا أصدقائى ، كل هذا لم أكن أتوقعه •••

ودخلت صوفيا ماتفتشنا ثانية ، فجلست على الدكة حزينة منهارة ،
وقالت لربة البيت :

- لن أستطيع الذهاب سباسوف •

فصاح ستيفان تروفيموفتش يقول وكأن هذا النبأ قد رده الى الحياة
وأعشه :

- ماذا ؟ أنت أيضا ذاهبة الى سباسوف ؟

فذكرت له أن ناديجدا ايجورفنا سفتلتسينا ، وهى من مالكات
الأطيان فى هذه النواحي ، قد طلبت منها أمس أن تنتظرها فى خاتوفو
لتقلها الى سباسوف ، ثم لم تجيء هذه السيدة •

وكررت البائعة المتجولة تقول :

– فماذا أعمل الآن ، فماذا أعمل الآن ؟

– « ولكن يا صديقتي العزيزة والجديدة » (بالفرنسية) ، يمكنكى
أنا أيضا أن أُقَلِّك الى تلك القرية . . . ما اسمها ؟ لقد اكرتت عربية ،
وغداً . . . نعم غداً، سنكون فى سباسوف .

– أنت زاهب الى سباسوف أيضا ؟

– « وما العمل ، بل اننى سعيد جداً بهذا ! » (بالفرنسية) ، سأقُلِّك
الى هناك مسرورا كل السرور .
والتفت يسأل الساتقين :

– من منكما اتفقت معه على السفر الى سباسوف ؟

لقد أصبح ستيفان تروفيموفتش يتعجل السفر الى سباسوف نافد
الصبر فجأة .

وبعد ربع ساعة كانا قد استقرا بمساعدة آنيسيم فى عربية مغطاة .
أما ستيفان تروفيموفتش فكان مغتبطاً كل الاغتياب نشطاً كل النشاط ، وأما
المرأة فكانت وقد جلست الى جانبه مع كيسها المصنوع من قماشٍ مشمَّع ،
تطوف بشفتيها ابتسامةً تعبر عن الاعتراف بالجميل .

صاح آنيسيم يقول منهما حول العربية :

– سفرأ ميمونا . ما كان أسعدنا بلقائك !

– استودعك الله ، استودعك الله يا صديقتي ، استودعك الله !

– ستري فيدور ماتفنتش ياسيدى . . .

– نعم يا صديقتي ، نعم ، فيدور ماتفنتش . . . ولكن استودعك الله .

٢

ما ان سارت العربة حتى بدأ ستيفان تروفيموفتش الكلام فقال :

- اسمعى يا صديقتى ••• اسمحين لى بأن أعدك صديقة لى ؟ •••
 اذن اسمعى يا صديقتى ••• « أنا أحب الشعب • هذا ضرورى لا غنى عنه
 ولكن يبدو اننى لم أر الشعب يوماً عن كتب • لا شك فى أن ستازى من
 الشعب أيضاً ••• ولكن الشعب الحقيقى » (بالفرنسية) ، الشعب الحقيقى
 الذى نلقاه على الطريق العام ، ليس له من هم فيما يبدو لى الا أن يعرف
 الى أين أنا ذاهب ••• ولكن فلنسامحه ••• أظن أنتى أهرف هرفاً •••
 ولكن ذلك يرجع الى اننى متعجل •

قالت صوفيا ماتفئنا وهى تنظر اليه بانتباه ولكن باحترام :

- أنت مريض فيما أرى •

- لا ، لا ؟ يكفى أن أعطى جسمى جيداً • الهواء بارد مع ذلك ،
 بل هو بارد جداً • ولكن فلندع هذا الآن • أريد أن أتكلم فى أمر
 آخر • « أيتها الصديقة العزيزة التى ليس لها نظير » (بالفرنسية) ،
 يخيل لى أننى سعيد تقريبا • وهذا بفضلك أنت • والسعادة تضرنى ،
 لأننى سرعان ما أغفر لجميع أعدائى •

- ولكن هذا حسن جداً •

- ليس دائماً ، « أيتها العزيزة البريئة » • اسمعى ••• « من الآن
 سندعو الى الانجيل ونبشر به معاً » (بالفرنسية) ، وسيسرنى أن أبيع
 كتبك الصغيرة الجميلة هذه • نعم « يخيل لى أن هذه فكرة ربما كانت
 رائعة » ، شىء جديد جداً فى بابى » (بالفرنسية) • ان الشعب متدين ،
 « هذا أمر مسلّم به » ، ولكنه لا يعرف الانجيل بعد • فسوف أشرحه

له • وحين يشرح المرء هذا الكتاب الممتاز ، حين يشرحه بصوت عال ، فانه يستطيع أن يصحح أخطاءه • اننى مستعد لأن أولى هذا الكتاب أعظم الاحترام • هكذا أستطيع أن أكون نافعا حتى فى الطريق العام • لقد كنت نافعا فى جميع الأحيان ، قلت لهم ذلك ، « وقلته لتلك العقوق العزيزة » (بالفرنسية) • آه ••• فلنغفر ، فلنغفر قبل كل شيء ، فلنغفر للجميع ، ولنغفر دائما ! ••• ولنأمل أن يغفر لنا الآخرون أيضا • نعم ، لأن كل واحد منا مذنب فى حق الآخرين • الجميع مذنبون •

– لقد أحسنت القول فيما يبدو لى •

– نعم ، نعم ، أحس أننى أحسن القول ، وأجيد الكلام • سأحسن مخاطبتهم ، ولكن ••• ماذا كنت أريد أن أقول ؟ ماذا كانت فكرتى الرئيسية ؟ اننى أرتبك دائما ، لم أعد أتذكر ••• هل تسمحين لى بأن لا أتركك الآن أبدا ؟ اننى أحس أن نظرتك ••• بل اننى مدهوش من آدابك فى السلوك • انك بسيطة ، وانك تستعملين تعابير شعبية ، وتشربين من صحن الفنجان ، عاضةً على تلك القطعة اللينة من السكر ، ومع ذلك فيك شيء ساخر ؛ وانى لأرى فى قسمات وجهك ••• أوه ! لا تحمرى ولا تخافى منى خوفك من رجل • « أيتها العزيزة التى لا تضاهى ، المرأة عندى هى كل شيء » (بالفرنسية) • لا أستطيع أن أعيش الا الى جانب امرأة ، ولكن الى جانبها فقط ••• أواه ! اننى أرتبك ارتباكا رهيبا ••• لا أفصح فى تذكر ما كنت أريد أن أقوله • سعيدٌ ذاك الذى تبعث اليه السماء بامرأة دائما ••• و ••• وأعتقد اننى متحمس كثيرا • فى الطريق العام أيضا يمكن أن تتحقق فكرة عظيمة • نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله بصدد الفكرة ، تذكرت الآن • منذ قليل عجزت عن وضع يدي على ما كنت أريد أن أقوله • أوه ! كنا هناك فى خير حال ، بينما « البرد يشتد هنا اشتدادا فظيحا » (بالفرنسية) • بالمناسبة : ان مجموع ما معنى

هو أربعون روبلاً ، فإليك المال ، خذيه ، خذيه ، اننى لا أحسن تدبير
أمرى ؛ قد أضيّعه ؛ قد يُسرق منى ، و . . . يخيل الىّ أننى أريد أن
أنام . رأسى يدور ، يدور ، يدور . أوه ! ما أطيب قلبك ، ما أكرم
نفسك ! بماذا تغطيننى ؟

_ لا شك أنك تعاني حمى ، وقد أعطيتك غطائى . أما عن المال ،
فاننى أفضل أن . . .

_ ناشدتك الله ! « لا تتكلمن° عن هذا بعد الآن . لأنه يؤلمنى »
(بالفرنسية) . ما أنبل نفسك !

وكفّ عن الكلام فجأة ، ولم يلبث أن نام نومَ المحموم . كانت
رعدات تهزه من حين الى حين .

ان الطريق الموارب المختصر الذى سلكاه لقطع سبعة عشر فرسخاً
لم يكن بالطريق الجيد . وقد ارتجت العربة ارتجاجاً شديداً . فكان
ستيفان تروفيموفتش يستيقظ من حين الى حين ، فيرفع رأسه عن الوسادة ،
الصغيرة التى دستها صوفيا ماتفتفنا تحت عنقه ، ويمسك يد المرأة الشابة ،
ويسأل : « أنت هنا ؟ » كأنما هو يخشى أن تتركه . وكان يقول لها
أيضا انه يرى فى المنام فكاً عريضاً مكشراً عن أسنان ، وان هذا يثير
اشمئزازه . فكانت صوفيا ماتفتفنا تقلق قلقاً شديداً .

وتوقفت العربة أخيراً أمام عزبة كبيرة لها أربع نوافذ ، ولها ملحقات
كثيرة فى الفناء . وها هو ذا ستيفان تروفيموفتش ، المتعجل كثيراً ، يدخل
الغرفة الثانية رأساً ، وهى أجمل الغرف وأوسعها . وسرعان ما اكتسى
وجهه الوسنان تعبيراً عن الهم على حين فجأة . أعلن لربة الدار فوراً ،
وهى امرأة بدينة طويلة فى نحو الأربعين من عمرها ، سوداء الشعر ،

حتى ان شفتها العليا يظللها شارب صغير ، أعلن لها أنه يريد. أن تُحجز
الغرفة كلها له وحده ، وأن يُخلق الباب ، وأن لا يدخل أحد «لأن هناك
كلاما كثيرا يجب أن يتبادلاه . نعم ، هناك أمور كثيرة يجب أن أقولها لك
يا عزيزتى » (بالفرنسية) . وعاد يقول لربة البيت وهو يحرك يده
باشارات عريضة « سأدفع لك ، سأدفع لك » .

كان يتكلم فى تعجل . ومع ذلك كان لسانه لا يطاوعه . وأصفت
اليه ربة المنزل بغير بشاشه ولكنها لزمّت الصمت علامة الموافقة ، وهي
موافقة زاخرة بمعانى التهديد على كل حال . لم يلاحظ هو هذا ، بل
أسرع يأمرها بأن تخرج وأن تجيئها بالعشاء من غير أى ابطاء (كان يبدو
متعجلاً أكبر التعجل) .

فما كان من ذات الشارب الا أن قالت له وقد نفذ صبرها وفقدت
سيطرتها على نفسها :

– ليس هذا نُزُلًا يا سيدى . اتنا لا نقدم للمسافرين هنا غداء .
كل ما أستطيع أن أفعله لك هو أن أسلق لك بعض السلطمان وأن أحضّر
السماور . ولن يكون عندنا سمك طازج الا فى الغد .

حرّك ستيفان تروفيموفتش ذراعيه نافد الصبر وهو يكرر بلهجة
غاضبة حانقة : « سأدفع ، سأدفع ، ولكن أسرعى ! » . وتم الاتفاق على
اعداد حساء بالسمك ودجاجة مقلية . وقد أعلنت صاحبة البيت فى أول
الأمر أن القرية كلها ليس فيها دجاجة واحدة ، ولكنها قبلت مع ذلك أن
تحاول العثور على دجاجة ، متظاهرة فى الوقت نفسه بانها تخدم الرجل
خدمة كبيرة .

وما ان خرجت حتى جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان ،

وأجلس صوفيا ماتفتننا الى جانبه • ان الديوان والمقاعد التي تؤثت الغرفة كانت في حالة يرثى لها • وفي وسعنا أن نقول عن هذه الغرفة الواسعة بعض السعة انها كانت بسربرها المخبأ وراء حاجز في داخل فجوة ، وبورق جدرانها الأصفر الممزق المهترىء ، وبصورها اللتيوغرافية الأسطورية الفظيعة ، وبأيقوناتها المصطفة صفاً طويلاً ، وبأثاثها غير المتجانس ، كانت مزيجاً كريها من أذواق القرية والمدينة • غير أن ستيفان تروفيموفتش لم يلق نظرة واحدة على ذلك كله ، بل انه لم يلق حتى نظرة من النافذة على البحيرة الواسعة التي تمتد على بعد ثلاثين خطوة من العزبة •

– ها نحن أصبحنا وحيدين ! لن يؤذن لأحد بالدخول • أريد أن أحكى لك كل شيء ، كل شيء ، من البداية •

ارتسم على وجه صوفيا ماتفتننا قلق شديد ، وقاطعته تقول :

– هل تعلم با ستيفان تروفيموفتش •••

فسألها وهو يتسم ابتسامة افتتان :

– « كيف ؟ أتعرفين اسمى منذ الآن » ؟ (بالفرنسية) •

– عرفته منذ قليل ، حين كنت تتكلم مع آنيسيم • ولكن اليك ما أريد

أن أقوله لك اذا أذنت •••

ومالت عليه وألقت نحو الباب نظرات قلقة خشية أن تُسمع، وأخذت تهمس قائلةً له ان هذه القرية خطيرة على المرء أشد الخطر : فالفلاحون هنا صيادون ، ولكنهم يعيشون خاصةً من استغلال المسافرين اذ يجبرونهم على أن يدفعوا لهم في الصيف ما يشاءون • والناس لا يجيئون الى هذه القرية التي لا تقع في طريقهم الا لأن السفينة تتلبث فيها • فاذا تأخرت السفينة – لأنها حين يسوء الجو لا تستطيع الرسو على الشاطئء – كثر

الناس كثرة كبيرة فاذا جميع الدور مشغولة • والفلاحون لا ينتظرون الا هذا : اذ يحملون المسافرين على أن يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يجب دفعه في أيسر أمر من الأمور • وصاحب هذا المحل أكثر أهل القرية كبرياء وغروراً ، لأنه أغناهم • انه سملك شبكة لا يقل ثمنها عن ألف روبل •

كان ستيفان تروفيموفتش ينظر الى وجه صوفيا المتوقد ، بما يشبه أن يكون عتياً • حتى لقد حاول عدة مرات أن يوقفها عن الكلام بحركة من يده • ولكنها كانت حريصة على فكرتها وأنهت ايضاحاتها : لقد سبق لها أن جاءت الى هذه القرية في الصيف الماضي مع « سيدة من أسرة ممتازة » ، فأمضتا معا فيها يومين بانتظار السفينة • الا ان الأفضل أن لا تتكلم عما قاستاه : لقد كان ما قاستاه رهيباً فظيماً • « انك قد حجزت الغرفة لك وحدك يا ستيفان تروفيموفتش ••• وما أقوله الآن انما أريد به تنيهك ••• ان الغرفة المجاورة فيها منذ الآن مسافرون : رجل مسن ، وشاب ، وسيدة مع طفلين • ولكن العزبة ستكون في الغد غاصةً بالناس ، لأن السفينة لم تصل ، فلا بد اذن أن ترسو في الغد حتماً • ان أصحاب الدار سيطلبون منك مبلغاً باهظاً لو طُلب حتى في بطرسبرج لكان فضيحة • غرفة مستقلة ، وغداء كالذي أمرت به ، وازعاج تسببه لسائر المسافرين ، ذلك كله سيكلفك كثيراً ••• » •

كان ستيفان تروفيموفتش يتألم • كان يتألم فعلاً •

— أرجوك يا بنتى ! « كفى ، كفى ! ان معنا مالاً » وبعد ذلك يفعاء الله ما يشاء » (بالفرنسية) • بل انى ليدهننى أن أراك أنت صاحبة الأفكار العالية الرفيعة تقولين هذا الكلام ••• « كفى ، كفى ! انك تعذبيننى » ! (بالفرنسية) •

كذلك صاح يقول نائر الأعصاب • وأردف :

– ان أماننا المستقبل كله ، وأنت ... أنت تحاولين أن تخيفيني من المستقبل ...

وسرعان ما شرع يحكى لها قصته كلها ، ولكنه بلغ فى كلامه من فرط التعجل أنه كان يصعب حتى فهمه فى البداية • ودامت قصته مدة طويلة • لقد جىء بحساء السمك ، ثم جىء بالدجاجة المقلية ، وجىء أخيراً بالسماور ، والرجل ما يزال يتكلم ... كان يعبّر بطريقة غريبة ، بطريقة مرضية • ولكنه كان مريضاً بالفعل • ان توترأ مفاجئاً فى جميع قواه العقلية كان لا بد أن يؤدى – كما تنبأت بذلك صوفيا ماتفننا قلقة – الى وهن شديد فى جسمه المصاب اصابة بالغة • بدأ بالكلام عن طفولته حين « كان يجرى فى الحقول عارى الصدر » • وبعد ساعة كاملة من الكلام وصل الى الحديث عن زواجه ببرلين • لا أريد أن أسخر منه ، وهيات أن يخطر ببالي الضحك عليه • ولكننى أذكر أنه تحدث عن زواجه حديثه عن شيء عظيم حقاً ؛ لقد كان فى نظر نفسه يناضل من أجل الوجود ، على حد التعبير الحديث • انه يرى أمامه المرأة التى اصطفاها لتكون رفيقة طريقه ، فما هو ذا يعلمها ان صح التعبير • ماينبغى أن تكون عبقرية ستيفان تروفيموفتش سراً مكتوما عنها • لعله كان يعتقد على صوفيا ماتفننا آمالاً فيها كثير من المبالغة الشديدة ، ولكنه كان قد اختارها • انه لا يستطيع أن يستغنى عن امرأة • هو نفسه ، على كل حال ، كان يحزر من تعبير وجهها أنها لا تكاد تفهم عنه ، أن أهم ما فى كلامه لا تفهمه • فكان يقول لنفسه : « لا ضير ، ليس لهذا قيمة ، سوف تنتظر • سوف تفهمنى الآن بقلبها ... » •

وصاح يقول قاطعاً حديثه عن قصة حياته :

– صديقتى ! ما أنا فى حاجة الا الى قلبك ، والى هذه النظرة الساحرة التى تلقينها علىّ ... لا تحمرّى ! سبق أن قلت لك ...

وغمضت الأمور في عقل صوفيا المسكينة خاصة حين أخذ يشرح لها بإفاضة واسهاب أن أحداً لم يفهمه حتى الآن ، وأن « الموهبة عندنا في روسيا مآلها الى الذبول والضياع لا محالة » . لقد اعترفت صوفيا فيما بعد قائلة : « كان كلامه أذكى من أن أستطيع فهمه » . وكانت تصغى باجتهاد شاق محملة العينين . فلما اندفع ستيفان تروفيموفتش في « التنكيت » ، فأخذ يتهمك على « العقول التقدمية التي تقودنا » حاولت أن تستبدل بالحزن مرحاً وأن ترد على ضحكه بابتسامة ، ولكن محاولتها بلغت من الاخفاق أن ستيفان تروفيموفتش شعر هو نفسه بشيء من الاضطراب ، فأخذ عندئذ يتهجم بعنف وقسوة على « العدميين » ، و « الناس الجدد » ، فارتاعت المسكينة ارتياحاً شديداً . ثم لم يهدأ بالها قليلاً - وكان هدوءاً خداعاً على كل حال - الا حين وصل ستيفان تروفيموفتش من حديثه الى تليفق رواية حب ، بالمعنى الأصلي لكلمة الرواية . ان المرأة امرأة ولو كانت راهبة . فها هي ذى الآن تبسم ، وتهز رأسها ، ثم تحمر وتخفض عينيها ، فيزداد ستيفان تروفيموفتش افتتانا ، ويزداد الهامه اتقادا ، فتتكاثر أكاذيبه في الرواية مزيدا من التكاثر . فاذا بفرفارا بتروفنا تستحيل الى سمراء فاتنة (« سبت الأفتدة في بطرسبرج وعواصم أوروبا ») ، وكان زوجها قد « قتل برصاصة في سيباستوبول » ، لأنه كان يحس بأنه غير جدير بحب زوجته ، وبأن عليه أن يدع الميدان خالياً لناقسه ، أى لستيفان تروفيموفتش . « لا تضطربى يا عزيزتى الرقيقة العذبة ، لا تضطربى يا عزيزتى المسيحية الفاتنة ! لقد كان حبنا يبلغ من الروعة ومن اللطافة أننا لم نتصارح عن عواطفنا في يوم من الأيام » . كذلك صاح يقول وقد صدق أكاذيبه هو نفسه . وتابع يقول ان سبب ذلك الموقف انما هو فتاة شقراء (ان لم تكن داريا بافلوفنا ، فمن عسى تكون ؟ حقاً لا أدري !) . فلقد كانت تلك الفتاة الشقراء تدين للسيدة السمراء

بكل شيء ، فالسيدة السمراء هي التي عُنيت بتربيتها وتعليمها من حيث انها تمت اليها بقرابة بعيدة ؛ فلما حزرت السيدة السمراء ما تحمله الفتاة الشقراء له من حب انطوت على نفسها . ولما أدركت الفتاة الشقراء من جهتها ما تحمله السيدة السمراء لستيفان تروفيموفتش من حب انطوت على نفسها هي أيضا . وهكذا انطوى الثلاثة على أنفسهم وظلوا يتألمون صامتين طوال عشرين عاما يعذبهم نبل نفوسهم ويرهقهم من أمرهم عسراً . « آه . . . يا له من هوى ! يا له من هوى ! » . كذلك صاح يقول وهو يكاد يبكي في سورة من حماسة صادقة . « كنت أراها (السيدة السمراء) في كمال تفتح جمالها ، أراها جريح القلب ، تخطر أمامي خجلة من جمالها (ومرة قال : «خجلة من بدانتها») . وهرب في النهاية ، مودعاً الى الأبد ذلك الحلم الحار الذي دام عشرين عاما . « عشرون عاما ! والآن ، في الطريق العام . . . » . بذلك ختم روايته . ثم ازدادت حمى رأسه فأخذ يشرح لـصوفيا ماتفتننا ما دلالة « لقائهما العارض الحاسم الى آخر عصور الدهر أبد الأبدين ! » . فاضطربت صوفيا ماتفتننا أشد الاضطراب ، ونهضت أخيراً عن الديوان . وهمّ عندئذ أن يرتعى جائياً على ركبتيه ، فبلغت المرأة المسكينة من الارتياح أن الدموع سالت من عينيها . وكان الليل يهبط ، وهما مختليان في هذه الغرفة المغلقة منذ عدة ساعات .

دمدمت تقول :

— لا . الأفضل أن تدعني أذهب الى الغرفة المجاورة . ما عسى يقول هؤلاء الناس جميعاً؟! . . .

وأفلتت أخيراً . وتركها تمضي واعداً اياها أنه سينام فوراً . وكان يشكو من صداع شديد على كل حال . ان صوفيا ماتفتننا ، حين دخلت

الغرفة منذ قليل ، قد تركت كيسها وأمتعتها فى الغرفة المجاورة ، عاقدةً عزمها على أن تبيت ليلتها مع ربة الدار • ولكنها لم تستطع أن ترتاح •

فى أثناء الليل أصيب ستيفان تروفيموفتش بنسوبة من نوبات الكوليرين التى يعرفها فيه أصدقاؤه التى كانت تعقب عنده كل توتر عصبى قوى وكل هزة انفعالية • فكذلك قضت صوفيا ماتفتنا ليلتها كلها بغير نوم • واضطرت كأنما لتعتنى بالمريض أن تذهب وتجيء مرةً بالغرفة التى كان ينام فيها رب الدار وزوجته وسائر المسافرين ، فأخذ هؤلاء أخيراً يدمدمون متذمرين ، حتى لقد جعلوا فى النهاية يشتمونها حين أرادت فى الفجر أن تحضّر السماور • وكان ستيفان تروفيموفتش فى شبه غيبوبة ، يحس فى بعض الأحيان أنه جىء بالسماور ، وأنه يُجرّع شيئاً ما (هو شراب التوت ساخناً) ، وأن كمادات ساخنة توضع على بطنه وصدره • وكان يحس طوال الوقت «أنها» قريبة منه ، وأنها «هى» التى تذهب وتجيء ، وتنهضه ثم ترقدده ؛ وفى نحو الساعة الثالثة من الصباح شعر بتحسّن • فجلس على سريره ، ثم وضع قدميه على الأرض ؛ وفجأةً ، دون أن يحس بما يفعل ، سجد أمام صوفيا ماتفتنا : ولم يكن سجوده اليوم كركوعه بالأمس ، فهو الآن يهوى على قدميها ويقبل حافة ثوبها • فقدمت المسكينة تقول وهى تحاول أن تنهض وأن تعيده الى سريره :

— ماذا تفعل ؟ اننى لا أستحق •

فقال وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى بحركة عبادة :

— انت مخلّصى • « انك نبيلة كمر كيزة ! » (بالفرنسية) وأنا •••
أنا رجل شقى ، انسان بائس ! آه ••• اننى لم أكن طوال حياتى الا رجلاً
غير شريف •••

فقلت صوفيا ماتفتننا ضارعةً اليه :

- هدىء نفسك !

- لقد كذبتُ منذ قليل ، كذبتُ غرورا وتبجحا ، كذبتُ كسلاً
وبطالةً • كل ما قلته لم يكن الا كذباً ، كل ما قلته ، الى آخر كلمة !
آه ما أشقاني !

هكذا أعقت نوبةً الكوليرين نوبةً مذلة • لقد سبق أن أتيج لي أن
تكلمت عن تلك النوبات بصدد الرسائل التي كان يكتبها الى فرفاراً
بتروفا • وفجأةً تذكر ليز ، ولقاءهما بالأمس فهتف يقول : « فطبع !
لا بد أن شقاءً قد حلَّ ، ولم أسألها عما وراءها ! لم أفكر الا في نفسي !
ماذا حلَّ بها ؟ ألا تعرفين ماذا أصابها ؟ » •

ثم أخذ يحلف أنه « لن يخون أبداً » وأنه « سيعود اليها » (يقصد
فرفاراً بتروفا) • قال : « سنمر كلَّ يوم أمام بابها (يقصد هو وصوفيا
ماتفتننا) ، ساعة تركب عربتها لتقوم بنزهتها الصباحية ، وستأماها بصمت
••• آه ••• أريد أن تضربني على خدي ! ما ألدَّ أن تضربني على
خدي ! وسأمد لها خدي الأيسر ، « كما يقول كتابك ! » (بالفرنسية) •
الآن فقط فهمت ما معنى مدَّ الخد الأيسر ••• ولم أكن قد فهمته قبل
الآن في يوم من الأيام ••• » •

قضت صوفيا ماتفتننا يومين رهيبين • انها ما تزال حتى هذا اليوم
لا تتذكرهما الا وترتعد • لقد بلغ ستيفان تروفيموفتش من شدة المرض
أنه كان عاجزاً عن ركوب السفينة حين وصلت السفينة في الساعة الثانية
تماماً من بعد الظهر ، في هذه المرة • ولم تستطع صوفيا ماتفتننا أن تقرر
أن تذهب وتتركه وحده ، وعدلت عن السفر الى سباسوف • وقد روت

فيما بعد أن المريض كان سعيدا جدا حين علم أن السفينة سافرت • لقد
دمدم يقول وهو راقد على سريره :

- رائع ! حالتى هنا حسنة ، أحسن منها فى أى مكان آخر • لن
تركينى ، أليس كذلك ؟ آه ••• لا ••• لم تتركينى !

ولكن الواقع أن حالته لم تكن حسنة « هنا » • لقد كان رأسه مليئاً
بالأحلام ، فكان لا يريد أن يعرف شيئاً عن المصاعب التى تجتازها صوفيا
مانقثفنا • كان يعدُّ مرضه وعكةً عارضةً • حتى ان فكره كان لا يتلبث
عليه ، لانشغاله بشيء آخر : كيف سيسافران معا من مدينة الى مدينة
« يبعان هذه الكتب الصغيرة » • وطلب منها أن تقرأ له الانجيل •

- منذ مدة طويلة لم أقرأه ••• فى النص الأصلي • فاذا سألتنى
أحد كان يمكن أن أخطيء • فالأفضل أن يكون المرء مستعداً •

جلست صوفيا الى جانبه وفتحت الكتاب • وأخذت تقرأ ، فاذا هو
يقاطعها منذ أول آية قائلاً لها :

- انك تجيدين القراءة اجادة عظيمة • لقد أخطأ ظنى •••

قال هذه الجملة الغامضة بحماسة • ولقد كان شديد الحماسة دائما
على كل حال •

قرأت له خطبة الجبل •

قال لها :

- « كفى كفى يا بنيتى ! » (بالفرنسية) • أتحسبن أن هذا غير
كاف ؟

وأغمض عينيه منهوكا • لقد كان خائر القوى جدا • لكنه لم يفقد

شعوره بعد • نهضت صوفيا ماتفتننا ، مفترضة أنه يريد أن ينام • لكنه استوقفها بحركة من يده :

– صديقتي • لقد ظلت أكذب طوال حياتي ، حتى حين كنت أقول الحقيقة • لم أتكلم يوما في سبيل الحقيقة ، بل في سبيل نفسي • اننى أعلم هذا من قبل ، ولكننى لم أر الا الآن أن ••• آه ••• أين هم أصدقائى الذين طالما آذنتهم صداقتى ؟ لقد آذنتهم جميعا ، جميعا ! « هل تعلمين ؟ » (بالفرنسية) أننى ربما كنت أكذب حتى فى هذه اللحظة ؟ نعم ، اننى أكذب ، هذا أكيد • المهم اننى أصدق ما أقوله حين أكذب • وأعسر الأمور أن يحيا المرء بدون أن يكذب • نعم ، نعم ، ذلك هو أعسر الأمور قاطبة !

قال هذه الجملة الأخيرة بحماسة شديدة •

قالت صوفيا ماتفتننا تقترح فى وجل وخشية :

– ستيفان تروفيموفتش ، ألا يحسن أن نستدعى طبيبا من المدينة ؟ فأدهشه هذا الاقتراح الى أقصى حدود الادهاش • وقال لها :

– لماذا ؟ « أنا مريض الى هذا الحد ؟ لا ، ليس هذا بمرض ذى بال ! » (بالفرنسية) • ما حاجتنا الى غرباء ؟ والا علم أننى هنا ، وعندئذ ••• لا ، لا ، لا حاجة الى غرباء ، بلبقى وحدنا • وحدنا • وحدنا •••

وقال بعد لحظة صمت :

– اسمعى • اقرئى لى شيئا آخر فى كتابك ، دون اختيار ، على المصادفة ، ما يقع تحت بصرك •••

فتحت صوفيا ماتفتننا الكتاب وأخذت تقرأ • فكان ستيفان تروفيموفتش يردد :

– على المصادفة ، دون اختيار ، أى شيء

« واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكين . »

– ما هذا ؟ من أين هذا ؟

– من رؤيا يوحنا .

– « آ . . . نعم . . . تذكرت . . . رؤيا يوحنا . . . اقرئني . . . اقرئني »

(بالفرنسية) . قلت لنفسي انا اذا فتحنا الكتاب على المصادفة سنكتشف

مستقبلا . أريد أن أعرف ما الذى وقعت عليه من الرؤيا . اقرئني بعد

كلمة « الملاك » ، « الملاك »

« واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكين : هذا يقوله الأمين الصادق ،

الأمين الشاهد ببدء خليقة الله . أنا عارف أعمالك . لست بارداً ولا

حاراً . إيتك كنت بارداً أو حاراً . فلأنك فاتر ، ولست بارداً ولا حاراً ،

أنا مزعم أن أتقيأك من فمي . أنت تقول انى أنا غنى وقد استغنيت ولا

حاجة بى الى نىء . ولا تعلم أنك شقى وبائس وفقير وأعمى وعريان !» .

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أنهض رأسه متقد العينين :

– هذا . . . وهذا فى كتابك . لم أعرف فى حياتى هذه الصفحة

الرائعة . أسمعين : لأن تكون باردا ، باردا ، خير من أن تكون فاترا ،

من أن تكون فاترا « فحسب » . آه . . . لسوف أبرهن . . . ولكن

لا تتركينى ، لا تهجرينى ! لسوف نبرهن لهم ، لسوف نبرهن لهم !

قالت وهى تمسك يديه وتشدهما وتحملهما الى قلبها :

– لا يخطر ببالي أن أتركك يا ستيفان تروفيموفتش . لن أتركك

أبدأ .

وكانت تنظر اليه بعينين مديتين بالدموع . « كنت أشعر نحوه باشفاق

شديد فى تلك اللحظة » . كذلك روت تقول فيما بعد .

• وأخذت شفتا ستيفان تروفيموفتشس تختلجان •

– ولكن ما العمل الآن يا ستيفان تروفيموفتشس ؟ يجب أن نبليخ
أصدقاءك أو أقربائك •••

ولكنه بلغ من شدة الذعر حين سمع هذه الكلمات أنه ندم على اثاره
هذه المسألة من جديد • فتوسل اليها أن لا تستدعي أحدا ، وأن لا تشرع
في القيام بأى شيء ، توسل اليها وهو يرتعش ارتعاشا شديدا • وكان يلح
الحاحاً قوياً ويصر على أن تعاهده بأن « لا تبليخ أحداً ، أن لا تبليخ أحدا
البتة ، فنبقى وحدنا » و « نساقر معا » (بالفرنسية) •

وأسوأ من ذلك أن صاحب الدار وامرأته أخذتا يقلقان ، وأخذتا
يتذمران ، وأخذتا يعدّبان صوفيا ماتفئفئا • فدفعت لهما وأرتهما أنها
ما تزال تملك مالا • فهدهما ذلك بعض الوقت ، ولكن الرجل طلب
جواز سفر ستيفان تروفيموفتشس • فأشار المريض بيده الى حقيبته الصغيرة
وهو يتسّم ابتسامة تعالٍ واحتقار ، فوجدت صوفيا فى الحقيبة قرار احالته
على التقاعد أو ورقة أخرى من هذا النوع ، وهى الورقة التى أقام بها فى
المدينة حتى ذلك الحين • ومع ذلك ظل صاحب البيت يلح على ضرورة
نقله الى مكان آخر « لأن بيتنا ليس مستشفى ، ولأننا سوف نلقى ازعاجات
كثيرة اذا مات ، • فاستشارته صوفيا ماتفئفئا فى أمر طبيب تستدعيه ، فقال
ان استدعاء الطبيب من المدينة يكلف نفقات باهظة لا قبل لها بها ، فعدلت
عن فكرتها • وعادت الى قرب المريض الذى انهارت قواه انهيارا شديدا •
لقد كان ستيفان تروفيموفتشس يضعف مزيدا من الضعف ساعة بعد
ساعة •

قال لها المريض :

– والآن اقترئى لى تلك الصفحة ••• عن الخنازير •

فقال له مرتاعة :

- كيف ؟

- عن الخنازير ... « أولئك الخنازير » ... أذكر أن الشياطين دخلت في خنازير هلكت جميعا . أقرئ لي تلك الصفحة حتما . سأقول لك السبب فيما بعد . أريد أن أتذكر تلك الصفحة كلمة كلمة . يجب أن أتذكرها .

وكانت صوفيا ماتثفنا تعرف الانجيل جيدا ، فسرعان ما وجدت تلك الصفحة من انجيل لوقا ، التي صدّرت بها فصتي هذه . وهأنذا أكررها هنا :

« وكان هناك قطع كبير من الخنازير يرعى في الجبل ، فتضرعت الشياطين الى يسوع أن تدخل في الخنازير . فأذن لها . فخرجت من ذلك الانسان ودخلت في الخنازير . فاندفع القطيع من أعلى الجرف الى البحيرة ، وغرق فيها . فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبا في المدينة وفي القرى . فخرج الناس ليروا ما جرى ، فلما وصلوا الى قرب يسوع وجدوا الانسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه ، وجدوه لابساً ثيابه ، مالكا عقله ، جالسا عند قدمي يسوع . وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون . » .

قال ستيفان تروفيموفتش متأثراً متأثراً قوياً :

- اسمعي يا صديقتي ... ان هذه الصفحة الرائعة ... الخارقة ... كانت لي دائما حجر عثرة ... « في هذا الكتاب » (بالفرنسية) ... لذلك احتفظت بها في ذاكرتي منذ طفولتي . غير أن فكرة وافتنى الآن ، فكرة هي تشبيهه أو « مقارنة » . ان أفكاراً كثيرة توافيني الآن . اسمعي : هذه هي روسيا تماما . ان هؤلاء الشياطين الذين يخرجون من المريض

ليدخلوا في الخنازير هم جميع الجراح والعفونات والقذارات والشياطين الصغيرة والكبيرة التي تراكمت خلال القرون في مريضنا الغالي العظيم ، في روسيا ! « نعم ، في روسيا هذه التي أحبتها دائماً » (بالفرنسية) . غير أن فكرة رائعة ، واردة جبارة ستهبطان عليها من السماء ، كما هبطنا على ذلك المجنون . وستخلص من جميع الوساخات والتانات التي ستطلب هي نفسها أن تدخل في الخنازير . بل لعلها قد دخلت منذ الآن انها نحن ، نحن وأولئك ، بتروشا . . . « والآخرون معه » (بالفرنسية) ، وربما أنا أيضاً في طبيعتهم . سوف نهوى من أعلى الجرف الى البحر كمجانين مسعورين ، وسوف نهلك جميعا . وهذا خير . انا لا نصلح لغير ذلك . ولكن المريض سوف يشفى ، وسيجلس عند « قدمي يسوع » ، وسيُنظر الجميع اليه مدهوشين عزيزتى . . . « سوف تفهمين فيما بعد . . . سوف نفهم معا » (بالفرنسية) .

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك وأخذ يهدى ، وأُغمى عليه أخيراً . فأخذت صوفيا ماتقئفنا تبكى جالسةً بقربه . انها لم يغمض لها جفن منذ ثلاث ليال ، وهي تتحاشى صاحب البيت وامراته اللذين كان يهينان شيئاً كما تحس بذلك صوفيا . ولم يأت الخلاص الا في اليوم الثالث . ففي الصباح عاد الى ستيفان تروفيموفتش شعوره ، وتعرفت المرأة ومدت اليها يده . فرسمت اشارة الصليب ، واستردت أملها . وأراد أن ينظر من النافذة ، فقال : « هه ! هذه بحيرة ! يا الهى ! لم أرها من قبل ، وانه ليقول هذا الكلام اذ سُمعت قرعة عربية وقفت أمام البواب . فسرعان ما أثار وصولها هرجاً خارقاً في المنزل كله .

انها فرفارا بتروفنا بشخصها تصل على عربية ذات أربعة أحصنة مع خادمين وداريا بافلوفنا . لقد حدثت هذه المعجزة ببساطة تامة . فان آنيسيم كان غداة وصوله الى المدينة يعذبه حب الاطلاع والفضول ، فمضى

يروى لخدم فرقارا بتروفنا أنه رأى ستيفان تروفيموفتش وحيداً في قرية من القرى ، وأن الفلاحين قد لقوه ماشياً في الطريق العام ، وانه سافر الى سباسوف . واذ أن فرقارا بتروفنا كانت من جهتها شديدة القلق منذ ذلك الحين ، وكانت قد أرسلت تبحث عن الهارب في كل مكان ، فقد قادوا اليها آنيسيم . فلما سمعت ما رواه ، ولا سيما التفاصيل المتعلقة بسفر ستيفان تروفيموفتش الى أوستيوف بعربة مع امرأة اسمها صوفيا ماتفثنا ، أسرعست تستعد فوراً ، واندفعت في اثر الهارب الذي ما تزال تجهل أنه مريض .

حين دوت صوتها القاسى الصارم ، خاف حتى صاحب البيت وامراته . انها لم تتوقف هناك الا سائلة ، لاقتناعها بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون قد سافر الى سباسوف منذ مدة طويلة . فلما علمت أنه ما يزال هنا وأنه مريض دخلت العربة منفعلةً أشد الانفعال .

وصاحت تسأل حين رأت صوفيا ماتفثنا التي ظهرت لحظتها في عتبة

الغرفة الثانية :

— أين هو ؟ لقد حزرت فوراً من هيتك الوقحة أنك أنت . اخرجني من هنا أيتها الونعة ! أخرجوها من هنا ، اطردوها ، والا فسأجعلك تسجنين الى آخر حياتك يا عزيزتى . لقد سبق أن سُجنت في المدينة ، وستعود الى السجن . لا يسمح أحد لنفسه بأن يدخل الى هنا ما بقيت أنا أيها السيد . أنا الجنرالة ستافروجين ، واني أستأجر البيت كله . وأنت يا عزيزتى ، ستحاسبين على كل شيء .

اضطرب ستيفان تروفيموفتش عند سماع هذا الصوت الذى يعرفه جيداً . وأخذ يرتعد . ولكن فرقارا بتروفنا كانت قد دخلت الى ما وراء الحاجز . وجرت بقدمها كرسياً وهى متقدة العينين ، وجلست ، ثم ارتدت بجذعها الى المسند وصرخت تقول لداشنا :

– اذهبي الى الغرفة الثانية ، ابقى قليلاً مع صاحب البيت وامراته •
ما هذا الفضول ؟ وآحكامى اغلاق الباب وراءك •

وظلت خلال بضع لحظات تتفرس صامتةً بنظرة صقر في وجه
ستيفان تروفيموفتش المدعور • ثم قالت أخيراً تسأله بسخرية حانقة
ساخطة :

– هيه ، ستيفان تروفيموفتش ، كيف صحتك الآن ؟

فأجابها يقول طائش اللب :

– « أيتها العزيزة » (بالفرنسية) ••• لقد تعلمت معرفة الواقع
الروسي ••• وسأعود الى الانجيل •

فصرخت تقول مغتاظة ضامة يديها :

– آه ••• أيها الرجل الفاسق ، أيها الرجل الذى لا نبل له ! لم
يكفك أن جللتنى بالعار ، بل كان لا بد لك من الارتباط أيضا ••• آه
••• أيها المعجوز الداعر !

– « عزيزتى » (بالفرنسية) •

واختنق صوته فى حلقه • فلم يستطع أن يضيف كلمة واحدة ،
واكتفى بأن نظر اليها مستدير العينين من الرعب •

– من هذه ؟

– « هذه ملاك ••• هذه أكثر من ملاك عندى » (بالفرنسية) •••
لقد ظلت طوال الليل ••• لا تصرخى ، لا تخيفيها ، « عزيزتى ، عزيزتى »
(بالفرنسية) •••

وثبت فر فاراً بتروفنا عن كرسيها ودفعته عنها بقرقة ، وصاحت

تقول مروّعة : « ماء ! ماء ! » • وثاب المريض الى نفسه ، ولكنها ظلت ترتعش من الخوف ، وتتنظر في وجهه المتشنج شاحبة اللون • انها في تلك اللحظة انما أدركت مدى خطورة مرض ستيفان تروفيموفتش •

قالت بصوت خافت تخاطب داريا بافلوفنا :

- داريا • استدعى الدكتور سالزفيش حالاً فليسافر ايجور على الفور ، فليستأجر حصاناً • وليركب في المدينة عربة أخرى ليصل الى هنا مع سالزفيش قبل الليل •

خرجت داريا راكضة • وكان ستيفان تروفيموفتش ما يزال ينظر تلك النظرة الثابتة الجامدة المرتاعة ، وكانت شقاه الصفراوان تحتلجان •

قالت فر فاراً بتروفنا تخاطبه ملحةً كما يخاطب طفل :

- هدىء نفسك يا ستيفان تروفيموفتش • هياً • عليك بشيء من الصبر • سترجع داريا ••• وعندئذ ••• يا الهى ! يا ريّسة ••• يا ريّسة ••• تعالى ••• تعالى حالا !

كذلك نادت صاحبة البيت • ثم هُرعت تبحث عنها بنفسها من نفاد صبرها •

- أرجعوا « الأخرى » حالاً • نادوها • بسرعة • بسرعة •

من حسن الحظ أن صوفيا ماتفتقنا لم تكن بعيدة : لقد رحلت منسند لحظة قصيرة بكيستها وحزمتها الصغيرة • أعادوها • كانت يداها وساقاها ترتعش خوفاً • وكما بنقض باز على صوص أمسكتها فر فاراً بتروفنا من ذراعها وجرّتها الى عند ستيفان تروفيموفتش :

- هى ذى • لم آكلها ! كنت تظن أننى أكلتها •

تناول ستيفان تروفيموفتش يد فرارا بتروفنا ، وحملها الى عينيه ،
وأخذ يبكي طائش العقل •

– طيب ، طيب ، هدىء نفسك ياعزيزى • رباه ! ولكن هلاّ هدأت
نفسك ! آه ••• جلاد ••• جلاد •••

كذلك زعقت على حين فجأة •

قدمم ستيفان تروفيموفتش يقول ملتفتا نحو صوفيا ماتفتفنا :

– عزيزتى ، اذهبي لحظة الى هناك ، الى الغرفة الثانية ••• أريد أن
أقول بضع كلمات ••••

فأسرعت صوفيا ماتفتفنا تخرج •

– « عزيزتى ••• عزيزتى » (بالفرنسية) •

كان يخنتق • فقالت له فرارا بتروفنا !

– لا تتكلم يا ستيفان تروفيموفتش ، انتظر قليلا • استرح الآن •
اليك ماء • ولكن انتظر ! قلت لك انتظر !

وجلست الى جانبه من جديد ، وحظرت عليه أن يتكلم • كان
ستيفان تروفيموفتش يضغط يدها بيديه ضغطا قويا • وها هو ذا يحمل هذه
اليد فجأة الى شفثيه ويقبّلها • فكانت فرارا تحدّق الى ركن من الغرفة
كأزة أسنانها •

وأقلت منه أخيرا قوله :

– « لقد أحبتك » (بالفرنسية) •

لم يسبق أن قال لها فى يوم من الأيام كلمة كهذه الكلمة ، وبهذه
اللهجة أيضا •

فهممت تقول :

- هم " ...

- « لقد أحببتك طوال حياتي ... عشرين عاماً ! » (بالفرنسية) •
فلزمت الصمت دقيقتين أو ثلاثاً • ثم قالت فجأة بصوت مختق ولكنه
مهدّد :

- ومن أجل أن يمثل أمام داشا تعطرّ وتطيّب •

فصعق ستيفان تروفيموفتش •

- ... ووضع رباط عنق جديدة •••

صمتاً مرةً أخرى •

- والسيجار ، هل تتذكره ؟

حاول أن يحتج فقال مثائباً :

- صديقتي ...

- السيجار ، مساءً ، قرب النافذة ... في ضوء القمر ... بعد

العريشة ... بسكفورشنيكي ؟ هل تتذكر ؟ هل تتذكر ؟

كذلك همست وهي تنهض فجأة ، وأمسكت طرفي الوسادة التي كان
يرقد عليها رأس ستيفان تروفيموفتش وأخذت تهزهما • وتابعت تقول :

- ... هل تتذكر أيها الرجل الطائش ، الخفيف ، الذي لا حشمة

فيه ولا حياة له ، أيها الرجل التافه ، التافه كل التفاهة !

أصبح صوتها من فرط الغضب صافراً ، ولكنها حاولت أن تخنقه •
وتركت الوسادة أخيراً ، وتهالكت على الكرسي وغطت وجهها بيديها • ثم
قالت وهي تهب واقفة :

– كفى ! عشرون عاما مضت ولن تعود • ما أنا الا حمقاء !

قال هو يضم يديه :

– « لقد أحبيتك » (بالفرنسية) •

– ما بالك تكرر هذا الكلام « أحبيتك ، أحبيتك » •

وهبتت تقف مرة أخرى • وقالت له :

– اذا لم تتم فوراً فاننى ••• انك فى حاجة الى هدوء • نمّ ، نمّ
حالا ، أغمض عينيك • رباه ! لعله يريد أن يصيب شيئاً من الطعام ؟ ماذا
تأكل ؟ ماذا يأكل ؟ رباه ! أين الأخرى ؟ أين هى ؟

وعاد الاضطراب • لكن ستيفان تروفيموفتش قال بصوت ضعيف انه
يريد فعلاً أن ينام « ساعة » ، وبعد ذلك يشرب « مرقاً ساخناً أو شايًا •••
وانه حقا سعيد » (بالفرنسية) • وتمدد ، وبدا عليه أنه نام (لعل ذلك
لم يكن الا تظاهرا) • فانتظرت فرفارا بتروفنا لحظة ، ثم خرجت ماشيةً
على رعوس الأصابع •

واستقرت فى الغرفة الأولى ، وأخرجت صاحب البيت وامراته ،
وفالت لداشا أن تأتيها بالأخرى التى شرعت فرفارا بتروفنا تستجوبها
استجوابا كاملاً حسب الأصول •

– حديثى الآن عن كل شيء • اجلسى هنا ، الى جانبى ، هيه ؟

– لقيت ستيفان تروفيموفتش •••

– قفى ، اسكتى • اعلمى أنك اذا كذبت أو أخفيت شيئاً فلن تغفلتى
من قبضتى ولو ذهبت الى آخر ركن فى العالم • هيه ؟

– ••• لقيت ستيفان تروفيموفتش ••• منذ وصولى الى حاتوفو •••

كان صوت صوفيا ماتفنا يهتق •

– انتظري ، اسكتي ! يا لها من ثرثرة ! أولاً ، من أنت ؟

روت المرأة سيرة حياتها منذ سياستوبول بكلمات قليلة كيفما اتفق • وكانت فرفاراً تجلس منتصبه القامة ، وتصفي اليها صامتة ، محدقة بعينها الى عيني محدثها •

– مالي أراك وجلة هذا الوجل كله ؟ ما بالك تطرقين الى الأرض ؟ أحب الذين ينظرون الىّ مواجهةً ويناقشونني مناقشة • أكملني •

وصلت صوفيا ماتفتننا من حديثها الى لقائهما ، والى «الكتب الصغيرة» ، والى الفودكا التي قدمها ستيفان تروفيموفتش الى الفلاحة • فقالت لها فرفاراً بتروفنا لتشجعها :

– أحسنت ، أحسنت ! لا تهملني أي تفصيل من التفاصيل •
وتابعت صوفيا كلامها :

– وكان ستيفان تروفيموفتش لا ينقطع عن الكلام ، ولكنه كان مريضاً منذ ذلك الوقت • وهنا روى لي سيرة حياته كلها منذ البداية ، خلال عدة ساعات •

– ماذا قال لك عن حياته ؟

ارتج على صوفيا ماتفتننا • ثم دمدمت تقول أخيراً وهي تكاد تبكي :

– لا أدري • ثم انني لم أكد أفهم من كلامه شيئاً •

– غير صحيح : يستحيل أن لا تكوني قد فهمت شيئاً •

قالت صوفيا وقد احمر وجهها احمراراً شديداً اذ لاحظت أن فرفاراً بتروفنا شقراء ، وأنها لا تشبه السيدة السمراء التي تحدث عنها ستيفان تروفيموفتش أي شبه :

- تكلم كثيراً عن سيده سمراء عالية المقام .
 - سيده سمراء ؟ من عساها تكون ؟ أكمل .
 - قال ان هذه السيدة السمراء كانت مولّيةً بحبه طوال عشرين
 عاما ، ولكنها لم تجسر أن تصارحه بذلك يوما ، وانها كانت تستحي من
 فرط بداتها .

- يا للغبى !

كذلك قالت فرارا بتروفا بلهجة قاطعة ، وشرذ ذهنها مع ذلك .
 لم تستطع صوفيا ماتفتنا أن تجبس دموعها أكثر مما حبستها الى
 الآن ؟

- لا أستطيع أن أروى لك مزيداً ، لأننى كنت خائفة عليه
 خوفاً شديدا فلم أستطع أن أفهم عنه . . . انه ذكى جدا . . .

- ليس لحمقاء مثلك أن تحكم على ذكائه . هل خطبك للزواج ؟
 ارتجفت صوفيا ماتفتنا .

- هل أحبك ؟ تكلمى ! هل طلب أن يتزوجك ؟
 قالت صوفيا ماتفتنا من خلال دموعها :

- تقريبا .

ثم أضافت تقول بصوت ثابت وهى ترفع رأسها :

- لكننى لم اتبه الى هذا كله ، بسبب مرضه .

- ما اسمك ؟

- صوفيا ماتفتنا .

- طيب . اعلمى يا صوفيا ماتفتنا أن هذا رجل تافه كل التفاهة . . .
 رباه ! لا بد أنك تنظرين الى نظرتك الى امرأة شقية ، هه ؟

حملت الأخرى • وتابعت فرارا :

- امرأة شقية ، امرأة طاغية حطمت حياته ، هه ؟

- كيف يكون هذا ممكناً وأنت نفسك تبكين ؟

كانت عينا فرارا بتروفا مغرورتين بالدموع فعلاً •

- هيا ، اجلسي ، لا تخافي • انظري الى وجهها لوجه مرة أخرى •
لماذا تحمرين ؟ داشا ، تعالي الى هنا ، انظري اليها ! ما رأيك ؟ هل قلبها
طاهر نقي ؟

وما كان أشد دهشة صوفيا ماتفتننا وما كان أشد رعبها أيضا حين
ربت فرارا بتروفا على خديها •

- المؤسف فقط أنك غبية ، غبية جدا بالقياس الى سنك • سوف
أعتني بك • انني أرى الآن أن الأمر لا يعدو أن يكون سفاسف • أقيمي
هنا الآن • سأدفع عنك كراء الغرفة وثمان الطعام وما عدا ذلك • وسوف
أستدعيك •

حاولت صوفيا ماتفتننا أن تعترض في وجل بأنها يجب أن تسافر •
فقلت لها فرارا بتروفا :

- فيم العجلة ؟ سوف اشترى جميع كتبك • ابقى هنا • اسكتي •
لا أريد أن أسمع شيئاً • لو لم أصل أنا لما تركته انت ، أليس كذلك ؟

قالت صوفيا ماتفتننا بلهجة قاطعة وهي تجفف دموعها :

- ما كان لي أن أتركه قط •

وصل الدكتور سالزفيس في ساعة متأخرة من الليل • انه شيخ
محترم جدا ، وطبيب ممارس ذو خبرة قد ترك الخدمة منذ مدة قصيرة

على أثر مشاجرة قامت بينه وبين الادارة • فسرعان ما صار فى حماية
 فرفارا بتروفنا • فحص المريض بانتباه وتدقيق ، وألقى عليه عددا من
 الأسئلة ، ثم أعلن لفرفارا بتروفنا ، مع كل المداراة الممكنة ، أن حالة
 المريض مقلقة جدا ، وأنه يجب « توقع تفاقمها » • فاضطربت فرفارا
 بتروفنا اضطرابا شديدا بعد أن ألفت منذ عشرين سنة الى الآن أن لا تأخذ
 مأخذ الجد أى أمر يتعلق بستيفان تروفيموفتش • وشحب لونها شحوبا
 شديدا •

- أليس هناك أى أمل حقا ؟

- لا يمكن القول اننا فقدنا كل أمل ، ولكن ...

لم ترقد فرفارا بتروفنا طوال الليل ، منتظرةً طلوع النهار بفارغ
 صبر • وما ان فتح المريض عينيه وعاد اليه شعوره (كان ما يزال يملك
 وعيه كاملاً ، ولكن قواه كانت تتناقص تناقصا سريعا) حتى اقتربت منه
 عازمةً أمرها ، وقالت له :

- ستيفان تروفيموفتش ، يجب توقع كل شئ • لقد أرسلت فى
 طلب كاهن • عليك أن تقوم بواجبك •

لقد كانت تخشى ، وهى تعرف اعتقاداته ، أن يرفض حضور الكاهن •
 لذلك أسرعته تصرخ منذ نظر اليها مدهوشا ، اذ تخيلت أنه سيرفض •
 قالت :

- سخف ! سخف ! ليس الأمر أمر سفاسف وترهات الآن ! لقد
 مزحت بما فيه الكفاية !

- ولكن ... هل حالتى سيئة الى هذا الحد ؟

ووافق على حضور الكاهن شارد اللب • لقد علمت فيما بعد ،

مدهوشا أشد الدهشة ، علمت من فم فرفارا بتروفنا نفسها ، أنه لم يخف من الموت أى خوف • لعله لم يصدق أنه سيموت ، لأنه ظل يعد مرضه أمراً تافهاً لا قيمة له •

واعترف للكاهن وتناول القربان المقدس راضيا كل الرضى • حتى اذا انتهى من تلقي الأسرار ، أقبل عليه الجميع ، ومنهم صوفيا ماتفتفسا والخدم ، يهتونه • وقد لقوا عناءً كبيراً فى حبس دموعهم حين رأوا وجهه الناحل المهدود ، وشفته البيضاء اللتين كانتا تختلجان •

– « نعم يا أصدقائى » (بالفرنسية) ••• وانى ليدهشنى فقط أن أراكم منشغلين هذا الانشغال كله ••• غداً قد أنهض ••• فسافر ••• « ان هذا الاحتفال كله » (بالفرنسية) الذى أشعر نحوه بأكبر الاحترام طبعاً ، انما كان ••••

أسرعت فرفارا بتروفنا تتدخل مخاطبةً الكاهن الذى كان قد نضا عنه ملابس الكهنوت فقالت :

– أرجوك يا أبى أن تبقى بقرب المريض • وأرجوك متى قدمت الشاى أن تتحدث فى أمور الهية تعزيراً لا يمان المريض •

فبدأ الكاهن كلامه فقال بصوت متساوٍ رتيب ، بينما كان يحمل فنجان الشاى بيده :

– فى عصرنا هذا الذى بلغت فيه الخطيئة هذا المبلغ من القوة ، فان الملاذ الوحيد للجنس البشرى فى وسط آلام الوجود ومحن الحياة ، انما هو الايمان بالله ، والأمل فى السعادة الأبدية التى وعد بها الصالحون ••• ظهر على ستيفان تروفيموفتش أنه انتعش ، وانسابت على شفته ابتسامة ناعمة رقيقة •••

- « شكرآ يا أبت ، وانك لطيب جدا ، ولكن ... » (بالفرنسية) •

- لا « لكن ، أبدأ ... لا « لكن ، البتة !

كذلك صاحت تقول فر فارا بتروفنا واثبة عن كرسيتها • وتابعت كلامها تقول للكاهن :

- أبت ، هذا رجل ، رجل ... سيكون من الواجب حمله على الاعتراف مرة أخرى بعد ساعة ... ذلك هو نوع هذا الرجل !

ابتسم ستيفان تروفيموفتش ابتسامة محتشمة خفية • وقال :

- يا أصدقائي ، ان الله ضرورة لى ، ، لأنه الموجود الوحيد الذى يمكن أن يحبه المرء حباً أبدياً ... •••

تُرى أكان يؤمن بهذا الكلام فعلاً ، أم أن فخامة الاحتفال قد بثت فى نفسه الاضطراب اذ أيقظت عاطفة الفنان التى تتصف بها طبيعته ؟ مهما يكن من أمر ، فانه ، كما يقال ، قد قال بلهجة جازمة نافذة بضعة أقوال تناقض آراءه القديمة مناقضة واضحة •

- ان خلودى ضرورة لازمة ، لمجرد أن الله لن يشاء أن يرتكب ظلماً يطفىء الى الأبد العاطفة التى اشتعلت فى قلبى حباً له • وأى شئ أؤمن من الحب ؟ ان الحب فوق الموجود قيمة ، انه تاج الموجود • فكيف يكون ممكناً أن لا يخضع له الموجود ؟ اذا كنت قد أحبيت الله وسعدت بهذا الحب ، فهل يمكن أن يطفئنا الله ، أنا وحبى ، وأن يفرقنا فى العدم ؟ اذا كان الله موجوداً فأنا خالد ! ذلكم هو « اعلانى لمبادئى » (بالفرنسية) •

قالت فر فارا ملحة بصوت ضارع :

- الله موجود ، ياستيفان تروفيموفتش ، أوكد لك أن الله موجود • فأنكر تلك السخافات كلها ، وانبذها ، ولو مرة واحدة فى حياتك •

أغلب الظن أنها لم تفهم « اعلاته لمبادئه » •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزداد حماسة ، لحظة بعد لحظة ، غير أن صوته لا يسهفه :

– صديقتى ••• حين فهمت اليوم ••• مدّ الخد الأيسر •••
فاننى ••• فاننى ••• فهمت على الفور شيئاً آخر أيضا ••• « لقد كذبت
طوال حياتى » (بالفرنسية) ••• نعم ، طوال حياتى ! وأريد ••• على
كل حال ••• أريد ••• غداً ••• أن نسافر كلنا معاً •••

أخذت فرارا بتروفنا تبكى • وكان ستيفان تروفيموفتش يبحث
بعينه عن شيء ما •

– هى ذى ، انها هنا !

كذلك قالت له فرارا بتروفنا ، وأمسكت صوفيا ماتفئنا من يدها ،
وقادتها الى قربه • فابتسم ابتسامة فيها رقة وحنان • وقال وهو ينتفض
انتفاضة قوة :

– آه ••• لكم أود لو أعيش أيضا ! ان كل دقيقة ، بل كل لحظة ،
يجب أن تكون فرصةً للانسان ••• نعم ••• ذلك ما يجب أن يكون •
واجب الانسان أن يفعل ما يجعل هذا واقماً • ذلك قانون الانسان •••
هو قانون خفى لكنه واقع • لكم أود أن أرى بتروشا ••• والجميع •••
وشاتوف !

يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن أحداً لم يكن قد سمع شيئاً عن
شاتوف بعد ، لا داريا بافلوفنا ، ولا فرارا بتروفنا ، حتى ولا الدكتور
سالزفيس الذى وصل من المدينة •

وكان اضطراب ستيفان تروفيموفتش يزداد ساعةً بعد ساعة ، وكان
هذا الاضطراب ينهك قواه •

- يكفي أن أتصور أن هناك شيئاً أعدل مني بما لا نهاية له ، وأسعد مني بما لا نهاية له ، حتى يملأني ذلك حنانا واسعا وأن يملأني شعورا بالوجد ، كائناً من كنت أنا ، وفاعلاً ما فعلت • لا يحتاج الانسان الى سعادته الخاصة كاحتياجه الى أن يعرف ويؤمن في كل لحظة أن هناك في مكان ما سعادة مطلقة وسلاما لجميع الناس ولكل الأشياء ••• قوام قانون الحياة البشرية كله أن يكون في وسع الانسان أن ينحني أمام شيء عظيم عظيمة لا نهاية لها • فاذا حُرِمَ البشر من هذا الشيء الذي لا نهاية لعظمته رفضوا أن يعيشوا وماتوا في اليأس • اللانهاية والمطلق لا غنى للانسان عنهما ، كما لا غنى له عن هذه الأرض التي يعيش عليها ••• يا أصدقائي ، جميعاً ، جميعاً ! عاش « الفكر العظيم » ! الفكر الأبدى ، اللانهائي ! لا غنى لكل انسان ، كائناً من كان ، عن الانحناء أمام الفكر العظيم • ان أغبي انسان في حاجة الى شيء عظيم • بتروشا ••• آه ••• لكم أود أن أراهم مرة أخرى جميعاً ! انهم لا يعرفون ، لا يعرفون أنهم هم أيضاً تنطوي نفوسهم على ذلك « الفكر العظيم » ، ذلك الفكر الأبدى !

لم يكن الدكتور سالزفوش قد حضر الاحتفال • فلما عاد فجأة ارتاع وأخرج جميع الناس ملحاً على أن يتركوا المريض هادئاً •

مات ستيفان تروفيموفتش بعد ثلاثة أيام • ولكنه فقد الشعور قبل ذلك بكثير • ولقد توفي بهدوء ورفق كما تذوب شمعة • وقد أمرت فرفاراً بتروفنا باقامة قداس في غرفة الموتى ، وأرجعت جثمان صديقها العزيز الى سكفورشنيكى ، وجعلت قبره في حرم الكنيسة ، وكست القبر بشاهدة من مرمر ، وأحاطته في الربيع بسياج من حديد مشبك •

دامت اقامة فرفاراً بتروفنا في أوستيفو ثمانية أيام • وقد اصطحبت في عودتها صوفيا ماتفننا التي أقامت عندها منذ ذلك الحين اقامة أظن أنها

ستكون دائمة • يجب أن نذكر أن فرفاراً بتروفنا ، منذ اللحظة التي غاب فيها عن ستيفان تروفيموفتش شعوره ، قد أبعثت البائعة المتجولة ، بل طردتها من العزبة ، وظلت تعنى بالمريض وحدها الى آخر لحظة • ولكن ما ان لفظ المريض آخر أنفاسه حتى استدعت صوفيا ماتفئفنا ، وعرضت عليها أن تقيم في سكفورشنيكى (بل قل أمرتها بذلك) ، فلما حاولت صوفيا أن تعرض خجل وجلي ، لم تشأ فرفاراً بتروفنا أن تسمع شيئاً ، وقالت :

– هذه كلها سخافات ! سأمضى معك أبيع أناجيل • لم يبق لى أحد في هذا العالم !

فقال سالزفيش :

– ولكن لك ابناً !

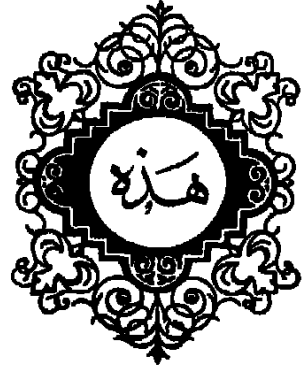
فقالت بلهجة قاطعة :

– لا بل لم يبق لى ابن •

لكنها كانت تقرأ المستقبل وتعلم الغيب •

الفصل الثامن

خاتمة



الجرائم كلها ، وهذه الفظائع كلها قد اكتشفت بسرعة كبيرة ، بسرعة أكبر مما كان يقدر بطرس ستيفانوفتشس • ففي ليلة مقتل شاتوف استيقظت المسكينة ماريا اجنايفنا قبل الفجر • فبحثت عن زوجها بعينها فلم تجده بقربها فجنّت قلقاً • وحاولت المرأة العجوز التي تركتها آرينا بروخورفنا الى جانبها وبانت معها فى الغرفة حاولت أن تهدئها ولكنها لم تظفر بطائل • ولذلك ما ان طلع النهار حتى ركضت الى بيت آرينا بروخورفنا التي لا بد ، كما قالت للمريضة ، أن تعرف أين يوجد شاتوف ومتى يعود • وفى أثناء ذلك كانت آرينا بروخورفنا تشعر هي أيضا بأشد القلق : فان زوجها قد قصّ عليها ما جرى الليلة البارحة فى حديقة سكفورشنيكى • ان فرجنسكى قد رجع الى داره فى نحو الساعة الحادية عشرة من المساء على حالة من الجزع يرثى لها • وقد تهالك على سريريه وهو لا ينى يردد عاقفا يديه ذارفا دموعه : « ليس هذا ، ليس هذا أبدا • » • وفى النهاية اعترف لآرينا بروخورفنا بكل شيء طبعا • ولكنه اعترف لها وحدها • فأمرته آرينا بروخورفنا بأن يبقى راقداً وقالت له بلهجة قاسية ان عليه اذا أراد البكاء أن يدفن رأسه فى الوسادة حتى

لا يستطيع أحد أن يسمعه ، وانه سيكون غيبا كل الغباء اذا لم تتحسن
سحنته في الغد . وقررت مع ذلك أن تتخذ بعض الاحتياطات استعدادا لأي
طارىء ، فحرقت أو أخفت الأوراق أو الكتب الخطيرة ، والمنشورات
التحريرية . وفكرت في الأمر فقالت لنفسها انه ما خطرٍ يتهدها هي
أو يتهدد أختها أو الطالبة أو أخاها شيجالوف على كل حال . فلما جاءتها
المعجوز في الصباح مضت الى ماريما اجناتيفنا بغير تردد . لقد كانت تريد أن
تعرف أيضا ، بأقصى سرعة ، ما الذي انتهت اليه الآمال التي كان يعقدها
بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف ، والتي حدثها عنها فرجنسكى زائع
الهيئة تماما .

ولكن وصولها الى عند ماريما اجناتيفنا كان متأخرا : فان ماريما وقد
وجدت نفسها وحيدة لم تطق صبرا على البقاء في البيت فنهضت وألقت على
جسمها ما وقع تحت يدها من لباس - وهو ثوب رقيق جداً لا يناسب هذا
الفصل من فصول السنة - وهرعت الى عند كيريلوف ، قائلةً لنفسها ان
كيريلوف لا بد أنه يستطيع أن ينبئها عن شاتوف أكثر مما يستطيع ذلك
أي شخص آخر . وتستطيعون أن تتصوروا الشعور الذي أحدثته في
نفس المسكينة ، ذلك المشهد الذي كان ينتظرها في بيت كيريلوف .
يجب أن نذكر أنها من شدة هلعها لم تنتبه الى الرسالة التي كانت مع ذلك
متروكة على المائدة في موضع بارز .

رجعت ماريما الى غرفتها فتناولت طفلها وولت هاربة في الشارع الذي
كان لا يزال خالياً مقفراً في تلك الساعة . كان الجو رطباً والضباب
منتشراً . وكانت هي تركض لاهثة متعثرةً بالوحل اللزج البارد .
وقررت أخيراً أن تفرع أبواب المنازل ، ولكن لم يفتح لها أحد . وظلت
مع ذلك تفرع الى أن فتحت لها أخيراً أحد الأبواب : انه مسكن رجلٍ من

تجار مدينتنا اسمه تيتوف • قلبت ماريا اجناتيفنا البيت كله رأساً على عقب : كانت تعول اعوالاً شديداً وتكرر أن « زوجها قد قُتل » • وكانت أسرة تيتوف تعرف شاتوف ، وكانت على شيء من العلم بقصته • والشيء الذي روعهم خاصةً هو أن هذه المرأة التي ولدت منذ قليل كما تقول كانت تركض في الشوارع وهي لا يكاد يكسوها شيء ، وذلك في هذا الجو البارد ، مع طفل عاري تقريباً تحمله في يديها • ظنوا في أول الأمر أنها نهذي ، لا سيما وأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا من الذي قُتل : أهو كيريلوف أم هو زوجها ؟ واذ لاحظت أنهم لا يصدّقونها أرادت أن تهرب ، ولكنهم احتجزوها بالقوة ، رغم أنها أخذت تصرخ وتتخبط كمجنونة فيما قيل • وذهبوا الى عمارة فيلييوف ، فما مضت ساعتان الا وكانت المدينة كلها على علم بانتحار كيريلوف وبرسالته • واستجوبت الشرطة ماريا اجناتيفنا التي لم تكن قد فقدت وعيها بعد ، وعندئذ انما اكتشفوا أنها لم تكن قد قرأت الرسالة ، وانها لا تستطيع أن تذكر كيف استتجت موت زوجها من موت كيريلوف • كانت لا تزيد على أن تصرخ قائلة ان زوجها قد قُتل ما دام كيريلوف قد قُتل ، « لأنهما كانا معاً » • وفي نحو الظهر فقدت وعيها ، وماتت غداً غد دون أن تفيق من اغمائها • أما الطفل الذي كان قد أصابه برد فانه سبقها الى القبر •

حين لم تجد آرينا بروخوروفنا لا الأمّ ماريا اجناتيفنا ولا طفلها ، أحست بمجىء الكارثة وقررت أن ترجع الى البيت • ومع ذلك توقفت تحت البوابة وأرسلت العجوز « تسأل السيد الذي يسكن الجناح المستقل في صحن الدار هل ماريا اجناتيفنا عنده ، أو هل يعرف على الأقل أين هي ، • فعادت العجوز وهي تطلق صيحات من شأنها أن تهيج الشارع كله • فأسرعت آرينا بروخوروفنا تسكتها بالحجة المعروفة جداً : « اسكتي والا كان لك مع القضاء متاعب » ، ورجعت الى دارها بأقصى سرعة •

واذ علمت الشرطة أن آرينا بروخوروفنا قد أشرفت على ولادة امرأة شاتوف ، فقد جاءت تستجوبها في ذلك الصباح نفسه ، ولكنها لم تستطيع أن تحصل منها على شيء ذي بال . لقد رددت بأكبر الهدوء كل ما رآته وما سمعته عند شاتوف ، ولكنها صرّحت بأنها لا تعرف شيئاً عن موت شاتوف وعن الأحداث الأخيرة .

تستطيعون أن تتصوروا الانفعال الشديد الذي أحدثه هذا كله في المدينة . « هذه قصة جديدة ! هذا اغتيال آخر » . ولكن الوضع أخذ يظهر الآن في ضوء جديد : ان وجود جمعية سرية تضم قتلة ومشعل حرائق ونوريين أصبح الآن أمراً لا يشك فيه أحد . ان موت ليزا الفطيع ، ومقتل زوجة ستافروجين ، واختفاء ستافروجين ، والحريق ، وحفلة الرقص التي أقيمت لمساعدة المعلمات ، والاستهتار الذي يسود بيئة جوليا ميخائيلوفنا ، وحتى هرب بطرس ستيفانوفتش فجأة . . . ذلك كله أصبح له شكل مؤامرة واسعة . وأخذت أنواع من الشائعات تجرى عن ستافروجين . ولكن الشيء الغريب هو أن الناس لم يتكلموا الا قليلاً عن بطرس ستيفانوفتش الذي علموا أنه سافر في ذلك المساء نفسه . ولكنهم تكلموا كثيراً عن « عضو مجلس الشيوخ » .

رابط جمهور كبير أمام عمارة فيليوف طوال الصباح . وفي البداية صدّقت الشرطة الأكذوبة التي تضمنتها رسالة كيريلوف ، فاعتقدت بأن كيريلوف هو الذي قتل شاتوف ثم اتحرر « القاتل » . ولكن السلطات اذا كانت قد اتخذت فان اتخذها لم يكن كاملاً . من ذلك أن الحديقة التي تشير اليها رسالة كيريلوف تلك الاشارة الغامضة ، لم تضلل أحداً ، على خلاف ما تنبأ به بطرس ستيفانوفتش . لقد أسرعت الشرطة الى سكفورشنيكى فوراً ، لا لأنه ليس لدينا حديقة أخرى فحسب ، بل أيضا لأن نوعا من الفريزة قاد خطى البحث : ان جميع الأحداث الرهيبة في

تلك الأيام الأخيرة انما تتصل كتبيرا أو قليلا بسكفورشنيكى وسكانها
(بحسن أن أنير عابراً الى أن فرفاراً بتروفنا التى لم تكن تعرف شيئاً كانت
قد غادرت المدينة فى ذلك الصباح نفسه بحثاً عن ستيفان تروفيموفتش) •
واكتشفت جثة ساتوف فى نحو المساء • وعلى مقربة من مكان ارتكاب
الجريمة عُثر أيضاً على قبعة التى قد نسيها القتلة خفةً وطيشاً • وظهر
من فحص الجثة فحصاً طبيياً ومن بعض العلاقات الأخرى أن كيريلوف كان
له شركاء •

وأصبح من المسلّم به اذن أن هناك جمعية سرية تضم ساتوف
وكيريلوف ولها علاقة بالمشورات • ولكن من هم شركاؤهما ؟ لم يكن
« أصحابنا » يخطرون ببال أحد حتى ذلك الحين • وقد علم أن كيريلوف
كان يعيش حياة منزوية ، وأن فدكا ، كما تذكر الرسالة ، قد استطاع أن
يقيم عنده مدة طويلة بينما كان يُبحث عنه فى كل مكان ! ••• والنسب
الذى أدخل الاضطراب فى العقول أكثر من كل ماعداه هو أنه كان
يستحيل على المرء أن يحل هذه الألغاز ويستخرج بعض النتائج • ولولا
أن كل الأمور قد اتضحت فجأةً فى الغداة بفضل ليامشين ، لكان يصعب
علينا أن نتخيل الافتراضات العجيبة والآراء الغريبة التى كان يمكن الوصول
اليها آخر الأمر •

لم يستطع ليامشين أن يطبق صبراً • لقد حدث له ما أوجسه بطرس
سينفانوفتش نفسه فى النهاية • قضى نهاره كله فى السرير بحراسة
تولكاتشنكو أولاً ثم بحراسة اركل • وكان هادىء المظهر ، ملتفتاً نحو
الحائط ، يلتزم الصمت ولا يكاد يجيب حين يوجه إليه الكلام • لم يعلم
اذن بشيء مما كان يجرى فى المدينة غير أن تولكاتشنكو الذى كان على علم
بكل شيء قرر فى نحو المساء أن يترك المهمة التى أناطها به بطرس
سينفانوفتش ، وأن يرحل الى المقاطعة ، أى أن يهرب : لكنهم قد فقدوا

صوابهم جميعا • واضح أن اركل لم يخطئ • لقد هرب ليبوتين هو أيضا في ذلك اليوم نفسه منذ الصباح • غير أن السلطات لم تعلم برحيله الا في الغد ؟ وحين جاءت الشرطة الى مسكنه وجدت الأسرة كلها قلقة لاخفائه أشد القلق ، غير أنها تكتم أمر هذا الاختفاء مع ذلك •

أعود الى ليامشين • انه منذ أصبح وحيداً (اذ كان اركل قد اتكل على تولكاشنكو وعاد الى بيته) ، أسرع يخرج ، فما هي الا برهة قصيرة حتى كان على علم بتفاصيل الموقف طبعاً •

فقرر أن يهرب بغير ابطاء ، وأن يمضى قدماً لا يلوى على شيء • ولكن الظلام كان حالكأ ، فبدت له مغامرته محفوفة بمخاطر سديدة ، فبعد أن قطع شارعين أو ثلاثة ، رجع الى البيت ، وأقفل على نفسه الباب بالمفتاح • يقال انه حاول في الصباح أن ينتحر ، ولكنه لم يفلح في ذلك • فمكث في غرفته حتى الظهر • وعندئذ اتخذ قراره فجأة ، فأسرع يركض الى قسم الشرطة • يظهر أنه هناك جثا على ركبتيه ، وأخذ يزحف باكيا ناشجا ، وأنه قبل الأرض وهو يصيح بأنه لا يستحق أن يقبل حتى أحذية الشخصيات السامية التي أمامه • وكانوا لطافاً في معاملته الى أمد حد • ودام استجوابه قرابة أربع ساعات • حكى كل شيء ، كل شيء تماما ، حتى أدق التفاصيل • بل لقد كان يستبق الأسئلة من شدة استعجاله الاعتراف الكامل ، فيروي أشياء لا داعي اليها وليس يسأل عنها • وقد اتضح انه عرف أمورا كثيرة • لذلك استطاع أن يكشف عن خفايا القضية: ان مأساة شاتوف وكيريلوف ، والحريق ، وموت ليادكين وأخته ، كل ذلك كان في المرتبة الثانية من خطورة الشأن في حديثه ، أما المرتبة الأولى فقد كانت لبطرس ستيفانوفتش ، والجمعية السرية ، والتنظيم ، والشبكة • وحين ألقى عليه هذا السؤال : لماذا جرائم القتل هذه كلها ، لماذا تلك الفضائح كلها ، لماذا هذه الدناعات كلها ؟ أجاب فورا بقوله : « ذلك لزعة

قواعد الدولة ، لتعجيل تفسخ المجتمع ، لبث اليأس فى النفوس ، لادخال البلبلة والفوضى الى العقول • وبعد ذلك يتم الاستيلاء على المجتمع الذى عمته الفوضى ، المجتمع المريض ، الحائر ، المستهتر ، الرِيَّاب ؟ ولكن على أساس التطلع الى فكرة موجهة ؛ فبذلك تُرفع راية الثورة اعتماداً على شبكة الحلقات الخماسية التى تكون قد عملت من جهتها على بث الدعاية ، ودراسة النقاط الضعيفة فى الخصم ، والوسائل العملية لمحاربتة • وصرَّح ليامشين فى النهاية أن ما شوهد فى مدينتنا ليس الا محاولة أولى لتخريب منظّم ، وهو بمثابة برنامج يجب أن تتبعه الحلقات الأخرى التى أنشأها بطرس ستيفانوفتش • ذلك كان رأى ليامشين على كل حال • وقد ألح على « ضرورة النظر بعين الاعتبار الى أقواله والى الصراحة والوضوح فى عرضه للقضية كلها ، مما يدل دلالة واضحة على أنه يستطيع أن يقدم للسلطات خدمات كبيرة » • حتى اذا ألقى عليه هذا السؤال المباشر : « هل فى روسيا عدد كبير من هذه الحلقات الخماسية ؟ » أجاب بأن هذه الحلقات لا نهاية لعددها وان شبكتها تغطى روسيا كلها • ولم يأت بأى برهان يؤيد هذه الأقوال ، ولكننى أظن أنه كان صادقاً حين قال ذلك الكلام • وقد اكتفى بتقديم برنامج الجمعية ، المطبوع فى الخارج ، وبمشروع يعرض توسيع نطاق العمل ، مكتوبٍ بخط بطرس ستيفانوفتش • فظهر حينذاك أن ليامشين ، حين تكلم عن « زعزعة القواعد » ، انما كان يستعير نصاً من نصوص هذه الورقة ، لا يُسقط منه نقطة أو فاصلة • ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينسب تلك الفكرة الى نفسه • وقد تكلم عن جوليا ميخائيلوفنا فأسرع يعلن بطريقة هزلية جدا ومن غير أن يُسأل عن ذلك ، أسرع يعلن أنها « بريئة وأنها قد غرّرت بها » • يجب أن نذكر أنه أنكر أن يكون لستافروجين أية مشاركة فى الجمعية السرية ، وأكد أنه لم يكن ثمة أى تفاهم بين نيقولاى فيسيفولودوفتش

وبين بطرس ستيفانوفتشس (لم يكن ليامشين ، بطبيعة الحال ، يعرف شيئاً عن الآمال السخيفة التي كان بطرس ستيفانوفتشس يعقدها على ستافروجين) . وقال ان مقتل ليادكين وأخته كان من عمل بطرس ستيفانوفتشس الذي تصرف منفردا دون أن يكون لستافروجين أى دخل فى الأمر ، وذلك بغية أن يجعل ستافروجين معرّضاً للخطر خاضعاً لسيطرته . ولكن بطرس ستيفانوفتشس لم يُثر فى قلب ستافروجين « النيل » الا الاستياء الشديد والألم الممض ، بدلاً من أن يثير فيه شعور الشكر والامتنان كما كان يتوقع . وأضاف ليامشين فى ختام افادته عن ستافروجين ، وأضاف مستبقاً الأسئلة مرةً أخرى ، أن نيقولاى فسيفولودوفتشس شخص رفيع الطراز حتماً ، غير أن ههنا سرّاً مجهولاً ، فهو قد عاش بيننا كالمتمكر تقريبا لأنه مكلف بمهمة كبيرة ، ومن الجائز جدا أن يرجع من بطرسبرج بعد قليل (كان ليامشين مقتنعا بأن ستافروجين موجود ببطرسبرج) ، ولكن رجعتهم ستم فى ظروف مختلفة تماما هذه المرة ، وسيكون محاطا بأناس قد نسمع الناس يتكلمون عنهم فى القريب . وقال ليامشين انه عرف هذه الأمور من فم بطرس ستيفانوفتشس ، « العدو الخفى لنيقولاى ستافروجين » .

ملاحظة : - بعد شهرين ، اعترف ليامشين بأنه حاول تبرئة ستافروجين لأنه كان يأمل أن يحميه . لقد كان يأمل أن عقوبته ستخفف بفضل هذه الحماية تخفيفا كبيرا ، وكان يتخيل أيضا أن ستافروجين سيرسل اليه مالا وسيبعث اليه رسائل توصى به السلطات السبيرية خيراً . ان هذا الاعتراف يدل على أن ليامشين كان يرى فى نيقولاى فسيفولودوفتشس رأياً فيه كثير من المبالغة .

فى ذلك اليوم نفسه قبض على فرجنسكى طبعاً ، بل قبض على أسرته كلها من باب اظهار الحماسة للقيام بالواجب (ولقد أفرج عن آرينا بروخوروفنا واختها وخالتها والطالبة ، منذ مدة طويلة ؛ ويقول بعضهم

مؤكداً ان شيجالوف سيفرج عنه في القريب أيضاً ، لأنه لا يدخل في أية فئة من فئات المتهمين • وما هذه على كل حال الا أقاويل تُقال) • وقد اعترف فرجنسكى اعترافات كاملة على الفور • لقد كان راقداً على سريره يعاني من حمى شديدة حين جاءوا يعتلقونه ، ويقال انه حين رأى الشرطة قد سُرَّ تقريباً • ويروى أنه كان في افادته صريحاً ، مع احتفاظه ببعض الوقار والرصانة ، وانه لم يتنازل عن أمل واحد من « الآمال المضيئة » مع تنديده بالأساليب السياسية (لا الاجتماعية) التي انقاد لها في خفة وطيش ، « مدفوعاً باعصار الظروف » • وقد نُظر بعين الاعتبار الى موقفه في الحديقة عند مقتل شاتوف ، ويبدو أنه يأمل أن يشفع له هذا الموقف فيُخفف الحكم عليه ، أو ذلك ما يؤكدُه الناس في مدينتنا على الأقل •

ولا كذلك اركل • فليس من المتوقع أن يُتسامح معه • لقد لزم اركل الصمت منذ القبض عليه ، أو كان يشوّه الحقيقة ، ولم يمكن أن يُنتزع منه قول واحد يعبر عن الندامة • ومع ذلك استطاع أن يوظف في نفوس القضاة ، حتى القساة منهم ، شيئاً من العطف عليه ، وذلك لشبابه وسذاجته ، ولأن من الواضح أنه كان ضحية متأمر سياسي أشعل في نفسه نار التعصب ، ولأنه خاصة كان فتى برأ بأمه اذ كان يرسل اليها نصف ايراده الضئيل تقريبا • ان أمه هي الآن هنا : انها امرأة ضعيفة مريضة هرمت قبل الأوان • وهي تبكي وتمرغ بأقدام القضاة متوسلة اليهم أن يراؤفوا بابنها • ولا يدرى أحد كيف سينتهي الأمر • غير أن عدداً كبيراً من الناس في مدينتنا يرثون لحال اركل صادقين •

أما ليوتين فقد قبض عليه بطرسبرج بعد أن مكث فيها خمسة عشر يوماً • ان ما وقع له يكاد يبدو غير معقول • لقد كان يملك جواز سفر باسم مزور ، وكان يملك مبلغاً ضخماً من المال ، فكان في وسعه اذن أن يهرب الى الخارج • ومع ذلك لم يتحرك من بطرسبرج • حاول

في البداية أن يهتدى الى ستافروجين وبطرس ستيفانوفتش ، ثم أقبل فجأة على الشراب واسترسل في دعارة مسعورة • حتى لكأنه فقد سلامة عقله وأصبح لا يدرك وضعه أى ادراك • لقد قبض عليه فى أحد المواخير سكران كل السكر • ويشيح بين الناس الآن أنه استرد شجاعته ، وأنه ما برح يكذب ، وأنه يعتقد بعض الآمال (؟) على دعواه التى يتهمها لها بعناية شديدة ، لأنه ينتوى أن يلقى خطابا طويلا • وأما تولكاشنكو فقد قبض عليه بعد هربه الى الريف بعشرة أيام ، وهو يسلك سلوكاً أليق كثيراً ، فلا يكذب ولا يراوغ ، ويقول ما يعرفه ، ولا يحاول أن يبرىء نفسه بل هو يعترف بأخطائه ، ولكنه يبدو ميّالاً الى الفصاحة والبلاغة ، فهو يتكلم كثيراً ، ويحلو له أن يتكلم كثيراً ، حتى اذا دار الحديث على الشعب وعناصره الثورية (؟) اصطنع وضعاً وقوراً وحاول أن يكون له فى نظر سامعيه مهابة • ويقال انه هو أيضا ينتوى أن يلقى خطابا أمام المحكمة • يمكننا أن نقول ، بوجه عام ، انه وليبوتين لا يدوان خائفين مما ينتظرهما ، وذلك شيء يثير الاستغراب •

أكرر أن القضية لم يُفصل فيها بعد • والآن ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذه الأحداث كلها ، قد أفاق مجتمعنا من ذهوله واسترد اتزانته ، فهو يحكم على الأمور حكماً أكثر استقلالاً ، حتى ان هناك اليوم أناساً يرون أن بطرس ستيفانوفتش ان لم يكن عبقرى فهو على الأقل رجل أوتى « قدرات عبقرية » • « هذا تنظيم ! » ، كذلك كان يقول بعضهم فى نادينا رافعا اصبعه • ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكلام كله بريئاً • وكان بعض آخر يذهبون غير هذا المذهب • فهؤلاء على أنهم لا ينكرون ذكاء الرجل يلحون على جهله بالواقع ، وميله المفرط الى التجريد ، ونمو بعض ملكاته على حساب بعضها الآخر نمواً شاذاً ، وطيشه الخارق • أما صفاته الأخلاقية فكان عليها اجماع ، فلا جحود ههنا قط •

لا أدري حقاً عن يجب أن أتكلّم أيضاً . . .

لقد رحل مافريكى نيقولايفتش لا يدري أحد الى أين • وخرفت العجوز دروزدوف مرتدةً الى الطفولة • على أن هناك حكاية مظلمة يجب على أن أقصّها • وسأكتفى برواية الوقائع •

حين عادت فرارا بتروفنا من أوستيفو فانها لم تنزل بسكفورشنيكى بل مضت الى المدينة ، وهناك علمت فوراً بكل ما جرى أثناء غيابها • فاضطربت اضطراباً شديداً عميقاً ، وحسبت نفسها فى بيتها • كان ذلك فى المساء ، وكان الجميع متعيين مكدودين ، فرقدوا مبكّرين •

وفى صباح الغد مدّت إحدى الخادّات الى داريا بافلوفنا فى السر رسالةً قالت انها وصلت فى مساء أمس ، ولكنها وصلت متأخرة بينما كان الجميع نائمين • أما كيف وصلت الرسالة فان رجلاً مجهولاً أعطاها ألكسى ايجورتش بقرية سكفورشنيكى فسرعان ما حملها الخادم العجوز الى الخادّمة وقفل راجعاً الى سكفورشنيكى •

تأملت داريا بافلوفنا ظرف الرسالة مدة طويلة ، خافقة القلب ، دون أن تجرؤ على فضّها • لقد كانت تعلم أن الرسالة مرسلّة من نيقولاى فيسيفلودوفتش • وكان مكتوباً على ظرفها : « الى الكسى ايجورتش لنقلها الى داريا بافلوفنا » •

واليكّم نص الرسالة كلمة كلمة • اننى لم أصحح أسلوب هذا السيد الروسى الذى لم يكن قويا فى النحو رغم ثقافته الأوروبية :
العزيزة داريا بافلوفنا ،

« قلت لى مرةً انك تريدان أن تكونى « ممّرّضتى ، وجعلتنى أعدك بأن أستدعيك متى احتجت اليك • اننى مسافر بعد يومين سافراً لا عودة بعده • فهل تريدان أن تسافرى معى ؟

« فى السنة الماضية أصبحت ، مثل هرتسن ، مواطناً فى كاتون
 « أورى » بسوسرا • ولا أحد يعرف هذا • حتى لقد اشتريت منزلاً
 صغيراً فى ذلك الكاتون • وسنقيم هناك الى الأبد • أصبحت لا أريد أبداً
 أن أذهب الى أى مكان •

« الموضع الذى يقع فيه المنزل حزين جدا • انه مضيق فى جبل •
 الجبال هناك تطفى على البصر والفكر • منظر يشيع فى النفس غمماً وحداداً •
 وانما اخترت ذلك المكان اذ كان فيه منزل بباع • واذا لم يعجبك البيت
 فسوف أبعه وأشتري بيتاً آخر فى مكان آخر •

« لست صحنى حسنة ، لكننى آمل أن يخلصنى هواء تلك البلاد
 من هواجسى • هذا شىء جسمى • أما عن حالتى النفسية فانك تعرفين كل
 شىء • ولكن هل هذا كل شىء حقاً ؟

« لقد رويت لك أشياء كثيرة عنى • ولكننى لم أرو كل شىء حنى
 لك أنت • بالمناسبة ، أؤكد لك اننى أحس فى قرارة ضميرى بأننى مسئول
 عن مقتل زوجتى • اننى لم أرك بعد موتها ، لذلك أؤكد لك هذا الآن •
 وأنا أيضاً آثم فى حق ليزافتا نيقولايفنا • ولكنك عن هذا تعرفين كل شىء •
 انك قد تنبأت بكل شىء تقرباً •

« الأفضل أن لا تجيئى • انها لدناءة فظيعة منى أن أستدعيك • علام
 تقبرين نفسك معى ؟ انك تعجيبيننى ، ولقد كنت أشعر بارتياح الى جانبك
 حين يبتابنى قلق وغم • أمامك وحدك انما كنت أستطيع أن أتكلم عن
 نفسى بصوت عالٍ • ولكن هذا لا يعنى شيئاً • لقد قلت أنت نفسك انك
 ستكونين لى « ممرضة » • هذا تعبيرك ذاته • لماذا هذه التضحية الكبرى ؟
 لاحظى أيضاً اننى لا أشفق عليك مادمت استدعيك ، واننى لا أحترمك
 ما دمت انتظرك • ومع ذلك استدعيك وانتظرك • على كل حال ، أنا فى

حاجة الى جوابك ؛ لأن عليّ أن أسافر بأقصى سرعة • وسوف أسافر
وحدى اذا اقتضى الأمر •

« اننى لا آمل شيئاً من « أورى » ، ولكننى أسافر ، أسافر وكفى !
ولم يقع اختيارى على ذلك المكان الحزين عن عمد • ليس هناك ما يربطنى
بروسيا : كل شىء غريب عنى هنا ، كأى مكان آخر على كل حال • صحيح
أنتى أحب أن أعيش فى روسيا ، وكنت لا أحب كثيراً أن أعيش فى غيرها
أيضاً • ولكننى حتى فى روسيا كنت عاجزاً عن كره أى شىء •

« لقد جربت قوتى فى كل مكان • ونصحتنى أنت بذلك حتى « أعرف
نفسى معرفة أصدق » • وأثناء تلك التجارب ، بدت فوتى هذه غير ذات
حدود ، أمام نفسى وأمام الآخرين • على مرأى منك تحملت صفة أخيك •
وأعلنت زواجى على رؤوس الأشهاد • ولكن فى أى شىء يجب أن أستعمل
هذه القوة ؟ ذلك ما لم أستطع أن أعرفه فى يوم من الأيام ، وما لا أعرفه
حتى هذا اليوم ••• لا أعرفه رغم ما أزعجت الىّ من تشجيعات صدقاتها •
أنا الآن ، كما كنت دائماً ، أستطيع أن أرغب فى القيام بعمل حسن ، وأجد
فى ذلك لذة • والى جانب هذا أشتهى أن أرتكب عملاً سيئاً وأذوق من
ذلك هذه اللذة نفسها • ولكن الشعورين كليهما ضعيفان ، ولم يكونا
قويين فى يوم من الأيام • ان رغباتى ضعيفة مسرفة فى الضعف دائماً :
انها لا تستطيع أن توجهنى • فى وسع المرء أن يعبر نهراً على لوح ولكنه
لا يستطيع أن يعبره على قشرة • أقول لك هذا حتى لا تتخيلى اننى أعقد
آمالاً على أورى •

« لست أتهم أحداً ، كما لم أتهم أحداً فى الماضى • لقد جررت
الدعارة ، واستهلكت قواى • ولكننى لا أحب الدعارة ولم أكن أريدها •
كنت تراقبىنى فى الآونة الأخيرة • هل تعلمين اننى كنت أنظر الى
أصحابنا الجاحدين نظرة كره وبغض ، ولكننى كنت أحسدهم على ما كانوا

يعقدونه من آمال ؟ غير أنك قد أخطأت اذ ساورك قلق على : اننى لا أستطيع أن أكون واحداً منهم ، لأننى لا أشاطرهم آمالهم • وكان ذلك يستحيل على من باب السخرية وحب الشر أيضاً ؛ لا لأننى أخشى أن أكون محل هزاء - فاننى لا أخشى أن أكون محل هزاء - بل لأننى قد احتفظت رغم كل شيء بعبادات انسان لبق ، ولأن ذلك كان يثير الاشمئزاز فى نفسى • ولكن لو قد كان كرهى وحسدى أقوى مما كانا ، اذ لا يمكن أن أنضم اليهم •

« أيتها الصديقة العزيزة ، الحنون ، الكريمة ، التى اكتشفتها ! لعلك تأملين بما أعطيتنيه من حب كامل ، وما غمرتني به من كنوز نفلك الجميلة ، أنك ستستطيعين أن تخلقى لحياتى هدفاً فى النهاية ! ولكن لا ، كونى عاقلة حكيمة : ان حبى سيكون مسكينا مثلى ، وستكونين أنت شقية تعيسة • قال لى أخوك يوماً : من يفقد كل رابطة بالأرض ، يفقد على الفور آلهته ، أى أهدافه • فى وسع المرء أن يناقش كل شيء الى غير نهاية ، ولكنى عاجز الا عن الانكار خالياً من أى عظمة نفسية ، خالياً من أية قوة • الجحود نفسه مسكين ضعيف عندى • كل شيء كابٍ رخو • ان كيريلوف الكريم لم يستطع أن يتحمل فكرته فانتحر • ولكننى أدرك حق الإدراك أنه كان كريماً لأنه كان لا يملك عقله كاملاً • لن أستطيع أن أفقد عقلى يوماً ، ولن أستطيع أن أومن بفكرة يوماً ، مثله • حتى اننى لن أستطيع أن أهتم بفكرة • فلن أنتحر أبداً ، أبداً !

« أنا أعلم أنه يجب على أن أنتحر ، أن أغيب عن وجه الأرض كحشرة مقرزة • ولكننى أخاف الانتحار ، لأننى أخاف أن أظهر شيئاً من عظمة النفس • اننى أعلم أن هذا لن يكون الا كذبة جديدة ، هى آخر كذبة فى سلسلة طويلة من الأكاذيب • أى فائدة أجنيها من الكذب لا لشيء

الا أن أظهار بعضمة النفس ؟ لن أعرف الاستياء والحجل فى يوم من الأيام ، ولن أعرف اليأس اذن •

« اغفرى لى هذه الاطالة فى الكتابة اليك • لقد فعلت ذلك دون أن أريده • وهأنا ذا أمسك • فلو واصلت الكتابة على هذا النحو فلن أستطيع أن أقول كل شىء فى مائة صفحة ، مع أنه تكفينى على وجه الاجمال عشرة أسطر • ان أسطراً عشرة كافية لاستدعاء « ممرضة » •

« أقيم منذ سفرى عند مدير محطة تبعد عن المدينة ست محطات • لقد قصفنا معا منذ خمس سنين ببطرسبرج • لا أحد يعلم أنى هنا • اكتبى الى على اسمه • أرفق اليك العنوان •

« نيقولاى ستافروجين • »

مضت داريا الى فرفاراً بتروفنا تطلعها على الرسالة • فلما قرأت فرفاراً بتروفنا الرسالة طلبت الى داشا أن تخرج لحظة : كانت تريد أن تعيد قراءتها وحيدة • ولكنها سرعان ما نادى الفتاة • وسألها بما يشبه الحجل :

– أتسافرين ؟

– نعم •

– استعدى • سنسافر معا •

ثم قالت فرفاراً بتروفنا مجيبةً عن نظرة استفهام من داشا :

– ما عساي فاعلة هنا ؟ استوت عندى الأمور • أنا أيضا سأصبح مواطنة فى أورى ، وسأقيم فى الجبال ••• لا تخشى شيئاً • لن أزعجكم •

كان ينبغى ركوب قطار الظهر ، فاذا بالكسى ايجورتش يظهر فجأة • فيروى أن نيقولاى سيفولودوفتش قد وصل الى سكفورشنيكى فى قطار

الصباح ، وان هيئته كانت غريبة ، وأنه كان لا يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه ، وأنه حبس نفسه في شقته لا يبارحها •

وأضاف ألكسى ايجورتشس يقول بلهجة ذات دلالة :

– لقد قررت أن أجيء الى هنا بدون أوامر ، وأن أطلعك على

الواقع •••

أقلت عليه فرقارا بتروفا نظرة نافذة ، ولكنها لم تلق عليه أى سؤال •
وسرعان ما أعدت العربة ، وسافرت فرقارا بتروفا الى سكفورشنكى مع
داشا •

كانت أبواب شقة نيقولاى فسيفولودوفتشس مفتوحة ، ولكن لم يمكن
العثور عليه هو •

قال أحد الخدم فى حذر :

– أترأه يكون فى الطابق العلوى ؟

فصعد الجميع الى الطابق العلوى فوجدوا الغرف الثلاث خالية •

قال أحدهم وهو يشير الى باب الطابق الذى يقع تحت السقف :

– أترأه صعد الى أعلى ؟

ان هذا الباب الذى يكون فى العادة مغلقا كان الآن مفتوحا على سعته
كلها فعلاً • ولم يكن يمكن الوصول اليه الا بصعود سلم خشبى طويل
ضيق قائم • وكان فى الأعلى حجرة تشبه أن تكون زنزانية •

دمدمت فرقارا بتروفا تقول وقد اصفر وجهها اصفرارا شديدا :

– لن أصد الى فوق • ما عساه يفعل هناك ؟

ونظرت الى الخدم الذين كانوا يتأملونها صامتين • وكانت داشا

ترتعد •

وعزمت فر فارا بتروفنا أمرها أخيراً فصعدت السلم بسرعة • ولكنها
 ما ان دخلت الغرفة حتى أطلقت صرخة كبيرة وسقطت مغشياً عليها •

كان مواطن « أوري » مشنوقاً وراء الباب • وكان على المائدة ورقة
 كتب عليها بالقلم الرصاص : « لا يُتَّهَمُ أحد • أنا الفاعل ! » • وكان
 الى جانب الورقة مطرقة وقطعة صابون ومسمار كبير لا شك أنه حُضِرَ
 استعداداً لكل طارئ • لا شك في أن الحبل الحريري المتين الذي استعمله
 نيقولاى فسيفولودوفتش قد اختير سلفاً ، وأحسن طليه بالصابون • ان
 كل شيء يدل على العمد وسبق الاصرار • ويدل على أن ستافروجين قد
 ظل الى آخر دقيقة يعي أفعاله وعياً كاملاً •

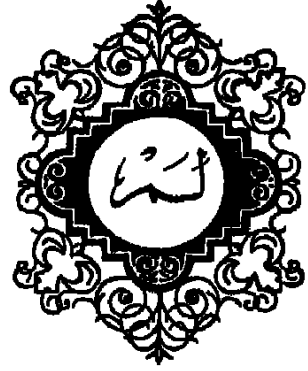
وقد نفى الأطباء الذين شرحوا الجثة ، نفوا نفياً قاطعاً افتراض خلل

• عقلى

اعتراف ستافروچین

الفصل التاسع

عند يخبو



ينم نيقولاى فيسيفولودوفتش فى تلك الليلة • ظل
جالسا على ديوانه الى أن طلع الصباح ، محدقا فى
بعض الأحيان الى ركن وراء المنضدة • وظل
مصباحه مضيئا طوال الليل • وفى الساعة السابعة
من الصباح نام وهو ما يزال جالسا ، فلما دخل عليه ألكسى ايجورتش فى
الساعة التاسعة والنصف تماما ، على عادته منذ زمان طويل ، حاملا اليه
قهوة الصباح ، وأيقظه من نومه ، ظهرت عليه دهشة بمخالطها انزعاج من
أنه أمكن أن ينام فى تلك الساعة المتأخرة • وشرب قهوته بسرعة ، ولبس
ثيابه ، وخرج بخطى حثيثة • فلما سأله الكسى ايجورتش محاذرا : «ماهى
أوامرك ؟ » ، لم يجب بكلمة واحدة •

اجتاز الشوارع خافضا عينيه ، مستغرقا استغراقا عميقا • وكان فى
بعض اللحظات فقط يرفع بصره ويبدو عليه أنه فريسة اضطراب يصعب
تحديده لكنه اضطراب شاق أليم • وعند مفترق طرق ، غير بعيد عن
المنزل ، كانت جماعة مؤلفة من نحو خمسين شخصا تجتاز طريقها • انهم
يتقدمون هادئين ، صامتين تقريبا ، مصطفين اصطفافا فيه نىء من نظام •

وعلى مقربة من دكان انتظر عندها لحظة ، قال له أحد الناس :
« هؤلاء عمال مصنع شيبجولين » ، فلم يكذب ينتبه الى كلامه . وأخيرا ، في
نحو الساعة العاشرة والنصف ، وصل الى الباب الكبير من ديرنا ، دير
العدراء فى « سباسو - ايمى » ، الذى يقع عند مخرج المدينة بقرب
النهر . وعندئذ توقف فجأة كأنه تذكر شيئا ما ، وتلمس جيبه الجانبى
بسرعة وقلق ، ثم ابتسم . حتى اذا دخل فناء الدير سأل اول راهب لقيه
من الرهبان المبتدئين أن يدخله على الأسقف تيخون المعتكف فى هذا
الدير . فقاده الراهب المبتدىء وهو يزجى اليه التحية تلو التحية . حتى
اذا وصلا الى النهاية من مبنى طويل ذى طابقين ، استولى عليه راهب ضخيم
أشيب الشعر ، وقاده خلال ممر طويل ، دون أن ينقطع عن تحيته (ولما
كان ضخما ضخامة شديدة وكان لا يستطيع أن ينحنى انحناء شديدا فقد
كان يهز رأسه بحركة قصيرة منتظمة) . ورغم أن ستافروجين كان يتقدم
فى سيره لا ينتظر أن يرجوه أحد أن يتقدم ، فقد كان الراهب لا ينى
يدعوه أن يتبعه . وكان لا ينى يلقى عليه أسئلة شتى ، ويتكلم عن الأب
الارشمندريت . فلما لم يحصل على أى جواب ، أصبح وضعه يزداد
احتراما لحظة بعد لحظة . ولاحظ ستافروجين أنه معروف فى الدير ،
رغم أنه فيما يذكر لم يكن قد ذهب اليه منذ طفولته . وحين وصل الرجلان
الى الباب فى آخر الممر ، فتحه الراهب بيد قوية ، وسأل الخادم بغير
كلفة ، منذ هرع هذا اليهما ، هل يمكن الدخول ، ثم لم ينتظر جواب
الخادم بل فتح الباب واسعا ، وأدخل « الضيف العزيز » . فشكر له
ستافروجين جميله ، فأسرع يغيب فورا كأنما هو يفر فرارا .

دخل نيقولاى فيسيفولودوفتش غرفة ضيقة . فاذا برجل طويل
القامة نحيل الجسم يظهر فى اطار باب الغرفة المجاورة على الفور تقريبا .
انه فى نحو الخمسين من عمره ، يرتدى جبة خشنة ، ويبدو عليه شىء

من مرض ، له نظرة غريبة ، خجلة وجلة ، وابتسامة على الشفتين حيرى مترددة • انه تيخون ذاك الذى سمع عنه نيقولاى فسيفولودوفتشس أول مرة من شاتوف ، وجمع عنه بعد ذلك معلومات شتى • لقد كانت تلك المعلومات متناقضة ، ولكن لها جميعها سمة مشتركة : هى أن الذين يحبون تيخون والذين لا يحبونه (ان هناك أناساً لا يحبونه) كانوا يسكتون دائماً عن شىء ما ، فأما الذين لا يحبونه فانهم يسكتون من باب الاحتقار ، وأما الذين يحبونه بل يحبونه بحرارة فانهم يسكتون من باب التكتم • لكنهم يريدون أن يخفوا ضعفاً ما ، كأنهم يريدون أن يخبثوا هوساً بريئاً • وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتشس أن الرجل يقيم فى الدير منذ ست سنين ، وأن الناس كثيراً ما يفدون لزيارته (انهم أناس من الشعب ، ولكن بين زائريه كذلك أشخاصاً من أعلى طبقة) ، وأن له معجبين متحمسين ، حتى فى بطرسبرج ، وأن له معجبات خاصة • ولكن نيقولاى فسيفولودوفتشس سمع رجلاً مسناً خطير الشأن من أعضاء نادينا ، وهو رجل شديد التدين ، سمعه يقول : « ان تيخون هذا رجل يكاد يكون مجنوناً ، وانه على كل حال انسان تافه ، وأغلب الظن أنه سكير • » • يجب أن أقول ان هذا الاتهام الأخير كان باطلاً كل البطلان ، وان تيخون كان لا يشكو الا من روماتزم فى ساقيه ، ومن تشنجات عصبية فى بعض الأحيان • وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتشس أيضاً أن الأسقف المعتكف لم يستطع ، اما لضعف فى شخصيته واما لذهول لا يعترف له ولا يتفق ومنزلته ، لم يستطع أن يفرض على المدير ما توجه له رتبته من احترام • حتى لقد كان يقال ان الأب الأرشمندريت ، وهو رجل متقشف وصارم فى كل ما يتعلق بموجبات الصلاة ، وهو عدا ذلك رجل مشهود له بالعلم ، كان يحمل للأسقف تيخون نوعاً من عاطفة العداوة ويأخذ عليه (بطريقة غير مباشرة فى الواقع) أن حياته رخوة ، كما يعيب عليه ما كان يصفه بأنه

« هرطقات » • وكان الرهبان أيضا يعاملون الأسقف المريض معاملة خالية من الكلفة ان لم يكن فيها شيء من الازدراء أيضا •

ان الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة تيخون • مؤثنتان تأثيثاً غريباً • فعلى مقربة من أثاث قديم ثقيل منجد بجلد مهترى • هناك عدد من الأشياء الجميلة : أريكة حافلة بالزخرف مريحة جدا • مكتب كبير محفور خشبه حفرأ رائعاً • خزانه للكتب • موائد • أرفف • انها هدايا • وهذه سجادة ثمينة من سجاد بخارى تجاوز حُصراً من قش • وهناك عدد من لوحات « عصرية » • أسطورية • وأيقونات مرصعة بذهب وفضة منها واحدة تضم بقايا قديسين • ويقال ان المكتبة كانت كبيرة التنوع : فالى جانب مؤلفات آباء الكنيسة توجد مسرحيات • وربما وُجد « ما هو أسوأ من المسرحيات أيضا » •

فبعد المجاملات الأولى التى تبادلها الرجلان بشيء من الانزعاج وفى غير وضوح (لا ندرى لماذا) • أدخل تيخون ضيفه الى حجرة عمله • وأجلسه على الديوان قبالة الطاولة • وجلس هو قريبا منه كل القرب • على مقعد من خشب الخيزران • ان نيقولاى فسيفولودوفتش الذى يجيش فى داخل نفسه انفعال قوى • كان ذاهل الهيئة • يبدو عليه أنه اتخذ قرارا خارقاً • لا رجوع عنه ؟ ولكن لا يمكن تحقيقه فى الوقت نفسه • وأجال بصره فى الغرفة • ولكن دون أن يتلبث على شيء مما يرى • كان يفكر • ولكن لا يدرى حتماً فى أى شيء كان يفكر • وأيقظه الصمت • وبدأ له فجأة أن تيخون قد خفض عينيه مرتبكاً حتى انه ابتسم ابتسامةً غريبة • فسرعان ما أيقظ ذلك فى نفس نيقولاى فسيفولودوفتش اشمئزازاً وتمرداً • وأراد أن ينهض وينصرف • لا سيما وأن تيخون كان فى رأيه سكران كل السكر • غير أن تيخون لم يلبث أن رفع عينيه فجأة ورمقه بنظرة تبلغ من الثبات ومن الامتلاء بالفكر • ومن البعد عن التوقع • ومن الالغاز • فى

الوقت نفسه ، أن نيقولاى فسيبولودوفتش ارتعش تقريباً • لقد بدا له أن تيوخون يعرف سلفاً السبب الذى دفعه الى المجيء ، وأنه على علمٍ بالأمر (مع أن أحداً لم يستطع أن يعرف سبب زيارته هذه) ، وأنه اذا لم يسبقه الى الكلام فذلك لأنه يداريه ويخشى اذلاله •

قال نيقولاى يسأل الأسقف بصوت متقطع :

– هل تعرفنى ؟ أعرّفت بنفسى حين دخلت أم لا ؟ اننى شديد

الذهول •••

– لم تعرّف بنفسك ، ولكن سبق أن سعدت برؤيتك مرةً ، منذ أربع سنوات ، فى هذا الدير نفسه ، مصادفةً •••

كان تيوخون يتكلم ببطء شديد ، وصوتٍ متساوٍ رقيق عذب ، ناطقاً كل كلمة من كلماته بوضوح وجلاء •

أجابه نيقولاى فسيبولودوفتش يسأله بما يشبه أن يكون فظاظه :

– أتقول اننى جئت الى هنا منذ أربع سنين ؟ أنا لم أجدى الا حين كنت طفلاً ، ولم تكن أنت حينذاك فى الدير •••

قال تيوخون بآناة وروية من غير الحاح :

– لعلك نسيت •••

– لا ، لم أنس • من المضحك أن لا أتذكر •••

كذلك أجابه ستافروجين بشيء من الغلو ، وأضاف :

– لعلك سمعت عنى ، فتكوّن فى ذهنك رأى معيّن ، فتخيلت الآن

أنتك رأيتنى من قبل •

صمت تيوخون • فلاحظ نيقولاى فسيبولودوفتش عندئذ أن وجهه

تلم به فى بعض الأحيان رعشات ، وهذه علامة مرض فى الأعصاب متأصل •
فقال :

- لكننى أرى أن صحتك اليوم ليست حسنة ، فلعل الأفضل أن
أنصرف •

• ونهض

قال تيخون :

- نعم ، أمس واليوم انتابتنى آلام فى الساقين ، ولم أتم هذه الليلة
الا قليلاً •••

وتوقف تيخون عن الكلام • وعاد ضيفه يستغرق فى تفكيره الغامض
فجأة • ودام الصمت مدة طويلة تقارب دقيقتين •

قال ستافروجين على حين بفتة بشىء من القلق والريب :

- انك تلاحظنى •••

- اننى انظر اليك فأتذكر ملامح وجه أمك • هناك تشابه نفسى
روحى كبير ، رغم اختلاف المظهر الخارجى •

- ليس هناك أى تشابه ، ولا سيما من الناحية الروحية ••• أبداً •••
ما ••• من ••• تشابه ••• البتة !

كذلك قال نيقولاى فسيفولودوفتشس بالحاح فيه مغالاة ، دون أن
يعرف هو نفسه لماذا • وأضاف فجأة :

- انك تقول هذا ••• من باب الشفقة على حالتى • سخافات ! •••
ولكن ماذا ؟ هل تأتى أمى اليك ؟

- نعم •

- لم أكن أعرف ذلك • لم تقل لي هي هذا في يوم من الأيام • هل تأتي كثيراً؟

- كل شهر تقريباً ، وأكثر من ذلك أحياناً •

- لم أعلم بهذا أبداً ، أبداً • ولكن لا شك أنك أبت قد علمت منها انني مجنون ، أليس كذلك؟

هذا ما أضافه سائلاً علي حين بغتة •

- لا • لم تحدثني عنك حديثها عن مجنون تماماً • ولكنني سمعت آخرين يقولون هذا •

- لا شك أن ذاكرتك قوية اذا كنت تستطيع أن تتذكر أمثال هذه الترهات • وعن الصفة ، هل سمعت شيئاً؟

- بضع كلمات •

- أي كل شيء • وقتك واسع جداً على كل حال • وعن المباراة ، هل حدثوك أيضاً؟

- عن المباراة أيضاً •

- انك تعرف أشياء كثيرة هنا • في مثل هذا المكان لا حاجة الى جرائد • وهل كلمك شاتوف عنى؟ هيه؟

- لا • أنا أعرف شاتوف • لكنني ما رأيته منذ مدة طويلة •

- هم! ••• ما هذه الخريطة التي عندك؟ آ••• خريطة الحرب لأخيرة • ولكن ما حاجتك أنت ، أنت ، إليها؟

- كنت أدرسها قارئاً النص • انه لوصف شائق جداً •

– أرني ! نعم ، كتابة جيدة • ولكن ما أغرب أن يقرأ رجل مثلك
هذه الأمور !

وشدّ البه الكتاب وألقى عليه نظرة • انه تاريخ مفصّل جدا يسرد
وقائع الحرب الأخيرة وصفاً ممتازاً ، ولكنه لا ينظر الى الأمور من الناحية
العسكرية خاصة ، بل هو أقرب الى أن يكون عاما وأديبا • قلب ستافروجين
صفحات الكتاب وأعاد تقليبها ، ثم رماه نافذ الصبر •

وقل مشمئز الهيئة وهو يحدق الى عيني تيمخون وكأنه ينتظر منه
جواباً :

– اننى لا أدري حقا لماذا جئت الى هنا •

فقال له تيمخون :

– أنت أيضا يبدو عليك أنت مريض •

– فعلاً •

فال ستافروجين ذلك وطفق يروى بغتة ، بجمل قصيرة مقطعة ،
حتى ليصعب فهمها أحيانا ، أنه توافيه هواجس غريبة ، ولا سيما فى الليل ،
وأنه يرى فى بعض الأحيان أو يحس أن يقربه كائناً شريراً ساخراً
« معقولا » يظهر له فى صور شتى وطباع مختلفة ، « ولكنه هو هو نفسه
دائما ، وأنا يستمر حقى فى كل مرة ••• » •

غريبة ومشوشة كانت هذه الاعترافات التى تكاد تكون خليقة
بمخون حقا • ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش كان فى الوقت نفسه يتكلم
بصراحة خارقة وصدق غريب عن طبعه ، حتى لكأن الانسان القديم فيه
قد اختفى اختفاء تاما مباغتا • لم يشعر بأى خجل من التعبير عن الخشية
التي كان يوقظها فى نفسه هذا الشبح • ولكن ذلك كله لم يدم الا لحظة

واحدة ، وما لبثت هذه الحالة النفسية أن زالت على غير توقع كما جاءت على غير توقع •

قال في غضب وقد تاب الى نفسه :

– هذا كله سخافات • سامضى استشير طيبيا •

فقال تيخون يؤيده :

– افعل • يجب أن تفعل حتماً •

– انك تتكلم جازماً • فهل رأيت أُناساً • نلى يهانون هذا النوع من

الهُواجس ؟

– نعم رأيت ، ولكن قليلاً • اننى أتذكر واحدا • كان ضابطا وقع له ذلك بعد فقدته امرأته التى كانت له حليمة لا تضاهى • وسمعت عن واحد آخر • وقد سقى الاثنان كلاهما فى الخارج • هل توافقك هذه الأشياء منذ مدة طويلة ؟

– منذ سنة تقريبا • ولكن ما هذه الى تفاهات • ساستشير طيبيا • تفاهات ! تفاهات سخيفة مضحكة ! هذا أنا نفسى فى وجوه مختلفة • ذلك كل شىء • لا شك أنك تتصور ، بعد أن أضفت أنا هذه العبارة ، اننى ما زلت أنمك ، واننى لست واثقا بأن هذا أنا حقا وليس الشيطان •

نظر اليه تيخون نظرة استفهام • وسأله :

– و ... هل تراه فعلاً ؟ أقصد دون أن تحتفظ بفكرة أن هذا

ليس الا هلوسة كاذبة مرضية ؟ هل ترى صورة ما بالفعل ؟

أجابه ستافروجين الذى كان حنقه يزداد من جديد لدى كل كلمة :

– غريب الحاحك على هذا بعد أن شرحت لك اننى أرى ... أرى

قطعا ... كما أراك ! ... أحيانا أرى ولا أثق بأننى أرى ، رغم علمى

بأن هذه هي الحقيقة : اما أنا واما هو ... سخافات ! ولكن هل يستحيل عليك أن تسلّم بأنه الشيطان ؟ ان هذا التسليم أكثر اتفاقاً ومهنتك ، هه ؟
أضاف هذا السؤال ضاحكاً ، هاوياً الى الهجة ساخرة على حين فجأة •

قال تيخون :

- الأرجح أن الأمر مرض ، ومع ذلك ...

- مع ذلك ؟

- الشياطين موجودون حتماً • ولكن يمكن تصنورهم على أنحاء

مختلفة ...

عاد ستافروجين يقول بلهجة غاضبة ساخرة :

- انك قد عدت تخفض عينيك لأنك تخجل عنى اذا أنا صدقت

بوجود الشيطان • ولكن هأنذا أظهار بعدم التصديق فألقى عليك ماكرآ

هذا السؤال : أهو موجود حقا أم لا ؟

فابتسم تيخون ابتسامة غامضة •

قال ستافروجين :

- لا يناسبك البتة أن تخفض عينيك : هذا غير طبيعي ، هذا مضحك ،

هذا متصنّع • ومن أجل أن أكفّر عن هذه الغلطة منى سوف أقول لك

جداً ، بصفاقة : نعم ، انى أؤمن ايماناً مطابقاً لايمان الكنيسة ، أؤمن

بوجود شيطان شخصى ، لا شيطان رمزى ؛ ولست أحتاج البتة أن أسألك •

هذا كل شيء • لا بد أن تكون سعيداً غاية السعادة •

وانفجر ستافروجين يضحك ضحكاً مكرهاً ، عصيباً • فرمقه تيخون

مستطعلاً بنظرة رقيقة جداً ، نظرة كأنها تشتمل على شيء من خجل •

وهذا ستافروجين يرميه فجأة بهذا السؤال :

- أتؤمن بالله ؟

- أؤمن بالله •

- ولكن قيل في الكتاب : اذا آمنت وأمرت الجبل أن يسير لأطاعك !

••• هذه سخافات على كل حال ! ولكنى حريص على أن أعرف منك :

هل يمكنك أن تنقل جبلاً ؟

- نعم ، اذا الله أمر •••

كذلك أجاب تيخون برقة وحياء ، خافضاً عينيه من جديد • فأجابه

ستافروجين :

- فكأن الله نفسه هو الذى حرّك الجبل ؟ ولكنى أسألك هل

تستطيع أنت ، أنت ، أن تحرّكه مكافأةً لك على ايمانك بالله ؟

- ربما •

- ربما • جواب حسن • لماذا تشك ؟

- ايمانى ناقص غير كامل •

- كيف ؟ ايمانك أنت أيضا ؟ ناقص غير كامل ؟ ما كان لى أن

أفترض هذا حين أراك •

كذلك قال ستافروجين وهو يتأمل تيخون بدهشة ، بل بسذاجة ،

وهو أمر لا يتفق ولهجة السخرية التى ألقى بها أسئلته السابقة • قال

تيخون :

- نعم ، قد لا يكون ايمانى كاملاً •

- لكنك تؤمن مع ذلك بأنك قادر بمعونة الله على أن تنقل الجبل •

هذا وحده شيء • انك تريد الايمان على الأقل • وأنت تفهم كلمة «الجيل»
 بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى المجازي • هذا وحده كثير • مبدأ عظيم • اتمد
 لاحظت أن التقدمين بين كهنتنا يميلون ميلاً قويا الى اللوثرية ، فلا مانع
 عندهم من تعليل المعجزات بأسباب طبيعية • هذا أفضل على كل حال من
 عبارة « قليلا جدا » التي قالها أحد الكهنة ، وهو تحت السكين • أنت
 مسيحي قطعاً ؟

كان ستافروجين يتكلم بسرعة كبيرة ، وصوت ساخر تارةً جاد
 تارةً أخرى • ولعله كان لا يعرف هو نفسه لماذا يقول هذه الأشياء كلها ،
 ولماذا يسائل تيخون ، ولماذا يضطرب ويتحرك !

دمدم تيخون يقول بنوع من الاندفاع وهو يخفض رأسه مزيداً من
 الخفض :

– ربّ اني لن أخجل من صليبك !
 وأخذت أطراف شفّته تخرّج فجأة •
 سأله ستافروجين :

– ولكن هل يمكن الايمان بالشیطان من غير ايمان بالله ؟
 – هذا يمكن جدا ، ويحدث كثيراً •
 ورفع تيخون عينيه وابتسم أيضاً •
 قال ستافروجين وهو ينفجر ضاحكاً :

– واني لعلّ يقين من أنك ترى أن هذا الايمان أجدر بالاحترام من
 الجحود الكامل •

فابتسم تيخون من جديد ، وقال بما يشبه المرح ، مع استمراره على
 تأمل ضيفه قلقاً بعض القلق :

- بل الالحاد الكامل أجدر بالاحترام من عدم الاكتراث •

- هوه ! ما أعجب هذا الكلام ! انك لتدهشنى حقا !

- الملحد الحاداً كاملاً واقف على الدرجة الأخيرة التي تسبق الايمان الكامل (أن يخطو هذه الخطوة الأخيرة أو أن لا يخطوها فتلك مسألة أخرى) • أما الذى لا يكثرث ولا يبالي ، فانه لا يملك أى ايمان ، وليس فى نفسه الا شىء من الخوف أحياناً ، هذا اذا كان امرءاً حساساً •

- هم ؟؟؟ هل قرأت رؤيا القديس بوخنا ؟

- نعم •

- هل تذكر قوله : « اكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكين » ؟؟؟

- أذكر •

سأل ستافروجين وهو ينظر حوله مضطرباً :

- أين الكتاب ؟ أريد أن أقرأ لك تلك الأسطر • هل عندك ترجمة

روسية ؟

قال تيخون :

- أعرف تلك الأسطر • أتذكرها تذكراً واضحاً •

قال ستافروجين :

- أتخفظه على ظهر القلب • اتله على ! •••

وخفض عينيه ، ووضع يديه مبسوطتين على ركبتيه ، وتنهياً للاصغاء •

تلا تيخون الأسطر : « وكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكين : هذا يقوله الشاهد الأمين الصادق بداعة خليفة الله : أنا عارف أعمالك • انك لست بارداً ولا حاراً • لبتك كنت بارداً أو حاراً • فلأنك لست بارداً ولا

حاراً أنا مزعم أن أتقيأك من فمي • لأنك تقول انى غنى وقد استغنيت ولا حاجة بى الى شىء ، ولست تعلم أنك شقى وفقير وأعمى وعريان • • • • •

قال ستافروجين مقاطعاً :

– كفى ! هل تعلم ؟ اننى أحبك كثيراً •

فأجابه تيخون يقول بصوت خافت :

– وأنا أيضا •

وصمت ستافروجين وعاد يهوى فجأة فى أحلامه • لقد نكرر هذا نالك مرة ، كأنه نوع من نوبة • وفى نوبة من هذه النوبات انما قال لتيخون : « أحبك » • وكان هو نفسه لا يتوقع ذلك •

وخيم الصمت دقيقة •

دمدم تيخون يقول وهو يلامس باصبعه كوع ستافروجين ملامسة خفيفة ، وكأنه هو نفسه خائف :

– لا تزعل •

فانتفض ستافروجين وقطب حاجبيه غاضباً ساخطاً •

وسأل قائلاً بسرعة :

– كيف عرفت اننى زعلت ؟

فأراد تيخون أن يتكلم ، ولكن الآخر قاطعه وقد استبد به انفعال لا يمكن فهمه ؟ قال :

– لماذا افترضت أننى لا بد أن أزعل ؟ نعم ، لقد غضبت • انك على حق ، وانما غضبت لأننى قلت لك اننى أحبك • انك على حق • ولكنك مستخف فظ • ان لك رأياً منحطاً جداً فى الطبيعة الانسانية • كان يمكن

أن لا يثور هذا الغضب لو كنت تخاطب شخصا آخر غيري • على كل حال ، ان شأنك ليس مع أى شخص ، بل معي أنا • مهما يكن من أمر ، فأنت رجل طريف ، برىء •

كان يسترسل مزيدا من الاسترسال لحظة بعد لحظة ؛ والشئ الغريب أنه كان يفقد كل ترويه فى كلامه • قال :

- اسمع جيدا : اننى لا أحب علماء النفس والجواسيس أو على الأقل لا أحب منهم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الى قرارة نفسى • اننى لا أدعو أحداً ، ولست فى حاجة الى أحد • سوف أدبر أمورى بنفسى • أتظن أننى خائف منك ؟

رفع صوته وأنهض رأسه بحركة تحدٍ • وأضاف يقول :

- أنت واثق اننى انما جئت اليك لأعترف لك بسر رهيب ، وأنت تنتظر هذا السر بكل ما يتصف به كاهن مثلك من فضول • ألا فاعلم اننى لن أكشف لك عن شئ ، لن أكشف لك عن أى سر ، لأننى لست فى أية حاجة اليك ••• لأنه ليس هناك أى سر ••• ما هذا منك الا تهاويل خيال •••

ألقى عليه تيحون نظرة ثابتة •

- لقد فجأك أن ترى أن « الحمل » يؤثر البارد على الفاتر ، كما يقول ، فأردت أن لا تكون بارداً • اننى أحس ان قرارا خارقا ، قرارا لعله رهيب ، يستولى عليك • أرجوك ، أضرع اليك ، كفاك تعديبا لنفسك وقل كل شئ •

- أنت واثق اذن اننى جئت وأنا أبيت فكرة ؟

دمدم تبخون يقول خافضا عينيه :

- حذرت ذلك ... من وجهك •

كان نيقولاى فيسيفولودوفتش شاحباً بعض الشحوب ، وكانت يدها ترتعشان قليلاً • ولبت بضع ثوانٍ يحدّق الى تبخون صامتاً • وأخيراً ، استل من الجيب الجانبى فى رذنجوته ملازم مطبوعة ، ووضعها على المائدة • وقال بصوت متقطع بعض التقطع :

- هذه الأوراق مُعدّة للنشر • فاذا قرأها ولو شخصٌ واحد ، فاعلم اننى لن أخفيها ، وأن الجميع سيقرونها • هذا أمر مقرر • لست فى حاجة اليك البتة ، لأننى قررت كل شيء • ولكن اقرأ ... وأثناء القراءة لا تقل شيئاً ، حتى اذا فرغت من القراءة قلّ كل شيء ...

سأله تبخون متردداً :

- هل يجب أن أقرأ ؟

- اقرأ • اننى هادىء كل الهدوء •

- بدون نظارتين لا أستطيع أن أميّز شيئاً • الأحرف صغيرة جدا •
هذا مطبوع فى الخارج •
- اليك النظارتين •

ناول ستافروجين النظارتين من على المائدة ومدّهما اليه • ثم ارتد بجسمه الى وراء مستندا على ظهر الأريكة •

واستغرق تبخون فى القراءة •

٢

هي خمس ملازم مضبورة ، من القطع الصغير ، قد طبعت في الخارج فعلاً على ورق من ورق الرسائل خفية ، وربما في مطبعة روسية سرية . انك اذا نظرت الى هذه الملازم نظرة أولى رأيتها تشبه كثيراً المنشورات التحريضية . وقد استهلت بهذه العبارة : « من ستافروجين » .

اننى أثبت هذه الوثيقة بنصّها حرفاً حرفاً (ويجب أن نعتقد أن كثيرين يعرفونها الآن) . ولكننى أبحث لنفسي أن أصحح فقط بعض أخطاء الاملاء وهي كثيرة حتى لقد أدهشتنى ، لأن كاتبها رجل مثقف على كل حال ، ولا شك أنه قد قرأ كثيراً (نسيياً) . أما الأسلوب فقد تركته على حاله ، رغم أخطائه ورغم ما فيه من أنواع التفكك . انه لمن الواضح على كل حال أن صاحب هذه الصفحات ليس كاتباً . وأبجح لنفسي كذلك ملاحظة أخرى ، فاستبق الوقائع . . .

فى رأى أن هذه الوثيقة ثمرة من ثمرات المرض ، وأنها من عمل الشيطان الذى استولى على هذا الرجل . هذا شأن المريض الذى يعانى آلاماً شديدة : انه ما ينفك يتقلب على سريره يائساً يبحث عن وضع يهدىء ألمه ولو لحظة . فاذا لم يهدئه هذا الوضع أحلّ محلّه وضِعاً آخر مدة دقيقة . وهو عندئذ لا يتساءل طبعاً هل هذا التبديل حسن أو معقول .

ان ما يسيطر على هذه الوثيقة هو الحاجة الرهيبة الصادقة الى العقاب ، هو الحاجة الى الصليب ، الى العذاب على مرأى من الناس . غير أن هذا الظماً الى الصلب يعذب امرءاً لا يؤمن بالصليب . « وهذا وحده يمثل فكرة » ، كما عبّر عن ذلك ستيفان تروفيموفتش يوماً فى مناسبة تختلف عن هذه كل الاختلاف .

ومن جهة أخرى تشتمل هذه الأوراق على شيء من عنف واستفزاز وتحدٍ ، رغم أنها كتبت لغرضٍ آخر تماما . ان كاتبها يصرّح أنه « لم يستطع » أن لا يكتب ، وأنه « أُجبر » على الكتابة اجباراً . وهذا جائز جدا . لقد كان يسعده أن يستطيع ابعاد هذه الكأس المرة عنه ، ولكن ذلك كان يستحيل عليه حقا . لذلك انتهز هذه الفرصة فأرختي العنان لعنفه . نعم ، ان المريض يتحرك في سريره ويحاول أن يحلّ المأ محلّ ألم . وهاهو ذا يبدو له أن الصراع ضد المجتمع سيخفف عنه بعض التخفيف ، فاذا هو يتحدى المجتمع . ان مجرد تحرير هذه الوثيقة هو تحدٍ غير متوقع ، وقلة احترام للمجتمع . ان كاتب هذه الوثيقة يهيمه أن يستفزّ خصماً ما بأقصى سرعة

ومن يدري ؟ لعل هذا كله ، أعني هذه الأوراق المهيأة للنشر ، انما ينتمى الى ذلك النوع نفسه من الوقائع ، الذي تنتمى اليه واقعة عض أذن الحاكم ! لماذا توافيني هذه الفكرة اليوم بعد أن اتضححت أشياء كثيرة ؟ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه . اننى لا أتى بأى دليل على كل حال ، ولا أستطيع أن أوكد أن هذه الوثيقة كاذبة ، أى لفقها الخيال تلفيقا . قد تكون الحقيقة واقعةً بين هذه الطرفين الأقصيين ولكننى أستبق الحوادث . الأفضل أن نرجع الى الوثيقة نفسها . فاليكم ما قرأه تيمخون :

« من ستافروجين

« أنا ستافروجين ، الضابط المتقاعد ، قد قضيت سنوات ألف وثمانمائة وستين و . . . ببطرسبرج مسترسلاً فى الدعارة استرسالاً لم أجد فيه أية متعة . كان لى خلال فترة من تلك السنين ثلاث شقق : ففى احداها كنت أسكن مع خادم يقوم بأعمال البيت ؟ وكانت ماريا ليادكين التى هى زوجتى شرعاً أمام القانون تسكن فى تلك الشقة أيضا . وقد استأجرت الشقتين الأخرين لأستقبل فيهما عشيقاتي : ففى احداها كنت أستقبل سيدة كانت

تجبنى ، وفي الشقة الأخرى كنت أستقبل خادمتها • وكانت رغبتى آنذاك هي أن أجعلهما تلتقيان عندي ، ككلاهما ، السيدة والفتاة • وكنت لمعرفتى بطبعهما أتنبأ لهذه المزحة أن تحدث لى متعةً كبيرة • ومن أجل أن أهى ، هذا اللقاء فى يسر كان علىّ أن أذهب أحيانا كثيرة الى واحدة من هاتين الشقتين ، تقع فى منزل كبير بشارع جوروخوفايا • فالى هناك انما كانت تأتى الخادمة • كنت أشغل فى ذلك المنزل عند بورجوازيين صفار غرفة فى الدور الرابع • وكان أصحاب البيت يشغلون غرفة أخرى أصغر ، بل غرفةً تبلغ من الصغر أن الباب الذى يفصل بيننا كان يجب أن يظل مفتوحا على الدوام • وذلك بعينه ما كنت أريده • لقد كان الزوج ، وهو يرتدى قفطانا طويلا ، يعمل فى مكتب من المكاتب ، فكان يذهب فى الصباح ولا يرجع الا ليلاً • وكانت المرأة وهى فى نحو الأربعين من العمر تخطط وتصلح ملابس قديمة • وكانت تخرج فى كثير من الأحيان لتحمل عملها الى زبائنها • فكان يُتاح الى اذن أن أنفرد بابتهايم الطفلة • كان اسمها ماتريوشا • وكانت الأم تحبها ، ولكنها تضربها أحيانا كثيرة وتشتتمها على عادة أمثال هؤلاء الناس • وكانت هذه الصغيرة تخدمنى وترتب غرفتى • انى أعلن الآن أنتى قد نسيت رقم تلك العمارة • وقد علمت أن المنزل القديم قد هُدم وأن عمارة جديدة كبيرة جدا قد شيدت فى مكان مبين أو ثلاثة مبان قديمة هناك • وقد نسيت أيضا اسم صاحبي الشقة • ومن الجائز أن لا أكون قد عرفت اسميهما فى يوم من الأيام • أذكر أن المرأة كان يقال لها ستيفانيدا ، أما اسمه هو فلا أتذكره • أين هما الآن ؟ لا أدري البتة • أحسب أننا اذا تقصينا الأمر لدى قسم الشرطة ببطرسبرج ، فقد نهتدى الى أثرهما • كان المسكن يطل على الفناء ويحتل زاوية منه • جرى ذلك فى شهر حزيران • كان المنزل مدهونا بلون أزرق شاحب • فى يوم من الأيام اختفت مطواتى من على المائدة • ولم أكن فى حاجة

الى تلك المطواة على كل حال • كانت لا تعينى فى شىء • كلمت فى الأمر صاحبة البيت ، دون أن يخطر ببالى أنها ستجلد ابنتها • ولكنها كانت قد أمسكتها منذ قليل بسبب اختفاء خرقة (ممسحة) ظنت الأم أن الطفلة قد استعملتها لتصنع منها لعبة (عروسة) • حتى لقد شدت لها شعرها • فلما عُنر على تلك الخرقة ، فيما بعد ، تحت الحصيرة ، لم تشأ الطفلة أن تنطق بكلمة لوم واحدة ، وظلت صامتة • وقد لاحظت أنها تعمدت أن لا تنطق ، وأنا أتذكر هذا ، لأننى فى تلك اللحظة انما اتبعت الى وجه الطفلة الذى لم يلفت انتباهى حتى ذلك الحين • انه أشقر شقرةً ساحبةً ، الى بقع حمراء • وجه عادى • غير أن فيه كثيرا من الطفولة والهدوء ، بل كثيرا جداً من العذوبة والسكينة • لقد استاءت الأم من أن ابنتها لم تلمها وصمتت • وفى تلك اللحظة انما جاءت حكاية المطواة • استمر حنق الأم من أنها ضربت ابنتها ظلماً • فهامى ذى تتناول أسواطاً وتمضى تجلد الطفلة الى أن تفجرت دماؤها على مرأى منى ، رغم أن الطفلة كانت قد دخلت السنة الثانية عشرة من عمرها • لم تصرخ ماتريوشا وهى تُجلد • ولا شك أن ذلك يرجع الى وجودى • ولكنها كانت تشهق شهيقاً غريباً عند كل جلدة • ولقد ظلت تشهق ساعة كاملة بعد انتهاء الجلد • حتى اذا انتهى توقيع العقوبة عثرت على مطواتى فجأة فوق سريرى فى الغطاء • فوضعتها فى جيب صديرتى صامتاً • فلما خرجت رميتها فى الشارع حتى لا يعلم أحد شيئاً • وشعرت على الفور أننى قد ارتكبت عملاً حقيراً جباناً ، لكننى أحسست أيضاً بلذة ، لأن فكرة قد ومضت فى ذهنى فجأة وأحرقتنى كجمرة ، وتلبثت أنا عليها • وقد لاحظت فى تلك المناسبة اننى سبق لى مرارا أن استولت على حد الجنون مشاعر شريرة شتى كنت أصرُّ عليها اصرارا محموما وأُشغف بها شغفا شديداً ، ولكن دون أن أفقد كل سيطرة على نفسى وكل تحكم بارادتى فى يوم من الأيام • فحتى

حين تمحقنى حرارتها وحين تبلغ أقصى درجات قوتها كنت أستطيع دائماً أن أنتصر عليها وأن أوقفها • ولكن كان يندر أن أريد أن أفعل ذلك • وانى أعلن فى الوقت نفسه اننى لا احاول أن أدفع عن نفسى المسؤولية بحجة تأثير البيئة أو بحجة المرض •

انتظرت بعد ذلك يومين • أصبحت الطفلة بعد بكائها أشد صمتاً • انى لعلى يقين من أنها لم تكن تحمل لى أنا أية عاطفة سيئة رغم أنها شعرت حتما بشيء من الخجل لانزال العقوبة فيها على مرأى منى • لكنها وهى الطفلة الخضوع كانت تؤاخذ نفسها على هذا الخجل • أذكر هذا لأن له شأنًا هاما فى قصتى ••• قضيت بعد ذلك ثلاثة أيام فى شقتى الأولى • انها منزل مفروش تفوح منه دائماً رائحة كريهة من روائح الطعام ، ويزدحم دائماً بالناس : موظفين صغار ، مستخدمين بلا عمل ، أطباء لا زبائن لهم ، أنواع شتى من البولنديين يسعون حولى بغير انقطاع • اننى أذكر كل شيء • كنت أعيش فى ذلك المنزل الذى يشبه أن يكون مدينة سدوم ، أعيش متوحداً ، متوحداً فى داخل نفسى ، لكننى محاط دائماً بعصبية صاحبة من « الرفاق » الذين يخلصون لى الى أبعد حدود الاخلاص ويكادون يعبدوننى عبادةً بسبب محفظة نقودى • أظن أننا كنا نفعل دناءات كثيرة • حتى لقد كان المستأجرون الآخرون يخشوننا ، أقصد أنهم ظلوا لطافاً فى معاملتنا رغم خلاءاتنا وبداءاتنا وحماقاتنا التى كانت فى بعض الأحيان لا تُغتفر • أعود فأكرر : لقد كنت أشعر حتى بشيء من اللذة حين أتصور أننى سأنفى الى سيبيريا • وكنت أبلغ من السأم والضجر أننى كان فى وسعى أن أشنق نفسى • واذا لم أشنق نفسى ، فلأننى كنت ما أزال يراودنى أمل ما ، كما كنت طوال حياتى • وأذكر اننى عنيت حينذاك باللاهوت عنايةً تشتمل حتى على كثير من الجسد ، وأننى استطعت أن أسلتي نفسى قليلاً • ولكن ضجرى ازداد بعد ذلك • أما عواطفى

الاجتماعية فهي لا تتجاوز الرغبة في تحطيم كل شيء ، لو كان هذا التحطيم يستحق العناء . ولكن يجب أن أضيف أن تلك الرغبة لم يكن فيها خبث وشر وانما هي ترجع الى ضجرى الشديد ، لا الى شيء آخر . لست اشتراكيا البتة . اننى افترض أن ذلك كان مرضاً . حين سألت الدكتور دوبروليسوبوف مازحاً : « أليس هناك عقار يمكن أن ينشّط الطاقة الاجتماعية » ، فان هذا الطبيب الفاضل ، الذى لا عمل له ، والذى يعول أسرة كبيرة ، ويقيم فى منزلنا ؛ قد أجابنى بقوله : « لتنشيط الطاقة الاجتماعية لا يوجد عقار فيما أظن ، ولكن قد تجد عقاقير لتنشيط الطاقة الاجرامية » . ان هذا المزاح قد سرته كثيرا رغم فقره الرهيب ورغم أنه مسؤل عن امرأة حبلى وابتين صغيرتين جائعتين . على كل حال ، لولا أن البشر راضون عن أنفسهم لما أراد أحد أن يعيش .

انقضت ثلاثة أيام أخرى ، وعدت الى جوروخوفايا . كانت الأم تنهياً للخروج حاملة حزمة كبيرة . ولم يكن الأب فى البيت طبعاً . فبقيت وحدى مع ماتريوشا . كانت التوافذ (فى الفناء) مفتوحة . وكان فى المنزل صنّاع كثيرون وكانت جميع الطوابق تضج بأصوات المطارق والأغانى . انقضت ساعة . كانت ماتريوشا جالسة فى ركنها ، على دكة صغيرة . كانت تخطط شيئاً ما وقد أدارت لى ظهرها . وفجأة أخذت تغنى بعذوبة ، بعذوبة كبيرة . كان يحدث لها هذا أحيانا . استللت ساعتى ونظرت فيها . هى الساعة الثانية بعد الظهر . أخذ قلبى يخفق خفقانا قويا جدا . نهضت واقتربت من ماتريوشا ببطء . كانت التوافذ مزدانة بأصص أزهار . وكانت الشمس حارة . جلست الى جانب ماتريوشا على الأرض صامتة . ارتعشت ماتريوشا . خافت خوفا رهيبا فى اللحظة الأولى ، وبادرت تنهض فجأة . تناولت يدها وقبلتها . ثم أجلستها على الدكة وجعلت أفرس فى عينيها . أما أننى قبّلت يدها فقد أضحكها ذلك كطفلة ، ولكنها لم

تضحك الا لحظة قصيرة • لأنها عادت تنهض من جديد وقد اعترأها رعب
 بلغ من القوة أن وجهها تشنج • وحدقت الى بنظرات ثابتة وأخذت
 شفطها تختلجان كأنها تهتم أن تبكي • ولكنها لم تصرخ • قبّلت يدها مرة
 ثانية ، وأجلستها على ركبتي • فإذا هي تتقهقر فجأة وتبتسم ، ولكن
 ابتسامتها ابتسامة خجل ، ابتسامة مائلة • واحمر وجهها حياءً • وأخيرا
 حدث أمر يبلغ من الغرابة أنني لن أنساه في يوم من الأيام • انه حادث
 آثار في نفسي دهشة شديدة • لقد أحاطت البنت الصغيرة عنقي بذراعيها
 وأخذت تقبلني بحرارة وهوى • كان وجهها بعبر عن الافتتان • نهضت
 شبه غاضب : ان هذه الحركة التي تبدر من هذه الانسانة الصغيرة قد
 أزعجتني كثيرا جدا بسبب الشفقة التي شعرت بها فجأة • • • • •

انتهت الملزمة هنا وانقطعت الجملة • وحدث عندئذ أمر لا بد من
 ذكره •

كانت الملازم خمساً • الأولى في يدي تيوخون الذي فرغ من قراءتها •
 والجملة لم تكمل • والأربع الأخرى كانت في يدي ستافروجين • فلما
 ألقى تيوخون على ستافروجين نظرة سائلة ناوله ستافروجين التتمة فوراً •
 فقال تيوخون وهو ينعم النظر في الملزمة :

– ولكن الجملة لم تكمل • وهذه هي الملزمة الثالثة بينما التالية هي
 الثانية لا الثالثة •

قال ستافروجين مجيباً بسرعة وهو يتبسم ابتسامة خرقاء :

– نعم هذه هي الثالثة • أما الثانية فقد حذفها الرقابة الآن • • •

كان ستافروجين جالسا على ركن من الديوان ، وكان يحدق الى
 تيوخون محموما جامدا لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره •

- سأعطيك اياها عما قريب ، حين ... حين تصبح جديرا بذلك .
كذلك أضاف يقول وهو يجرى بيده حركة أراد أن لا يكون فيها
كلفة . وكان يضحك ، غير أن ضحكه كان يبعث على الشفقة .
قال تيخون :

- مع ذلك أظن أننا في النقطة التي وصلنا اليها يستوى أن تكون
هذه الصحيفة هي الثانية أو الثالثة ، أليس كذلك ؟
صاح ستافروجين يسأله وهو ينهض على حين فجأة :
- كيف ؟ لماذا ؟ ليس يستوى الأمران قط . آه منكم معشر الرهبان .
انكم تفترون على الفور أقطع الدنئات . ألا ان الرهبان ليصلحون أن
يكونوا قضاة تحقيق من الطبقة الأولى .
نظر اليه تيخون صامتا .

قال ستافروجين :

- اطمنن بالآ . ليس ذنبي أن البنية كانت حمقاء ولم تفهمنى . لم
يحدث شيء . لم يحدث شيء البتة .
- الحمد لله !

ورسم تيخون اشارة الصليب .

قال ستافروجين :

- يطول شرح الأمر ... لقد وقع هنا ... وقع هنا سوء تفاهم
سيكولوجى .

واحمر فجأة . وظهر في وجهه الاشمزاز والقلق والغم واليأس !
... وصمت . وأصبح الرجلان لا ينظر أحدهما الى الآخر ، وساد الصمت
بينهما أكثر من دقيقة .

قال ستافروجين على نحو آلى وهو يجفف العرق البارد الذى بلل
جبهته :

- اسمع • الأفضل أن تقرأ • و ••• والأفضل أن لا تنظر الى بتاتاً
••• يخيل الى أن هذا حلم •••

ثم أضاف يقول بصوت خافت جداً :

- و ••• ولا تستنفد صبرى •

حوّل تيحون عينيه عنه بسرعة ، وتناول الصحيفة الثالثة وأخذ يقرأ
بغير توقف حتى النهاية • كانت الصحائف الثلاث التى أسلمها اليه
ستافروجين لا ينقصها شيء • وقد بدأت الصحيفة الثالثة كما يلي :

« ••• كانت لحظة رعب حقاً ، وان لم تكن شديدة العنف •
وغدوت مرحاً جداً فى ذلك الصباح وأحسنت معاملة الجميع ، وسرّت
العصبة منى كثيراً • لكننى تركتهم جميعاً ومضيت الى جوروخوفايا •
التقيت بها تحت ، عند المدخل • كانت عائدة من دكان أُرسلت اليه لتشتري
شيئاً من الهندباء • فلما رأتنى اندفعت تجرى فى السلم وقد اعترها خوف
رهيب • بل ان ما اعترها لم يكن خوفاً وانما كان رعباً أخرس يشل سلاً •
وحين دخلت كانت أمها تضربها لأنها دخلت الغرفة « حشيتة الخطي خافضة
الرأس » • بذلك استطاعت أن تخفى السبب الحقيقى لرعبها • كان كل
شيء ما يزال اذن هادئاً • وقبعت فى ركن ولم تظهر طول المدة التى قضيتها
فى البيت • وبعد ساعة خرجت • ولكننى فى المساء شعرت بالخوف من
جديد ، وكان خوفى هذه المرة أشدّ كثيراً • وكان أشق نىء على نفسى
فى ذلك الخوف أننى كنت واعياً اياه وعياً كاملاً • اننى لا أعرف شيئاً
أغيبى من هذا ولا أعنف • لم أكن قد شعرت بالخوف حتى ذلك
الحين قط ، لا ولا شعرت به بعد ذلك أبداً • أما فى تلك اللحظة فقد

كنت خائفاً • حتى لقد كنت أرتعش • وكنت أعى هذا الخوف وعياً تاماً ،
 وكنت أعى كذلك مذلتى • لو استطعت أن أتحرر لا تتحرت • ولكننى
 أحسست اننى غير جدير بالموت • على أن هذا ليس هو السبب الذى منغى
 من الانتحار ، وانما منغى من الانتحار ذلك الخوف نفسه • ان المرء
 ينتحر فى بعض الأحيان خوفاً ، ولكن يحدث أيضاً أن يستمر المرء فى
 الحياة خوفاً كذلك • فى أول الأمر لا يجرؤ الانسان أن ينتحر ، ثم يصبح
 الفعل بعد ذلك مستحيلاً • أكثر من هذا أننى فى المساء ، حين كنت فى
 بيتى ، قد شعرت نحو البنت بكرهٍ بلغ من القوة أننى قررت أن أقتلها •
 فما ان طلع الفجر حتى ركضت الى جوروخوفايا حاملاً هذه الفكرة •
 وكنت طوال الطريق أتصور كيف سأقتلها وكيف سأحقرها • وكان
 كرهى يهتاج خاصةً حين أتذكر ابتسامتها : كان يشب فى نفسى احتقار ،
 وكانت تمتلىء نفسى اشمئزاً من ارتمائها على عنقى متخيلةً ما لا أدرى !
 ولكننى حين عبرت نهر فوتانكا شعرت بأن صحتى سيئة • وفى الوقت
 نفسه انبجست فى ذهنى فكرة جديدة ، رهية ، رهية جداً ، ولا سيما
 لأننى كنت أعياها • فلما رجعت الى بيتى رقدت فى فراشى مرتعشاً من الحمى ،
 واعترانى رعب بلغ من القوة اننى صرت لا أكره البنت • لقد صرت
 لا أريد أن أقتلها ، وتلك هى بعينها الفكرة التى انبجست فى نفسى وأنا
 أعبر نهر فوتانكا • وعندئذ انما أدركت أول مرة أن الخوف حين يكون
 قوياً يطرد الكره بل يطرد كل رغبة فى الانتقام •

« استيقظت فى نحو الظهر ، مرتاحاً بعض الراحة ، بل مدهوشاً
 كذلك من شدة العواطف التى شعرت بها فى الليلة البارحة • خجلت من
 أننى أردت أن أقتل • ومع ذلك كنت معتكر المزاج • ورغم اشمئزائى
 كله ونفورى كله اضطررت أن أذهب الى جوروخوفايا • أذكر أننى كنت
 أتمنى حينذاك لو أشاجر أحداً ، لو أشاجر أحداً مشاجرة خطيرة حقاً •

ولكننى حين دخلت غرفتى فى جوروخويا وجدت فيها نينا سافلينا ،
 الخادمة ، التى كانت تنتظرنى هناك منذ ساعة . كنت لا أحب تلك القنّاة
 بتاتا ، وكانت قد جاءت على شىء من الخشية ، فهى تخاف أن تسوءنى
 زيارتها . كانت تجىء دائما على هذه الخشية ، ولكن أسعدنى كثيرا أن
 أراها ، فسرها ذلك سرورا عظيما وافتنت به افتتاحا كبيرا . لم تكن دميمة .
 ثم انها كانت متواضعة وكانت تملك تلك الآداب التى يقدرها البورجوازيون
 الصغار قدرا عظيما . ولذلك كانت صاحبة البيت تمدحها لى مدحا كبيرا
 منذ مدة طويلة . وجدتهما تشربان القهوة ، وكانت صاحبة البيت تبدو
 نشوى بالحديث الممتع . وفى ركن من الغرفة الثانية لمحت ماتربونا :
 كانت واقفة تتفرس خفية فى أمها والزائرة . فلما دخلت لم تختبئ ، كما
 فعلت فى المرة السابقة ، ولم تهرب . هذه نقطة أتذكرها واضحة ، لأنها
 خطفت اهتمامى . وقد لاحظت من النظرة الأولى أنها نحلت نحولا شديدا ،
 وأنها تبدو مصابة بحمى . لاطفت نينا ملاطفة كبيرة ، فلما تركتني كانت
 سعيدة كل السعادة . وقد خرجنا معا . ولم أعد الى جوروخويا بعد ذلك
 مدة يومين . لقد شبت منها ، ولكننى كنت ضجرا .

« وأخيرا قررت أن أنهى كل شىء دفعة واحدة ، وحتى أن أغادر
 بطرسبرج اذا لزم الأمر . ولكن حين ذهبت الى جوروخويا لأعلن عن
 سفرى وجدت صاحبة البيت فى ألم شديد وانفعال قوى : لقد كانت
 ماتريوشا مريضة منذ ثلاثة أيام ، وكانت تهذى كل ليلة . وما لبنت طبعاً
 أن سألت عما تقوله أثناء الهذيان (كنا نتحدث بصوت خافت جدا فى
 غرفتى) . فدمدمت الأم تقول لى ان ابنتها تنطق بأمر فظيعة ، فهى تقول
 مثلاً : « قتل الله » . اقترحت أن آتى بطبيب على نفقتى ، ولكنها رفضت
 قائلة : « سيعيننا الله . سيذهب عنها المرض من تلقاء نفسه . ثم انها لا تبقى
 راقدة طوال الوقت . لقد أرسلتها منذ قليل فى شراء شىء من الأشياء » .

قررت أن أرى ماتريوشا على انفراد • واذ كان قد أفلت من لسان صاحبة البيت أثناء حديثي معها أنها مضطرة أن تذهب في المساء الى الضاحية ، فقد قررت أن أرجع في المساء • وكنت على كل حال لا أدري على وجه الدقة لماذا أعود وماذا أريد أن أفعل اذ أعود •

« تغديت في المطعم ، ثم عدت في الساعة الثامنة والرابع • وأنا أدخل دائما بعد أن أفتح الباب بمفتاحي • كانت ماتريوشا وحيدة • وكانت راقدة وراء حاجز على سرير أمها • وقد لاحظت أنها قدّمت رأسها لترى من الداخل ، ولكنها لم تتظاهر بشيء • كانت النوافذ مفتوحة • وكان الهواء حاراً بل حارقاً • تقدمت بضع خطوات ثم جلست على الديوان • انى أتذكر كل شيء الى آخر دقيقة • شعرت برضى كبير لأننى لم أكلم ماتريوشا ، بل جعلتها تنتظر في غير طائل ، لا أدري لماذا ! لبثت على هذه الحال ساعة كاملة • وانى لذلك اذ سمعتها تنهض فجأة وراء الحاجز • سمعت اصطدام قدميها بأرض الغرفة حين نهضت ، ثم سمعت وقع بضع خطوات سريعة ، ثم اذا هى تظهر في عتبة غرفتى • ما أحقرنى ! لقد بلغت من الحقارة أننى أسعدنى أن أكون قد صمدت هذا الصمود • آه ! ما كان أدناً هذا ، وما كان أذلتى ! كانت واقفة تنظر الىّ فى صمت • حقاً لقد نحلت نحولاً رهيباً بعد اليوم الذى رأيتها فيه آخر مرة من كتب • كان وجهها كاليابس ، ولا شك أن جبينها كان يحترق • ان عينيها اللتين أصبحتا كبيرتين تنفرسان فىّ باستطلاع مبهوت فيما بدا لى أول الأمر • لبثت جالساً لا أتحرك • ومن جديد شعرت بالكره • لكننى لم ألبث أن لاحظت أن ماتريوشا لم تكن خائفة منى البتة ، وأنها لعلها كانت فى حالة هذيان • وأخذت تهز رأسها على حين فجأة ، كما يفعل الأناس السذج الذين لا يتصنعون ولا يتكلفون ، اذا هم أرادوا أن يلوموا أو يعتبوا • ثم رفعت اصبعها الصغيرة بفتةً وهددتنى بها من بعيد • بدت لى

هذه الحركة في أول الأمر مضحكة ، ولكنني لم أطق صبرا عليها في النهاية ، وأصبحت لا أستطيع احتمالها . نهضت بقوة واقتربت منها مرتاعا . كان وجهها يعبر عن يأس يشق على المرء أن يراه في مخلوق صغير مثلها . استمرت تهددني باصبعها وتهز رأسها عاتبة . كلمتها برفق وحذر ، بصوت خافت ، برقة وعدوية ، لأنني كنت خائفا . لكنني رأيت على الفور أنها كانت لا تستطيع أن تفهم عني ، فازداد رعبى . ولكنها أسرعت تغطي وجهها يديها كما فعلت في المرة السابقة ، ومضت نحو النافذة مديرةً لى ظهرها . فتحولت حينذاك أنا أيضا ، وجلست بقرب النافذة . لا أستطيع بتاتا أن أفهم لماذا لم أخرج وبقيت مرتقبا هناك . كنت اذن أنتظر شيئا بالفعل . وربما كان يمكن أن أمكث زمنا طويلا في ذلك المكان ، لأقلها بعدئذ كمدأ ويأسا ، بغية أن أفرغ من الأمر مرة واحدة بطريقة من الطرق .

« ولكنني لم ألبث أن سمعت خطواتها السريعة من جديد . لقد خرجت من الباب الذي يفضى الى رواق خشبي يصل منه المرء الى السلم . فاقتربت من الدرايزين بسرعة ، واستطعت أن ألمحها تدخل حجرة صغيرة هي ضرب من قن للدجاج الى جانب مكان آخر . فلما عدت أجلس بقرب النافذة تسللت الى ذهني فكرة غريبة : اننى لا أستطيع الى الآن أن أفهم لماذا وافتنى هذه الفكرة بعينها ولم توافنى فكرة أخرى غيرها قبل كل شيء . كان كل شيء اذن ينصب في ذلك الأمر . واضح اننى لم أكن أستطيع بعد أن أصدّق ذلك الأمر ، « ومع ذلك . . . » . اننى أتذكر كل شيء تذكرا كاملا . كان قلبي يخفق . وبعد قليل نظرت في ساعتى من جديد ، فعرفت الوقت على وجه الدقة . ما كانت حاجتى الى معرفة الوقت ؟ - لا أدري . غير اننى كنت في تلك اللحظة أريد أن ألاحظ كل شيء . اننى أتذكر اذن كل شيء تذكرا واضحا جدا ، وأرى كل شيء كأنه مائل أمامى .

كان المساء يهبط • وكانت ذبابة تدندن حولي ، وما تنفك تجيء الى فتحة على وجهي • قبضت عليها ، وأمسكتها بأصابعي بضع لحظات ، ثم تركتها تطير من النافذة • ودخلت عربة شحن الى فناء المنزل مقرقة • وكان أجير خياط يعني ملء حلقه (منذ مدة طويلة) بقرب نافذته في زاوية من الفناء • كان يعمل وكنت أستطيع أن أراه من مكاني • خطر ببالي أن أحداً لم يلقني حين اجتزت الفناء وصعدت السلم ، فمن الأفضل حتماً اذن أن لا يلقاني أحد كذلك حين أخرج • لذلك أبعدت كرسيي عن النافذة بحذر ، وجلست بحيث لا يستطيع الجيران أن يروني • أه • • • ما كان أحقرني ! تناولت كتاباً ، ثم رميته ، وأخذت أرقب حركات عنكبوت صغير أحمر كان على ورقة نبتة من النباتات التي تزين النافذة • ونسيت نفسي خلال لحظة من الزمن • لكنني أتذكر اليوم كل شيء •

« استللت ساعتى بسرعة ونظرت فيها • كان قد مضى على خروجها ثلاثون دقيقة • لكنني قررت أن أنتظر ربع ساعة أخرى تماماً • أمهلت نفسي هذه المدة • خطر ببالي أيضاً أن من الممكن أن تكون قد رجعت وام أسمعها • ولكن هذا كان مستحيلًا • الصمت الآن يشبه صمت الموت ، فلو طارت ذبابة لكنت سمعتها • وفجأةً جعل قلبي يخفق خفقانا شديداً مرة أخرى • نظرت في ساعتى : ما يزال هناك ثلاث دقائق • بقيت جالساً رغم أن قلبي خفق خفقاناً موحجاً • ونهضت أخيراً ، فوضعت قبعتى على رأسي ، وعقدت أزرار معطفي ، وفحصت الغرفة : هل خلفت فيها أى أثر يدل على اننى مررت فيها ؟ وقربت الكرسي من النافذة ووضعت في المكان الذي كان فيه عند وصولي تماماً • وأخيراً فتحت الباب ، ثم أفضلته بالفتاح في رفق ، واتجهت نحو الحجرة الصغيرة • كان بابها مغلقاً ، لكنه لم يكن مقفلاً بالفتاح • كنت أعرف ذلك حق المعرفة ، غير أنني لم أشأ أن أفتحه • نهضت على رءوس أصابع القدمين ونظرت من شق في أعلى

الباب • وفي تلك اللحظة نفسها التي انتصبت فيها على رءوس الأصابع القدمين تذكرت أنني حين كنت جالسا بقرب النافذة أنظر الى العنكبوت كنت أنصور في الواقع كيف سأنتصب على رءوس الأصابع وكيف سأنظر من شق الباب كما أفعل الآن • أذكر هذا الأمر التفصيلي لأنني أحرص على أن أيسن أنني كنت مالكا قواى العقلية بكاملها ، واننى لست مجنونا البتة وأننى مسئول عن أفعالى • نظرت من شق الباب مدةً طويلة ، لأن الحجره كانت مظلمة • لكن الظلام فيها لم يكن ظلما تاما ، فاستطعت أن أرى ما كنت أريد أن أراه •••

« قلت لنفسى حينذاك اننى أستطيع أن أمضى ، وهبطت السلم • لم ألتق بأحد • ولم يستطع أحد اذن أن يدلى بأقوال تشهد علىّ فيما بعد • وما انقضت ثلاث ساعات حتى كنا فى بيتى نلعب جميعا بالورق ونحتسى الشاي • كان ليادكين يقرأ أشعاراً ويروى أنواعا من الأقايص ، ويجكى تكات مضحكة بمصادفة تشبه أن تكون عمداً ، وذلك بدلا من السخافات التى كان يغمرنا بها فى العادة • وكان كيريلوف حاضرا كذلك • ولم يكن أحد يشرب خمرة ، رغم أن زجاجة من الروم كانت على المائدة • ايادكين وحده شرف الزجاجة وقال بروخور مالوف : « حين يكون نيقولاى فيسيفولودوفتش مسرورا رائق المزاج فان عصبتنا كلها تكون مرحة ، وتجد الحديث • » لاحظت أنا هذه الجملة • لقد كنت اذن مرحا مسرورا ، رائق المزاج ، وكنت أقول أشياء مسلية • لكننى أتذكر أنني كنت أعلم كل العلم أن فرحى بالخلاص يقوم على حقارة دينية ، وأننى لن أستطيع بعد اليوم أن أشعر بأننى نبيل ، لا على هذه الأرض ، ولا فى حياة أخرى ، أبدا • شىء آخر أيضا : لقد أدركت فى تلك اللحظة معنى المثل اليهودى : « المرء لا يشم ثنائة رائحته • » • كنت أشعر شعورا كاملا بأننى شقى ، ولكننى لم أكن أحس من ذلك بخجل ، وكنت على وجه

الاجمال لا أتألم كثيرا . وفى تلك اللحظة ، بينما كنت أحتسى الشاي وأثرثر مع عصبتى انما استطعت أن أدرك ادراكا واضحا جدا ، أول مرة فى حياتى ، أننى لا أفهم « الخير » و « الشر » ولا أحسهما ؛ واننى لم أفقد الشعور بهما فحسب ، بل أن الخير فى ذاته والشر فى ذاته لا وجود لهما (وقد أمتعنى هذا كثير آ) ، وانهما ليسا الا وهمين من الأوهام الاجتماعية ، وأننى أستطيع حتماً أن أتحرر من كل وهم اجتماعى ، ولكننى اذا بلغت هذه الحرية فقد هلكت . أدركت ذلك كله أول مرة ، فى صيغة واضحة ، أمام مائدة الشاي تلك ، بينما كنت أمزح وأضحك مع رفاقى لا أدرى بأية مناسبة . ولكننى أتذكر كل شيء . انه يتفق كثيرا لأفكار قديمة يعرفها جميع الناس ، أن تظهر جديدة طريفة على حين فجأة .

« ومع ذلك لم أقطع عن انتظار شيء ما . وفعلاً ، فى نحو الساعة الحادية عشرة من المساء ، رأيت ابنة البواب التى أرسلتها صاحبة بيتى فى جوروخوفايا ، رأيتها راكضة نحوى لتقول لى ان ماتريوشا شنقت نفسها . فنبعت الفتاة ، واستطعت أن أعرف أن صاحبة البيت كانت هى نفسها لا تدرك لماذا استدعتنى . كانت تتحجب وتصرخ كما يفعل أمثال هؤلاء الناس فى مثل هذه الظروف . وكان هناك ناس كثير ، وكان هناك شرطة . قضيت لحظة ثم انصرفت .

« لم يزعجنى أحد فى هذه القضية . ومع ذلك أُلقيت على بضعة أسئلة . ولكننى لم أزد على أن البنت كانت مريضة ، وأنها كانت فى حالة هذيان ، واننى اقترحت استدعاء طبيب على نفقتى . وحدثونى أيضا عن المطواة ، فقلت ان صاحبة البيت قد جلدت ابنتها ، ولكن ذلك ليس له شأن . ولم يعرف أحد اننى عدت فى المساء . وهكذا انتهت المسألة .

« خلال أسبوع كامل ، امتنعت عن العودة الى جوروخوفايا ثم لم أذهب الى هناك الا لأفسخ ايجارى . كانت صاحبة البيت ما تزال تذرِف

دموعاً غزيرة (واني لأتذكر أنني امتعضت من ذلك) ، ولكنها كانت قد استأنفت عملها ، الخياطة • وقالت لي بدون كبير لوم : « بسبب مطواتك انما أهنتها » • وقد دفعت لها حسابي بحجة اني أصبحت لا أستطيع أن أستقبل نينا سافليفا بعد اليوم في مسكنهم • وأثناء وداعنا أخذت تطرى نينا سافليفا كثيراً من الاطراء أيضاً • وأهديت اليها خمسة روبلات زيادة على ما كنت أدين لها به كراءً للغرفة •

« كنت في ذلك الأوان أعاني ضجراً يكاد يكون قاتلاً • وكان يمكن بعد زوال الخطر أن أنسى قضية جوروخوفايا نسيانا كاملا كسائر أحداث تلك الفترة لولا انني كنت من حين الى حين أتذكر الرعب الذي أحسست به فأشعر بحق شديد ، وأصب غضبي على من يعرض لي مصادفة • وفي ذلك الأوان انما خطر ببالي - ولكن دون أي باعث - أن أفسد حياتي أغبي افساد ممكن • كنت قبل ذلك بسنة أفكر في اطلاق الرصاص على رأسي • ولكن وسيلة أفضل من تلك الوسيلة كثيرا تعرض لي الآن • ففي ذات يوم ، رأيت ماريا تيموفتفا لبيادكين ، العرجاء ، منهمة في خدمة البيت ، فساورتني هذه الفكرة ، وهي أن أتزوجها • لم تكن قد أصبحت مجنونة بعد ، ولكنها كانت بلهاء نشوى دائماً ، وقد اكتشف رفاقي أنها كانت تحبني في الخفاء حباً جنونياً • ان فكرة زواج يتم بين رجل من آل ستافروجين وبين هذه المخلوقة الشوهاء قد أثارت أعصابي اثاراً لذيذة • لا يمكن أن يتصور المرء شيئاً أسخف من هذا ولا أغبي ولا أدعى الى الضحك • لكنني لا أستطيع أن أعرف هل كان قرارى الذي اتخذته يرجع ولو على غير شعور منى (على غير شعور ، هذا أكيد) الى الحقن الذي ملأني به حقداً على نفسي ذلك الخوف الوضيع الذي شعرت به في قضية ماتريوشا • حقا انني لا أتصور هذا • مهما يكن من أمر فان هذا الزواج لم يكن فقط « ثمرة رهان تم بعد عشاء تخلله نراب كبير » •

وقد كان « نهودي » كيرملوف وبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى الذى كان ماراً بومثد ببطرسبرج ، ثم ليادكين نفسه ، وبروخور مافلوف (الذى توفى بعد ذلك) • وعدا هؤلاء لم يعلم أحد بشيء ، وقد قطعوا لى على أنفسهم عهد الشرف ليكتُمَنَ الأمر • ان هذا الكتمان قد بدا لى دائما دناءة • ولكن السر لم يكشف حتى الآن ، وان أكن عازماً على أن أعلن كل شيء • فأنا الآن أعلن اذن هذا الزواج • وبعد الزواج ذهبت الى أمى فى الريف • اننى أذهب الى هناك لأسرئى عن نفسى ، لأن الحياة أصبحت فى نظرى لا تطاق • وقد أحس الناس فى مدينتنا بأننى مجنون ، وما يزال هذا الاحساس قائماً فى نفوسهم الى الآن ، وذلك أمر قد يؤذنى كثيراً ، كما سأشرح ذلك • وسافرت بعدئذ الى الخارج وغبت أربع سنين •

« زرت الشرق ؛ وشهدت على جبل آئوس قداسات دينية كانت تدوم ثمانى ساعات • وذهبت الى مصر ، والى سويسرا ، وحتى الى ايسلانده • وتابعت خلال سنة من السنين محاضرات جامعة جوتنجن • وفى أثناء السنة الأخيرة من اقامتى فى الخارج أصبحت بباريس صديقا لأسرة روسية رفيعة المنزلة ، وأصبحت بسويسرا صديق فتاتين روسيتين • وحين مررت بمدينة فرنكفورت منذ سنتين أبصرت فى واجهة احدى المكتبات ، بين صور فوتوغرافية كثيرة ، صورة بنت أنيقة الملابس ، لكنها تشبه ماتريوشا كثيراً • اشتريت الصورة فوراً ، حتى اذا عدت الى الفندق وضعتها على المدفأة • وظللت لا ألمسها أسبوعاً بكامله ، بل اننى لم ألق عليها نظرة واحدة ، وحين غادرت فرنكفورت نسيت أن آخذها •

« اننى أذكر هذه الواقعة لأبين مدى ما كنت أتمتع به من قدرة على السيطرة على ذكرياتى ، ومدى ما كنت أأنصف به من عدم الاكترات بها • كنت أنبذها كلها فى آن معاً ، دفعةً واحدة ، وكانت كتلتها كلها تغيب فوراً متى أردت ذلك • كان يضجرنى دائماً أن أتذكر الماضى ، ولم أستطع

فى يوم من الأيام أن أتحدث عن الماضى طويلاً كما يفعل جميع الناس تقريبا • وفيما يتعلق بماتريوشا ، نسيت حتى صورتها على المدفأة •

« منذ سنة ، فى الربيع ، بينما كنت مسافرا الى ألمانيا ، تجاوزت من ذهولى المحطة التى كان ينبغى أن أنزل فيها لأركب قطارا آخر • وتوقفت فى المحطة النى بعدها • كانت الساعة هى الثالثة بعد الظهر • وكان النهار واضحا نيراً • هى مدينة ألمانية صغيرة جدا • دلونى على فندق • كان ينبغى أن أنتظر : ان القطار التالى لا يصل الا فى الساعة الحادية عشرة من المساء • سرتنى هذه المغامرة ، فلا شئ كان يحضنى على السرعة • الفندق سىء صغير ، ولكنه محاط من جميع الجوانب بأشجار وأحواض أزهار • أعطيت غرفة صغيرة ضيقة • وأصبت غداً طيباً • ولأننى كنت قد قضيت الليل كله فى القطار فقد نمت نوما عميقا حتى الساعة الرابعة بعد الظهر •

« رأيت حلماً لا أتوقع أن أرى مثله البتة • ذلك أننى لم يسبق لى أن رأيت أحلاما كهذه الأحلام • ان أحلامى تكون سخيفه أو رهينه على الدوام • كان متحف درسدن يضم لوحة للرسام كلود لورين عنوانها « آسيس وجالاتيه » فيما أظن • وكنت أنا أسميها « العصر الذهبى » ، لا أدرى لماذا ! كنت قد لاحظت هذه اللوحة منذ مدة طويلة ، وكنت قد رأيتها مرة أخرى منذ ثلاثة أيام • بل لعلى ما ذهبت الى درسدن الا لهذا الغرض • فهذه اللوحة هى ما رأيته فى الحلم ، ولكننى لم أراه فى الحلم لوحة ، وانما رأيته واقعا كان ، كما هو فى اللوحة ، ركناً من الأرخيل اليونانى ، وكنت أنا فيما يبدو قد تقهقرت فى الزمان أكثر من ثلاثة آلاف عام • أمواج زرق لعوب ، جزر وصخور ، شطآن مزدهرة • وفى بعيد ، منظر فاتن ، منظر نداء الشمس الغاربة ••• ان الألفاظ عاجزة عن وصف ما رأيت • ههنا مهد الانسانية • أفعمت هذه الفكرة نفسى بحب أخوى •

هذه هي الجنة الأرضية • الآلهة تنزل من السماء وتتحد بالبشر • هنا
 جرت أولى مشاهد الأساطير الاغريقية • هنا كانت تعيش انسانية جميلة •
 البشر يستيقظون وينامون سعداء أبرياء • الغابات تدوى بأغانهم الجذلى •
 فائض قواهم الغزيرة ينسكب حباً وفرحاً بريثاً • وكنت أنا أحس هذا ،
 وأدرك في الوقت نفسه المستقبل العريض الذي ينتظرهم ولا يخطر لهم
 ببال ، فكان قلبي يرتعش لهذه الأفكار • آه ••• ما كان أعظم سعادتني
 بأن قلبي يرتعش ، وبأنني أصبحت قادراً على أن أحب في آخر الأمر !
 كانت الشمس تسكب أشعتها على الجزر وعلى البحر وتبهج بأبنائها
 الجميلة • رؤيا رائعة ! رؤيا بديعة ! حلم هو أبعد الأحلام استحالةً ،
 ولكن الانسانية وهبت له جميع قواها ، وضحت من أجله بكل شيء •
 باسمه مات بعضهم على الصليب ، وفي سبيله قُتل الأنبياء ، وبدونه لا تود
 الشعوب أن تحيا ، ومن غيره لا تستطيع حتى أن تموت • وهذا كله قد
 عشته في حلمي • لا أدري على وجه الدقة ماذا رأيت • الأصح أن الأمر
 كان احساساً لا رؤيا • غير أن الصخور والبحر والأشعة المائلة التي كانت
 ترسلها الشمس الغاربة - ذلك كله كان ما يزال يبدو لى أنني أراه حين
 استيقظت وفتحت عيني اللتين كانتا مبتلتين بالدموع أول مرة في حياتي •
 ان الاحساس بسعادة مجهولة قد شق قلبي ، حتى لقد كنت من ذلك في
 ألم • وكان الوقت مساء • ومن خلال خضرة الأزهار التي كانت تزين
 النافذة ، كانت الشمس ترشق غرفتي بحزمة مائلة من أشعة حارة ،
 وتفسلني بالضياء • أسرعرت أغمض عيني كأنني أحاول أن أستعيد الحلم
 الغائب ولكنني ما لبثت أن ميّزت فجأة في وسط الضوء الساطع القوى
 نقطةً صغيرة حمراء • على هذا النحو انما بدأ الأمر • وفجأة تذكرت
 العنكبوت الأحمر الصغير • رأيت كما سبق أن تأملته فوق ورقة الزهر
 بينما كانت الشمس تلقي أشعتها المائلة في تلك اللحظة • نفذ في نفسي

شئ حاد • نهضت جالسا على السرير • هكذا تماما جرت الأمور •

« رأيت أمامي (أوه ! لا في الواقع ! وليت ذلك كان شبحاً يمكنني أن أخاطبه) رأيت ماتريوشا مهزولة محمولة العينين ، تماما كما كانت حين وقفت في عتبة غرفتي ، وهزّت رأسها وهدّدتني باصبعها الصغيرة • ما من شئ ألمني في حياتي يوما كما ألمني هذا • يأس يثير الشفقة ويبعث على الأسي ، لدى مخلوقة صغيرة عاجزة ما يزال عقلها لا شكل له ، تهددني (بأى شئ ؟ ماذا كانت تستطيع أن تصنع بي ؟) ولكنها حتماً لا تتهم الا نفسها • لم يسبق أن حدث لي شئ شبيه بهذا في يوم من الأيام • لبثت جالسا طول الليل لا أتحرك ، فاقداً احساسى بالزمن • أود الآن لو أسرح لنفسي ما جرى ، بأقصى وضوح ممكن • أكان هذا ما يسمى عذاب الضمير ، والندامة ؟ ما زلت أجهل ذلك حتى اليوم • والشئ الذى لا أطيق احتمالاه الآن ، انما هو تلك الرؤية ، رؤية البنت في عتبة الباب ، رافعة قبضة يدها الصغيرة ، مهددة متوعدة • تلك هى الدقيقة التى تعذبني ، لا ما قبلها ولا ما بعدها • لا شئ الا مظهر البنت فى تلك اللحظة ، لا شئ الا تلك اللحظة ، لا شئ الا هزّ البنت رأسها على تلك الصورة • ان تلك الحركة ، حركة التهديد عينها ، أصبحت لا تبدو لي الآن مضحكة بل فظيعة • اننى أحس نحو البنت بشفقة حادة ، شفقة تذهب بعقلي وتجعلنى كالمجنون • وانى لمستعد أن أسلم جسمي لجميع أنواع التعذيب فى سبيل أن لا يكون قد حدث ذلك الأمر فى ذلك اليوم • ليست جريمتى هى ما آسف له وأندم عليه ، لا ولا موت الطفلة • ولكن تلك اللحظة ، تلك اللحظة بعينها ، هى ما يستحيل على احتمالها استحالة مطلقة ، لأننى منذ ذلك الحين أصبحت تظهر لي كل يوم ، وأنا أعلم الآن علم اليقين اننى هالك • هى لا تظهر لي من تلقاء ذاتها ، وانما أنا

أستحضرها ، ولكن يستحيل عليّ أن لا أستحضرها ، رغم أن هذا يجعل حياتي مستحيلة • آه ••• ليتني أستطيع أن أراها مرةً أخرى في الواقع ، ولو هلوسةً ! أود لو تنظر اليّ ولو مرةً واحدة ، كما فعلت في ذلك اليوم ، بعينها الواسعتين المحمومتين ؛ أود لو تحدّث لي عينيّ ••• فترى فيهما ••• آه ! ••• ما أغبى هذا الكلام ! فلن يحدث هذا في يوم من الأيام !

« لماذا لا توظف في نفسى أية ذكرى من ذكرياتي شيئاً شبيهاً بهذا ؟ ما أكثر ذكرياتي مع ذلك ••• بل ان بينها ذكريات أسوأ من تلك في نظر الانسان • ومع ذلك لا توظف في نفسى الا شيئاً من كرهه في أكثر تقدير ، وهو من جهة أخرى كره تولّده حالتي الراهنة • كنت في الماضي أنسى تلك الذكريات بهدوء كامل ، وأبعدها جميعاً ، وكنت أنعم باطمئنان اصطنعه اصطناعاً •

« ظللت بعد ذلك أطوّف سنةً كاملة ، محاولاً أن أشغل نفسى • أنا أعلم أنني ما زلت أستطيع أن أنحّي صورة البنية حين أريد • اننى سيد ارادتي ، لى عليها سلطة كاملة ، كما كنت دائماً • ولكن المسألة كلها هى اننى لم أشأ أن أفعل ذلك فى يوم من الأيام ، واننى فى قرارة نفسى لا أريد ذلك ولن أريده • وسيدوم هذا الى أن أجن جنونا تاماً •

« فى سويسرا ، بعد شهرين (لعل ذلك كان رداً من الجسم الذى كان يكافح رغم كل شيء من أجل أن يحيا) ، اعترتني من جديد نوبة من نوبات الهوى العارم ، أو اتابتنى سورة شبيهة بتلك السورات المجنونة التى عرفتها فى شبابي • لقد شعرت بانجذاب الى اقتراف جريمة جديدة هى أن أتزوج امرأة ثانية فوق زوجتى (ذلك أننى كنت متزوجاً) ، لكننى لذت بالفرار عملاً بنصيحة فتاة أخرى أفضيت اليها بأمرى ، حتى لقد اعترفت لها بأننى لا أحمل للمرأة التى أشتهاها أى حب ، واننى على وجه

الاجمال لا أستطيع أن أحب أحدا قط ، وأن نفسى لا يعتمل فيها شيء غير الشهوة • مهما يكن من أمر ، فانى لو اقررت تلك الجريمة الجديدة لما كان يمكن أن تخلصنى من ماتريوشا أبداً •

« لذلك قررت أن أطبع هذه الصفحات ، وأن أدخل منها الى روسيا ثلاثمائة نسخة • فمتى حان الحين ، أرسلتها الى الشرطة ، الى السلطات المحلية • بل انى سوف أرسلها فى الوقت نفسه الى ادارات تحرير جميع الصحف راجيا منها أن تنشرها ؛ كما سوف أرسلها أيضا الى معارفى الكثيرين فى بطرسبرج وفى روسيا كلها • وسوف تُنشر هذه الصحف مترجمة فى الخارج •

« أنا أعلم انى قد لا يزعمجنى القضاء ، أو انى قد لا يزعمجنى كثيرا • فانا أتهم نفسى ، ولا أحد يتهمنى • وعدا ذلك ليس هناك أدلة ، أو ليس هناك الا أدلة قليلة جدا • ثم ان كثيرا من الناس يعتقدون انى مختل العقل • ومن المؤكد أن أهلى سيبدلون كل جهودهم ليستفيدوا من هذا الرأى ، ويلغوا بذلك كل ملاحقة قضائية خطيرة • أقول ذلك لأبرهن برهانا جديدا على انى أملك عقلى كاملا ، وانى أدرك الوضع الذى أنا فيه • ومع ذلك سيقى هنالك الناس الذين سيعرفون كل شيء ، وسيظنون الى ، وسأنظر اليهم أيضا • أريد أن ينظر الى جميع الناس • ترى هل يخفف هذا عنى ؟ لا أدرى ! ولكن ذلك أملى الوحيد •

« مرة أخرى : اذا أحسن البحث فى محفوظات شرطة بطرسبرج ، فقد يكتشف شيء ما • لعل تلك الأسرة ما تزال فى بطرسبرج • وسوف يتذكر المنزل حتماً : لقد كان لونه أزرق شاحباً • أما أنا فلن أبتعد ، وسأقيم فى سكفورشنيكى ، الأيطان التى تملكها أمى ، سنة أخرى أو سنتين أخريين • واذا طُلب منى أن أحضر الى أى مكان ، فسأحضر •

« نيقولاى ستافروجين » •

٢

دامت القراءة قرابة ساعة • كان تيوخون يقرأ قراءة بطيئة ، بل لعله كان يعيد قراءة بعد الفقرات • ومنذ الانقطاع الذي أحدثه ستافروجين اذ نحى الصحيفة النائية جانبا ، كان ستافروجين يجلس ساكنا صامتا ، مستندا بظهره الى مسند الديوان ، وكان يبدو عليه الانتظار • نزع تيوخون نظارتيه عن عينيه ، وتلبث لحظة ، ثم ألقى على ستافروجين نظرة مترددة • فارتعش ستافروجين ، ومال بحركة سريعة الى أمام •

قال بلهجة مباغثة جافة :

نسيت أن أنبّهك الى أن جميع أقوالك ستكون عبثاً لا طائل تحته •
اننى لن أغير ما عقدت عليه نيتى • فلا تضيّع وقتك محاولاً أن تثينى عن عزمى • سوف أطبع هذه الصحائف •

واحمرّ وجهه وصمت •

– لم يفتك أن تنبهنى الى ذلك قبل القراءة •

كان فى لهجة تيوخون شيء من حنق • واضح أن « الوثيقة » قد أحدثت فى نفسه أثرا قويا • لقد جرح شعوره المسيحى ، وهو لا يقدر دائما أن يسيطر على نفسه • يجب أن ألاحظ فى هذه المناسبة أن السمعة التى اكتسبها ، وهى « أنه لا يحسن التصرف مع الناس » ، كما كان يقول عنه الرهبان ، لم تكن باطلة • فرغم كل ما يملكه من روح المحبة كان فى صوته استياء واضح •

تابع ستافروجين كلامه بلهجة قاطعة ، دون أن يلاحظ ما طرأ على تيوخون من تغير ، فقال :

– طيب • اننى لن أعدل عما عقدت النية عليه مهما تكن حججك

قوية • لاحظ اننى حين أقول هذه الجملة البارعة - أو الخرقاء ان شئت - لا يخطر ببالى أن أتخذها وسيلةً لاثارة حججك واستدراج رجائك •
قال ستافروجين هذه الكلمات الأخيرة وضحك ضحكةً ساخرة •
قال تيخون :

- لا أستطيع أن أناقشك ولا أن أطلب منك العدول عما عزمت عليه •
ان ما تنتويه شيء نبيل جداً ، ومن المستحيل أن يعبّر المرء عن فكرة مسيحية حقاً ، تعبيراً أفضل • ان الكفارة لا يمكن أن تمضى الى أبعد من هذا : انه لعمل رائع أن يعاقب المرء نفسه كما تنتوى أن تفعل ، اذا •••
- اذا ؟

- اذا كان ذلك كفارة حقاً ، اذا كان فكرة مسيحية فعلاً •
دمدم ستافروجين يقول واجماً ذاهلاً :
- هذه حذقات •••

ونهبض وأخذ يذرع الغرفة ذاهباً آيباً ، حتى دون أن يلاحظ ما يفعل •

وتجراً تيخون فقال :

- يبدو لى أنك تعمدت أن تصور نفسك أسوأ من حقيقتك ، وأسوأ مما يريد قلبك أن تكون •

- أصور نفسي ؟ أنا « لم أصور نفسي » ، أنا لم أكن ألعب •
« أسوأ » ! ما معنى كلمة « أسوأ » هذه ؟

واحمر وجهه من جديد • وأحنقه ذلك • فقال مشيراً الى الصحائف :

– أنا أعلم أن هذا أمر صغير ، تافه ، حقير ، ولكن يجب أن يدفع صفاره نفسه الى تعمق ***

وأمسك عن اتمام كلامه فجأة كأنه خجل أن يستمر ، وكأنه رأى أن من المذلة أن يسترسل في شروح • ولكنه في الوقت نفسه كان ينصاع انصياعاً أليماً ، ولو على غير شعور منه ، لضرورة أن يشرح ما بنفسه • يجب أن نلاحظ أنه ما من كلمة قيلت عن احتجاز الصحيفة الثانية • فكأن هذه الصحيفة الثانية قد نسيها الرجلان كلاهما • وكان ستافروجين قد توقف بقرب مائدة الكتابة وها هو ذا يتناول عن المائدة صليبا من عاج ، يأخذ يقلبه بين أصابعه ، ثم اذا هو يكسره نصفين على حين فجأة • واعتزته عندئذ دهشة ، وثاب الى رشده ، فألقى على تيخون نظرة مضطربة حائرة • ولكن شفته العليا أخذت تختلج بغتة ، كأنه أهين ، وكأنه يتهاى لأن يرشق خصمه بتحدٍ متكبر • قال بصوت خافت ، كأنه يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يسيطر على نفسه :

– كنت أفترض أنك ستقول لى شيئاً فيه جد • ومن أجل هذا انما جئت •

ورمى حطام الصليب على المائدة •

فأسرع تيخون يخفض عينيه • وقال يسأل ستافروجين بالحاح ربما يشبه أن يكون حماسة حارة :

– ان هذه الوثيقة تعبر تعبيراً مباشراً عن حاجة قلب يشكو من جرح قاتل • أليس هذا ما يجب أن أفهمه ؟ نعم ، انه الحاجة الطبيعية الى التوبة والكفارة • لقد استولت عليك هذه الحاجة • فالألهم الذى سيته للمخلوقة التى آذيتها وأهنتها قد بلغ من التأثير فيك أن المسألة عندك الآن أصبحت مسألة حياة أو موت : فما يزال هناك اذن أمل لك ، وأنت تسير فى الطريق

القويم اذ تهىء نفسك لقبول العقاب والعار أمام جميع الناس • وانك
تحتكم الى الكنيسة ، وان كنت لا تؤمن بالكنيسة • هل صدق فهمي ؟
ولكن يبدو أنك منذ الآن تكره وتحتقر جميع أولئك الذين سيقراون
هذا النص • يبدو أنك تتحداهم •

- أنا ؟ أتحدى ؟

- انك لم تخجل من الاعتراف بجريمتك ، فلماذا تخجل من
التوبة ؟

- أنا ؟ أخجل ؟

- نعم ، تخجل ، وتخاف •

- أخاف ؟

قال ستافروجين ذلك وضحك ضحكة متشنجة ، وعادت شفته العليا
تختلج • أجاب تيخون :

- أنت تقول : ألا فليظنروا الىّ ! ولكن كيف عساك تنتظر أنت
اليهم ! انك منذ الآن تنتظر كرههم لترد عليه بكره أكبر منه • انك كمن
يتباهى بسيكولوجيته ، وانك تستفيد من أتفه الأشياء لتدهش القارىء بانعدام
احساسك ، وشدة استخفافك واستهتارك وما الى ذلك مما قد لا يكون له
وجود فى نفسك • ومن جهة أخرى فان الأهواء الفاسدة والفراغ والبطالة
قد جعلتك فعلاً منعدم الاحساس وغيباً •

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً ساخراً وقد اصفر وجهه :

- ما الغباء برذيلة •

فعقب تيخون قائلاً بحرارة وجزم :

– بل هو رذيلة أحياناً • انك وقد حرحتك رؤيا البنت فى عتبة الباب جرحاً قاتلاً ، تبدو فى هذا النص مع ذلك كمن لا يدرك ماذا يجب أن يخجله من الناس الذين يحتكم اليهم : أهو انعدام احساسه فى الجريمة أم هو الرعب الذى اعتراه ؟ حتى انك فى لحظة من اللحظات تسرع مؤكداً لقارئك أن حركة التهديد التى أجرتها البنت أصبحت لا تبدو لك مضحكة بل قاتلة • ولكن هل صحيح أنها ممكن أن تبدو لك مضحكة حقاً ، ولو لحظة واحدة ؟ نعم ، لقد بدت لك كذلك ، أشهد بهذا •

وصمت تيون • كان يتكلم كامرىء عدل عن السيطرة على نفسه •
استحنه ستافروجين قاتلاً :

– تكلم ، تكلم • انك حائق ••• وانك تؤنبنى • يعجبني هذا من راهب • ولكن اليك ما يدهشنى : انا نتناقش فى أمر هذه الصحائف منذ عشر دقائق • ولست أرى فيك رغم تأنيبك أية علامة على الاشمئزاز والشعور بالعار • انك لست مشمئزاً ، وانك تكلمنى كلام الند للند •

كان ستافروجين قد خفض صوته • وكأن هذه الكلمات « تكلمنى كلام الند للند » قد انبجست من بين شفثيه دون أن يفكر فى ذلك • فنظر اليه تيون بانتباه • وقال بعد صمت :

– انك تدهشنى ، لأن أقوالك صادقة • أنا أرى ذلك • وفى هذه الحالة أكون أنا المذنب فى حقل • فاعلم اذن أنتى كنت فظاً قليل الأدب ، وكنت مشمئزاً متقززاً ، ولكنك من شدة ظمئك الى التوبة لم تلاحظ ذلك رغم أنك لاحظت نفاذ صبرى وهو ما أسميته أنت تأنيباً • غير أنك تعد نفسك جديراً باحتقار أعمق من ذلك الى غير نهاية ، ولقد كانت الكلمات التى نطقت بها بدون ارادة منك حين قلت « كلام الند للند » كلمات طيبة جميلة • لا أكتمك أنها ترعبنى ، هذه القوة الكبيرة العقيمة التى لا تسعى

الى غير التحقق فى دناءات • ليس يتحول المرء الى أجنبي بغير سبب : ان
 نمة عقابا يطارد جميع أولئك الذين ينفصلون عن أرضهم ، وان الضجر
 والسأم والبطالة تحاصرهم حتى ولو أرادوا أن يعملوا • ولكن المسيحية
 تقبل المسؤولية مهما تكن البيئة التى يعيش فيها المرء • ان الله لم يحرمنا
 من الذكاء • فكّر أنت نفسك : اذا كنت تسأل نفسك أنا مسئول أم غير
 مسئول عن أعمالي ، فمعنى ذلك أنك مسئول ضرورةً • يستحيل أن
 لا تتسلل الغواية الى هذا العالم ، ولكن ويلٌ للذى به تتسلل • على كل
 حال ، فيما يتعلق بخطيئتك ، فان كثيرين يفعلون ما فعلت ، ولكنهم يظنون
 يعيشون فى سلام وهدوء ، حتى لتراهم يعدون خطيئات سن الشباب هذه
 أموراً لا مفرّ منها • وهناك شيوخ تفوح منهم رائحة القبر منذ الآن ، ومع
 ذلك تراهم يأمون ويتأسون عن ذلك مرحين • ان العالم زاخر بهذه
 الفضاعات • أما أنت فقد شعرت بكل ما فى ذلك عمق ، حتى لقد بلغت من
 هذا درجة نادرة كل الندرة •

قال ستافروجين وهو يضحك ساخراً :

– أترك أخذت تعتبرنى بعد قراءة هذه الصحائف ؟ انك أيها الأب
 المحترم تبخون – وقد سمعتُ هذا عنك – لا تصلح أن تكون موجهاً
 للضمير ومرشداً للوجدان •

كذلك أضاف ستافروجين وهو يجبر نفسه على الابتسام اجباراً •

وتابع يقول :

– انهم ينتقدونك كثيراً هنا • هم يقولون انك متى اكتشفت فى
 الخطيئة شيئاً من مذلة وشيئاً من صدق ، أُعجبت به فوراً ، حتى لتكاد
 تبادر الى الندم واذلال نفسك أمام من جاءك ••• تائباً •

– لست مسئولاً عن هذا مباشرة • ولكن من المؤكد اننى لا أحسن

مخاطبة الناس • تلك كانت آفتى دائماً ! •••

كذلك قال تيخون متتهدا ، وقد بلغ كلامه من البساطة أن ستافروجين نظر اليه مبتسما • وتابع تيخون كلامه وهو ينظر الى الصحائف :

– أما عن هذه فلاشك أن الجريمة التي ارتكبتها لا تفوقها جريمة في شدتها وفظاعتها •

قال ستافروجين بعد صمت لا يخلو من الغضب :

– كفانا قباساً بالأركين • لعل عذابي أن لا يكون قوياً الى الحد الذي وصفته هنا •

وختم كلامه فجأة :

ولعلمني كذلك قد أسرفت في اتهام نفسي •

لم يقل تيخون شيئاً • وكان ستافروجين يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً ، خافضاً رأسه غارقاً في تأمله •

وفجأة سأله تيخون :

– وتلك الفتاة التي قطعت صلتك بها ، أين هي الآن ؟

– هنا •

وخيم صمت جديد •

وعاد ستافروجين يقول مكرراً ملحاً :

– ولعلمني كذبت عليك في شأنها • أنا نفسي لا أعرف معرفة واضحة حتى الآن ••• على كل حال ، هبني أستفز الناس بوقاحة اعترافي – مادمت قد لاحظت استفزازي – ففيم يهمني هذا ؟ ذلك ما يجب • انهم يستحقون هذا الاستفزاز •

– أى أن كرهك لهم أسهل عليك من قبول شفقتهم •

– أصبت • أنا لم أعتد أن أكون صريحا ، ولكن ما دمت قد بدأت
 ... معك ، فاعلم اننى أحقرهم كما أحقر نفسى سواء بسواء ، هذا ان
 لم أحقرهم أكثر من ذلك ، أكثر من ذلك ، أكثر بما لا نهاية له • مامن
 واحد منهم يستطيع أن يكون لى قاضياً ... لقد كتبت هذه السخافات لأن
 ذلك خطر ببالى ، كتبتها من باب الاستخفاف والاستهتار • ويجوز كذلك
 أن أكون قد كذبت لا أكثر ، فى لحظة اندفاع •

قطع ستافروجين كلامه حانقا على حين فجأة ، واحمر وجهه من
 جديد خجلاً من أنه تكلم بغير ارادته • واقرب من المائدة مديراً ظهره
 لتيخون ، وأمسك قطعة من الصليب المحطوم •
 قال تيخون يسأله :

– أجب عن سؤالى ، ولكن بصدق ، أجنبنى أنا وحدى ، أو اجب
 وكأنك تكلم نفسك فى خلوة ليلاً : اذ غفر لك واحد من الناس هذا
 (وأشار الى الصحائف) ، لا واحد من الذين تفدرهم أو تخشاهم ، بل
 شخص مجهول ، انسان لن تعرفه فى يوم من الأيام ، يغفر لك فى صمت ،
 بينه وبين نفسه ، أثناء قراءة اعترافك ، فهل يهدئك أن تتصور هذا
 أم أنت لا تحفل به ؟ اذا كان يشق عليك كثيراً أن تجيب عن هذا السؤال
 من باب الكبرياء ، فلا تجب ، ولكن فكّر فيه بينك وبين نفسك •

قال ستافروجين بصوت خافت :

– ذلك يهدئنى •

وأضاف يقول بسرعة شديدة ، وبصوت يشبه أن يكون دمدمة ،
 ولكن دون أن يتحول عن المائدة مع ذلك :
 – اذا غفرت لى فان غفرانك سيحسن الىّ كثيراً •

- ولكن على شرط أن تغفر لى أنت أيضا •

- ماذا؟ آ ••• نعم ••• هذا تعبيركم فى الأديرة • تواضع سيء !
هل تعلم ، ان جميع التعبير القديمة التى تستعملونها فى الأديرة ليست
جميلة البتة • ولكنكم أتم تصورها جميلة جدا •

قال ستافروجين ذلك وانفجر يضحك ضحكاً حائقاً • ثم أضاف يقول
فجأة وهو يلتفت :

- حقا لا أدرى لماذا أنا هنا • آ ••• نعم ••• لقد حطمت ••• قل
لى : أحسب أن هذا يكلف خمسة وعشرين روبلاً ، أليس كذلك ؟
قال تيخون :

- لا تقلق لهذا الأمر !

- أم هو يكلف خمسين ؟ لماذا يجب أن لا أقلق لهذا الأمر ؟ ما الذى
يسوِّغ لى أن أجيء اليك فأكسر لك أشياءك ، وعلام تغفر لى هذا
التخريب ؟ خذ ! اليك خمسين روبلاً •

قال ذلك وهو يستل المال من جيبه ويضعه على المائدة • ثم تابع كلامه
يقول :

- اذا لم تشأ أن تأخذها لك فخذها للفقراء ، أو خذها للكنيسة •

كان ستافروجين يهتاج مزيدا من الاهتياج شيئاً بعد شيء • وواصل
كلامه :

- اسمع • سأقول لك الحقيقة كلها : أريد أن تغفر لى ، وأن يغفر
لى معك ثانٍ وثالث ، أما الجميع فليكرهونى ، فليكرهونى •
- أنت قادر على أن تتحمل شفقة جميع الناس بمذلة كاملة ؟

- لا ، لا أقدر على ذلك • لا أريد شفقةً من الجميع • ثم ان هذا سؤال خالٍ من المعنى : فهذه الشفقة لا يمكن أن توجد • اسمع • لا أريد الانتظار • سوف أطبع هذه الصحائف • لا تحاول أن تقنعني • لا أستطيع أن أنتظر • لا أستطيع •

• كان خارجاً عن طوره •

قال تيوخون شبه خجلان :

- اننى أخاف عليك •

- تخاف علىّ أن لا أصمد للأمر ؟ أن لا أستطيع احتمال كرههم ؟

- لا ، لا كرههم فحسب •

- ماذا اذن أيضا ؟

- ... ضحكهم •

قال تيوخون ذلك بصوت خافت ، وكأنه يقوله رغم ارادته •

لم يستطع المسكين أن يكظم ما بنفسه ، وأخذ يتكلم فيما كان يحسن السكوت عنه • وكان يعلم حق العلم على كل حال أن الصمت أفضل •

فاضطرب ستافروجين ، وظهر القلق فى وجهه • قال :

- أوجست هذا • اذن كنت أظهر لك شخصا مضحكا أثناء قراءتك

« النص » ؟ لا تقلق ، لا تضطرب ؛ لقد كنت أتوقع ذلك •

كان تيوخون قد اضطرب حقاً • وحاول أن يشرح معذراً بأقصى

سرعة ، ولكنه لم يزد على أن أفسد الأمر افساداً أكبر • قال :

- لكى يقوم المرء بمثل هذه الأعمال لا بد له من الهدوء النفسى •

وحتى فى الألم لا بد من الاحتفاظ بقدر كبير من السكينة ورباطة الجأش •

وليس الحال كذلك فى أيامنا هذه • فالسكينة ورباطة الجأس تعوزان الناس فى هذا الزمان • فلا يرى الانسان فى كل مكان الا مناقشات ومشاجرات • ان البشر لا يتفاهمون الآن أكثر مما كانوا يتفاهمون فى عصر برج بابل •••

قال ستافروجين يقاطعه :

– هذا الكلام كله ممل مضجر ! أنا أعرف هذا الكلام • لقد كرره الناس ألف مرة حتى الآن ! •••

قال تيخون منتقلاً الى السؤال رأساً :

– على كل حال ، لن تبلغ هدفك • انك من الناحية القضائية لا يمكن أن ينالك أحد تقريباً • ذلك ما سينبهونك اليه قبل كل شيء ساخرين منك متهكمين عليك • وبعدئذ سيختار كثيرون : من ذا الذى سيفهم الدوافع الحقيقية لاعترافك ؟ لسوف يتعمدون أن لا يفهموها ، لأنهم يخشون الأعمال التى من هذا النوع • انهم يستقبلونها فى رعب ، ويكرهونها وينتقمون : الناس يحبون وحلهم ولا يريدون أن يُحرَّك • لذلك سيقلبون الأمر مزاحاً بأقصى سرعة • اذ بالأمازيج انما ينتصر الناس على مثل هذه الأشياء أسهل انتصار •

قال ستافروجين يستحنه :

– تكلم بوضوح • قل كل شيء •

– فى البداية سيعبرون عن شعورهم بالهول حتماً ، ولكن ذلك سيكون أقرب الى التظاهر منه الى الصدق ، ولن يكون له هدف الا ارضاء المواضع الاجتماعية • لا أقصد أصحاب النفوس الطاهرة النقية : فهؤلاء سوف يرتاعون ، لكنهم سيتهمون أنفسهم ويصمتون ، فلا يلاحظهم أحد • أما الآخرون ، أقصد الناس الذين يختلفون الى المجتمع ، فانهم لا يخشون

الا ما يهدد مصالحهم رأساً • فمتى انقضت الدهشة الأولى ، ومتى انقضى الارتياح المصطنع الأول ، أخذوا يضحكون • فهؤلاء هم الذين سيضحكون • سيبدو لهم جنونك طريفا شائقا جدا • ذلك أنهم سيعدونك مجنونا ، مع استمرارهم فى تحميلك قدراً من المسؤولية كافياً للضحك عليك • فهل تراك تتحمل هذا ؟ ألا يحمل قلبك عندئذ من الكره ما سوف يحطملك تحطيماً ؟ ذلك ما أخشاه •

أجابه ستافروجين منزعجا :

– طيب ••• وأنت ••• أنت نفسك ••• اننى لیدهشنى أن يكون رأيك فى الناس سيئاً الى هذا الحد من السوء ! انك تحكم عليهم باشمئزاز شديد •

صاح تيخون يقول :

– صدق أننى اذ أقول عن الناس هذا الكلام انما أحكم عليهم اعتمادا على معرفتى بنفسى خاصة •

– أياكون فى نفسك اذن شيء يمكن أن يتلذذ بعذابي ؟

– من يدري ؟ ربما نعم • آ ••• نعم ••• جائز جدا •

– كفى ! قل لى اذن : ما الذى يبدو لك من وضعى مضحكا فى هذه القصة ؟ أنا أعرفه ، ولكننى أحب أن تدلنى عليه باصبعك • اذكره لى بأكبر استخفاف ممكن ، لأنك انسان مستخف أعظم الاستخفاف حقا • انكم معشر الرهبان مستخفون استخفافا رهيبا ، لا تدرون أنتم أنفسكم مدى ما تحملونه للبشر من احتقار ••• كلمنى بأكبر صدق تقدر عليه • أعود فأقول لك مرة أخرى : انك انسان غريب الأطوار جدا •

– ثمة شيء مضحك فى نظر الناس ، بل شيء زائف أيضا ، حتى

فيما عقدت عليه نيتك من أمر عظيم ، أعنى قبولك هذه التوبة الرائعة ؛
ناهيك عن شكل هذه النية ، وهو شكل مضطرب متردد غير ثابت ثباتاً
كافياً •

وصاح يقول فجأة ، وهو فيما يشبه النشوة :

- أوه ! لا يراودنك شك في اتصارك • اسوف ينتصر هذا
الشكل •••

قال ذلك وهو يشير الى الصحائف بيده • وتابع كلامه :

- ••• ولكن على شرط أن ترتضى الصفحات والبصقات صادقا كل
الصدق ••• وأن تحتملها الى النهاية • ان أحط صليب ينتهى دائماً
بالوصول الى أعلى مجد ، ينتهى بالوصول الى القسوة ، متى كانت المذلة
صادقة • ولكن أنت قادر على هذه المذلة ؟ يجب أن لا تحتقر قضاتك ،
وانما ينبغي أن تثق بهم ، وأن تثق بالكنيسة • وعندئذ انما تنتصر عليهم
وتجذبهم اليك بالقدوة ، وتتحد بهم في الحب ••• آه ••• ليتك تقدر
أن تحتمل كل شيء الى النهاية ! •••

- قل لي ما الذى تراه مضحكاً في هذه الصحائف !

- لماذا ، لماذا هذا الاهتمام بالمضحك ؟ لماذا هذا المرض لديك ؟

كذلك صاح تيحون فجأة وهو يهز رأسه •

قال ستافروجين :

- دعنا من هذا وقل لي ما هناك من شيء مضحك •••

دمدم تيحون يقول خافضاً عينيه :

- ان الدمامة هي التى ستقتل •

- الدمامة ؟ أية دمامة ؟

- دمامة الجريمة • انها دميمة حقا • يمكن القول ان الجريمة ،
 أيةً كانت ، تبدو أفظح ، ويكون تأثيرها أكبر ، وتكون اثارها أعظم ، على
 قدر ما يكون قد سفح فيها من دم • غير أن هناك جرائم مخزبة ، دنيئة ،
 ترجع فظاعتها الى حطتها وخستها ...

لم يكمل تيخون جملته • قال ستافروجين :

- أي ان ماتراه مضحكاً في وضعي هو أنني قبّلت يدي بنت صغيرة
 قدرة ... ثم أنني ارتعشت خوفاً ... الى آخر ما هنالك • انني أفهم عنك
 كل الفهم • وأنت تخاف عليّ لأن هذا العمل دميم ، رديء ، لا ، لارديء ،
 بل مخزب ؟ مضحك • وتظن أن هذا بعينه هو ما لن أستطيع احتمالاه ؟
 هه ؟

لم يجب تيخون ولبت صامتاً • وشحب ستافروجين وتقبض وجهه •
 ودمدم يقول كمن يخاطب نفسه :

- الآن فهمت لماذا سألتني هل آتسنة سويسرا هنا !

أجابه تيخون :

- لست مسنعداً ، لست فويماً فوةً كافيةً •

قال ستافروجين فجأةً بحماسة وحشية :

- اسمع ، أريد أن أنال مغفرة نفسي • تلك هي غايتي الرئيسية ،
 غايتي الوحيدة • ذلك هو اعترافي كله ، تلك هي الحقيقة كلها ، وما عدا
 هذا كذب • فمتى نلت مغفرة نفسي ، زالت الرؤيا ، أنا أعرف ذلك • ولن
 تزول الرؤيا الا في ذلك الحين • ذلك هو السبب في توفى الى عذاب
 لا حدود له ، ذلك هو السبب في أنني أسعى الى هذا العذاب •

وصرخ ستافروجين يضيف قوله كأنما على غير ارادة منه :

– فلا تثبط همتي ، والا هلكت غضبا وسخطا •

ولم يكن تيخون يتوقع هذه الاندفاعة ، فيها هو ذا ينهض • ويهتف
قائلاً بفرح :

– اذا كنت تؤمن بأنك تستطيع أن تغفر لنفسك ، وبأنك ستنال
غفرانك في هذا العالم بالألم ، واذا كنت لا تسعى الا الى الحصول على هذا
الغفران ، فأنت اذن تؤمن ايمانا تاما • فكيف أمكنك أن تقول انك لا تؤمن
بالله ؟

لزم ستافروجين الصمت •

– سيفغر لك الله قلة ايمانك ، لأنك تقدر الروح القدس دون أن
تعرف ذلك •

قال ستافروجين مكفهر الهيئة :

– لن أنال غفرانا • لقد جاء في كتابك انه ما من جريمة أفدح من
ايذاء « طفل من هؤلاء الأطفال الصغار » • نعم ، في هذا الكتاب •

وأشار الى الانجيل •

فأجاب تيخون بلهجة نافذة :

– جوابا عن هذا أقول لك : اذا استطعت أن تغفر لنفسك فان المسيح
سيفغر لك أيضا • آه • لا • لا • لا • لا تصدقني • • لقد جدت •
هبك لم تصالح نفسك ولم تغفر لنفسك فانه سيعفو عنك انيتك الحسنة
وعذابك الكبير • • • ذلك ان اللسان البشري تعوزه الكلمات وتعوزه الأفكار
للتعبير عن جميع طرق « الحمل » الى اليوم الذي « يكشف لنا فيه عن تلك
الطرق كشفاً كاملاً » • من ذا الذي يقدر أن يقيس • • • ابتجاوز كل قياس ؟
من الذي يستطيع أن يفهم عمقه كله ؟

وارتعتشت أطراف شفتيه كما حدث من قبل ، وطافت بوجهه حركة خفيفة شنجته قليلا . لقد كان حده عبقا مسرفا في العنف . وخفض عينيه .

تناول ستافروجين قبعته عن المائدة . وقال :

– سأرجع في يوم آخر .

كان يبدو مرهقاً . وأردف يقول :

– سوف نتكلم مرةً أخرى في هذا كله . لقد سعدت بحديثك أكبر السعادة واني لأقدر الشرف والاستقامة حق قدرهما وأقدر عواطفك . صدّق انني أدرك الآن لماذا يجبك بعض الأشخاص ذلك الحب كله

سأله تيخون وهو ينهض أيضا وقد دُهِش دهشةً كبيرةً :

– أتصرف ؟ وأنا

وبدا عليه التردد لكنه أكمل كلامه فقال :

– كنت أريد أن أتجه اليك برجاء ولكنني لا أدري الآن هل

. . . . انني أخشى أن

– أرجوك تفضل

كذلك قال ستافروجين وعاد يجلس وهو ما يزال ممسكاً بقبعته . فنظر تيخون الى هذه القبة والى وضع ستافروجين ، وهو وضع رجلٍ من رجال المجتمع الراقى ، لكنه رجل نصف مجنون . فاضطرب تيخون مزيدا من الاضطراب .

– انني أسألك فقط أنت تدرك بنفسك يا نيقولاى فيسيفولودوفتش

(هذا هو اسمك اذا لم أخطيء) أنك اذا نشرت هذه الصحائف كنت

تحطم حياتك ... كنت تحطم عملك في هذه الحياة ... وسائر الأمور
الأخرى ...

– عملي في الحياة ؟

ألقى ستافروجين هذا السؤال وصعّر وجهه •

قال تيوخون بصوت يشبه أن يكون ضارِعاً وهو يدرك خرافته تمام
الادراك :

– لماذا تحطم كل شيء هذا التحطيم ؟

فألمَّ بوجه ستافروجين تعبير عن ألم شديد • وقال :

– سبق أن قلت لك وهأتإذا أكرر قولي : ان كلامك كله لا فائدة
منه • ثم ان هذا الحديث كله قد أصبح لا يُطاق •
وتحرك على مقعده •

– انك لا تفهم عني • أصغ الىّ دون أن تغضب • انك تعرف رأيي :
اذا كان فعلك هذا ثمرة المذلة فليكوننَّ أجمل الأفعال المسيحية متى كنت
قادرا على تحمله • وهبّك لم تقدر فان الرب سوف يدخل تضحيتك في
الحساب • ان كل شيء سيدخل في الحساب : كل كلمة من كلماتك ،
كل حركة من حركات نفسك ، أيسر فكرة تمر بخاطرك • لكنني أقترح
عليك تضحية أخرى ، أكبر من تضحيتك هذه أيضا ...

لزم ستافروجين الصمت •

– انك في حاجة الى عذاب ونضحية • فتغلب اذن على هذه الرغبة
أيضا • دع هذه الصحائف ، واعدل عن خطتك ، فتنصر عندئذ على كل
شيء : تحطم كبرياءك وزهوك ، وتسحق شيطانك • سوف تظهر وتبلغ
الحرية ...

كانت عيناه تسطعان • وضمَّ يديه احدهما الى الأخرى توسلاً
وضراعة •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش بأدب ولكنه كان مشمئز الهيئة قليلاً :
- انك تسرف فى أخذ الأمر مأخذ الجد ، انك تضىفى عليه كثيراً من
خطورة الشأن ••• ثق على كل حال اننى أقدر ••• أنا ألاحظ انك
تريد أن تمد لى شباكا ، على كونك تضمّر أحسن النيات طبعاً ، وعلى كونك
تريد لى الخير من باب الرأفة والاحسان • انك تريد ، على الجملة ، أن
أضع لنفسى غاية ، بل ربما أن أتزوج أيضاً ، وأن أختم حياتى الماضية
عضواً فى النادي ، وأن أجيء الى الدير فى أيام الأعياد • أليس كذلك ؟
على كل حال ، انك بصفتك رجلاً عارفاً بالقلب ، وبصفتك انساناً مستخفاً
لا يبالى ، ربما كنت تتبأ منذ الآن بأن الأمور ستجرى هذا المجرى نفسه ،
فليس عليك الا أن تلح وأن تتوسل الى باصرار ، لأننى فى قرارة نفسى
لا أرغب الا فى هذا • أليس كذلك ؟ بل انى لأراهن على أنك فكرت
أيضاً فى أمى وفى طمأنيتها •••

قال ستافروجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة •

وتابع تيخون حديثه متكلماً بحرارة ، دون أن يولى ضحكة
ستافروجين وملاحظاته أى انتباه ، فقال :

- لا ، ليست المسألة مسألة هذه التوبة • اننى أهىء لك توبة أخرى •
اننى أعرف شيخاً ليس هنا ولكنه غير بعيد عنا • انه ناسك ، متقشف ، يبلغ
من الاتصاف بالحكمة المسيحية درجة لا نستطيع لا أنا ولا انت أن نتصورها •
سوف يستجيب لرجائى • سوف أقص عليه حكايتك كلها • هل تأذن لى
بذلك ؟ امض اليه ، واخضع لسلطته خمس سنوات أو سبعا ، أو المدة التى
ستراها ضرورية فيما بعد • افرض على نفسك هذه الكفارة • وبفضل

هذه التضحية الكبيرة سوف تنال كل ما أنت ظامىء اليه ، بل حتى ما لا تأمل فيه . ذلك أنك لا تستطيع الآن حتى أن تتصور ما سوف تناله .
أصغى اليه ستافروجين بجد كبير . وازدحم الدم فى خسيديه
الشاحيين •

- أتقترح على أن أترهب فى ذلك الدير ؟

- لست فى حاجة الى دخول الدير • ما ينبغى أن ترهب • كن مبتدئاً فحسب ، فى السر لا فى العلانية • حتى تستطيع أن تتابع حياتك فى المجتمع •

فقاطعه ستافروجين يقول بنفور :

- دعك من هذا أيها الأب تيخون •

ونهض • ونهض تيخون •

صاح ستافروجين يقول فجأة وهو يحدق الى تيخون بما يشبه أن يكون رعباً :

- ماذا بك ؟

كان تيخون واقفاً قدامه ، ماداً يديه الى أمام ، وكان تشنج سريع قد قبض وجهه المروّع •

- ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

كذلك كرر ستافروجين مندفعاً نحوه ليسنده • لقد بدا به أن الكاهن سيسقط على الأرض •

هتف تيخون يقول بصوت نافذ الصبر يعبّر عن ألم شديد :

- انى أرى ... انى أرى بوضوح أيها الشاب الشقى أنك لم تكن

فى يوم من الأيام أقرب منك الآن الى ارتكاب جريمة أفظع من الجريمة الأولى !

فقال ستافروجين ملحاً وقد أقلقته حالة تيوخون اقلاقاً شديداً :

- هدىء نفسك • قد أرجىء كل شىء أخيراً الى وقت آخر • انك

على حق •

- لا ، لا بعد النشر ، بل قبل النشر ، قبل النشر بيوم ، قبل هذه

التوضيحية الكبيرة بساعة واحدة ؟ ستبحث عن مخرج فى جريمة جديدة ،

ولن ترتكب هذه الجريمة الا لتتخاشى نشر هذه الصحائف •

ارتعش ستافروجين من الغضب ، ومن الخوف أيضا •

وهتف يقول ساخطاً :

- يالعالم النفس اللعين !

وغادر الغرفة دون أن يلتفت الى وراء •

فهرس

الصفحة	الموضوع
	تتمة الجزء الثاني
٥	الفصل السابع : « عند جماعتنا »
٤٧	الفصل الثامن : « ابن القيصر ، ايفان »
٦٥	الفصل التاسع : «مصادرة» فى بيت ستيفان تروفيموفتش
٨١	الفصل العاشر : النصابون - صبيحة مشثومه «
١١٧	الجزء الثالث
١١٩	الفصل الأول : « الحفلة »
١٦٢	الفصل الثانى : « نهاية الحفلة »
٢٠٦	الفصل الثالث : « نهاية رواية »
٢٤١	الفصل الرابع : « قرار أقصى »
٢٧٩	الفصل الخامس : « المسافرة »
٣٣٠	الفصل السادس : « ليلة عثمقات ومخاوف »
٣٨١	الفصل السابع : « آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش »
٤٣٤	الفصل الثامن : «خانمة»
٤٥١	اعتراف ستافروجين
٤٥٣	الفصل التاسع : « عند تيبخون »

دوستوييفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستوييفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المهبائين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهرّ به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية "التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستوييفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستوييفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف. سولزيف